خلق المؤمن

د. مصطفى مراد
كلية الدعوة - جامعة الأزهر

دار الفجر للتراث
خلف الجامع الأزهر - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾

حقوق الطبع محفوظة

لدار الفجر للتراث

* الكتاب : خلق المؤمن

* المؤلف : د/ مصطفى مراد

* الطبعة : الثانية ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

* الناشر : دار الفجر للتراث - القاهرة

* عدد الصفحات : ٥٢٨ صفحة

* رقم الإيداع : ٥٦٠٣ / ٢٠٠٥

دار الفجر للتراث

خلف الجامع الأزهر / القاهرة

تليفون: ٢٥١٤٧١٧٩ - تليفون وفاكس: ٢٥١٤٧٢٤٨

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

مقدمة

الحمد لله لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يجيب الدعوات، ويقيل العثرات، ويغفر الخطيئات، ويستر العورات، ويكشف الكربات، ويغيث اللهفات، وينيل الطلبات سواه.

فهو أحق مَنْ ذُكر، وأحق مَنْ شُكر، وأحق مَنْ عُبد، وأحق مَنْ حُمد، وأنصر مَنْ ابتغي، وأرأف مَنْ ملك، وأجود مَنْ سُئل، وأوسع مَنْ أعطى، وأرحم مَنْ استُرْحم، وأكرم مَنْ قُصد، وأعزُّ مَنْ التُجئ إليه، وأكفى مَنْ تُوكِّل عليه.

أرحم بعبده مِن الوالدة بولدها، وأشد فرحًا بتوبة التائب مِن الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المُهْلكة إذا يئس من الحياة ثم وجدها.

وهو الملك لا شريك له، والفرد لا نِدَّ له، كل شيء هالك إلا وجهه، لن يطاع إلا بإذنه، ولن يُعصى إلا بعلمه، يطاع فيشكر، وبتوفيقه ونعمته أُطيع، ويُعصى فيعفو ويغفر وحقه أُضيع.

فهو أقرب شهيد، وأجلُّ حفيظ، وأوفى واف بالعهد، وأعدل قائم بالقسط، حال دون النفوس، وأخذ بالنواصي، وكتب الآثارٍ، ونسخ الآجال.

فالقلوب له مفضية، والسر عنده علانية، والغيب لديه مكشوف، وكل أحد إليه ملهوف، وعنت الوجوه لنور وجهه، وعجزت العقول عن إدراك كنهه، ودلَّت الفِطر والأدلة كلها على امتناع مِثله وشِبهه.

أشرقت لنور وجهه الظلمات، واستنارت له الأرض والسموات، وصلحت عليه جميع المخلوقات.

يخفض القسط، ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

وأشهد أن لا إله إلا الله أجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، أعطى عبده قبل أن يسأله فوق ما يُؤمِّله، يشكر القليل من العمل وينميه، ويغفر الكثير من الزلل ويمحوه.

سبحان مَنْ كان قبل الخلق أجمعه ... لا قبل من قبله لا بعد إلاَّه
ربُّ الوجود تعالى أن يحيط به علم ... العباد بلا شرك عبدناه
جلَّ الذي قد تعالى في تفرده ... وكل شيءٍ يسبحه ويخشاه
فكل ما حولنا فينا يذكرنا ... إذا نسينا بأن الخالق الله
إذا نسيناه أنسانا لأنفسنا ... ومن نسى نفسه قد خاب مسعاه
انظر تأمل تفكر سوف تعرفه ... في كل شيءٍ وتوقن أنه الله
سبع شداد مشيدة بلا عمد ... مرفوعة فوقنا والممسك الله
نجومها ساطعة جلَّ مبدعها ... تهدي إلى الرشد مَنْ ضلوا ومَنْ تاهوا
من ذا الذي يسمع الشكوى ويرفعها ... ويستجيب لخلق الله إلا هو
إن مسنا الضر ... مَنْ ينجينا إلا هو
اختص باسم فلا يحظى به أحد ... وذلك الاسم معروفٌ هو الله
الله الله الذي سجدت له العوالم ... لا معبود إلا هو

وأشهد أن سيد الأولين والآخرين محمداً رسول الله ﷺ الذي:

فاق العالمين في خَلْقٍ وفي خُلُقٍ ... ولم يدانوه في علمٍ ولا كَرَمٍ
فمبلغ العلم فيه أنه بشر ... وأنه خير خلق الله كلهم

نجيب الله، وسفير وحيه، ورسول رحمته الذي قال فيه ربه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

لو أن إنسانًا تخير ملة ... ما اختار إلا دينك الفقراءُ

المصلحــون أصـابـع جُـمــعت يدًا ... هي أنت بل أنـت اليـد البـيـضــاءُ
فـإذا سـخـوت بلـغت بالجـود المدى ... وفــعلت مـــا لا تـفــعـل الأنواءُ
وإذا عــفـوت فــقـــادرًا ومـقـــدِّرًا ... لا يسـتــهين بـعـفــوك الجـهــلاءُ
وإذا خـطـبـت فـلـلـمـنـابـر هـزةٌ ... تعـــــرو النَّديَّ ولـلقـلوب بـكاءُ
وإذا أخـــذت العـهـــد أو أعطيتــه ... فــجـمــيع عـهــدك ذمـةٌ ووفـــاءُ
وإذا رحـــــمت فــــأنت أمٌّ أو أبٌ ... هذان في الـدنيـا هـمـا الـرحـمـاءُ
يا مَنْ له عـــز الشــفــاعـة وحـــده ... وهو المُـنَزَّه مـــا له شـــفـعـــاءُ
عـــرش القـــيــامـة أنت تحـت لوائه ... والحـــوض أنت حـــيـاله الــسقـــاءُ
وأقـمــت بعـدك للعـبــاد شـريـعـةً ... لا ســوقــة فـــيــهــا ولا أمــراءُ
الله فـــوق الخلق فـــيــهـــا وحـــده ... والنـاس تحت لوائـهـــا أكـــفـــاءُ
والدين يـســرٌ والخـــلافـــة بيــعـــةٌ ... والأمـر شـورى والحـقـــوق قـضـاءُ

اللهم صلِّ على صاحب الخلق العظيم وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد:

فإن دين الإسـلام يتضمن ثلاثة أمور هي: العـقيدة، والشريعـة، والأخلاق، وتختص الأخلاق بأنها قاسم مشترك بين عـقلاء البشر، لا يقع فيها اختلاف، ولا تتغير أفكارها الأصلية، ولا تتبدل ولا تتطور.

وعلاقـة الإنسان مع غيـره قائمة على مـكارم الأخلاق، ولا تقتـصر على أداء العبد للعـبادات، فإن الصلاة والصيـام والحج وغيرها تفيـد المؤدي لها وحده دون غيره.

والأخلاق عنوان الإسلام، ومظهر الإيمان، ودليل الإحسان، فإن عقيدة المؤمن في قلبه، وتعبده لربه يظهر في بعض الأوقات دون بعض، وقد يكون معذورًا في ترك كثير من العبادات بخلاف الأخـلاق، فإنها تتجلى في معاملة المؤمن وسلوكه في سائر الأوقات والأماكن والأحوال، ولا عذر في التخلف عنها.

وأحكام الناس إنما تجري على تدين الرجل وصلاحه بأخـلاقه، بل تتعدى ذلك

على وجه الخطـأ، فإن أناسًا كـثيرين يـحكمون على صحـة الدين الذي يؤمن به الإنسان من خلال سجـاياه ومعاملاته، لذا فنحن محتاجـون لتربية أنفسنا وأولادنا وسائر المسلمين على مكارم الأخلاق.

من هنا جاء هذا الكتاب الذي سميـته: «خُلُق المؤمن»؛ ليأخذ بأمتنا إلى مكارم الأخلاق، وجليل الفضائل، وطيب الخصال.

ومن الوفاء أن أخص بالذكر والتقدير والدعاء الداعـية الإسلامي الكبير العلامة محمـد الغزالي السقا صاحب كـتاب «خُلُق المسلم»، والذي استفدت منه كـثيرًا، ومَنْ الذي لا يستقي من هذا النهر الفياض؟!!

ومع هذا فإنني حـاولت في كتابي هذا سلوك طريقة أخـرى في عرض أخلاق الإسلام قد تكون أيسر وأوضح، وركزت فيها سهامي نحو:

- بيان حقيقة الخُلُق الذي أشرحه.
- فضل هذا الخُلُق.
- كون الخُلُق المحمود بين خُلُقين ذميمين.
- أنواع هذا الخُلُق.
- مظاهر هذا الخُلُق.
- نقيض هذا الخُلُق وعلاجه.
- دفع الشبهات التي تحيط ببعض هذه الأخلاق.
- ذكر خلاصة عن علم الأخلاق.
- بيان خصائص الأخلاق في الإسلام ودرجاتها والسبب الدافع إليها.

وبالتالي فإن هذه المسائل السابقة قـد أضافت مواضيع لم تُذكر في كتاب «خُلُق المسلم»، وربما لم يُفْصِح عنها في تصانيف الأخلاق والآداب بهذا المنهاج.

وهذا المصنف ذكر جـملة من الأخلاق، واستـفاض فيهـا لم تُخَص بالذكر في كتاب «خُلُق المسلم» لعل الإمام اكتفى بالإشارة إليها فقط، من هذه الأخلاق:

١- الشجاعة.

٢- الإيثار.

٣- العدل.

٤- التسامح.

٥- الإحساس.

٦- طلاقة الوجه.

٧- السِّتر.

٨- الغيرة.

٩- الورع.

١٠- التماس الأعذار.

١١- الرفق.

١٢- التنافس في الخير (النشاط).

١٣- التودد.

١٤- التواضع.

١٥- الأدب.

١٦- الزهد.

١٧- الاستقامة.

١٨- الإيجابية.

١٩- الأناة.

٢٠- النظام.

٢١- الثبات.

٢٢- الحكمة.

٢٣- اللين.

٢٤- خفض الجناح.

٢٥- الرأفة.

٢٦- ضبط النفس.

٢٧- التعاون.

٢٨- الإحسان.

* * *

أسأل الله أن ينفع بهذا المُصنَّف، وأن يجعله في ميزان حسناتي

وإنني أهديه لأمي وأبي وأولادي (روضة وصهيب وشفاء) وزوجي وشيوخي.

مصطفى مراد صبحي محمد

الأستاذ المشارك بكلية الدعوة الإسلامية.

فضل حُسن الخلق

ولعظم قدر الأخلاق الحميدة فإن الله جل جلاله يتصف بكمالها وقمتها على قدره ومكانته، التي نعجز عن الحديث عنها، ويحب مَنْ يتخلق بها على قدره كمخلوق.

يقول رسول الله ﷺ: **«إن الله تعالى جميلٌ يحب الجمال، ويحب معالي الأخلاق، ويكره سفاسفها»**[١].

ويقول: **«إن الله تعالى جوَّاد يحب الجود، ويحب معالي الأخلاق، ويكره سفاسفها»**[٢].

والنبي ﷺ نفسه كان يسأل ربه تعالى حُسْن الخُلُق، مع أنه صاحب الخُلُق العظيم الذي تفوق به على كمال مكارم الأخلاق؛ لأنه أراد المزيد من الأخلاق الحُسْنى، فكان يقول: **«اللهم كما حسَّنت خَلْقي فحسِّن خُلُقي»**[٣].

ويقول: **«اللهم اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت»**[٤].

وكان صلوات الله وسلامه عليه يستعيذ من سيء الأخلاق، وقبيح السجايا[٥]، وسفاسف الآداب، فيقول: **«اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق، والأعمال، والأهواء، والأدواء[٦]»**[٧].

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط»، وابن عساكر بإسناد صحيح، كما في «صحيح الجامع» رقم (١٧٤٣)، و «السلسلة الصحيحة» له رقم (١٦٢٦).

(٢) أخرجه ابن وهب، وأبو نعيم بإسناد صحيح، كما في «صحيح الجامع» رقم (١٧٤٤).

(٣) صحيح: أخرجه أحمد (١/ ٤٠٣) عن ابن مسعود.

(٤) أخرجه مسلم (١/ ٥٣٤).

(٥) أي الطبائع والعادات.

(٦) الأدواء: الأمراض.

(٧) صحيح: أخرجه الترمذي رقم (٣٥٩١) وقال: غريب. والطبراني في «الكبير» (٩/ ٣٦).

أما استعاذته ﷺ من الأخلاق السيئة متفرقة فكثير.

وبحسن الخُلُق يُدرك المؤمن درجة فرسان النهار، ورهبان الليل، والصُّوَّام القُوَّام، والمستغفرين بالأسحار، يقول رسولنا ﷺ: **«إن المسلم المُسدَّد[١] ليدرك درجة الصوَّام القوَّام بآيات الله بحسن خُلُقه، وكرم ضريبته»**[٢]. (أي: طبيعته).

وقال: **«إن أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلُقا، وإن حُسن الخُلُق ليبلغ درجة الصوم والزكاة»**[٣].

وحسن الخُلُق علامة حب الله ورسوله، فمن ادعى محبة الله ورسوله فعليه أن يبرهن على صحة ذلك بالاستقامة على مكارم الأخلاق.

عن عبد الرحمن بن الحارث رضي الله عنه قال: كنا عند النبي ﷺ فدعا بطهور، فغمس يده فتوضأ فتتبعناه فحسوناه، فقال النبي ﷺ: **«ما حملكم على ما فعلتم؟»**، قالوا: حب الله ورسوله، قال: **«فإن أحببتم أن يحبكم الله ورسوله فأدُّوا إذا ائتمنتم، واصدقوا إذا حدَّثتم، وأحسنوا جوار مَنْ جاوركم»**[٤].

وحُسن الخُلُق وصية رسول الله ﷺ التي كثيرًا ما يوصي بها أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين، كما جاء عن صاحب الخُلُق ﷺ: **«اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخُلُقٍ حسن»**[٥].

وثبت أن معاذ بن جبل رضي الله عنه أراد سفرًا فقال: يا رسول الله أوصني، قال: **«اعبد الله ولا تشرك به شيئًا»**، قال: يا رسول الله زدني، قال: **«إذا أسأت فأحسن، وليَحْسُن خُلُقك»**[٦].

---

(١) التسديد: الاقتصاد في العبادة.

(٢) أخرجه أحمد، والطبراني في «الكبير».

(٣) أخرجه أبو يعلى، والبزار بإسناد صحيح، كما في «السلسلة الصحيحة» رقم (١٥٩٠)، «صحيح الجامع» (٣٩١٣).

(٤) حسن: أخرجه الطبراني، وانظر «صحيح الجامع» رقم (١٤٠٩).

(٥) أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح. وانظر «صحيح الجامع» رقم (٩٧).

(٦) حسن: أخرجه ابن حبان في صحيحه، والحاكم وقال: صحيح الإسناد. وانظر «السلسلة الصحيحة» للألباني رقم (١٢٢٨).

وخيار الناس هم أصحاب مكارم الأخلاق ومعاليها، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قلنا: يا نبي الله مَنْ خير الناس؟ قال: «**ذو القلب المخموم، واللسان الصادق**»، قال: يا نبي الله، قد عرفنا اللسان الصادق، فما القلب المخموم؟ قال: «**التقي النقي الذي لا إثم فيه ولا بغي ولا حسد**»، قال: قلنا: يا رسول الله، فمَنْ على أثره[(١)]؟ قال: «**الذي يشنأ الدنيا[(٢)] ويحب الآخرة**»، قلنا: ما نعرف هذا فينا إلا رافع مولى رسول الله ﷺ، فمَنْ على أثره؟ قال: «**مؤمن في خُلُقٍ حسن**»، قلنا: أما هذا ففينا[(٣)].

وثبت في الحديث النبوي أنه ﷺ قال: «**إن الناس لم يُعطوا شيئًا خيرًا من خُلُق حسن**»[(٤)]. بل هم المؤمنون حقًّا، يقول رسول الله عليه الصلاة والسلام: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلُقًا، وخياركم خياركم لأهله**»[(٥)].

وقال أيضًا: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلُقًا، الموطؤون أكنافًا، الذين يألفون ويؤلفون، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف**»[(٦)].

وأرباب الأخلاق الفاضلة، والسجايا الكريمة، والخصال الزاكية هم أحب الناس إلى النبي ﷺ، وأقربهم منه مجلسًا يوم القيامة كما قال: «**إن من أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا، وإن أبغضكم إليَّ، وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون[(٧)]، والمتشدقون، والمتفيهقون**»، قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون[(٨)]، فما المتفيهقون[(٩)]؟ قال: «**المتكبرون**»[(١٠)].

---

(١) أثره: أي بعده.

(٢) يشنأ: يبغض.

(٣) أخرجه ابن ماجه والبيهقي بإسناد صحيح كما قال المنذري (٤/ ٥١) في «الترغيب».

(٤) أخرجه الطبراني، وانظر «صحيح الجامع الصغير» رقم (١٩٧٧).

(٥) أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

(٦) حسن: أخرجه الطبراني في «الأوسط»، وأبو نعيم، وانظر «صحيح الجامع» (١٢٣١).

(٧) الثرثار: هو كثير الكلام تكلفًا.

(٨) المتشدق: المتطاول على الناس بكلامه، الذي يتكلم بملء فيه تفاصحًا وتعظيمًا لكلامه.

(٩) المتفيهق: الذي يملأ فمه بالكلام، ويغرب به تكبرًا وارتفاعًا.

(١٠) أخرجه الترمذي (٢٠١٨) وقال: حديث حسن، وانظر «صحيح الجامع» رقم (٢٢٠١).

وحسن الخُلُق يُثقِّل ميزان العبد المؤمن في الآخرة، ويُكثِّر حسناته، ويخفف موازين سيئاته، يقول ﷺ: **«ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حُسن الخُلُق، وإن الله يبغض الفاحش البذيء[(١)]»[(٢)]**.

وتمر مراحل الآخرة وعرصات القيامة على صاحب الخُلُق الحسن بأشرف المنازل، وأرفع الدرجات، ففي الحديث: **«إن العبد ليبلغ بحُسن خُلُقه عظيم درجات الآخرة، وشرف المنازل، وإنه لضعيف العبادة، وإنه ليبلغ بسوء خُلُقه أسفل درجة في جهنم»[(٣)]**.

والعمل بالأخلاق الحسنة يضمن للعبد دخول الجنة، يقول صاحب الخُلُق ﷺ: **«اضمنوا لي ستًّا من أنفسكم أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا إذا ائتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم»[(٤)]**.

وحُسن الخُلُق السبب الأكثر لدخول الخلق الجنة والفوز بنعيمها، كما أن سوء الخُلُق السبب الأكثر لدخول الناس النار، والسقوط في أسفل دركاتها.

يقول أبو هريرة رضي الله عنه: سُئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يُدخِل الناس الجنة، فقال: **«تقوى الله، وحُسن الخُلُق»**، وسُئل عن أكثر ما يُدخِل الناس النار، فقال: **«الفم والفرج»[(٥)]**.

*** سوء الخُلُق يدمر الحسنات:**

ومَنْ أحسن في العبادات وأساء في المعاملات، فهذا هو المفلس حقًّا، لأنه لم يُقم الشريعة على وجهها، ولم يسلم من أذيته الخَلْق، والخالق لا يغفر لمن آذى عباده حتى يعفوا عنه.

---

(١) أي: البذيء من البذاءة.

(٢) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. وانظر «صحيح الجامع» رقم (٥٧٢٦).

(٣) أخرجه الطبراني ورواته ثقات كما قال المنذري (٣/ ٣٥٣)، وانظر «صحيح الجامع» رقم (١٥٠٠).

(٤) أخرجه أحمد، وابن أبي الدنيا، وابن حبان، والحاكم وصححه، وانظر «صحيح الجامع» رقم (١٠١٨).

(٥) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. وابن حبان وصححه، والبيهقي في «الزهد»، وانظر «سلسلة الأحاديث الصحيحة» رقم (٩٧٧).

يقول رسول الله ﷺ: «أتدرون مَنْ المفلس؟ إن المفلس من أمتي مَنْ يأتي يوم القيامة بصلاة وصيامٍ وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضربَ هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أُخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طُرح في النار»[1].

هذا حال مَنْ يؤدي العبادات ويُقصِّر في المعاملات، فكيف حال مَنْ لا يؤدي العبادات، ولا يتخلق بالأخلاق الفاضلة؟!

إنه أبغض الخلق إلى الله جل ذكره، إذ إنه لا يصلح نفسه، ولا يهدي غيره.

من أجل هذا فإن سوء الخُلُق إن لازم أحد الزوجين فإن على الآخر أن ينفصل عنه لئلا يعدي نفسه أو أولاده، ففي الحديث النبوي أنه ﷺ قال: «ثلاثة يدعون الله عز وجل فلا يُستجاب لهم: رجل كان تحته امرأة سيئة الخُلُق فلم يطلقها[2]، ورجل كان له على رجل مال فلم يشهد عليه، ورجل آتى سفيهًا ماله وقال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ [النساء: ٥]»[3].

* * *

(١) أخرجه مسلم والترمذي.

(٢) هذا إذا كانت المرأة دائبة مصرة مطبوعة على سوء الخُلُق، أما غيرها فلا.

(٣) صحيح: أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٠٢)، وقال: على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي والبيهقي في سننه (١٠/ ١٤٦) والديلمي في «مسند الفردوس» (٥/ ٢٣) عن أبي موسى، وذكره الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٠٧٥) و «الصحيحة» رقم (١٨٠٥).

علاقة الأخلاق بالعقيدة والعبادة

* علاقة الأخلاق بالعقيدة:

للأخلاق صلة وثيقة بالعقيدة، فبها تقوى، وبها تضعف، وبها تزيد، وبها تنقص، وبها يُعلم المؤمن من المنافق، يقول تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [المدثر: ٤٢- ٤٦].

وسوء الأخلاق دليل على التكذيب بالدين، والكفر برب العالمين، يقول تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [سورة الماعون].

وربما شابه سوء الخُلُق الرياء، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وسوء الأخلاق دليل على ذهاب الإيمان من القلب، وغرس النفاق فيه، يقول نبي الله ﷺ: «**أربع مَنْ كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومَنْ كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**»(١).

ولما ذكر النبي ﷺ علامات النفاق مرة ثانية، وعدَّها ثلاثًا بناها أيضًا على ارتكاب الأخلاق القبيحة: «**إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان**».

* علاقة الأخلاق بالعبادات:

والعبادات تتصل اتصالاً مباشرًا بالأخلاق، لا تكاد ترى عبادة إلا وللفضائل الحميدة بها علاقة وطيدة، وصلة وثيقة تقويها وتكملها، وتكون سببًا في قبولها

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٣٤)، ومسلم رقم (٥٨).

ورفعها إلى السماء.

فالصلاة مثلاً لا تكون كاملة مقبولة إلا إذا كانت ترجمة حقيقية لواقع المرء وأفعاله؛ فالمصلي المتفوق الناجح تنهاه صلاته عن سيء الأخلاق، وقبيح العادات، وتدفعه إلى مكارم الأخلاق، وجميل السجايا، يقول الحق جل وعلا: ﴿**إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ**﴾ [العنكبوت: ٤٥].

فالأثر الأعلى، والثمرة الكاملة للصلاة البعد عن المنكرات والموبقات، وتستمر الأخلاق الفاضلة في تغذية أفعال الصلاة قبل الدخول فيها، وأثناء أدائها.

فالذي يقدم على الصلاة يتعين عليه أن يقبل عليها ورائحته طيبة، وثيابه نظيفة، وأقواله جميلة، وأفعاله لطيفة، وحركاته رفيقة، يحس بإخوانه، ويستشعر حال مَنْ خلفه، أو مَنْ عن يمينه ويساره،؛ لهذا فإن النبي ﷺ سمع أصواتًا مرتفعة للمصلين فقال: «**لا يجهر بعضكم على بعض فتؤذوا المؤمنين**»(١).

وشُرعت الزكاة طهرة للمزكي من الذنوب والآثام، وإحساسًا بالفقراء، ومساعدة للمحتاجين، وإعانة للمساكين، ومشاركة للجماعة المسلمة في غناها وفقرها، وفرحها وحزنها، يقول الله تعالى: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا**﴾ [التوبة: ١٠٣].

والصوم لا يكون صومًا حقيقيًا، ولا يؤديه الصائم حق الأداء إلا إذا تخلق بالأخلاق الحميدة، وكف يده ولسانه، وجوارحه عن خَلْق الله، قال جل وعلا: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [البقرة: ١٨٣].

وقال رسول الله ﷺ: «**إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث، ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل: إني صائم**»(٢).

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود وأحمد والحاكم وابن خزيمة والبيهقي، وانظر «صحيح الجامع» رقم (٢٦٣٩).

(٢) أخرجه البخاري رقم (١٨٩٤)، ومسلم رقم (١١٥١).

ويقول عليه صلوات الله وسلامه: «**مَنْ لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**»[١].

والحج لا يكون كاملاً إلا إذا صانه الحاج عن سوء الأخلاق، ولو كان ذلك أثناء تأدية الفريضة، يقول تعالى: ﴿**فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ**﴾ [البقرة: ١٩٧].

ومَنْ أراد أن يرجع من الحج نقيًّا من الذنوب فعليه أن يمسك نفسه عن سيء الخصال وقبيح الأخلاق، وقبيح العادات، يقول ﷺ: «**مَنْ حج فلم يرفث، ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه**»[٢].

ولهذه المفاهيم فإن الحاج إن عجز أن يقبل الحجر الأسود فعليه أن يمسه بيده وإلا فليشر إليه، ولا يزاحم عنده فيؤذي المسلمين.

*** حُسن الأخلاق سبب في طهارة القلوب:**

كما أن حُسن الأخلاق سبب في لين القلوب، وطهارة النفوس، وشرح الصدور.

عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أتحب أن يلين قلبك وتدرك حاجتك؟ ارحم اليتيم، وامسح رأسه، وأطعمه من طعامك يَلِنْ قلبك، وتدرك حاجتك**»[٣].

وحُسن الأخلاق عامل رئيسي في إسلام غير المسلمين، ونشر دين الإسلام في أرجاء المعمورة، فإن المسلمين الأوائل عندما استقاموا على مكارم الأخلاق رقَّت لهم قلوب الكافرين، فدانوا بدينهم، وسلموا لهم بلادهم، ولا زلنا نرى مئات الملايين من المسلمين في الهند، والصين، وإندونيسيا، وماليزيا، وباكستان، وطاجيكستان، وأفغانستان، وتركستان، وداغستان، وبنجلاديش الذين أسلم آباؤهم الأوائل، وسلفهم الغابر لتأثرهم بالأخلاق العالية للتجار المسلمين.

---

(١) أخرجه البخاري رقم (١٩٠٣).

(٢) أخرجه البخاري رقم (١٥٢١)، ومسلم رقم (١٣٥٠).

(٣) أخرجه الطبراني، وانظر «السلسلة الصحيحة» رقم (٨٥٤).

وقد ذُكر أنه كان للإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان جار مجوسي أُخذ إلى السجن، فلما علم أبو حنيفة بذلك زاره في السجن، وأخرجه منه، فلما رأى المجوسي ذلك أسلم، وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

وكان لسهل بن عبد الله التستري جار مجوسي، وكان قد انبثق من كنيفه(١) إلى بيت في دار سهل بثق، فكان سهل يضع كل يوم الجفنة تحت ذلك البثق فيجتمع ما يسقط فيه من كنيف المجوسي ويطرحه بالليل حيث لا يراه أحد، فمكث رحمه الله على هذه الحال زمانًا طويلاً إلى أن حضرت سهلاً الوفاة، فاستدعى جاره المجوسي، وقال له: ادخل ذلك البيت وانظر فيه، فدخل فرأى ذلك البثق والقذر يسقط منه في الجفنة، فقال: ما هذا الذي أرى؟ قال سهل: هذا منذ زمان طويل يسقط من دارك إلى هذا البيت وأنا أتلقاه بالنهار وألقيه بالليل، ولولا أنه حضرني أجلي، وأنا أخاف أن لا تتسع أخلاق غيري لذلك، وإلا لم أخبرك، فافعل ما ترى، فقال المجوسي: أيها الشيخ، أنت تعاملني بهذه المعاملة منذ زمن طويل وأنا مقيم على كفري؟ مُدّ يدك، فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. ثم مات سهل رحمه الله(٢).

وهكذا دفع حُسن خُلُق سهل المجوسي للإيمان بالله، فالمسلمون الآن في حاجة شديدة للعودة إلى مكارم الأخلاق، ليفتحوا قلوب الناس لوحدانية الله والإيمان بشرعه.

*** من أقوال العلماء والحكماء في حُسن الخلق:**

فمدار الخير والفضل والشرف والرفعة والقوة في الدنيا والآخرة على حُسن الأخلاق.

قال ابن لقمان الحكيم لأبيه: يا أبتِ أي الخصال خير للإنسان؟ قال: الدين. قال: فإذا كانت اثنتين؟ قال: الدين والمال. قال: فإذا كانت ثلاثة؟ قال: الدين والمال والحياء. قال: فإذا كانت أربع خصال؟ قال: الدين والمال والحياء وحُسن

---

(١) الكنيف: الحمام أو موضع الحاجة.

(٢) «الكبائر» للذهبي (صـ ٢٣٨، ٢٣٩).

الخُلُق. قال: فإذا كانت خمسًا؟ قال: الدين والمال والحياء وحُسن الخلق والسخاء. قال: فإذا كانت ستًّا؟ قال: يا بني؛ إذا اجتمعت الخـصال الخمس فهو نقي تقي، ولله ولي، ومن الشيطان بَري[(١)].

وقيل: حُسن الأخلاق كنوز الأرزاق.

وقيل أيضًا: لكل بنيان أساس، وأساس الإسلام حُسن الخُلُق.

وقال عطاء: ما ارتفع مَنْ ارتفع إلا بحسن الخُلُق.

وقـال الجنيد: أربع ترفع الـعبـد إلى أعلى الدرجـات وإن قل عمله وعلمـه: الحلم، والتواضع، والسخاء، وحسن الخُلُق، وهو كمال الإيمان.

وقال يحيى بن مـعاذ: سوء الخُلُق سيئـة لا تنفع معها كثـرة الحسنات، وحسن الخُلُق حسنة لا تضر معها كثرة السيئات.

قال الفضيل: لأن يصحبني فـاجر حَسَن الخُلُق أحب إليّ من أن يصحبني عابد سيئ الخُلُق.

* * *

(١) أي: بريء.

خصائص الأخلاق في الإسلام

للأخلاق في الإسلام خصائص ومميزات تُعرف بها عن الأخلاق في الرسالات السماوية المُحَرَّفة، والأديان الوضعية، وتبلغ فيها درجة الكمال والتفوق.

وهذه الخصائص ثمان خصائص:

الخصيصة الأولى: (الربانية).

فإن الحق جلّ وعلا دعا عباده لمكارم الأخلاق، وحضهم على الإتيان بها، وأمرهم بها في غير آية من كتابه.

والهدف الأسمى للبعثة المحمدية إنما كان إحياءً لمكارم الأخلاق، وتتميمًا لمحاسن الشيم، كما ورد في الحديث النبوي: «**إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»(١)، وهذا يرفع الأخلاق مكانًا عاليًا.

*** الأخلاق وأسماء الله الحسنى:**

ويزيد الأخلاق في الإسلام علو قدر، وارتفاع منزلة أن الله تعالى قد سمَّى نفسه بأسماء، ونعت ذاته بنعوت يدل كثير منها على جملة كبيرة من أخلاق ديننا، ويشهد عدد كبير منها على أهمية الأخلاق الحميدة.

فاسما (الرحمن والرحيم) يستفاد منهما خُلُق الرحمة، وخُلُق الرفق.

واسم (القوي) يستفاد منه خُلُق القوة.

واسما (الحق والعدل) يستفاد منهما خُلُق العدل.

واسم (الودود) يستخرج منه خُلُق التودد.

واسم (الكريم) وكذا (الجواد) يستنبط منهما خُلُق الكرم والسخاء.

---

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٢٧٣)، وابن سعد (١/ ١٩٢)، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي، وأخرجه أحمد، وابن وهب، وانظر «الصحيحة» رقم (٤٥).

واسم (الحفيظ) فيه إشارة لخُلُق الأمانة.

واسم (الصبور) يُتعلَّم منه خُلُق الصبر.

واسم (الحليم) يؤخذ منه خُلُق الحِلْم.

واسم (العفو) يتعلم العبد منه خُلُق العفو.

وأسماء (الغفور، والغفار، والسِّتِّير) يُستخرج منها خُلُق الستر.

واسم (العزيز) يتعلم العبد منه خُلُق عزة النفس.

واسم (النافع) يتعلم العبد منه خُلُق التودد.

واسم (القدوس) يُتعلَّم من معرفة معانيه خُلُق طهارة القلب، وخُلُق طهارة اللسان.

واسم (الجميل) يدل على خُلُق جمال المظهر.

واسم (الحيي) يُعرف منه خُلُق الحياء.

وأسماء (العليم، وعلاَّم الغيوب، وعالم الغيب) يُستنبط منها خُلُق التعلُّم.

واسم (الحكيم) يُتعلَّم منه خُلُق الحكمة.

والقرآن الكريم كتاب الله المنزل على هذه الأمة كتاب أخلاق، فقد أشار إلى تهذيب الأخلاق فيما يزيد على ثمانمائة آية.

الخصيصة الثانية: (العالمية والشمول).

وهذه الأخلاق تشمل المخلوقات كلها بشرًا، وحيوانًا، وجانًّا في كل زمان، ومكان، وحال، وتتضمن المسلم وغير المسلم، الكبير والصغير، الذكر والأنثى، الغني والفقير، الحر والعبد، والأبيض والأسود، والعالم والجاهل، والعدو والحبيب، وحال الحرب وحال السلم، وحال القوة وحال الضعف، بل وتتعلق بالخالق جلّ وعلا والمخلوق.

ألا ترى القرآن الكريم يأمر بالعدل مع الأعداء فيقول: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

وينهى المسلمين عن الاعتداء على الكافرين المشركين ردًّا على صدهم إياهم عن المسجد الحرام، فيقول: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

وأمر الله تعالى نبيه محمدًا ﷺ بالعدل مع المخالفين والمعاندين، فيقول: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥]. وهذا في محاسن الأخلاق كلها لا يخص به خُلُق دون خُلُق، ولا مخلوق دون مخلوق.

الخصيصة الثالثة: (الإنسانية).

وهذه الشيم الحسنة، والخصال الحميدة التي أمرنا بها ليست خاصة بالإنسان مع أخيه الإنسان، بل تتضمن الحيوان، والجان، وسائر المخلوقات.

فقد دخلت امرأة بغي الجنة في الإحسان إلى كلب كما في الحديث: **«بينما كلب يطيف[1] بركَيَّة[2] قد كاد يقتله العطش إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل، فنزعت موقها[3] فاستقت له به، فسقته فغُفر لها به»**[4].

وبالطريقة نفسها دخل رجل الجنة في سقي كلب، ففي الحديث النبوي يقول الرسول ﷺ: **«بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئرًا، فنزل فيها فشرب، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان قد بلغ مني، فنزل البئر، فملأ خفه ماءً، ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له»**، قالوا: يا رسول الله؛ إن لنا في البهائم أجرًا؟ فقال: **«في كل كبد رطبة أجر»**[5].

---

(١) يطيف: يدور.

(٢) الرَّكية: البئر.

(٣) الموق: الخُف.

(٤) أخرجه البخاري رقم (١٧٢)، ومسلم رقم (٢٢٤٣).

(٥) أخرجه البخاري رقم (١٧٣)، ومسلم رقم (٢٢٤٤).

ويعلمنا النبي ﷺ الإحساس بإخواننا المسلمين من الجن، فعندما ذهب إليهم، وقرأ عليهم القرآن سألوه الزاد، فقال: «**لكم كل عظم ذُكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحمًا، وكل بعرة علف لدوابكم**»، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**فلا تستنجوا بهما، فإنهما طعام إخوانكم**»[1].

الخصيصة الرابعة: الوسطية (التوازن).

والإسلام إذ يدعو إلى التحلي بالأخلاق الزكية إنما يرسم طريقًا وسطًا يغذي الروح، ويرضي القلب، ولا يطغى على الجسد، ويفتح مساحة واسعة لمن قهر نفسه، وطهَّر قلبه حتى بلغ الذروة بأن يدنو من الأخلاق المثالية كالإيثار، والعفو، والسخاء، ويقف بالكسلان المقصر عند الواجب والحق والمفروض، لأن الناس يختلفون في الطباع والصفات والقدرات والاهتمامات.

فالإسلام ما جاء ليقضي على الجسد أو يضعفه، ولا ليقبض الروح أو يكبتها، بل ليسمو بالروح، ويكف الجسد عن المبالغة فيما يصلحه.

وإن فريقًا من الناس قد حرموا الجسد حقه، فوقعوا في المحرمات، وفريقًا آخر قد نسوا حق الروح فكانت معيشتهم ضنكًا.

الخصيصة الخامسة: (الواقعية).

وهذه الأخلاق ليست خيالاً أو أوهامًا لا أثر له في الواقع المحسوس، ولا شأن له بالأفراد والجماعات كما نراه في الأخلاق عند الرومان، بل إن المؤمن مطالب بها، مُثاب على فعلها، معاقب على تركها.

وقد شاهد العالم أخلاق سلفنا، ولم ينكرها أحد لا القدامى ولا المحدثون منهم.

الخصيصة السادسة: (المثالية).

وأخلاق الإسلام عامةً تتميز بالمثالية، وأجلى الأخلاق الإسلامية التي يتضح فيها المثالية خُلُق الإيثار، قال تعالى: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾ [الحشر: ٩].

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ١٧٠) نووي.

والمثالية واضحة في خُلُق العفو والصفح، قال تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

وفي هذا درء للسيئة بالحسنة.

ومن أعجب ما قرأت في مثالية الإحساس بالآخرين: أن رجلاً تزوج امرأة، فلما دخلت عليه رأى بها الجدري، فقال: اشتكيت عيني، ثم قال: عميت، فبعد عشرين سنة ماتت ولم تعلم أنه بصير، فقيل له في ذلك، فقال: كرهت أن يحزنها رؤيتي لما بها، فقيل له: سبقت الفتيان.

والمثالية في الحِلْم نراها في هذا الموقف:

قيل للأحنف بن قيس: ممن تعلمت الحِلْم؟ قال: من قيس بن عاصم. قيل: وما بلغ من حِلْمه؟ قال الأحنف: بينما هو جالس في داره إذ أتته جارية له بسَفُّود(١) عليه شواء(٢)، فسقط السفود من يدها، فوقع على ابن صغير له، فمات في الحال، فخافت الجارية خوفًا شديدًا، فقال لها قيس: لا تخافي، أنت حرة لوجه الله تعالى.

وهذا مثل مثالي في الجود والسخاء:

كان قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما من الأجواد المعروفين، حتى أنه مرض مرة، فاستبطأ إخوانه في العيادة، فسأل عنهم، فقالوا: إنهم كانوا يستحيون مما لك عليهم من الدَّيْن، فقال: أخزى الله مالاً يمنع الإخوان من الزيارة، ثم أمر مناديًا ينادي: مَنْ كان لقيس عليه مال فهو منه في حِل، فما أمسى حتى كُسرت عتبة بابه لكثرة مَنْ عاده(٣).

---

(١) السَّفُّود: الحديدة التي يُشوى بها اللحم.

(٢) لحم مشوي.

(٣) «مدارج السالكين» لابن القيم (ج٢) (صـ ٢٧٩).

وقيل: إن هارون الرشيد بعث إلى الإمام مالك بن أنس رحمه الله خمسمائة دينار، فبلغ ذلك الليث بن سعد فأرسل إليه ألف دينار، فغضب هارون الرشيد، وقال لليث بن سعد: إني أعطيته خمسمائة، فكيف تعطيه ألفًا وأنت أحد أفراد رعيتي؟ فأجاب الليث: يا أمير المؤمنين، إن لي من الدخل كل يوم ألف دينار، فاستحييت أن أعطي مثل مالك بن أنس أقل من دخل يوم.

وكان الليث لا يتكلم كل يوم حتى يتصدق على ثلاثمائة وستين مسكينًا.

*** صلاح الدين مثل أعلى في التسامح مع الأعداء:**

وضرب الإسلام أروع الأمثلة في التسامح مع الأعداء، ومن ذلك أنه:

حينما كان صلاح الدين الأيوبي ماشيًا في طرقات بيت المقدس بعد أن فتحها تقدم إليه رجل نصراني كبير السن، يعلق صليبًا ذهبيًّا في رقبته، وقال له: أيها القائد العظيم، لقد كتب لك النصر على أعدائك، فلماذا لم تعذبهم؟ ولماذا لم تنتقم منهم، وتفعل معهم مثل ما فعلوا معكم؟ وأنت تعلم حقًّا أنهم أتوا كثيرًا من الفظائع، ونهبوا الأموال، وقتلوا النساء والأطفال والرجال حينما فتحوا بيت المقدس؟

فقال له صلاح الدين: أيها الشيخ، إن ديني يمنعني من تعذيب أي إنسان، وضميري يمنعني من الانتقام، ولن أفعل مثل ما فعلوا.

فقال له الشيخ: وهل دينكم يمنعكم من الانتقام من قوم بدءوكم بالعداوة، وعذبوا قومكم بأنواع العذاب كلها؟

فقال له صلاح الدين: نعم، إن ديننا يمنعنا أن نفعل مثل أعدائنا في عنادهم، ويأمرنا أن نكون أوفياء بوعودنا، وأن نعفو عمَّن أساء إلينا، ونصفح عمَّن أذنب عند القدرة.

فقال الشيخ: نِعْمَ الدين دينكم، وإنني أحمد الله على أن هداني إلى ما فيه خيري في أيامي الأخيرة من هذه الحياة، ثم سأل: وماذا يفعل مَنْ يريد الدخول في دينكم؟

فقال له صلاح الدين: يؤمن بأن الله واحد، ومحمداً ﷺ رسوله، ويفعل ما أمر الله به، ويبتعد عما نهى الله عنه.

عند ذلك أسلم الشيخ وحسن إسلامه، وأسلم معه كثير من أبناء قومه برغبتهم، ومن تلقاء أنفسهم عن إيمان وثقة.

وعند النظر إلى صحائف هذا المصنف الذي بين أيدينا سنرى هذه الخصيصة في الأخلاق الإسلامية كلها.

الخصيصة السابعة: (الجزاء).

فقد جعل الإسلام الثواب الكبير والأجر العظيم في الدنيا والآخرة لمن كان حسن الأخلاق جميل الخصال، يقول جلّ وعلا في وصف عباد الرحمن: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣- ٧٦].

ويقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ١٩- ٢٤].

وقال أرحم الراحمين سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١- ١١].

وفي المقابل فإن أكثر الحدود التي يعاقب عليها الشرع الإسلامي في الدنيا، وجُلّ الكبائر التي عليها العذاب في الآخرة راجعة إلى سوء الخُلُق.

فإذا نحن نحينا كبيرة الشرك، وكبائر ترك الصلاة، ومنع الزكاة، والإفطار في نهار رمضان، وترك الحج مع القدرة، والأمن من مكر الله، واليأس من روح الله، وجدنا أن الكبائر المتبقية تتعلق بالأخلاق السيئة، وتكمن فيها، وتظهر من خلالها.

ونتأمل الحدود التي عاقب بها الإسلام المقصرين إحساسًا بغيرهم، وتأديبًا لهم فنلفيها(١) مهتمة بالعلاقة مع الآخرين.

وإنك لتعجب عندما تطالع مصادر الإسلام فتدرك أنه يعلن أن دعاء المظلوم الفاجر أو الكافر على ظالمه مستجاب، يقول صلوات الله عليه وسلامه: **«دعوة المظلوم مستجابة، وإن كان فاجرًا ففجوره على نفسه»**(٢).

الخصيصة الثامنة: (الرقي والتقدم):

فبقاء الأمم، وخلود الحضارات مبني على الأخلاق الفاضلة، والأخذ بالفضائل الزكية، وزوال الأمم، وفناء الحضارات راجع إلى فساد الأخلاق، وخراب الضمائر، وغياب الآداب الفاضلة، يقول الصادق المصدوق عليه السلام: **«لا قدَّس الله أمة لا يأخذ ضعيفها حقه من شديدها، ولا يتعتعه»**(٣)، إنها أمة ذليلة ضعيفة خاسرة مغلوبة متأخرة.

---

(١) أي: نجدها.

(٢) أخرجه أبو داود والطيالسي، وانظر «السلسلة الصحيحة» للألباني رقم (٧٦٧).

(٣) صحيح: سيأتي تخريجه.

وجاء عن شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة».

ولله دَرُّ القائل:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هُمُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

* * *

*** علامات حُسن الخُلُق:**

لمكارم الأخلاق دلائل يُعرف بها المرء بأنه حسن الخُلُق، ينتظمها أن يحب المسلم لإخوانه ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه.

قال يوسف بن أسباط: علامة حُسن الخُلُق عشر خصال:

١- قلة الخلاف.

٢- وحسن الإنصاف.

٣- وترك طلب العثرات.

٤- وتحسين ما يبدو من السيئات.

٥- والتماس المعذرة.

٦- واحتمال الأذى.

٧- والرجوع بالملامة على النفس.

٨- والتفرد بمعرفة عيوب نفسه دون غيره.

٩- وطلاقة الوجه للصغير والكبير.

١٠- ولطف الكلام لمن دونه ومن فوقه[1].

وجمع بعض العلماء علامات حُسن الخُلُق فقال: «إن حُسن الخُلق هو أن يكون

---

(١) «الإحياء» (٣/ ٧٧).

كثير الحياء، قليل الأذى، كثير الصلاح، صدوق اللسان، قليل الكلام، كثير العمل، قليل الزلل، قليل الفضول، بَرًّا، وصولاً، وقورًا، صبورًا، شكورًا، رضيًّا، حليمًا، رفيقًا، عفيفًا، شفيقًا، لا لعَّانًا، ولا سبَّابًا، ولا نمَّامًا، ولا مغتابًا، ولا عجولاً، ولا حقودًا، ولا بخيلاً، ولا حسودًا، بشَّاشًا، هشَّاشًا، يحب في الله، ويبغض في الله، ويرضى في الله، ويغضب في الله»(١).

*** درجات حُسن الخُلُق:**

إذا نظرنا إلى مكارم الأخلاق على جهة صلتها بالخالق تعالى والمخلوق فإنها ثلاث درجات، يصعد العبد من الأولى إلى الثانية ثم إلى الثالثة:

فالأولى: تحسين الخُلُق مع الخَلْق.

والثانية: تجميل الخُلُق مع الحق جلّ وعلا.

والثالثة: تصفية الخُلُق.

فتحسين الخُلُق مع الخَلْق يتم بإكمال مكارم الأخلاق، والارتقاء منها إلى المروءة.

وتحسين الخُلُق مع الحق بأن تعلم أن كل ما يأتي منك يوجب عذرًا، وأن كل ما يأتي من الحق يوجب شكرًا، وأن لا ترى له من الوفاء بُدًّا.

وتصفية الخُلُق يكون بتكميل ما ذُكر في الدرجتين قبله ثم الصعود إلى الاشتغال بالرب وحده عما سواه.

والأقرب لترقي درجات كمال الأخلاق الفاضلة العالية أنها ثلاث منازل: منزلة التَّخَلُّق وحُسن الخُلُق، ومنزلة الفُتُوَّة، ومنزلة المروءة..

ومنزلة الفتوة منزلة شريفة لم تُعبِّر عنها الشريعة باسم (الفتوة) بل عبَّرت عنها باسم (مكارم الأخلاق).

*** الفرق بين الفتوة والمروءة:**

«والفرق بينها وبين المروءة أن المروءة أعم منها، فالفتوة نوع من أنواع المروءة،

---

(١) «روح الإسلام» لمحمد عطية الإبراشي (صـ ٩٩).

فإن المروءة: استعمال ما يجمل ويزين مما هو مختص بالعبد أو متعدٍ إلى غيره، وترك ما يدنس ويشين مما هو مختص أيضًا به، أو متعلق بغيره»(١).

* * *

* أركان حُسن الخُلُق:

وحسن الخُلُق يقوم على خمسة أركان لا يتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر، والعفة، والشجاعة، والعدل، والحكمة.

فالصبر: يحمله على الاحتمال، وكظم الغيظ، وكف الأذى، والحلم، والأناة، والرفق، وعدم الطيش والعجلة.

والعفة: تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل، وتحمله على الحياء وهو رأس كل خير، وتمنعه من الفحشاء، والبخل، والكذب، والغيبة، والنميمة.

والشجاعة: تحمله على عزة النفس، وإيثار معالي الأخلاق والشيم، وعلى البذل والندى الذي هو شجاعة النفس وقوّتها على إخراج المحبوب ومفارقته، وتحمله على كظم الغيظ، والحلم، فإنه بقوة نفسه وشجاعتها يُمسك عنانها، ويكبحها بلجامها عن النزع والبطش، كما قال النبي ﷺ: «**ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**»(٢)، وهو حقيقة الشجاعة، وهي مَلَكَة يقتدر بها العبد على قهر خصمه.

والعدل: يحمله على اعتدال أخلاقه، وتوسطه فيها بين الإفراط والتفريط، فيحمله على خُلُق الجود والسخاء الذي هو توسط بين الذل والقحة، وعلى خُلُق الشجاعة الذي هو توسط بين الجُبن والتهور، وعلى خُلُق الحِلْم الذي هو توسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس، ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة.

---

(١) «مدارج السالكين» لابن قيم الجوزية (٢/ ٣٤٠).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٦١١٤)، ومسلم رقم (٢٦٠٩).

والحكمة: تحمله على حُسن التدبير، وجودة الذهن، وثقابة الرأي، وإصابة الظن، والتفطن لدقائق الأعمال، وخفايا وآفات النفوس.

ومن إفراطها: تصدر الجريرة والمكر والخداع والدهاء.

ومن تفريطها: يصدر البله والغمارة والحمق والجنون.

ولم يبلغ كمال الاعتدال في هذه الخمس إلا رسول الله ﷺ، والناس بعده متفاوتون في القرب والبعد منه، فكل مَنْ قرب منه في هذه الأخلاق فهو قريب من الله تعالى بقدر قربه من رسول الله ﷺ، وكل من جمع كمال هذه الأخلاق استحق أن يكون بين الخَلْق مَلِكًا مُطاعًا يرجع الخلق كلهم إليه، ويقتدون به في جميع الأفعال، ومَنْ انفك عن هذه الأخلاق كلها واتصف بأضدادها، استحق أن يخرج من بين البلاد والعباد، فإنه قد قرب من الشيطان اللعين المُبعد(١).

* * *

* أركان الأخلاق السافلة

وكما قيل: وبضدها تتميز الأشياء، فإن منشأ الأخلاق السافلة على أركان: الجهل، والظلم، والشهوة، والغضب.

- فالجهل: يريه الحسن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن، والكمال نقصًا، والنقص كمالاً.

- والظلم: يحمله على وضع الشيء في غير موضعه، فيغضب في موضع الرضا، ويرضى في موضع الغضب، ويجهل في موضع الأناة، ويبخل في موضع البذل، ويبذل في موضع البخل، ويحجم في موضع الإقدام، ويقدم في موضع الإحجام، ويلين في موضع الشدة، ويشتد في موضع اللين، ويتواضع في موضع العزة، ويتكبر في موضع التواضع.

- والشهوة: تحمله على الحرص، والشح، والبخل، وعدم العفة، والنهمة، والجشع، والذل، والدناءات كلها.

---

(١) «الإحياء» لحجة الإسلام الغزالي (٣/ ٥٩، ٦٠) بتصرف شديد.

- والغضب: يحمله على الكبر، والحقد، والحسد، والعدوان، والسفه.

ويتركب من بين كل خُلُقين من هذه الأخلاق أخلاق مذمومة.

وملاك هذه الأربعة أصلان: إفراط النفس في الضعف، وإفراطها في القوة؛ فيتولد من إفراطها في الضعف: المهانة، والبخل، والخسة، واللؤم، والذل، والحرص، والشح، وسفاسف الأمور والأخلاق، ويتولد من تَزوُّج أحد الخُلُقين بالآخر أولاد غيَّة كثيرون؛ فإن النفس قد تجمع قوة وضعفًا، فيكون صاحبها أجبر الناس إذا قدر، وأذلهم إذا قُهر.

ظالم عنوف جبار، فإذا قُهر صار أذلّ من امرأة، جبان عن القوي، جريء على الضعيف.

* * *

الخُلُق المحمود بين خُلُقين ذميمين

فالأخلاق الذميمة يُولِّد بعضها بعضًا، كما أن الأخلاق الحميدة يُولِّد بعضها بعضًا، وكل خُلُق محمود مُكتَنَف بخُلُقين ذميمين، وهو وسط بينهما، وطرفاه خُلُقان ذميمان؛ كالجود الذي يكتنفه خُلُقا البخل والتبذير، والتواضع الذي يكتنفه خُلُقا الذل والمهانة، والكبر والعلو.

فإن النفس متى انحرفت عن التوسط انحرفت إلى أحد الخُلُقين الذميمين ولا بد، فإذا انحرفت عن خُلُق التواضع انحرفت إما إلى كبر وعلو، وإما إلى ذل ومهانة وحقارة.

وإذا انحرفت عن خُلُق الحياء انحرفت إما إلى قُحَّة وجرأة، وإما إلى عجز وخَوَر ومهانة، بحيث يُطمع في نفسه عدوه، ويفوته كثير من مصالحه، ويزعم أن الحامل له على ذلك الحياء، وإنما هو المهانة والعجز وموت النفس.

وكذلك إذا انحرفت عن خُلُق الصبر المحمود انحرفت إما إلى جزع وهلع وجشع وتسخُّط، وإما إلى غلظة كبد وقسوة قلب وتحجر طبع؛ كما قال بعضهم:

تبكي علينا ولا نبكي على أحد ... فنحن أغلظ أكبادًا من الإبل

وإذا انحرفت عن خُلُق الحِلْم انحرفت إما إلى الطيش والترف والحدة والخفة، وإما إلى الذل والمهانة والحقارة، ففرق بين مَنْ حلمه حلم ذل ومهانة وحقارة وعجز، وبين مَنْ حلمه حلم اقتدار وعزة وشرف، كما قيل:

كل حِلْمٍ أتى بغير اقتدار حجة لاجئ إليها اللئام

وإذا انحرفت عن خُلُق الأناة والرفق انحرفت إما إلى عَجَلة وطيش وعنف، وإما إلى تفريط ووضاعة، والرفق والأناة بينهما.

وإذا انحرفت عن خُلُق العزة التي وهبها الله تعالى المؤمنين انحرفت إما إلى كبر، وإما إلى ذل، والعزة المحمودة بينهما.

وإذا انحرفت عن خُلُق الشجاعة انحرفت إما إلى تهور وإقدام غير محمود، وإما إلى جبن وتأخر مذموم.

وإذا انحرفت عن خُلُق المنافسة في المراتب العالية والغبطة انحرفت إما إلى حسد، وإما إلى مهانة وعجز وذل ورضا بالدون. وإذا انحرفت عن القناعة انحرفت إما إلى حرص و كَلَب، وإما إلى خسة ومهانة وإضاعة. وإذا انحرفت عن خُلُق الرحمة انحرفت إما إلى قسوة، وإما إلى ضعف قلب وجُبن نفس كمن لا يقدم على ذبح شاة، ولا إقامة حد وتأديب ولد، ويزعم أن الرحمة تحمله على ذلك، وقد ذبح أرحم الخلق ﷺ بيده في موضع واحد ثلاثًا وستين بَدَنَة، وقطع الأيدي من الرجال والنساء، وقطع الأعناق، وأقام الحدود، ورجم بالحجارة حتى مات المرجوم، وكان أرحم خلق الله على الإطلاق وأرأفهم.

وكذلك طلاقة الوجه والبِشر المحمود فإنه وسط بين التعبيس والتقطيب وتصعير الخد وطي البِشر عن البَشر، وبين الاسترسال بذلك مع كل أحد بحيث يُذهب الهيبة، ويزيل الوقار، ويطمع في الجانب كما أن الانحراف الأول يوقع الوحشة والبُغضة ،والنفرة في قلوب الخَلْق. وصاحب الخُلُق الوسط مهيب محبوب، عزيز جانبه، حبيب لقاؤه[1]. والآن آن الأوان لنعيش في روضة الأخلاق الحميدة.

(١) «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/ ٣١٦، ٣١٧).

* أصحاب هذه الأخلاق:

- هم أهل الفضائل.
- منطقهم الصواب.
- وملبسهم الاقتصاد.
- ومشيهم التواضع.
- غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم.
- ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم.
- نزلت أنفسهم في البلاء، كالتي نزلت في الرخاء.
- لولا الأجل الذي كتب الله لهم لم تستقـر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقًا إلى ربهم.
- عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم.
- قلوبهم محزونة.
- شرورهم مأمونة.
- أعقبتهم راحة طويلة.... تجارة رابحة سيرها لهم ربهم.
- أرادتهم الدنيا فلم يريدوها.
- وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها.
- **أما الليل:**

فصافون أقـدامهم يرتلون لأجزاء القرآن ترتيلاً فإذا مروا بآية فـيها تشويق ركنوا إليها طمعًا، وتطلعت أنفسهم إليها تشوقًا.

وإذا مروا بآية فيهـا تخويف صغوا إليها بمسامع قلـوبهم وظنوا أن زفير جهنم

وشهيقها في أصول آذانهم فهم جاثون على ركبهم يطلبون من الله فكاك رقابهم.

- أما النهار:

- فحلماء.
- علماء أبرار أتقياء.
- قد براهم الخوف بري القداح.
- ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى، وما بالقوم من مرض.
- لا يرضون من أعمالهم بالقليل.
- ولا يستكثرون بالكثير.
- فهم لأنفسهم متهمون.
- ومن أعمالهم مشفقون.
- إذا زكي أحدهم خاف مما يقال له فيقول:

أنا أعلم بنفسي من غيري، وربي أعلم بنفسي مني.

اللهم لا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني أفضل مما يظنون.

واغفر لي ما لا يعلمون.

فمن علامة أحدهم:

أنك ترى له قوة في الدين.

وحزمًا في لين.

وإيمانًا في يقين.

وحرصًا في علم.

وعملاً في حلم.

وقصدًا في غنى.

وخشوعًا في عبادة.

وتجملاً في فاقة.

وصبرًا في شدة.

وطلبًا في حلال.

ونشاطًا في هدى.

وتحرجًا عن طمع.

يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل.

يمسي وهمه الشكر.

قليلاً زَلَلُهُ

خاشعًا قلبه.

قانعة نفسه.

مكظومًا غيظه.

ميتة شهوته.

الخير منه مأمول.

الشر منه مأمون.

يعفو عمن ظلمه.

ويعطي من حرمه.

ويصل من قطعه.

بعيدًا فحشه.

لينًا قوله.

غائبًا منكره.

حاضرًا معروفه.

في الزلازل وقور.

وفي المكاره صبور.

وفي الرخاء شكور.

ولا يحيف على من يبغض.

ولا يأثم فيمن يحب.

يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه.

لا يضيع ما استحفظ.

ولا ينابز بالألقاب.

ولا يضر بالجار.

ولا يشمت بالمصائب.

إن بغي عليه صبر حتى يكون الله هو الذي ينتقم له.

نفسه منه في عناء.

والناس منه في راحة.

أتعب نفسه لآخرته.

وأراح الناس من نفسه.

بعده عمن تبعاد عنه زهد ونزاهة.

ودنوه ممن دنا منه لين ورحمة.

وليس تباعده بكبر وعظمة.

ولا دنوه بمكر وخديعة.

- ومن صفات المؤمن المتخلق بالأخلاق التي سنذكرها:

قوة في دين.

وحزم في لين.

وإيمان في يقين.

وعلم في حلم.

وكيس في رفق.

وإعطاء في حق.

وقصد فى غنى.

وتحمل في فاقة.

وإحسان في قدرة.

وصبر في شدة.

ولا يغلبه الغضب ولا تجمح به الحمية.

ولا تغلبه شهوة.

ولا تفضحه بطنه.

ولا يستخفه حرصه.

ولا تقتصر به نيته.

فينصر المظلوم.

ويرحم الضعيف.

ولا يبخل، ولا يبذر.

ولا يسرف، ولا يقتر.

يغفر إذا ظُلم.

ويعفو عن الجاهل.

نفسه منه في عناء[١]، والناس منه في رخاء[٢].

---

(١) أي: يجاهد نفسه على طاعة الله.

(٢) من كلام الحسن البصري.

- يعملون بهذه الوصايا

دع الأيام تفعل ما تشاء — وطِب(١) نفسًا إذا حكم القضاء
ولا تجزع لحادثة الليالي(٢) — فما لحوادث الدنيا بقاء
وكن رجلاً عن الأهوال(٣) جَلْدًا(٤) — وشيمتك(٥) السماحة والوفاء
وإن كثرت عيوبك في البرايا — وسرَّك أن يكون لها غطاء
تستَّر بالسخاء فكل عيب — يغطيه كما قيل السخاءُ
ولا تُري للأعادي قط ذُلاً — فإن شماتة الأعداء داء
ولا ترجُ السماحة من بخيل — فما في النار للظمآن ماءُ
ورزقك ليس ينقصه التأني — وليس يزيد في الرزق العناءُ
ولا حزن يدوم ولا سرور — ولا بؤسٌ عليك ولا رخاءُ
إذا ما كنت ذا قلب قنوع — فأنت ومالك الدنيا سواء
ومن نزلت بساحته المنايا — فلا أرض تقيه ولا سماءُ
وأرض الله واسعة ولكن — إذا نزل القضا ضاق الفضاءُ
دع الأيام تغدر كل حين — فما يغني عن الموت الدواءُ(٦)

* * *

(١) طِب: من (طاب يطيب طيبًا): لذَّ وحلا وجاد.

(٢) حادثة الليالي: مصائبها.

(٣) الأهوال: المخاوف.

(٤) جَلْدًا: قويًا صبورًا.

(٥) شيمتك: خُلُقك أو عادتك.

(٦) هذا الكلام في ديوان الإمام الشافعي.

(١) الصدق

للصدق الكامل في الأقوال والأحوال والأعمال منزلة رفيعة فيه تميز أهل النفاق من أهل الإيمان، وسكان الجنان من أهل النيران، وهو سيف الله في أرضه الذي ما وُضِع على شيء إلا قطعه، ولا واجه باطلاً إلا أرداه وصرعه، من صال به لم ترد صولته، ومن نطق به علت على الخصوم كلمته، فهو روح الأعمال، ومحك الأحوال، الحامل على اقتحام الأهوال، والباب الذي دخل منه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال.

وهو أساس بناء الدين، وعمود فسطاط اليقين، ودرجته تالية لدرجة «النبوة» التي هي أرفع درجات العالمين.

ومن مساكنهم في الجنات:

تجري العيون والأنهار إلى مساكن الصديقين، كما كان من قلوبهم في هذه الدار مدد متصل ومعين.

وقد أمر الله سبحانه أهل الإيمان: أن يكونوا مع الصادقين، وخص المنعم عليهم بالنبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين. فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩].

فهم أهل الرفيق الأعلى: ﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾، ولا يزال الله يمدهم بأنعمه وألطافه ومزيده إحسانًا منه وتوفيقًا.

ولهم مرتبة المعية مع الله.

فإن الله مع الصادقين، ولهم منزلة القرب منه إذ درجتهم منه ثاني درجة النبيين.

وأخبر تعـالى أن من صدَّقه فهو خيـر له. فقال: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١].

وأخـبر تـعالى عن أهل الـبر، وأثنى علـيهم بأحـسن أعـمـالهم: من الإيمان، والإسلام، والصدقة، والصبر.

بأنهم أهل الصدق فـقال: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وهذا صريح في أن (الصدق) بالأعمال الظاهرة والباطنة، وأن الصدق هو مقام الإسلام والإيمان.

وقسم الله سبحانه الناس إلى صادق ومنافق فقال: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٤].

والإيمان أساسه الصدق، والنفاق أساسه الكذب.

فلا يجتمع كذب وإيمان إلا وأحدهما محارب للآخر.

وأخبر سبحانه: أنه في يوم القيامـة لا ينفع العبد وينجيه من عذابه إلا صدقه، قال تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣].

فالذي جاء بالصدق: هو من شأنه الصدق في قول وعمله وحاله.

فالصدق: في هذه الثلاثة[1]، في القول والعمل والحال.

والصدِّيق أبلغ من الصدُوق، والصدوق أبلغ من الصادق.

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٧٩- ٢٨١)، وانظر «أصول الدعوة» د. عبد الكريم زيدان (صـ ٣٣٣، ٣٣٤)، و«أخلاق الداعـية» د. عبد الله ناصح علوان (صـ ١٦- ٣٧) ط دار السـلام- بيروت- الأولى ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

فأعلى مراتب الصدق مـرتبة الصِّديقية، وهي كمـال الانقياد للرسول ﷺ، مع كمال الإخلاص لله تعالى[١].

قال ﷺ: «**عليكم بالصدق، فـإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البـر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويـتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صـديقًا، وإياكم والكذب، فـإن الكذب يهدي إلى الفـجور، وإن الفـجور يـهدي إلى النار، ومـا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا**»[٢].

فجعـل الرسول ﷺ الصدق مفـتاح الصِّدِّيقيـة ومبدأها وهي غايتـه، فلا ينال درجتها كاذب ألبتة، لا في قـوله، ولا في عمله، ولا في حاله، ولا سيما كاذب على الله في أسمائه وصفاته، ونفي ما أثبتـه أو إثبات ما نفاه عن نفسه، فليس في هؤلاء صدِّيق أبدًا.

وكذلك الكذب عليه في دينه وشرعه: بتحليل ما حرَّمَه، وتحريم ما لم يحرمه، وإسقاط ما أوجـبه، وإيجاب ما لم يوجبـه، وكراهة ما أحبه، واستحـباب ما لم يحبه، كل ذلك مناف للصديقية.

وكـذلك الكذب مـعه في الأعـمـال: بالتـحلي بحلية الصـادقين المخلصين، والزاهدين المتوكلين، وليس في الحقيقة منهم[٣].

فما الصدق؟ وما مظاهره؟ وما بواعثه؟ وما ثمراته؟

الصدق:

هو الإخبار عن الـشيء بما هو عليه أو ملكة نفسانيـة سامية وقـوة إرادة عظيمة يستطيع بها الإنسان أن يبرهن عن حسن خلقه بلا تكلف منه.

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٨١).

(٢) صحيح مسـلم (٨/ ٢٩) كتاب البر- باب (قـبح الكذب وحسن الصدق وفضله)، البـخاري على الفتح (١٠/ ٥٢٣) كتاب الأدب- باب قول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾ [التوبة: ١١٩]، وما ينهى عن الكذب، والتـرمذي (٤/ ٣٠٦) كتـاب البر والصلة- باب (ما جاء في الصدق والكذب).

(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٨٤).

وله طريقة واحدة، وهي أن يقول الإنسان الحق كل الحق لا شيء غير الحق دون أن يحذف منه شيئًا أو يزيد عليه بأن يبالغ في قوله مبالغة تفهم السامع أكثر من الحقيقة.

- وللصدق مظهران:

١ - ظاهر: وهو الصدق في الأقوال والأفعال ويضاده الزيف والتمويه والكذب والخداع.

٢ ـ باطن: وهو صدق الأفكار والنوايا والاعتقادات.

بواعثه: للصدق دواع أهمها:

١ - الدين: لأنه يأمر بالصدق ويحث عليه وينهى عن الكذب.

٢ - العقل.

٣ - المروءة فهي مانعة من الكذب.

٤ - حب التحلي بالصدق والاشتهار به، كما قيل:

عود لسانك قول الصدق تحظ به   إن اللسان لما عودت معتاد

نتائجه: له نتائج عظيمة أهمها:

١ - يمنح الله الصادق الهدوء النفسي وطمأنينة القلب. يقول الحسن بن علي: حفظت من رسول الله ﷺ: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة**». رواه الترمذي.

٢ ـ يبارك الله للصادق في نفسه وفي أولاده وفي أمواله يقول ﷺ: «**البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كذبا وكتما محقت بركة بيعهما**».

٣ ـ يفرج الله هَمَّ الصادق، وينجيه من الكرب كما حدث لكعب بن مالك.

٤ - يجازي الله الصادق بفوزه بمنازل الشهداء، قال رسول الله ﷺ: «**من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه**». رواه مسلم.

٥ - إن الله يوجه الصادق للعمل الصالح في الدنيا ويغفر ذنوبه في الآخرة.

٦- الصدق منجاة.

أنواع الصدق:

والصدق أنواع:

١ - أشهرها وأظهرها وأعرفهـا: الصدق في القول، والصدق في الأقوال: أن تقول الحق كل الحق ليس غير الحق.

والصــدق في الأقوال: اسـتواء اللســان على الأقوال، كـاسـتـواء السنبلة على ساقها.

وقــال الجنيد: «حـقـيقـة الصـدق: أن تصدق في مـوطن لا يُنجـيك منه إلا الكذب».

وقالـوا: «عليك بالصدق حـيث تخاف أنه يضـرُّك، فإنه ينفـعك ودَع الكذب حيث ترى أنه ينفعك، فإنه يضرُّك».

قال ابــن مســعود: «لا يصلح الكذب في هزل ولا جـدّ، ولا أن يَعِدَ أحـدُكم حبيبه شيئًا ثم لا يُنجزه به».

قال إسماعيل بن عُبيد الله المخزومي: «أمرني عبد الملك بن مروان أن أعلم بنيه الصدق كما أعلمهم القرآن، وأن أجنبهم الكذب وإن كان فيه القتل».

وكلَّم عمر بن عبد العزيز الوليد في شيء، فـقال له: كذبت. فقال عمر: «ما كذبت مذ علمت أن الكذب يشين صاحبه».

وقال مطرف بن طريف: «ما أحب أني كذبت وأن لي الدنيا وما فيها».

قال إياس بن معـاوية رحمه الله: «ما يســرني أني كذبت كذبة فغـفرها الله عز وجل لي وأعطى عليها عشرة آلاف درهم، ويعلم بها أبي معاوية بن قرة»، يعني: إجلالاً لأبيه لا يطلع عليه.

قال الفضيل بــن عياض: «ما من مضغة أحب إلى الله مــن لسان صدوق، وما من مضغة أبغض إلى الله من لسان كذوب».

وقال أبو سفيان: «اجعل الصدق مَطِيتك، والحق سيفك، والله تعالى غاية طلبتك».

وقال أيضًا: «من كان الصدق وسيلته، كان الرضا من الله جائزته».

وقال ذو النون المصري: «الصدق سيف الله في أرضه، ما وُضع على شيء إلا قطعه».

ولهذا الصدق كمالات:

منها: الاحتراز عن المعاريض.

ومنها: أن يُراعي معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربه كقوله: «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض».

فإن كان قلبه منصرفًا عن الله مشغولاً بأماني الدنيا وشهواتها، فهو كذب. وكقوله: «إياك نعبد» فإذا لم يتصف بحقيقة العبودية وكان له مطلب سوى الله، لم يكن كلامه صدقًا، فكان عبدًا لنفسه، أو عبدًا للدنيا، أو عبدًا لشهواته، وفي الحديث: «**تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار...**».

فسمى كل من تقيد بشيء فهو عبد له.

فالعبد الحق من أُعتق أولاً من غير الله فصار حرًّا، فتحل في قلبه العبودية لله.

فالعبد الحق الذي وجوده لمولاه لا لنفسه؛ وهذه درجة الصديقين: «عبد ذاهب عن نفسه».

كما قال الجنيد: «الحرية عن غير الله».

كان ربعي من «أشجع» زعم قومه أنه لم يكذب قط[1].

قال الأصمعي: «أتى رجل الحجاجَ، فقال: إن ربعي بن حِراش زعموا لا يكذب، وقد قدِم ولداه عاصيين.

قال: فبعث إليه الحجاج، فقال: ما فعل ابناك؟ قال: هما في البيت، والله المستعان.

---

(١) «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٦/ ١٠١ ب).

فقال له الحجاج بن يوسف: هُما لك، وأعجبه صِدقه»(١).

فلله دره من صادق وفَّى بصدقِهِ إلى الممات!!

عن الحارث الغـنوي، قال: «آلى ربعي بن حـراش أن لا تفتر أسنانُـه ضاحكًا حتى يعلم أين مصيره.

قال الحارث: فأخبر الذي غسله أنه لم يزل مـتبسمًا على سريره ونحن نغسله، حتى فرغنا منه. رحمة الله عليه»(٢).

الربيع بن حِراش: المتكلم بعد الموت.

عن عبد الملك بن عُـمير عن ربعي قال: «كنا أربعة إخـوة، فكان الربيع أكثرنا صلاة وصـيامًا في الهواجـر، وإنه توفي، فبينا نحن حـوله قد بعثنا من يبـتاع له كفنًا؛ إذ كـشف الثوب عن وجهـه، فقال: السـلام عليكم، فقـال القوم: عليكم السلام يا أخا عـيسى، أبعدَ الموت؟ قال: نعم إني لقيـتُ ربي بعدكم، فلقيتُ ربًّا غير غضبان، واستقبلني بروح وريحان وإستبرق، ألا وإن أبا القاسم ينتظر الصلاة علي فعجلوني، ثم كان بمنزلة حصاة رُمي بها في طست»(٣).

وفي رواية: «وعدت رسول الله ﷺ أن لا يذهب حتى أدركه قال: فما شبهت خروج نفسه إلا كحصاة ألقيت في ماء فرسبَت».

قُطاعُ الطريق يتوبون على يد الطفل الصادق:

قال الشيخ عـبد القادر الجيلاني رحمـه الله: «بنيتُ أمري على الصدق، وذلك أني خـرجتُ مـن مكة إلى بغـداد أطلب الـعلم، فـأعطتني أمـي أربعين دينارًا، وعاهدتني على الصـدق، ولما وصلنا أرض (همدان) خرج علينا عـرب، فأخذوا القافلة، فمرَّ واحد منهم، وقال: ما معك؟

قلت: أربعون دينارًا، فظن أني أهزأ به فـتركني، فرآني رجل آخر، فـقال: ما

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٣٦٠).

(٢) «السير» (٤/ ٣٦١).

(٣) «الحلية» (٤/ ٣٦٧، ٣٦٨)، و«السـير» (٤/ ٣٦١)، ورجـال إسناده ثقات، ورواه عن عـبد الملك غير واحد.

معك؟ فأخبرته، فأخذني إلى أميرهم، فسألني فأخبرته، فقال: ما حملك على الصدق؟ قلت: عاهدتني أمي على الصدق، فأخاف أن أخون عهدها. فصاح باكيًا، وقال: أنت تخاف أن تخون عهد أمك، وأنا لا أخاف أن أخون عهد الله!! ثم أمر بردِّ ما أخذوه من القافلة، وقال: أنا تائب لله على يديك.

فقال من معه: أنت كبيرنا في قطع الطريق، وأنت اليوم كبيرنا في التوبة. فتابوا جميعًا ببركة الصدق وسببه».

١ ـ الصدق في العزم: بأن يقدم على الخيرات بقوة تامة لا ميل ولا ضعف ولا تردد فيها.

٢ ـ الصدق في الوفاء بالعزم: فإن النفس قد تسخو بالعزم في الحال، إذ لا مشقة في الوعد والعزم، فإذا حُقت الحقائق، وهاجت الشهوات، انحلت العزيمة ولم يتحقق الوفاء بالعزم.

قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٢٣].

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «عمِّي أنس بن النضر - سُميتُ به - لم يشهد بدراً مع رسول الله ﷺ فكبُر عليه، فقال: أول مشهد قد شهده رسول الله ﷺ غبتُ عنه!! أما والله، لئن أراني الله مشهداً مع رسول الله ﷺ ليرينَّ الله ما أصنع. قال: فهاب أن يقول غيرها، فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أُحد، من العام المقبل، فاستقبله، فقال: يا أبا عمرو إلى أين؟ قال: واهًا لريح الجنة!! أجدها دون أحد. فقاتل حتى قُتل، فوُجد في جسده بضع وثمانون، من بين ضربة وطعنة ورمية، قالت عمَّتي الرُّبيع بنت النضر: فما عرفت أخي إلا ببنانه»، ونزلت هذه الآية: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾[1].

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي في جامعه في كتاب التفسير وقال: حسن صحيح، والنسائي في «الكبرى» وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، والترمذي رقم (٢٥٥٧)، وهو عند البخاري مختصراً: أن هذه الآية نزلت في أنس بن النضر، وهو عند مسلم أيضًا.

لله دره من صادق رباني!! يجد ريح الجنة قبل أن يقاتل! يجد حلاوة العمل قبل الشروع فيه، وما هذا إلا لصدقه في الوفاء بالعزم!!

وعن نعيم بن هبار، قال: قال رسول الله ﷺ: **«الشهداء الذين يُقاتلون في سبيل الله في الصف الأول، ولا يلتفتون بوجوههم حتى يُقتلُوا، فأولئك يُلقون في الغرف العُلا من الجنة، يضحك إليهم ربُّك، إن الله تعالى إذا ضحِك إلى عبده المؤمن فلا حساب عليه»**[١].

الأعرابي البطل صادق العزم.

وقال شداد بن الهاد: جاء رجل من الأعراب إلى النبي ﷺ فآمن به واتبعه فقال: أُهاجر معك، فأوصى به بعض أصحابه، فلما كانت غزوة خيبر، غنم رسول الله ﷺ شيئًا، فقسمه، وقسم للأعرابي، فأعطى أصحابه ما قسمه له، وكان يرعى ظهرهم، فلما جاء دفعوه إليه فقال: ما هذا؟ قالوا: قسمٌ قسمه لك رسول الله ﷺ فأخذه، فجاء به إلى النبي ﷺ فقال: ما هذا يا رسول الله؟ قال: **«قسمٌ قسمته لك»**، قال: ما على هذا اتبعتك، ولكن اتبعتك على أن أرمى ها هنا - وأشار إلى حلقه - بسهم، فأموت فأدخل الجنة، فقال: **«إن تصدق الله يصدقك»** ثمَّ نهض إلى قتال العدو، فأُتِي به إلى النبي ﷺ وهو مقتولَ فقال: **«أهو هو»** قالوا: نعم. قال: **«صدق الله فصدقه»**. فكفَّنه النبي ﷺ في جُبته ثمَّ قدمه، فصلَّى عليه، وكان من دعائه له: **«اللهمَّ هذا عبدك خرج مُهاجرًا في سبيلك، قُتِل شهيدًا، وأنا عليه شهيد»**[٢].

٣ ـ الصدق في النية والإرادة: وهذا هو الإخلاص بعينه.

٤ ـ الصدق في الأعمال: وهذا النوع يحاكي الإخلاص ويضاهي كمال اليقين؛ لأن صاحبه يخلص عمله لربه ويثق في موعود مولاه، فلا يريد بطاعته جزاءً ولا

---

(١) صحيح: رواه الطبراني في «الأوسط»، وأحمد، وأبو يعلى، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٧٤٠).

(٢) أخرجه النسائي (٤/ ٦٠)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١/ ٢٩١)، والحاكم (٣/ ٥٩٥، ٥٩٦)، والبيهقي في سننه، وإسناده صحيح كما في تخريج «زاد المعاد» (٣/ ٣٢٤).

شكوراً، ولا يقصد بها غير خالقه، ولا يبعثه على الحركات والسكنات إلا بارئه، ولا تناقض سريرته علانيته بل تتساويان على الأقل.

قال يزيد بن الحارث: «إذا استوت سريرة العبد وعلانيته فذلك النصف، وإذا كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل، وإن كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور». وقال عبد الواحد بن زيد: «كان الحسن - أي البصري - إذا أمر بشيء كان من أعمل الناس به، وإذا نهى عن شيء كان من أترك الناس له، ولم أرَ أحداً قط أشبه سريرة بعلانية منه».

٥ ـ الصدق في مقامات الدين: للدين مقامات كثيرة كالإخلاص والتوكل واليقين والشوق والرضا والصبر... وكل مقام منها يشترط فيه الصدق ومنها:

أ ـ الصدق في الخوف.

ب ـ الصدق في الرضا.

جـ - الصدق في الرجاء.

د ـ الصدق في المجاهدة.

قال جعفر الصادق: «الصدق هو المجاهدة وأن لا تختار على الله غيره كما لم يختر عليك غيرك، قال تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ [الحج: ٧٨].

هـ - الصدق في التوبة، بأن يتوب توبة نصوحًا بصدق عودة وتمام ندم وكمال انخلاع من الذنب وانسلاخ من العيب، واستحلال من الخلق، إن تعلق الذنب بهم، وعزم على عدم العود إلى الآثام.

قتل مائة نفس وصدق في توبته:

كهذا الذي قتل مائة نفس لكن الله تاب عليه لصدق عودته.

قال رسول الله ﷺ: «**كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا، فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله، فكمَّل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدُل على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة، فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟**

انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإنّ بها أناسًا يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك، فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نَصَفَ الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قط، فأتاهم ملك في صورةِ آدمي فجعلوه بينهم - أي: حكمًا - فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة». متفق عليه.

وفي رواية الصحيح: «فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشبر فجُعل من أهلها».

وفي رواية في الصحيح: «فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدي وإلى هذه أن تقربي، وقال: قيسوا ما بينهما، فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له».

وفي رواية: «فنأى بصدره نحوها»[١].

التائب العائد الصادق كعب بن مالك:

وعن عبد الله بن كعب بن مالك وكان قائد كعب رضي الله عنه من بنيه حين عمِي قال: «سمعت كعب بن مالك رضي الله عنه يُحدثُ بحديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، قال: كعب: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك، غير أني قد تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحدًا تخلف عنه؛ إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش[٢] حتى جمع الله تعالى بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحبُّ أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها، وكان من خبري حين تخلفتُ عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفتُ عنه في تلك الغزوة، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورَّى بغيرها[٣]، حتى كانت تلك الغزوة فغزاها

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٣٤٧٠)، ومسلم رقم (٢٧٦٦).

(٢) العير: الإبل التي عليها أحمالها.

(٣) أي: أوهم أنه يريد غيرها.

رسول الله ﷺ في حرٍّ شديد، واستـقبل سفرًا بعيـدًا ومفازًا[١]، واستقـبل عددًا كثيرًا، فـجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبـوا أهبة غزوهم[٢] فأخبرهم بوجههم الذي يريد، والمسلمون مـع رسول الله كثيـر ولا يجمـعهم كتـابٌ حافظٌ - يريد بذلك الديوان -.

قال كعب: فـقل رجلٌ يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيـخفى به ما لم ينزل فيه وحـي من الله، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثـمار والظلال فأنا إليها أصعر[٣]، فتجـهز رسول الله ﷺ والمسلمون معـه، وطفقت أغدو لكي أتجهز معـه فأرجع ولم أقض شيئًا وأقـول - في نفسي -: أنا قادرٌ على ذلك إذا أردت فلم يزل يتمادى بي حتى استمر بالناس الجد[٤] فأصبح رسول الله ﷺ غاديًا والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئًا، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئًا، فلم يزل ذلك يتـمادى بي حـتى أسرعـوا وتفارط الغـزو[٥]، فهـممت أن أرتحل فأدركهم فيا ليتني فعلت ثم لم يقدر ذلك لي، فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزنُني أني لا أرى لي أسوةً[٦]، إلا رجلاً مغمـوصًا عليه في النفاق[٧]، أو رجلاً ممن عذر الله تعالى من الضـعفاء، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: **«ما فعل كعب بن مالك؟»** فقال رجل من بني سلمـة: يا رسول الله حبسه بُرداهُ والنظر في عطفـيه، فقال له معاذ بن جبل رضي الله عنه: بئس مـا قلت! والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرًا، فسكت رسـول الله ﷺ، فبينا هو على ذلك رأى رجلاً مُبيضًّا[٨] يزول به السراب، فقال رسول الله ﷺ: **«كن أبا خيـثمة»**، فإذا هو أبو خيـثمة الأنصاري،

---

(١) أي: برية طويلة قليلة الماء، وسُميت بالمفازة تفاؤلاً لأنه قل أن ينجو سالكها.

(٢) أي: ليستعدوا بما يحتاجون إليه في سفرهم وحربهم.

(٣) أميل.

(٤) يعني: الاجتهاد في أمر السفر وشأنه.

(٥) أي: تقدم الغزاة.

(٦) أي: قدوة.

(٧) أي: مطعونًا عليه بأنه منافق.

(٨) أي: لابسًا البياض. والسراب: ما يظهر للإنسان في الهواجر في البراري كأنه ماء.

وهو الذي تصدق بصاع التمر حين لمزَهُ المنافقون(١).

قال كعب: فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجَّه قافلاً من تبوك حضرني بثي فطفقت أتذكر الكذب وأقول: بِمَ أخرجُ من سخطه غدًا؟ وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلمَّا قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظلَّ قادمًا، زاح عني الباطل حتى عرفت أني لم أنجُ منه بشيء أبدًا، فأجـمعت صدقَهُ(٢)، وأصبح رسول الله ﷺ قادمًـا، وكان إذا قَدِمَ من سـفر بدأ بالمسـجد فركع فـيه ركعـتين، ثم جلس للناس، فلمَّا فعل ذلك جَاءهُ المخلَّفُون(٣) يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعًا وثمانين رجلاً، فقبل منهم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله تعالى حتى جئت، فلما سلَّمت تبسَّمَ تبسم المغضب(٤)، ثم قال: «**تعال**»، فجئتُ أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: «**ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك**»(٥)، قال: قلت: يا رسول الله إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخـرجُ من سخطِه بعُـذر؛ لقد أعطـيت جدَلاً(٦)، ولكني والله لقد علمت لئن حـدَّثتك اليومَ حـدَيثَ كـذب ترضى به عني ليـوشكنَّ الله يسـخطك عليَّ، وإن حدثتك حديث صدق تجدُ عليَّ فيه(٧) إني لأرجو فيه عقبى الله عزَّ وجل(٨)، والله ما كـان لي من عُذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسـر مني حين تخلفت عنك، قال: فقـال رسول الله ﷺ: «**أمَّا هذا فـقد صدق فـقم حتى يقـضي الله فيك**»، وسار رجالٌ من بني سلمة فاتَّبعوني فـقالوا لي: والله ما علمناك أذنبت ذنبًا قبل هذا لقد عجزت في أن لا تكون اعـتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المخلفـون، فقد

---

(١) أي: قالوا: إن الله غني عن صاع هذا. وقافلاً: أي راجعًا. والبث: الحزن الشديد.

(٢) أي: عزمت عليه.

(٣) أي: عن الخروج معه إلى تبوك.

(٤) أي: الغضبان.

(٥) أي: اشتريت راحلتك.

(٦) أي: فصاحة وبلاغة.

(٧) تجِدَ (بكسر الجيم وتخفيف الدال): أي تغضب.

(٨) أي: العاقبة الحسنة بتوبة الله عليَّ، ورضى رسول الله ﷺ عني، ولصدقه رضي الله عنه تاب الله عليه.

كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك. قال: فوالله ما زالوا يؤنبونني[١] حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأُكذب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقيَ هذا معي من أحد؟ قالوا: نعم، لقيه معك رجلان، قالا مثل ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك، قال: قلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمري، وهلال ابن أمية الواقفي، قال: فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرًا لي فيهما أُسوة، قال: فمضيت حين ذكروهما لي. ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس - أو قال: تغيروا لنا - حتى تنكرت لي[٢] في نفسي الأرض فما هي بالأرض التي أعرفُ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة. فأما صاحباي فاستكانا[٣] وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشب القوم[٤] وأجلدهم فكنت أخرجُ فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوفُ في الأسواق ولا يُكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأُسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام أم لا؟ ثم أُصلي قريبًا منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليَّ، وإذا التفت نحوه أعرض عنِّي، حتى إذا طال ذلك عليَّ من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة[٥] وهو ابن عمي وأحب الناس إليَّ، فسلَّمت عليه فوالله ما ردَّ عليَّ السلام، فقلت له: يا أبا قتادة أنشدك بالله[٦] هل تعلمُني أُحبُّ الله ورسوله ﷺ؟ فسكت، فعدت فناشدته فسكت فعُدت فناشدته. فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي[٧] وتوليت حتى تسوَّرت الجدار، فبينا أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطيٌّ من نبط أهل الشام[٨] ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟

---

(١) أي: يلومونني أشد اللوم.

(٢) أي: تغيرت لي.

(٣) أي: خضعا.

(٤) أي: أصغرهم سنًّا.

(٥) أي: علوت سور بستانه.

(٦) أي: أسألك بالله تعالى.

(٧) أي: بالدموع.

(٨) أي: الفلاح، سُمي به؛ لأنه يستنبط الماء؛ أي يستخرجه.

فطفق الناس يشيرون له إليَّ حتى جاءني فدفع إليَّ كتابًا من ملك غسَّان، وكنت كاتبًا، فقرأتُهُ فإذا فيه:

أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك[١]، فقلت حين قرأتها: وهذه أيضًا من البلاء فتيمَّمت بها التنُّور[٢] فسجرتها، حتى إذا مضت أربعون من الخمسين واستلبث الوحي[٣] إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أُطلقها أم ماذا أفعل؟ فقال: لا بل اعتزلها فلا تقربنها وأرسل إلى صاحبيَّ بمثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر، فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت له: يا رسول الله إنَّ هلال بن أمية شيخ ضائعٌ ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا، ولكن لا يقربنَّك[٤]، فقالت: إنه والله ما به من حركة إلى شيء ووالله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه؟ فقلت: لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما يُدريني ماذا يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شابٌّ، فلبثتُ بذلك عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نُهي عن كلامنا، ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيتٍ من بيوتنا، فبينا أنا جالسٌ على الحال التي ذكر الله تعالى عنا قد ضاقت عليَّ نفسي وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى على سلع[٥] يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر، فخررت ساجدًا وعرفت أنه قد جاء فرجٌ. فآذن رسول الله ﷺ الناس بتوبة الله عز وجل علينا حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا، فذهب قِبل صاحبي مبشرون وركض[٦] إليَّ رجل فرسًا وسعى

---

(١) من المواساة.

(٢) هو ما يخبز فيه. وسجرتها: وقدتها.

(٣) أي: أبطأ.

(٤) هذا كناية عن الجماع.

(٥) أي: صعد على (سلع)، وهو جبل بالمدينة.

(٦) الركض: الجري الشديد.

ساع من أسلم قِـبلي، وأوفى على الجبل، فكان الصـوت أسرع من الفـرس فلما جاءني الذي سمعت صوته يُبشرني نزعت له ثوبيَّ فكسوتهما إياه ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت أتأمَّمُ رسول الله ﷺ[١] يتلقاني الناس فوجًـا فوجًا يهنئوني بالتوبة، ويقـولون لي: لتهنك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناسُ، فقام طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه يهرول حتى صافحني وهـنأني، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره، فكان كعبٌ لا ينساها لطلحة، قال كعب: فلما سلَّمتُ على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق من السرور: «أبشر بخير يوم مرَّ عليك مُذ ولدتك أمك»، فقلت: أمن عندك يا رسـول الله أم من عند الله؟ قـال: «لا بل من عنـد الله عـز وجل»، وكـان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كـأنَّ وجهه قطعة قمرٍ، وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلستُ بين يديه قلت: يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع[٢] من مالي صدقةً إلى الله وإلى رسوله، فقال رسول الله ﷺ: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك»، فقلت: إني أمسك سهمي الذي بخيبـر، وقلت: يا رسول الله إن الله تعالى إنما أنجاني بالصدق وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقًا ما بقيتُ، فوالله ما علمت أحدًا من المسلمين أبلاه الله تعالى[٣]، في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى، والله ما تعمدت كذبةً منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا وإني لأرجو أن يحفظني الله تعالى فيما بقي، قال: فأنزل الله تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ حتى بلغ ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ حتى بلغ: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٧ - ١١٩].

قال كـعب: والله مـا أنعم الله عليَّ من نعمـة قط بعد إذ هداني الله لـلإسلام أعظم في نفسي من صـدقي رسول الله ﷺ أن لا أكون كـذبتهُ فأهلكَ كـما هلك الذين كذبوا، إن الله تعـالى قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شرَّ مـا قال لأحدٍ

(١) أي: أقصده. والفوج: الجماعة.

(٢) أي: أخرج.

(٣) أي: أنعم عليه.

فقال الله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ(١) إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(*) ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٥، ٩٦].

قال كعب: كنا خُلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله تعالى فيه بذلك. قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾، وليس الذي ذكر مما خُلفنا تخلفنا عن الغزو وإنما هو تخليفُهُ إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه»، متفق عليه. وفي رواية: «أن النبي ﷺ خرج في غزوة تبوك يوم الخميس، وكان يحب أن يخرج يوم الخميس»، وفي رواية: «وكان لا يقدم من سفر إلا نهاراً في الضحى فإذا قدم بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين ثم جلس فيه»(٢).

ماعز والغامدية رضي الله عنهما صادقا التوبة:

- عن أبي نُجيد - بضم النون وفتح الجيم - عمران بن الحصين الخزاعي رضي الله عنهما أن امرأة من جهينة أتت رسول الله ﷺ وهي حُبلى من الزنا فقالت: يا رسول الله أصبت حدًّا فأقمه علي، فدعا نبي الله ﷺ وليها فقال: «**أحسن إليها فإذا وضعت فأتني**»، ففعل فأمر بها نبي الله ﷺ فشُدت عليها ثيابها(٣)، ثم أمر بها فرجمت ثم صلى عليها. فقال له عمر: تُصلي عليها يا رسول الله وقد زنت؟ قال: «**لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله عز وجل؟!**»(٤) رواه مسلم.

و - الصدق في الاستقامة على منهاج الدين، فلا يعبد الله على حرف، ولا

---

(١) أي: رجعتم.

(*) انظر كتاب «المخلفون وغزوة تبوك» للأستاذ نذير عتمة- ط. المكتب الإسلامي.

(٢) أخرجه البخاري رقم (٤٤١٨)، ومسلم رقم (٢٧٦٩).

(٣) كذا في النسخ التي بين أيدينا، وهي كذلك في بعض نسخ مسلم، وفي بعضها: «فشكت» بالكاف: أي جمعت أطرافها لتستتر لئلا تنكشف في أثناء رجمها.

(٤) أخرجه الإمام مسلم رقم (١٦٩٦).

يتقلب في طاعته لربه، كمن يصلي يومًا، ويترك الصلاة يومًا آخر، أو من يغض بصره يومًا ثم يطلقه يومًا آخر...

صحيح أنه قد يفتر يومًا ما عن الجد والنشاط ويميل إلى الراحة والكسل لكنه ينتقل من كمال الإيمان إلى الوقوف عند الفرائض والتخفف من النوافل، ولا يرتكب الآثام أو يقترف كبائر الفواحش.

ز - الصدق في التوكل: فلا يتعلق قلبه بغير ربه، ولا يظن سوءًا بكفاية الله له، وإذا وردت عليه موارد الفاقات، فلا تسمو إلا إلى من إليه الكفايات مع الاستسلام لتدبير الرب لك فيما يفعله بك.

ح - صدق الوعد: فإذا وعد صدق وإذا عاهد وَفَّى. كما قال الله تعالى عن إسماعيل عليه السلام: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤].

* * *

الكذب:

ونقيض الصدق الكذب:

ويقصد به مخالفة الخبر للواقع، والظاهر للباطن، والقول للعمل وله دوافع أهمها:

١ - الاعتذار عن خطأ وقع فيه فيحاول التخلص من عواقبه بالكذب.

٢ - تعود الكذب وإلفه.

٣ - الاحتيال على الناس والخسة والدناءة.

٤ - تحصيل منفعة أو كسب مال.

٥ - رهبة المرء من شيء ما.

٦ - قلة المبالاة وعدم التثبت والعبث.

٧ - اللؤم والسخرية والاستهزاء بالناس.

٨ - حب التفاخر والظهور.

٩ - حب الانتقام من العدو والتشفي منه.

والكذب أسوأ الأخلاق المذمومة.

فهو من صفات المنافقين:

يقول ﷺ: «**أربع من كنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**»(١).

والكذب سبب من أسباب دخول النار كما سبق في قوله ﷺ: «**... وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإنَّ الفجور يهدي إلى النار، وإنَّ الرجل ليكذب حتى يُكتب عند الله كذابًا**»(٢). وللكذاب عذاب أليم في القبر، وعقاب شديد في جهنم.

في حديث الرؤيا الطويل عن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ مما يُكثر أن يقول لأصحابه: «**هل رأى أحد منكم من رؤيا؟**»، فيقص عليه من شاء الله أن يقص وأنه قال لنا ذات غداة: «**إنه أتاني الليلة آتيان، وإنهما قالا لي: انطلق انطلق، وإني انطلقت معهما.. إلى أن قال... فانطلقنا، فأتينا على رجل مستلق لقفاه، وإذا آخر قائم عليه بكلوب(٣) من حديد، وإذا هو يأتي أحد شقي وجهه فيُشَرشر(٤) شدقه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، ثم يتحول إلى الجانب الآخر فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول، فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصحّ ذلك الجانب كما كان، ثم يعود عليه، فيفعل مثل ما فعل في المرة الأولى ... فلما أوّلا هذا له قالا: وأما الرجل الذي أتيت عليه يشرشر شدقه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، فإنه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق...**»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٣٤)، ومسلم رقم (٥٨).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٦٠٩٤)، ومسلم رقم (٢٦٠٧).

(٣) الكلوب: الخطاف.

(٤) يشرشر: يُقطِّع.

(٥) أخرجه البخاري رقم (١٣٨٦).

والكذب يستلزم الهلاك والوعيد ولو كان بطريقة المزاح والضحك.

يقول رسول الله ﷺ: **«ويل للذي يضحك الناس بالكذب، ويل له، ثمَّ ويل له»**(١).

ولمَا للكذب من مفاسد عظيمة كان أبغض الأخلاق السيئة إلى رسول الله ﷺ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان أبغض الخُلُق إليه ﷺ الكذب»(٢).

درجات الكذب:

والكذب درجات بعضها أعظم إثمًا من بعض.

- فأولها وأشدها: الكذب المؤدي إلى الكفر، وذلك بأن يكذب الله - جل وعلا - أو رسوله - ﷺ فيما عُلم يقينًا أنه جاء به.

يقول تعالى: **﴿وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** [النحل: ١١٦، ١١٧].

ويقول: **﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾** [هود: ١٨، ١٩].

فتكذيب الله ورسوله ﷺ أو الافتراء عليهما بتحليل حرام أو تحريم حلال كفر.

- وثانيها: كذب من أكبر الكبائر:

وله مظاهر منها:

أ - الكذب على رسول الله ﷺ بأن يقال عنه ما لم يقله.

ب - ومنها: الانتساب إلى غير الأب.

جـ - ومنها: الكذب في الرؤيا بأن يدعي أنه رأى في المنام رؤيا ولم يرها. قال رسول الله ﷺ: **«إن من أعظم الفرى(٣) أن يدَّعي الرجل إلى غير أبيه، أو يُري عينه ما**

---

(١) حسن: أخرجه أحمد، وأبو داود، والترمذي، والحاكم، وانظر «صحيح الجامع» للألباني رقم (٧١٣٦).

(٢) أخرجه ابن وهب، وأحمد، وابن سعد، وانظر «الصحيحة» رقم (٢٠٥١).

(٣) الفرى: جمع (فرية)، والفرية: الكذب.

لم تَر، أو يقول على رسول الله ﷺ ما لم يقل»[١].

د - ومنها: اليمين الكاذبة أو اليمين الغموس؛ ليأخذ بها مالاً أو حقًّا ليس حقه.

قال رسول الله ﷺ: «**من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه، فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة**» فقال له رجل: وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله؟ قال: «**وإن كان قضيبًا من أراك**»[٢].

وعن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «**من حلف على مال امرئ مسلم بغير حقه، لقي الله وهو عليه غضبان**» قال: ثم قرأ علينا رسول الله ﷺ مصداقه من كتاب الله عز وجل: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً**﴾ [آل عمران: ٧٧] إلى آخر الآية[٣].

هـ - ومنها: شهادة الزور.

قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟**» قلنا: بلى يا رسول الله. قال: «**الإشراك بالله، وعقوق الوالدين**»، وكان متكئًا فجلس، فقال: «**ألا وقول الزور وشهادة الزور**»، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت[٤].

و - ومنها: القذف فيما لم تره العين - بالزنا.

- وثالثها: كذب من الكبائر:

وأعني به ما يتحقق به أذى للغير ولو كان ضعيفًا وما يحصل به العبد على منفعة ولو كانت صغيرة، وهذا هو الكذب عند الإطلاق.

- ورابعها: كذب من الصغائر:

ويقصد به ما لم يترتب عليه ضرر مع وجود مصلحة أخرى، وأصله أن يكون مع الصبيان حثًّا على فعل أو نهيًا عن عمل.

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٣٥٠٩).

(٢) أخرجه مسلم رقم (١٣٧).

(٣) أخرجه البخاري رقم (٢٣٥٧)، ومسلم رقم (١٣٨/ ٢٢٢).

(٤) أخرجه البخاري رقم (٢٦٥٤)، ومسلم رقم (٨٧).

ففي الحديث أن صحابية قالت لولدها: تعال أعطك، فسمعها النبي ﷺ فقال: «أتعطينه؟» قالت: نعم، قال: «**لو لم تعطه لكتبت عليك كذبة**»(١).

ولا يليق بِمُربٍّ أن يلتزم هذا السلوك في تربية ولده أو تلميذه.

- خامسها: كذب مباح وقد يكون مندوبًا أو واجبًا، وذلك بالموازنة بين المصلحة والمفسدة والضرر والنفع والخير والشر؛ لذا تعين جواز الكذب في الحرب والصلح بين الناس وحديث المرأة زوجها، وحديث الرجل زوجته في الحب وما يقاربه لوضوح المصلحة.

عن أم كلثوم بنت عقبة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيرًا أو يقول خيرًا**».

قالت أم كلثوم: «ولم أسمعه يُرخص في شيء مما يقول الناس إلا في ثلاث: الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها»(٢).

وضابط ما يجوز من الكذب: «إن الكلام وسيلة إلى المقاصد، فكل مقصود محمود يمكن تحصيله بغير الكذب يحرم الكذب فيه، وإن لم يُمكن تحصيله إلا بالكذب جاز الكذب، ثم إن كان تحصيل ذلك المقصود مباحًا كان الكذب مباحًا، وإن كان واجبًا كان الكذب واجبًا، فإذا اختفى المسلم من ظالم يريد قتله، أو أخذ ماله، وأخفى ماله وسئل إنسان عنه، وجب الكذب بإخفائه، وكذا لو كان عنده وديعة، وأراد ظالم أخذها، وجب الكذب بإخفائها، والأحوط في هذا كله أن يواري.

ومعنى التورية: أن يقصد بعبارته مقصودًا صحيحًا ليس هو كذبًا بالنسبة إليه، وإن كان كاذبًا في ظاهر اللفظ، وبالنسبة إلى ما يفهمه المخاطب.

ولو ترك التورية وأطلق عبارة الكذب، فليس بحرام في هذا الحال»(٣)، بناءً على الحديث السابق، والورع الوقوف عند التورية.

---

(١) حسن: أخرجه أبو داود.

(٢) أخرجه الشيخان (مسلم كتاب البر).

(٣) من كلام الإمام النووي في «رياض الصالحين» (صـ ٣٨٩).

في المعاريض مندوحة:

فإن اضطر المرء للكذب لدرء مفسدة أو جلب مصلحة استعاض عن ذلك بالتورية والتعريض بأن يقول كلامًا يحتمل وجهين وهذا الذي فعله أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام في كذباته الثلاث، قال رسول الله ﷺ: **«لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام قط إلا ثلاث كذبات: ثنتين في ذات الله، قوله: "إني سقيم" وقوله: "بل فعله كبيرهم هذا" وواحدة في شأن سارة، فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة وكانت أحسن الناس، فقال لها: إنَّ هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي، فإنك أختي في الإسلام، فإني لا أعلم في الأرض مسلمًا غيري وغيرك ...»**[1].

فما فعله الخليل عليه السلام لم يكن كذبًا وإنما كان تعريضًا وتورية، فلا مؤاخذة به، ولا تنتفي العصمة بصدوره.

وكذلك قول الرميصاء لما مات ولدها: «هدأت نفسه، وأرجو أن يكون قد استراح»[2]. وظن أنها صادقة بينما أرادت أنه مات، ولما علم النبي ﷺ بذلك لم ينكر عليها، ولم يأمرها بالتوبة.

* * *

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع رقم (٢٢١٧)، وكتاب الأنبياء رقم (٣٣٥٨)، ومسلم: كتاب الفضائل رقم (٢٣٧١).

(٢) أخرجه البخاري كتاب الأدب وسيأتي بطوله.

(٢) الصبر

الصبر يحقق لصاحبه الفوز بمعية الله وجنته ونيل عظيم ثوابه، يقول جل وعلا: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

ويقول: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

ويقول النبي ﷺ: **«يقول الله تعالى: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة»**[١]. يريد: عينيه.

وكل بلاء ينزل على العبد المؤمن في جسده أو ماله أو زوجه أو ولده فصبر كفر الله بذلك خطاياه وحطّ عنه ذنوبه وضوعفت حسناته.

قال رسول الله ﷺ: **«ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب[٢]، ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه»**[٣].

ويقول ابن مسعود رضي الله عنه: دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك، فقلت: يا رسول الله إنك توعك وعكًا شديدًا، قال: **«أجل إني أوعك كما يوعك رجلان منكم»**. قلت: ذلك أن لك أجرين؟ قال: **«أجل ذلك كذلك ما من مسلم يصيبه أذى، شوكة فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته، وحطت عنه ذنوبه كما تحط الشجرة ورقها»**[٤].

وقال ﷺ: **«المؤمن مُكفَّر»**[٥].

الابتلاء علامة من علامات حب الله:

وابتلاء العبد في دينه ونفسه وماله وولده علامة من علامات حب الله للعبد.

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٥٦٥٣).

(٢) أي: مرض.

(٣) أخرجه البخاري رقم (٥٦٤٢)، ومسلم رقم (٢٥٧٣).

(٤) أخرجه البخاري رقم (٥٦٤٨)، ومسلم رقم (٢٥٧١).

(٥) أخرجه الحاكم وصححه، وانظر «الصحيحة» رقم (٢٣٦٧).

يقول النبي ﷺ: «إنَّ عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإنَّ الله تعالى إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سَخِط فله السخط»(١).

وقال: «من يرد الله به خيرًا يُصِب منه»(٢). أي: يمتحنه ويبتليه.

وعظم البلاء دليل على قوة الإيمان كما قال ﷺ: «أشد الناس بلاءً الأنبياء ثمَّ الصالحون، ثمَّ الأمثل فالأمثل، يبتلى المرء على قدر دينه فإن كان في دينه زيادة زيد بلاؤه، وإن كان في دينه نقص قل بلاؤه»(٣).

والصبر على البلاء والمصائب يستوجب صلوات الله ورحمته والفوز بهدايته قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

مات عبد الله بن مُطرِّف فخرج مُطرِّف بن عبد الله بن الشِّخير على قومه في ثياب حسنة وقد ادّهن فغضبوا وقالوا: يموت عبد الله ثمَّ تخرج في ثياب مثل هذه ومدهنًا؟

قال: أفأستكين لها وقد وعدني ربي تبارك وتعالى ثلاث خصال كل خصلة منها أحب إليَّ من الدنيا وما فيها، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦، ١٥٧] أفأستكين بعد هذا؟ قال: فهانت.

والصبر ضياء ونور يهدي صاحبه إلى اتباع الطريق المستقيم يقول رسول الله ﷺ: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»(٤).

فما هو الصبر وما أنواعه وما مظاهره؟

الصبر لغة: حبس النفس عن الجزع.

---

(١) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن.

(٢) أخرجه البخاري رقم (٥٦٤٥).

(٣) أخرجه أحمد.

(٤) أخرجه مسلم رقم (٢٢٣).

والتصبر تكلف الصبر. وهو عند العلماء: مقاومة النفس للهوى؛ لئلا تنقاد لقبائح الأشياء، أو احتمال الكد، أو ثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى.

أقسامه: ينقسم إلى ستة أقسام: وهو في كل منها محمود:

١ - الصبر على امتثال ما أمر الله به والانتهاء عما نهى عنه.

٢ - الصبر على ما يقتضيه الزمن من مصيبة قد أجهده الحزن عليها.

٣ - الصبر على ما فات إدراكه من رغبة مرجوة وأعوز نيله من مسرة مأمولة، قال ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن إنّ أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له**»(١).

٤ - الصبر فيما يخشى حدوثه من رهبة يخافها، أو فيما يحذر حلوله من نكبة يخشاها. يقول الحسن: «لا تحملن على يومك هم غدك فحسب كل يوم همّه».

٥ - الصبر فيما يتوقعه من رغبة يرجوها ونعمة ينتظرها؛ لأنه إن أدهشه التوقع لها أفسدت عليه السبل أما إذا كان مع الرغبة وقوراً فستنجلي عنه عماية الدهشة، ولذا يقول ﷺ: «**الصبر ضياء**»(٢).

ويقول بعض الحكماء: «من صبر ظفر»، ويقول تعالى: ﴿**وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ**﴾ [الشورى: ٤٣].

٦ ـ الصبر على ما نزل من مكروه أو أمر مخيف قال تعالى من وصايا لقمان لابنه: ﴿**وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ**﴾ [لقمان: ١٧]، وكما في الحديث: «**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير**».

وينقسم الصبر باعتبار القوة والضعف إلى ثلاثة أقسام:

١- هو الذي يقهر فيه باعث الدين داعي الهوى وهذه درجة الصديقين قال تعالى: ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً**﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨].

٢- الذي يتغلب فيه داعي الهوى على باعث الدين بالكلية وهؤلاء هم

(١) رواه مسلم عن صهيب بن سنان الرومي.

(٢) أخرجه مسلم كما سيأتي.

الأكثرون الغافلون قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

وقد تكون الحرب سجالاً بينهما فتارة ينتصر هذا وتارة ينهزم وهم من خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا.

وينقسم باعتبار مواطنه إلى قسمين:

١- الذي يوافق الهوى كالصحة والمال فعليه ألا يركن إلى الدنيا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

٢ - والذي لا يوافق الهوى والطبع وهو أنواع:

- الصبر على أداء الطاعة أو عدم ارتكاب المعصية.

- الصبر على ما يصيب الإنسان بغير إرادته، ولكن يستطيع أن يدفعه بإرادته.

٣ - الصبر على أمور لا تملك الإرادة ردها ودفعها أصلاً كالمصائب التي تجيء بها الأقدار.

وينقسم الصبر باعتبار محله إلى قسمين:

١ - بدني وهو نوعان:

أ - بدني اضطراري كالصبر على المرض.

ب - بدني اختياري.

٢ - نفسي وهو نوعان:

أ - نفسي اضطراري كالصبر على نوائب الدهر.

ب - نفسي اختياري كالصبر على مشتهيات الطبع.

وهذه الأقسام كلها تعود إلى ثلاثة أقسام: صبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، وصبر على الابتلاءات.

ولا توجد فضيلة من الفضائل إلا والصبر دعامتها، فما من إنسان وصل إلى

غايته وحقق هدفه إلا بالصبر، وما من رئيس وصل إلى منصبه إلا بالصبر، وإذا كانت قلة الصبر هي التي طردت آدم وحواء من الجنة، فلا شك في أنهما لم يهبطا مسلحين إلا بالصبر متأهبين به لمواجهة الحياة الجديدة التي نزلا إليها، وأيضًا لولا فضيلة الصبر ما كانت أبوة ولا أمومة، وما أقيمت أسرة، ولا نشأت جماعة، ولا كان للإنسانية وجود، ولا للحيوانات والطيور حياة.

والأمومة في الإنسان مجهودها أشق وأدق والصبر عليها أعظم وأجمل ولذا خص الله تعالى بالتصريح، وبيان مزينة صبرها فقال: ﴿ووصينا...﴾.

إن الصبر هو أساس هذه الحياة من مبدئها إذ هو سر نجاح الأفراد في واجباتهم ووصولهم إلى آمالهم وغاياتهم، من أجل هذا جعل الله أنبياءه يتحلون به، وأمر محمدًا ﷺ بالتحلي به فقال: ﴿فاصبر...﴾.

ولقد اقتدى أبو بكر بالرسول ﷺ كما اقتدى عمر.

والتاريخ لم يعرف ملكًا عظيمًا ولا عالمًا كبيرًا إلا والصبر من أبرز صفاته.

أنواع الصبر:

وقد اشتهر أن أنواع الصبر - عامة - ثلاثة:

صبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، وصبر على المصائب.

أولاً: الصبر على الطاعة:

فالصبر على الطاعة يكون بأدائها مهما كانت ثقيلة على النفس، ومن أفضل من حقق هذا النوع إسماعيل عليه السلام يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ [الصافات: ١٠٢ - ١٠٦].

الصبر في ساحة القتال:

وللصبر في قتال أعداء الله شأن عظيم، فإن الصابر يلقي بروحه وجسده في أرض المعركة، لا يولي دبره ولا يضن بنفسه إرضاءً لربه.

عن أبي قتادة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قام فيهم فذكر لهم أن الجهاد في سبيل الله، والإيمان بالله أفضل الأعمال، فقام رجل فقال: يا رسول الله أرأيت إن قتلت في سبيل الله، تُكفَّر عني خطاياي؟ فقال له رسول الله ﷺ: **«نعم، إن قتلت في سبيل الله وأنت صابر محتسب، مقبل غير مُدبر»**، ثم قال رسول الله ﷺ: **«كيف قلت؟»** قال: أرأيت إن قتلت في سبيل الله، أتكفر عني خطاياي؟ فقال رسول الله ﷺ: **«نعم وأنت صابر محتسب مُقبل غير مُدبِر، إلا الدين فإن جبريل قال لي ذلك»**[1].

الصبر على مشاق الدعوة:

ومن ألوان الصبر: الصبر على عقبات الدعوة.

فإن الدعاة والمصلحين يبتلون بمن يعكر عليهم صفو الدعوة.

قال تعالى: **﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾** [المزمل: ١٠].

وقال تعالى: **﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ﴾** [ص: ١٧].

وقال تعالى: **﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾** [الأحقاف: ٣٥].

وقال تعالى: **﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾** [الإنسان: ٢٤].

وقال تعالى: **﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾** [الطور: ٤٨].

وقال تعالى: **﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾** [الأنعام: ٣٣، ٣٤].

ثانيًا: الصبر عن المعصية:

بالبعد عنها، وعدم الوقوع فيها أيًا كان إغواؤها أو إغراؤها أو زلزالها، كما حدث من يوسف عليه السلام عندما راودته امرأة العزيز، يقول تبارك وتعالى: **﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾** [يوسف: ٢٣].

---

(١) أخرجه مسلم رقم (١٨٨٥).

ثالثًا: الصبر على الابتلاءات.

وله صور منها: الصبر على فقد الولد، قال رسول الله ﷺ: **«إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم. فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم. فيقول: فماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع. فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة وسموه بيت الحمد»**(١).

* حفيدة أيوب: (الرميصاء): لا ريب أن الرميصاء أم سليم امرأة أبي طلحة رضي الله عنهما من الجديرات بالعيش في بيت الحمد، فقد رزقت من زوجها أبي طلحة ولدًا جميلاً لم تمتع به كثيرًا فقد مات صغيرًا، فسَجَّته أم سليم رضي الله عنها، ولم تُعْلم زوجها بخبر موته، ولم تُغيِّر ثيابها، وجاء زوجها إليها مع أصحابه، فأعدت له عشاءه، وتجملت له، وتعطرت، ولبست أجمل ثيابها، وكأنها في ليلة عرس، فقضى معها أجمل ليلة.

وجزاء صبرها الفذ العجيب رزقها الله جل كرمه عشرة أولاد كلهم يحفظون القرآن ويعملون به.

وإليك ما حدث: «قدم أبو طلحة من عند رسول الله ﷺ، دخل عليها ومعه ناس من أهل المسجد من أصحابه، فقال: كيف بُني؟

قالت: يا أبا طلحة، ما كان منذ اشتكى أسكن منه الساعة، وأرجو أن يكون قد استراح. فأتته بعشائه، فقربته إليهم فتعشوا، وخرج القوم، وقام إلى فراشه فوضع رأسه، ثم قامت فتطيبت، وتصنعت له أحسن ما كانت تصنع له قبل ذلك، ثم جاءت حتى دخلت معه الفراش، فما هو إلا أن شم ريح الطيب كان منه ما يكون من الرجل إلى أهله، فلما كان آخر الليل، قالت: أبا طلحة، أرأيت لو أن قومًا أعاروا قومًا عارية،(٢) فسألوهم إياها أكان لهم أن يمنعوهم؟ قال: لا. قالت: فإن الله عز وجل كان أعارك ابنك عارية ثم قبضه إليه فاحتسب واصبر. فغضب ثم قال: تركتني حتى إذا وقعت بما وقعت به نعيت إليَّ ابني!

---

(١) أخرجه الترمذي رقم (١٠٢١)، وقال: حديث حسن. وانظر «الصحيحة» رقم (١٤٠٨).

(٢) عارية: أمانة.

فاسترجع(١) وحمد الله، فلما أصبح اغتسل ثم غدا(٢) على رسول الله ﷺ فصلى معه فأخبره فقال رسول الله ﷺ: **«بارك الله لكما في غابر(٣) ليلتكما»**.

فثقلت من ذلك الحمل، وكانت أم سليم تسافر مع رسول الله ﷺ، تخرج معه إذا خرج، وتدخل معه إذا دخل، وقال رسول الله ﷺ: **«إذا ولدت فائتني بالصبي»**.

فكان رسول الله ﷺ في سفر وهي معه، وكان رسول الله ﷺ إذا أتى المدينة من سفر لا يطرقها طروقًا، فدنوا من المدينة، فضربها المخاض، واحتبس عليها أبو طلحة، وانطلق رسول الله ﷺ، فقال أبو طلحة: يا رب إنك لتعلم أنه يعجبني أن أخرج مع رسولك إذا خرج، وأدخل معه إذا دخل (يريد المعارك)، وقد احتبست بما ترى. قال: تقول أم سليم: يا أبا طلحة ما أجد الذي كنت أجد، فانطلقا.

قال: وضربها المخاض(٤) حين قدموا، فولدت غلامًا، وقالت لابنها أنس: يا أنس، لا يطعم شيئًا حتى تغدو به إلى رسول الله ﷺ، وبعثت معه بتمرات.

قال: فبات يبكي، وبت مُجنحًا عليه(٥) أكالئه حتى أصبحت، فغدوت إلى رسول الله ﷺ وعليه بردة، وهو يسم(٦) إبلاً أو غنمًا قدمت عليه، فلما نظر إليه قال لأنس: **«أولدت بنت ملحان؟»**، قال: نعم. فقال: **«رويدك(٧) أفرغ لك»**. قال: فألقى ما في يده فتناول الصبي وقال: **«أمعه شيء؟»**، قالوا: نعم، تمرات.

فأخذ النبي ﷺ بعض التمر فمَضَغهن ثم جمع بزاقه ثم فغر(٨) فاه وأوجره(٩)

---

(١) فاسترجع: أي قال: إنا لله وإنا إليه راجعون.

(٢) غدا: ذهب صباحًا.

(٣) غابر: سالف.

(٤) المخاض: آلام الحمل.

(٥) مُجنحًا عليه: مائلاً.

(٦) يَسِمُ: يُعلِّم.

(٧) رويدك: تمهَّل.

(٨) فغر: فتح.

(٩) أوجره: أرضعه.

إياه، فجعل يُحنك الصبي، وجعل الصبي يتلمظ (يمص بعض حلاوة التمر وريق رسول الله ﷺ)، فكان أول من فتح أمعاء ذلك الصبي على ريق رسول الله ﷺ.

فقال: «انظروا إلى حب الأنصار التمر...»[1].

* * *

* صبر ورضا وخشوع.

ورد أن عروة بن الزبير[2] رحمه الله لما خرج من المدينة متوجهًا إلى دمشق، ليجتمع بالوليد بن عبد الملك، وقعت الأكلة في رجله في وادٍ قرب المدينة، وكان مبدؤها هناك، فظن أنها لا يكون منها ما كان، فذهب في وجهه ذلك، فما وصل إلى دمشق إلا وهي قد أكلت نصف ساقه، فدخل على الوليد فجمع له الأطباء العارفين بذلك، فأجمعوا على أنه إن لم يقطعها وإلا أكلت رجله كلها إلى وركه، وربما ترقَّت إلى الجسد فأكلته، فطابت نفسه بنشرها، وقالوا له: ألا نسقيك خمرًا حتى يذهب عقلك منه فلا تحس بألم النشر؟ فقال: لا، والله ما كنت أظن أن أحدًا يشرب شرابًا أو يأكل شيئًا يذهب عقله، ولكن إن كنتم لا بد فاعلين فافعلوا ذلك وأنا في الصلاة، فإني لا أحس بذلك، ولا أشعر به. قال: فنشروا رجله من فوق الأكلة من المكان الحي احتياطًا أنه لا يبقى منها شيء وهو قائم يصلي، فما تثور، ولا اختلج، وما تغير لونه، وما تحرك جسده، وما ترك الصلاة، ولا انشغل عنها لحظة واحدة!! فلما انصرف من الصلاة عزاه الوليد في رجله، فقال عروة: اللهم لك الحمد، كان لي أطراف أربعة، فأخذت واحدًا، فلئن كنت قد أخذت فقد أبقيت، وإن كنت قد أبليت فلطالما عافيت، فلك الحمد على ما أخذت وعلى ما عافيت.

يا الله! قمة الصبر، نعم إنه جبل من جبال الصبر، وكان معه بعض أولاده

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٥٤٧٠)، ومسلم رقم (٢١٤٤).

(٢) عروة بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي أبو عبد الله المدني، تابعي ولد سنة (٢٣هـ) وتوفي سنة (٩٤هـ)، وقيل: (٩٠هـ)، وقيل: (١٠٠هـ)، وقيل: (٩١هـ)، وقيل: (١٠١هـ) وقيل غير ذلك.

منهم ولده محمد، وكان أحبهم إليه، فدخل دار الدواب (حجرة الحيوانات) فرفسته فرس فمات، فأتوه فعزوه فيه، فقال: الحمد لله، كانوا سبعة فأخذت منهم واحداً، وأبقيت ستة، فلئن كنت قد ابتليت فلطالما عافيت، ولئن كنت قد أخذت فلطالما أعطيت. فلما قضى حاجته من دمشق رجع إلى المدينة، قال: فما سمعناه ذكر رجله ولا ولده، ولا شكا ذلك إلى أحد حتى دخل وادي القرى، فلما كان في المكان الذي أصبته فيه، قال: لقد لقينا من سفرنا هذا نصبًا. فلما دخل المدينة أتاه الناس يسلمون عليه، ويعزونه في رجله وولده، فبلغه أن بعض الناس قال: إنما أصابه هذا بذنب عظيم أحدثه، فأنشد عروة في ذلك والأبيات لمعن بن أوس:

لعمرك ما أهويت كفي لريبة ولا حملتني نحو فاحشة رِجْلي

*** صبر أسيد بن حضير على موت زوجه، والصبر على فقد الزوجة:**

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قدمنا من حج أو عمرة، فتلقينا بذي الحليفة، وكان غلمان الأنصار يتلقون أهليهم، فلقوا أسيد بن حضير رضي الله عنه، فنعوا له امرأته، فتقنع وجعل يبكي، فقلت: غفر الله لك، أنت صاحب رسول الله ﷺ، ولك من السابقة والقِدم ما لك، وأنت تبكي على امرأة؟ قالت: فكشف رأسه، وقال: صدقت لعمري، ليحق أن لا أبكي على أحد بعد سعد بن معاذ رضي الله عنه، وقد قال له رسول الله ﷺ ما قال!! قلت: وما قال له رسول الله ﷺ؟ قال: قال ﷺ: «**لقد اهتز العرش لوفاة سعد بن معاذ**»، قالت: وهو يسير بيني وبين رسول الله ﷺ(١).

* الصبر على أذى الزوجة أو الزوج: ومن ألوان الصبر: صبر الزوجة على أذى زوجها، وصبر الزوج على أذى زوجته، فإن طول المعاشرة قد يحدث نوعًا من التسامح في إطلاق اللسان والجوارح مما يبعث على النزاع والشقاق، لذا كان من الواجب تحمل الأذى والعفو، وكف اليد واللسان، فقد يحدث الله أمرًا ويقلب العسر يسرًا.

---

(١) أصل الحديث عند مسلم رقم (٢٤٦٦)، واللفظ لأحمد (٤/ ٣٥٢)، وابن سعد (٣/ ١٢)، والحاكم (٣/ ٢٨٩) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وقال الذهبي: صحيح.

الحال من بعضه:

روي أن رجلاً جاء إلى سيدنا عمر رضي الله عنه يشكو خُلُق زوجته، فوقف على باب عمر ينتظر خروجه، فسمع امرأة عمر تستطيل عليه بلسانها وتجادله، وعمر ساكت لا يرد عليها، فانصرف الرجل راجعًا وقال: إن كان هذا حال عمر مع شدته وصلابته وهو أمير المؤمنين، فكيف حالي؟ فخرج عمر فرآه موليًا عن بابه، فناداه، وقال: ما حاجتك يا رجل؟ فقال: يا أمير المؤمنين، جئت أشكو إليك سوء خُلُق امرأتي، واستطالتها عليّ، فسمعت زوجتك كذلك، فرجعت وقلت: إذا كان هذا حال أمير المؤمنين مع زوجته فكيف حالي؟! فقال عمر: يا أخي، إني احتملتها لحقوق لها عليّ؛ إنها طبَّاخة لطعامي، وخبَّازة لخبزي، وغسَّالة لثيابي، ومرضعة لولدي، وليس ذلك كله واجب عليها، ويسكن قلبي بها عن الحرام، فأنا احتملتها لذلك. فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، وكذلك زوجتي. قال عمر: فاحتملها يا أخي، فإنما هي مدة يسيرة[1].

* صبر على أذى زوجته فركب الأسد: وحكي أن بعض الصالحين كان له أخ في الله، وكان من الصالحين، يزوره في كل سنة مرة، فجاء لزيارته، فطرق الباب، فقالت امرأته: مَنْ بالباب؟ قال: أخو زوجك في الله فلان جئت لزيارته. فقالت: راح يحتطب لا رده الله، ولا سلمه، وفعل به، وجعلت تذمذم عليه، فبينما هو واقف على الباب وإذ بأخيه قد أقبل من نحو الجبل، وقد حمل حزمة الحطب على ظهر أسد، وهو يسوقه بين يديه، فجاء فسلم على أخيه، ورحب به، ودخل المنزل، وأدخل الحطب، وقال للأسد: اذهب بارك الله فيك، ثم أدخل أخاه والمرأة على حالها تذمذم، وتأخذ بلسانها وزوجها لا يرد عليها، فأكل مع أخيه شيئًا ثم ودَّعه وانصرف وهو متعجب من صبر أخيه على تلك المرأة، فلما كان العام الثاني جاء للزيارة على عادته، فطرق الباب، فقالت امرأته: مَنْ بالباب؟ قال: أخو زوجك في الله فلان. فقالت: مرحبًا بك وأهلاً وسهلاً، اجلس فإنه سيأتي إن شاء الله بخير وعافية. فتعجب من لطف كلامها وأدبها، إذ جاء أخوه

(١) «الكبائر» (صـ ١٩٥، ١٩٦).

وهو يحمل الحطب على ظهره، فتعجب أيضًا من ذلك، فجاء فسلم عليه، ودخل الدار، وأدخله، وأحضرت المرأة طعامًا لهمـا، وجعلت تدعو لهما بكلام لطيف، فلما أراد أن يفارقه قال: يا أخي، أخبرني عما أريد أن أسألك عنه، قال: وما هو يا أخي؟ قال: عام أول أتيتك فسمعت كلام امرأة بذيئة اللسان، قليلة الأدب، تذم كثيراً، ورأيتك قد أتيت من نحو الجبل والحطب على ظـهر الأسد وهو مسخر بين يديك، ورأيت العام كـلام المرأة لطيفًا لا تذمـذم، ورأيتك بالحطب على ظهرك، فما السبب؟

قال: يا أخي، توفيت تلك المرأة الشرسة، وكنت صـابرًا على خُلُقها وما يبدو منها، وكنت معـها في تعب وأنا أحتملها، فكان الله قد سـخر لي الأسد[١] الذي رأيت يحمل عني الحطب بصبري عليها واحـتمالي لها، فلما توفيت تزوجت هذه المرأة الصالحـة، وأنا في راحة معـها، فانقطع عني الأسـد، فاحتـجت أن أحمل الحطب على ظهري لأجل راحتي مع هذه المرأة المباركة الطائعة[٢].

* زوجة صابرة نبيلة: وهذه زوجة تصبر على قبح زوجـها وسماجته وكبر سنه برضا وسعادة، فقـد ذكر العتبي أنه كان ماشيا في شـوارع البصرة، فإذا امرأة من أجمل النساء وأظـرفهن تلاعب شيخًا سـمجًا قبـيحًا، وكلما كلمتـه تضحك في وجهـه، فدنوت مـنها، وقلت لهـا: مَنْ يكون هذا منك؟ فقـالت: هو زوجي. فقلت لها: كيف تصبرين على سماجـته وقبحه مع حسنك وجمالك؟ إن هذا من العجب!! فـقالت: يا هذا، لعله رُزِق مـثلي فشكر، وأنا رُزِقت مـثله فصـبرت، والصبور والشكور من أهل الجنة، أفلا أرضى بما قسمه الله لي؟! فأعجزني جوابها فمضيت وتركتها.

ومن الصبر: الصبر على آلام الجسد

امرأة من أهل الجنة (طراز آخر من طراز الرميصـاء): معنا الآن صحابية جليلة

(١) تسخيـر الأسد قد حدث لكثيـر من السلف كصلة بن أشيم، وإبراهيم بن أدهم، وحـدث لسفينة مولى رسول الله ﷺ.

(٢) «الكبائر» (صـ ١٩٦، ١٩٧).

صابرة محتسبة، إنها صاحبة جلباب العفة والطهارة، أبت أن تكشف شيئًا من عورتها أو جسدها مع أنها كانت مريضة بالصرع، ومجبرة على كشف سوأتها، إنني أزف هذه البطلة النجمة لنساء القرن العشرين اللائي كشفن مفاتنهن، وأظهرن عوراتهن، وتفننَّ في العري والسفور بكافة السبل، وبسائر الأساليب، وجمعن مع التبرج والسفور تغيير خلق الله تعالى بترقيق الحواجب، وتحمير الخدود، ووضع العطور، فظفرن بلعنات ولعنات من رب الأرض والسموات.

فيا مَنْ تخافين عذاب الله كوني كهذه: يقول عطاء بن أبي رباح: قال لي ابن عباس رضي الله عنهما: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ فقلت: بلى. قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ فقالت: إني أُصرع وإني أتكشف، فادع الله لي. فقال: «**إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك**». فقالت: أصبر. فقالت: إني أتكشف، فادع الله أن لا أتكشف. فدعا لها(١).

ويُحكى أن رجلاً من الصالحين مرَّ على رجل ضربه الفالج، وكان الدود يتناثر من جنبيه، وأعمى، وأصم وهو يقول: «الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيرًا من خلقه»، فتعجب الرجل ثم قال له: يا أخي، ما الذي عافاك الله منه، لقد رأيت جميع المصائب وقد تزاحمت عليك؟ فقال له: إليك عني يا بطال، فإنه قد عافاني إذ أطلق لي لسانًا يوحِّده، وقلبًا يعرفه، وفي كل وقت يذكره ثم قال:

حمدت الله ربي إذ هداني ... إلى الإسلام والدين الحنيف
فيذكره لساني كل وقت ... ويعرفه قلبي باللطيف

* الصبر على أذى الناس: ومن هذا الصبر: الصبر على أذى الناس بالحلم، وكظم الغيظ، والرد على السيئة بالحسنة، والعفو عن المسيء.

يقول النبي ﷺ: «**المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم**»(٢).

* الصبر على الهموم والكروب.

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٥٦٥٢)، ومسلم رقم (٢٥٧٦).

(٢) أخرجه أحمد، والبخاري في «الأدب»، والترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (٩٣٩).

(٣) العدل

العدل خُلُق عظيم عليه مدار السموات والأرض وما بينهما وما فيهما من مخلوقات، قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ⑦ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ⑧ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ⑨ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ﴾ [الرحمن: ٧- ١٠].

فكل ذرة في الكون إنما تسير بميزان إلهي دقيق لا يمكن أن تحيد عنه كما قال جل شأنه: ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ [الحجر: ١٩].

والعدل صفة من صفات الله تعالى يقوم بها على خلقه في الدنيا ويحاسبهم بها في الآخرة، يقول تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

وقال: ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٤].

وأوامر الله وأحكامه ونواهيه قائمة بالصدق والعدل لا تتحول عنها: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

وقد أمر الله جل وعلا خلقه بالعدل فقال في هذه الآية الجامعة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

إن الله ينصر الدولة العادلة، ولا قيام لأمة، ولا عزة لدولة، ولا نصر لإمارة إلا بالعدل كما يقول ﷺ: «**لا قدس الله أمة لا يأخذ ضعيفها حقه من قويها ولا يتعتعه**»(١).

إنها أمة ضعيفة ذليلة خاسرة متأخرة ساقطة لا يعينها الله ولا يؤيدها، وصدق

---

(١) سيأتي تخريجه وهو حديث صحيح.

الإمام ابن تيمية عندما قال: «إن الله ينصر الدولة العادلة ولو كانت كافرة، ويخذل الدولة الظالمة ولو كانت مسلمة».

العدل هو (هيئة نفسانية يقتدر بها على مساواة الأشياء الزائدة والناقصة حتى تكون في تعادل وانسجام)، أو هو (إعطاء كل ذي حق حقه من غير تحيز أو محاباة أو تدخل لهوى النفس أو تفرقة بين المستحقين).

وللعدل مجالات أهمها:

(١) عدل الإنسان مع نفسه: بعدم تعريضها للهلاك، قال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]. وعدم تعدي حدود الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق: ١].

(٢) عدل الإنسان مع أسرته وبين رعيته: فللزوجة حقوقها، قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وللابن والبنت والقريب والجار حقوقهم، قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [النساء: ٣٦].

(٣) العدل مع اليتامى: بأن يحافظ على أموالهم، ويعدل بينهم، قال تعالى: ﴿وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ﴾ [النساء: ١٢٧].

(٤) العدل بين المتخاصمين: قال تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩].

(٥) العدل في الحكم: بأن يحكم بأمر الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

(٦) العدل مع أهل الكتاب: قال تعالى لنبيه: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥].

(٧) العدل مع الأعداء: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

(٨) العدل في المعـاملات التجارية والماليـة: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٢٨٢].

(٩) العدل في الشهادة وفي القول مطلقًا: قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٤٠].

(١٠) العدل بين العـبد وخالقه: وهو أعـلى الدرجات، ويتحقق بعـبادة الله، والعبادة ثلاثة أنواع:

١- ما يجب لله على الأبدان كالصلاة.

٢- ما يجب لله على نفوس الناس كالاعتقاد الصحيح بوجوده تعالى.

٣- ما يجب لله بإزاء معاملة الإنسان لغيره من أبناء جنسه وسائر المخلوقات.

* وهناك آفات تؤدي إلى عدم تحقق العدل أهمها:

١- تغلب جانب الهوى على الفكر.

٢- المنفعة الشخـصية أو خشية الأذى: فـالشخص الذي يرغب في الفائدة من وراء الحكمة ينحاز لها.

٣- الجاه والمظهر الخارجي يخدع الإنسان، ويجعله ينحاز لعدم العدل.

٤- القصور في الفهم، وعدم إمعان الفكر في كل مسألة يحكم فيها.

٥- ثورة الوجدان، كالفرد الذي يتملكه الحزن أو الغضب.

٦- إهمال النظر في الباعث على العـمل، والاقتصار على النتيجـة، فكثيراً ما تكون النتيجة ضارة، والباعث عليها يكون خيراً.

العدل مع الزوجات والأولاد:

ويجب على الزوج أن يعدل بين زوجـاته في المبيت والنفقة من كـسوة أو مأكل أو مشرب أو مسكن، والعطية فيعطي كل زوجة مثل الأخرى دون زيادة أو نقصان.

فإن مال إلى إحدى الزوجات في جزء من ذلك جاء يوم القيامة وشقه مائل، يقول النبي ﷺ: **«مَنْ كان له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل»**(١).

فإن زاد عن ذلك، وفضل زوجة على الأخرى في الحقوق كلها أتى يوم القيامة وشقه ساقط، يقول النبي ﷺ: **« مَنْ كانت له زوجتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقّه ساقط»**(٢).

وكما يجب على الزوج أن يعدل بين زوجاته عليه أن يعدل بين أولاده في التربية والنفقة والهدية.

عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما أن أباه أتى به رسول الله ﷺ فقال: إني نحلت ابني هذا غلامًا، فقال رسول الله ﷺ: **«أكُل ولد نَحلْته مثله؟»**. فقال: لا. فقال رسول الله ﷺ: **«فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم»**. قال: فرجع فردَّ عطيته. وفي رواية: **« أشْهِد على هذا غيري، فإني لا أشهد على جور»**(٣).

وقال ﷺ لمن فاضل بين أولاده في العطية: **«أليس يسرك أن يكونوا إليك في البر سواء؟»**(٤).

ولا يدخل في هذا التحريم إذا كان بأحد الأولاد حاجة يعجز عن دفعها؛ كمرض يحتاج إلى مال للعلاج، أو دَيْن يعجز عن سداده.

عدل النبي ﷺ:

كان النبي ﷺ أعدل الناس، لا يظلم أحدًا، ولا يعتدي على مخلوق، عرض نفسه على القصاص مرات، وأعطى كل ذي حق حقه وزاد وجاد.

عن خولة بنت قيس رضي الله عنها قالت: كان على رسول الله ﷺ وِسق(٥) من تمر لرجل من بني ساعدة، فأتاه يقتضيه، فأمر رسول الله ﷺ رجلاً من

(١) أخرجه أبو داود والنسائي، وانظر «صحيح الجامع» رقم (٦٤٩١).

(٢) أخرجه الترمذي والحاكم وقال: صحيح على شرطهما.

(٣) أخرجه البخاري رقم (٥/ ١١).

(٤) أخرجه مسلم رقم (١٦٢٣).

(٥) الوسق: عشر كيلات.

الأنصار أن يقضيه، فقضـاه تمرًا دون تمره، فأبى أن يقبله، فقال: أترد على رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، ومَنْ أحق بالعدل من رسول الله ﷺ؟ فاكتحلت عينا رسول الله ﷺ بدموعـه ثم قال: **«صـدق، ومَنْ أحق بالعدل مني، لا قـدس الله أمة لا يأخـذ ضعيفها حقه من شديدها، ولا يتعتعه»**. ثم قال: **«يا خولة، عديه واقضيه...»**[(١)].

وأمر بإقـامة الحدود ولـو على أولاده، فعن عائشـة رضي الله عنها أن قـريشًا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقـت، فقالوا: مَنْ يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: مَنْ يجـترئ عليه إلا أسامة بن زيد حِب رسول الله ﷺ؟ فكلـمه أسامة، فقال رسول الله ﷺ: **«أتشفـع في حد من حدود الله تـعالى؟»**، ثم قام فـاختطب ثم قال: **«إنما أهلك مَنْ كـان قبلكم أنهم كانـوا إذا سرق فيـهم الشريف تركـوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»**[(٢)].

العدل العمري:

ولا زالت صفحـات العدل تتلألأ بهاءً ونورًا، فقـد لطم جبلة بن الأهيم رجلاً من بني فزارة وطئ إزاره وهو يطوف فهشم أنفه، فاسـتعدى الفزاري عليه عمر بن الخطاب، فقال عـمر لجبلة: إما أن ترضي الرجل، وإما أن أقـتص له منك. فقال جبلة: كيف وهو من السوقة وأنا ملك؟ فـقال: إن الإسلام جمعك وإياه، فلست تفضله إلا بالتقى. ففر جبلة ليلاً وعاد إلى نصرانيته.

ولون آخر من ألوان العدل العمري إنه العدل فيما يعسر العدل فيه؛ روى أحمد عن سالم عن أبيه أن غيلان بن سلمة الثقفي أسلم وتحته عشر نسوة، فقال له النبي ﷺ: **«اختر منهن أربعًا»**، فلما كان في عهد عمر رضي الله عنه طلق نساءه، وقسم ماله بين بنيه، فبلغ ذلك عمر، فقال: «إني لأظـن الشيطان فيما يسترق من السمع سمع بموتـك فقذفـه في نفسك، ولعلك لا تلـبث إلا قليلاً، وايم الله لتـراجعن نساءك، ولترجـعن مالك، أو لأورثهن منك، ولآمرنهن بقبرك فيُـرجم كما رُجِم

---

(١) قال المنذري (٣/ ٥٤): رواه الطبراني في «الأوسط» و «الكبيـر» من رواية حبان بن علي واختلف في توثيقه، ورواه بنحوه الإمام أحمد بإسناد جيد قوي.

(٢) أخرجه البخاري رقم (٢٦٤٨)، ومسلم رقم (١٦٨٨).

قبر أبي رغال[١]»[٢].

*** وانظر إلى هذه القصة التي تكتب بماء الذهب:**

بعث عمر سلمة بن قيس الأشجعي إلى طائفة من الأكراد كانوا على الشرك، فخرج إليهم في جيش أرسله معه من المدينة، فلما انتهى إليهم دعاهم إلى الإسلام، أو إلى أداء الجزية، فأبوا، فقاتلهم، فنصره الله عليهم، فقتل المقاتلة، وسبى الذرية، ووجد حلية وفصوصًا وجواهر، فقال لأصحابه: أتطيب أنفسكم أن نبعث بهذا إلى أمير المؤمنين فإنه غير صالح لكم، وإن على أمير المؤمنين لمئونة وأثقالاً؟ قالوا: نعم، قد طابت أنفسنا. فجعل الجواهر في سفط[٣]، وبعث به مع واحد من أصحابه، وقال له: سر فإذا أتيت البصرة فاشتر راحلتين فأوقرهما[٤] زادًا لك ولغلامك، وسر إلى أمير المؤمنين.

قال: ففعلت، فأتيت عمر وهو يغدي الناس قائمًا متكئًا على عصا، كما يصنع الراعي، وهو يدور على القصاع ويقول: يا يرفأ[٥]، زد هؤلاء لحمًا، زد هؤلاء خبزًا، زد هؤلاء مرقة.

فجلست في أدنى الناس، فإذا طعام فيه خشونة، طعامي الذي معي أطيب منه، فلما فرغ أدبر فاتبعته، فدخل دارًا فاستأذنت ولم أعلم حاجبه مَنْ أنا، فأذن لي، فوجدته في صفة[٦] جالسًا على مسح[٧]، متكئًا على وسادتين من أدم[٨] محشوتين ليفًا، وعليه ستر من صوف، فنبذ إليَّ إحدى الوسادتين فجلست عليها، فقال: يا أم كلثوم، ألا تغدوننا؟ فأخرجت إليه خبزة[٩] بزيت في عرضها

---

(١) أبو رغال: هذا الرجل العربي الخائن لعروبته الذي كان دليل أبرهة الحبشي لهدم الكعبة حتى لا يقتله.

(٢) أخرجه الترمذي وابن ماجه وأحمد.

(٣) السفط: كالجوالق أو كالقفة، جمعه: أسفاط.

(٤) أوقر الدابة: حملها.

(٥) يرفأ: مولى عمر بن الخطاب.

(٦) الصفة من البنيان: شبه الهو الواسع.

(٧) المسح: ثوب من الشعر غليظ.

(٨) الأدم: جمع للأديم وهو الجلد.

(٩) الخبزة: عجين يوضع في الملة حتى ينضج، والملة: الرماد والتراب الذي أوقد فيه النار.

ملح لم يدق، فقال: يا أم كلثوم، ألا تخرجين إلينا تأكلين معنا؟ فقالت: إني أسمع عندك حس[1] رجل. قال: نعم، ولا أراه من أهل هذا البلد. فقالت: لو أردت أن أخرج إلى الرجال لكسوتني كما كسى الزبير امرأته، وكما كسا طلحة امرأته. قال: أو ما يكفيك أنك أم كلثوم ابنة علي بن أبي طالب، وزوجة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب؟ قالت: إن ذاك عندي لقليل الغناء. ثم قال: كُلْ، فلو كانت راضية لأطعمتك أطيب من هذا. فأكلت قليلاً، وطعامي الذي معي أطيب منه، وأكل، فما رأيت أحدًا أحسن أكلاً منه، ما يتلبث طعامه بيده ولا فمه.

ثم قال: اسقونا. فجاءوا بعس[2] من سلت[3]، فقال: أعط الرجل. فشربت قليلاً، وإن سويقي الذي معي لأطيب منه، ثم أخذه فشربه حتى قرع القدح جبهته.

ثم قال: الحمد لله الذي أطعمنا فأشبعنا، وسقانا فأروانا، إنك يا هذا لضعيف الأكل ضعيف الشرب.

فقلت: يا أمير المؤمنين إن لي حاجة. قال: ما حاجتك؟ قلت: أنا رسول سلمة بن قيس. قال: مرحبًا بسلمة ورسوله- فكأنما خرجت من صلبه- حدثني عن المهاجرين كيف هم؟ قلت: كما تحب يا أمير المؤمنين من السلامة والظفر والنصر على عدوهم.

قال: كيف أسعارهم؟ قلت: أرخص أسعار. قال: كيف اللحم فيهم فإنه شجرة العرب، ولا تصلح العرب إلا على شجرتها؟

قلت: البقرة فيهم بكذا، والشاة بكذا فيهم، ثم قلت: سرنا يا أمير المؤمنين حتى لقينا عدونا من المشركين، فدعوناهم إلى الذي أمرت به من الإسلام فأبوا، فدعوناهم إلى الخراج فأبوا، فقاتلناهم فنصرنا الله عليهم، فقتلنا المقاتلة، وسبينا الذرية، وجمعنا الثروة، فرأى سلمة في الأموال حلية، فقال للناس: أتطيب

(١) الحس: الصوت الخفي.
(٢) العساس: الأقداح العظام.
(٣) السلت: الشعير.

أنفسكم أن أبعث به إلى أمير المؤمنين؟ قالوا: نعم. ثم استخرجت سفطي ففتحته، فلما نظر إلى تلك الفصوص من بين أحمر وأخضر وأصفر وثب وجعل يده في خاصرته يصيح صياحًا عاليًا، ويقول: لا أشبع الله إذًا بطن عمر يكررها. فظن النساء أني جئت لأغتاله، فجئن إلى الستر فكشفنه فسمعنه يقول: لف ما جئت به، يا يرفأ، جأ عنقه[1]. ثم قال: النجاء النجاء. قلت: يا أمير المؤمنين، فاحملني. فقال: يا يرفأ، أعطه راحلتين من إبل الصدقة، فإذا لقيت أحدًا أفقر إليهما منك فادفعهما إليه. وقال: أظنك ستبطئ، أما والله لئن تفرق المسلمون في مشاتيهم قبل أن يقسم هذا فيهم لأفعلن بك وبصاحبك الفاقرة.[2] قال: فارتحلت حتى أتيت إلى سلمة بن قيس فقلت: ما بارك الله فيما اختصصتني به، اقسم هذا في الناس قبل أن تصيبني وإياك فاقرة. فقسمه فيهم فكان الفص يباع بخمسة دراهم وبستة وهو خير من عشرين ألفًا.

عدل ورحمة:

فإن سألت عن رحمته فاستمع:

قال أسلم[3]: خرجنا مع عمر رضي الله عنه إلى حرة، حتى إذا كنا في صرار[4] إذا نار تؤرث[5]، فقال: يا أسلم، إني أرى هاهنا ركبانًا قصر بهم الليل والبرد، انطلق بنا، فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم، فإذا بامرأة معها صبيان، وقِدر منصوبة على نار، وصبيانها يتضاغون[6]، فقال عمر: السلام عليكم يا أهل الضوء- وكره أن يقول: يا أصحاب النار- فأجابته امرأة: وعليكم السلام. فقال: أأدنو[7]؟ فقالت: ادن بخير أو دع[8]. فدنا منها، ثم قال: ما بالكم؟ قالت: قصر

---

(١) جأ عنقه: اضربه.

(٢) الفاقرة: الداهية.

(٣) غلام لعمر.

(٤) مكان على مقربة من المدينة.

(٥) توقد.

(٦) يتضاغون: يتصايحون.

(٧) أأدنو: أأقترب.

(٨) دع: اترك.

بنا الليل والبرد. قال: وما بال هؤلاء الصبية يتضاغون؟ قالت: الجوع. قال: وأي شيء في هذه القدر؟ قالت: ماء أسكتهم به حتى يناموا، والله بيننا وبين عمر. فقال: يرحمك الله، وما يدري عمر بكم؟ فقالت: يتولى أمرنا ثم يغفل عنا، فأقبل علي فقال: انطلق بنا. فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق، فأخرج عدلاً[١] من دقيق، وكبة[٢] من شحم، وقال: احمله عليّ. قلت: أنا أحمله عنك. قال: أنت تحمل وزري يوم القيامة؟ لا أم لك. فحملته عليه، فانطلق وانطلقت معه إليها نهرول، فألقى ذلك عندها، وأخرج من الدقيق شيئًا، فجعل يقول لها: ذري عليّ أُحرِ لك[٣]. وجعل ينفخ تحت القدر، وكانت لحيته عظيمة، فرأيت الدخان يخرج من خلالها، حتى طبخ لهم ثم أنزلها، وأفرغ الحريرة في صحفة وهو يقول لها: أطعميهم وأنا أسطح لهم- أي أبرده- ولم يزل حتى شبعوا، وهي تقول له: جزاك الله خيراً، كنت بهذا الأمر أولى من أمير المؤمنين.

وأمثال هذه القصة في سيرة عمر كثير، ولا يقال هي ومثيلاتها من الشعور بالتبعة، وليست من الرحمة؛ لأن العهد بالشعور بالتبعة أن يأتي من الرحمة، وليست العهد بالرحمة أن تأتي من الشعور بالتبعة.

كذلك لا يقال: إنه قد كان يطيع أمرًا سماويًّا تحركت له نفسه أو لم تتحرك، فإن النفس التي تتحرك للأمر السماوي هي النفس التي فيها الخير ولها رغبة فيه، وقلما تشفق[٤] من عقاب السماء إلا أن تشعر بألم الظلم، ومبلغ استحقاقه للعقاب.

على أن عمر كان يرحم في أمور يحول فيها النفور الديني دون الرحمة عند كثيرين، فمن ذلك أنه رأى شيخًا ضريرًا يسأل على باب، فلما علم أنه يهودي قال له: ما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية والحاجة والسن. فأخذ عمر بيده، وذهب به إلى منزله فأعطاه ما يكفيه ساعتها، وأرسل إلى خازن بيت المال

---

(١) الجوالق.

(٢) مقدار منه.

(٣) أي: اتخذي لك حريرة؛ وهي الحساء من الدقيق والدسم.

(٤) أي: تخاف.

يقول: انظر هذا وضرباءه[(١)]، فوالله ما أنصفناه، أكلنا شبيبته[(٢)] ثم نخذله عند الهرم ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]. والفقراء هم المسلمون، وهذا من مساكين أهل الكتاب. ووضع[(٣)] عنه الجزية وعن ضربائه، فهنا علمته الرحمة كيف يطيع الدين، ولن يطيع الدين هكذا إلا رحيم.

وقد فرض عمر لكل مولود لقيط مائة درهم من بيت المال، كما فرض لكل مولود من زوجين، وهي رحمة قد يحجبها النفور من الزنا وثمراته في نفوس أناس ينفرون فلا يرحمون، بل كان يرحم كل مخلوق حي، حتى البهيم الذي لا يبين بشكاية، فروى المسيب بن دارم أنه رآه يضرب رجلاً ويلاحقه بالزجر لأنه يُحمِّل جمله ما لا يطيق.

وكان يدخل يده في عقر[(٤)] البعير الأدبر[(٥)] يساويه وهو يقول: إني لخائف أن أسأل عما بك.

ومن كلامه في هذا المعنى: «لو مات جدي بطف[(٦)] الفرات لخشيت أن يحاسب به الله عمر»، وإنه لشعور بالتبعة عظيم.

لكنه كما أسلفنا لن ينبت في قلب كل أمير عليه تبعة إلا أن يكون به منبت للرحمة عظيم.

فإن سألت عن زهده فقد كان يخطب أمام الناس وهو خليفة وعليه إزار فيه ثنتا عشرة رقعة[(٧)].

وقالت حفصة لعمر: يا أمير المؤمنين، لو اكتسيت ثوبًا هو ألين من ثوبك،

---

(١) نظراؤه وأمثاله.

(٢) شبابه.

(٣) أي: رفعها.

(٤) أي: جرح.

(٥) البعير المصاب بالدبرة، وهو مرض يصيب الدواب بالقرحة.

(٦) المراد بطف الفرات: شاطئ الفرات وهو نهر بالعراق.

(٧) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» رقم (٩٦٤)، وأحمد في «الزهد» (صـ ١٥٤)، وابن سعد (٣/ ٢٥٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٥٣).

وأكلت طعامًا هو أطيب من طعامك، فقـد وسع الله من الرزق، وأكثر من الخير. فقال: إني سـأخصمك إلى نفسك، أما تذكرين مـا كان رسول الله ﷺ يلقى من شدة العيش وكـذلك أبو بكر؟ فما زال يذكرها حتى أبكاها، فقـال لها: أما والله لأشاركنهما في مثل عيشهما الشديد لعلي أدرك عيشهما الرَّخي[(١)].

وعن أنس رضي الله عنه قال: نظرت في قميص عمر رضوان الله عليه فإذا بين كتفيه أربع رقاع لا يشبه بعضها بعضًا[(٢)].

وعن عامر بن ربيعة قال: خرجت مع عمر بن الخطاب رضوان الله عليه حاجًّا من المدينة إلى مكة إلى أن رجـعنا فـما ضـرب له فسطاط ولا خـباء، كـان يلقي الكساء أو النطع على الشجرة فيستظل تحته[(٣)].

وقال عتبة بن فرقد: قدمت على عـمر رضوان الله عليه بسلال خبيص عظام، ما ألوان أحسن ولا أجيد، فقال: مـا هذا؟ فقلت: طعام أتيتك به. فقال: تقضي حاجات الـناس أول النهار، فأحببت إن رجعت أن ترجع إلى طعام فتـصيب منه فيقويك.

قال: فكشف عن سلة منها، فقال: عزمت عليك يا عتبة إذا رجعت إلا رزقت كل رجل من المسلمين مـثله. فقلت: والذي يصلحك يـا أمير المؤمنين لـو أنفقت مال قيس كلهـا ما وسع ذلك. قال: فلا حاجـة لي فيه. ثم دعا بقصعـة من خبز جـريش ولحم غليظ، وهو يأكل معي أكـلاً شـهيًّـا، فجـعلت أهوي إلى القطعة البيضاء أحسبهـا سنامًا فإذا هي عصبة، والبضعة من اللحم أمضغـها فلا أسيغها، فإذا غفل عني جعلتها بين الخوان والقصعة، ثم دعا بعس[(٤)] من نبيذ قد كاد يكون خلاًّ، فقال: اشرب. فأخذته وما أكاد أسـيغه، ثم أخذه فشرب ثم قال: اسمع يا

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» رقم (٥٧٤)، وابن سـعد (٣/ ٢١٠)، وأحمد (١٥٥)، وأبو نعيم (١/ ٤٨).

(٢) أخرجـه مالك (٩١٨)، وابن المبـارك في «الزهد» (٥٨٨)، وهناد في «الزهد» (٧٠١)، وابن أبي شيبة (١٣/ ٢٦٤)، وابن سعد (٣/ ٢٤٩)، وأبو داود في «الزهد» (صـ ٥٨) وإسناده صحيح.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٨/ ١٥٣)، وابن سعد (٣/ ٢١١)، وأبو داود في «الزهد» (صـ ٧٠).

(٤) عس: العس: القدح العظيم.

عتبة، إنا ننحر كل يوم جزورًا، فأما ودكها وأطيبها فلمن حضرنا من آفاق المسلمين، وأما عنقها فلآل عمر. يأكل هذا اللحم الغليظ، ويشرب هذا النبيذ قطعه في بطوننا أن يؤذي بنا(١).

ولما قدم عتبة بن فرقد أذربيجان أوتي بالخبيص، فلما أكله وجد شيئًا حلوًا طيبًا، فقال: والله لو صنعت لأمير المؤمنين من هذا. فجعل له صفطين عظيمين، ثم حملهما على بعير مع رجلين، فسرح بهما إلى عمر رضوان الله عليه، فلما قدما عليه فتحهما، وقال: أي شيء هذا؟ قالوا: خبيص. فذاقه فإذا شيء حلو، فقال للرسول: أَكُلُّ المسلمين تشبع من هذا في رحالهم؟ قال: لا. فقال: أما لا فارددهما. ثم كتب: أما بعد، فإنه ليس من كدك، ولا من كد أمك، أشبع المسلمين مما تشبع منه في رحالك(٢).

وروي أنه جاءت حلل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقسَّمها، فأصاب كل رجل ثوبًا، وصعد عمر على المنبر وعليه حُلَّة- والحُلَّة ثوبان- فقال: أيها الناس ألا تسمعون؟ فقال سلمان رضي الله عنه: لا نسمع. فقال عمر: ولِمَ يا عبد الله؟ قال: إنك قسمت علينا ثوبًا ثوبًا، وعليك حُلَّة. فقال: لا تعجل يا أبا أبا عبد الله، ثم نادى على عبد الله بن عمر، فلم يجبه أحد، فقال: يا عبد الله بن عمر. فقال: لبيك يا أمير المؤمنين. قال: الثوب الذي اتزرت فيه هو ثوبك؟ قال: اللهم نعم. فقال سلمان: الآن فقل نسمع(٣).

وقال يسار بن نمير: والله ما نخلت لعمر الدقيق قط إلا وأنا له عاصٍ(٤). أي غير راضٍ بالأكل من هذا الدقيق دلالة على خشونة خبز عمر رضي الله عنه.

فإن سألت عن تواضعه فاسمع بالقلب والجنان والبصيرة والأذنين:

يقول أنس رضي الله عنه: سمعت عمر بن الخطاب رضوان الله عليه يومًا،

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٢/ ٣٢٥)، وهناد في «الزهد» (ص٦٩٥) وإسناده صحيح.

(٢) أخرجه هناد في «الزهد» (صـ ٦٩٦)، والبيهقي (٩/ ٤٢) وإسناده صحيح.

(٣) ذكره ابن الجوزي في «سيرة عمر» (صـ ١٣٩).

(٤) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٥٨٣)، وهناد في «الزهد» (ص٦٨٩)، وابن أبي شيبة (١٣/ ٢٨٦)، وأحمد في «الزهد» (صـ ١٢٣)، وابن سعد (٣/ ٣١٩).

وخرجت مـعه حتى دخل حـائطًا فسمـعته وهو يقول وبيـني وبينه جدار وهو في جوف الحـائط[١]: عـمر أمـير المؤمنين بخٍ بـخٍ والله يا ابن الخطاب لتتـقين الله أو ليعذبنك[٢].

ولما قدم عمر بلاد الشـام ليفتح فلسطين- أعادها الله- عرضت عليـه مخاضة، فنزل عن بعيره، وقلع موقيه[٣]، فأمسكهما بيده، فخـاض عمر الماء ومعه بعيره، فقال له أبو عبيدة رضي الله عـنه: قد صنعت صنيعًا عند أهل الأرض صنعت كذا وكذا. قال: فصَكَّ في صدره[٤]. وقال: أَوَّه، لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة، إنكم كنتم أذل الناس، وأخطر الناس، وأقل الـناس، فأعـزكم الله بالإسلام، فـمهـما تطلبوا العزة بغير الله يذلكم الله[٥].

ولما أتى عمر رضوان الله عليه الخبر بنزول رستم القادسـية كان يستخبر الركبان عن القادسية منذ يصبح إلى انتصاف النهـار، ثم يرجع إلى أهله، فلما لقيه البشير سأله من أين جاء فأخبره فقال: يا عـبد الله حدثني. قال: هزم الله العدو- وعمر رضوان الله عليه يخب مـعه ويستخبره والآخـر يسير على ناقته، ولا يعـرفه حتى دخل المدينة فإذا الناس يُسلِّمون عـليه بإمرة المؤمنين، فقال الرجل: فهـلاَّ أخبرتني رحمك الله أنك أمير المؤمنين؟ وجعل عمر يقول: لا عليك يا أخي[٦].

وإن سألتني عن حكمـه فقد كـان العدل أساسه، وإعطاء كل ذي حق حـقه، أعمدتـه، وسقفه المسـاواة، فعن أصبغ بن نباتة قـال: خرجت أنا وأبي من زرود حـتى انتـهـينا إلى المدينة في غَـلَسٍ والناس في الصـلاة، فـانصـرف الناس من

---

(١) الحائط: البستان.

(٢) أخرجـه مالك (٢/ ٩٩٢)، وأحمـد في «الزهد» (صـ ١٤٤)، وأبو داود في «الزهد» (صـ ٥٥)، وابن سعد (٣/ ٢٢٢).

(٣) موقيه: خفاه.

(٤) صكَّ في صدره: دفعه بلطف.

(٥) رواه ابن المبارك (٥٨٤)، والحاكم (١/ ٦١) وقـال: صحيح على شرط الشـيخين، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٤٧).

(٦) انظر «سيرة عمر» لابن الجوزي (صـ ١٤١).

صلاتهم، وخرج الناس إلى أسواقهم، فدخل فدفع إلينا رجل معه دِرَّة فقال: يا أعرابي أتبيع الغنم؟ فلم يزل يساوم أبي حتى أرضاه على ثمنها، وإذا هو ابن الخطاب رضوان الله عليه فجعل يطوف في السوق يأمرهم بتقوى الله، يقبل فيه ويدبر، ثم مرَّ على أبي، فقال: حبستني ليس هذا وعدتني، ثم مرَّ الثانية فقال له مثل ذلك، فرد عليه عمر: لا أريم حتى أوافيك. ثم مرَّ الثالثة به فوثب أبي مغضبًا، فأخذ ثياب عمر، فقال له: كذبتني وظلمتني ولهزه، فوثب المسلمون إليه: يا عدو الله لهزت أمير المؤمنين، فأخذ عمر رضوان الله عليه يجمع ثياب أبي فجرَّه لا يملك من نفسه شيئًا، وكان شديداً، فانتهى به إلى قصاب، فقال: عزمت عليك وأقسمت عليك لتعطين هذا حقه ولك ربحي. وكان عمر باع الغنم منه، فقال: يا أمير المؤمنين لا، ولكن أعطي هذا حقه وأهبك ربحك. فأخرج حقه فأعطاه، وقال له عمر: استوفيت؟ فقال: نعم. فقال عمر رضوان الله عليه: بقي حقنا عليك لَهْزتك التي لهزتني قد تركتها لله عز وجل ولك. قال أصبغ: فكأني أنظر إلى عمر أخذ ربحه لحمًا فعلقه في يده اليسرى، وفي يده اليمنى الدِّرة يدور في الأسواق حتى دخل رحله[1].

عدل وورع:

فإن سألتني عن ورعه، فعن عبد الله بن عمر قال: «اشتريت إبلاً ورجعتها إلى الحمى، فلما سمنت، قال: فدخل عمر رضوان الله عليه السوق فرأى إبلاً سمانًا، فقال: لمن هذه الإبل السمينة؟ فقيل: لعبد الله بن عمر، فجعل يقول: يا عبد الله ابن عمر بخٍ بخٍ ابن أمير المؤمنين. قال: فجعلت أسعى، فقلت: ما لك يا أمير المؤمنين؟ قال: ما هذه الإبل؟ قلت: إبل اشتريتها، وبعثت بها إلى الحمى أبتغي ما يبتغي المسلمون. قال: يقال: ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين! يا عبد الله بن عمر اغدُ على رأس مالك، واجعل باقيه في بيت مال المسلمين»[2].

وجاءت اللحظات الأخيرة في حياة الخليفة الثاني رضوان الله عليه، فقد طعنه

---

(١) أخرجه البيهقي، وذكره ابن الجوزي في «سيرة عمر» رضي الله عنه (صـ ١٤٨، ١٤٩).

(٢) أخرجه البيهقي (٦/ ١٤٧).

أبو لؤلؤة المجوسي لعنه الله ثلاث طعنات في صلاة الفجر، فترك للأمة اختيار أفضلها للولاية العامة، ولم يختر ولده وما أدراك ما ولده... إنه عبد الله بن عمر.

عدل عثمان:

والرقيق الرحيم عثمان رضي الله عنه على طريق العدل، ومع المقسطين في رعيتهم وأموالهم وأهليهم.

أخرج السمان في الموافقة عن أبي الفرات قال: «كان لعثمان رضي الله عنه عبد، فقال له: إني كنت عركت أذنك فاقتص مني، فأخذ بأذنه ثم قال عثمان رضي الله عنه: شدِّد، يا حبذا قصاص في الدنيا لا قصاص في الآخرة».

وعن نافع بن عبد الحارث قال: «قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه مكة، فدخل دار الندوة في يوم الجمعة، وأراد أن يستقرب منها الرواح إلى المسجد، فألقى رداءه على واقف في البيت فوقع عليه طير من هذا الحمام فأطاره، فانتهزته حية فقتلته، فلما صلى الجمعة دخلت عليه أنا وعثمان بن عفان رضي الله عنه، فقال: احكما عليّ في شيء صنعته اليوم، إنني دخلت هذه الدار، وأردت أن أستقرب منها الرواح إلى المسجد، فألقيت ردائي على هذا الواقف، فوقع عليه طير من هذا الحمام، فخشيت أن يلطخه بسلحه[1] فأطرته عنه، فوقع على ظهر هذا الواقف الآخر، فانتهزته حية فقتلته، فوجدت في نفسي أني أطرته من منزل كان فيه آمنًا إلى موقعة كان فيها حتفه. فقلت لعثمان رضي الله عنه: كيف ترى في عنز ثنية عفراء[2] تحكم بها على أمير المؤمنين؟ قلت: إني أرى ذلك. فأمر بها عمر رضي الله عنه»[3].

* * *

(١) السلح للحمام كالغائط للإنسان.

(٢) الثنية التي ألقت ثنيتها في السنة الثالثة، وعفراء: بيضاء غير خالصة البياض، وهذه العنزة هي جزاء الصيد وقتل الحمام في المسجد الحرام.

(٣) أخرجه الشافعي في مسنده (صـ ٤٧).

(٤) الحياء

الحيـاء لغة: مشـتق من الحياة، والغـيث يسمى حيـا (بالقصر)؛ لأن به حـياة الأرض والنبات والدواب، وكذلك سميت بالحيـاء: حياة الدنيا والآخرة، فمَنْ لا حياء فيه فهو ميت في الدنيا شقي في الآخرة.

واصطلاحًا: يُعـرَّف بأنه خُلُق يبعث على ترك القبائح، ويمنع من الـتفريط في حق الله تعالى، أو هو تغير وانكسار يعتري المرء من خوف ما يعاب به.

وبين الذنوب وقلة الحياء وعدم الغيـرة تلازم بين الطرفين، وكل منهما يستدعي الآخر ويطلبه حثيثًا(١).

والحياء من أبرز الصفات التي تنأى بالمرء عن الرذائل، وتحجزه عن السقوط إلى سفاسف الأخلاق وحمأة الذنوب.

ولعظيم فضل هذا الخُلُق وجليل قـدره عدَّه النبي ﷺ من أعلى شعب الإيمان قدرًا، فقال: **«الإيمان بضع وسبعـون شعبة، فأعـلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»**(٢).

بل وجعل الإيمان قـرنه وصاحبه الذي لا ينفك عنه، فـقال: **«إن الحياء والإيمان قُرِنا جميعًا، فإذا رُفع أحدهما رُفع الآخر»**(٣). ويقول: **«الحياء من الإيمان»**(٤).

ويقول: **«الحـياء من الإيمان، والإيمان في الجنة، والبـذاء(٥) من الجـفاء، والجفـاء في النار»**(٦).

---

(١) «مدارج السالكين»، و«الجواب الكافي».

(٢) أخرجه الشيخان.

(٣) أخرجه الحاكم والبيهقي في «شعب الإيمان»، والحديث في «صحيح الجامع» رقم (١٥٩٩).

(٤) أخرجه مسلم.

(٥) البذاء: الفحش من القول.

(٦) أخرجه الترمذي والحاكم والبيهقي في «الشعب»، والبخاري في« الأدب».

ويقول ﷺ: «**الحياء والعِي**[١] **شعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان**[٢] **شعبتان من النفاق**».

وبلغ من شأن هذا الخُلُق أن يكون خُلُق الإسلام، يقول ﷺ: «**إن لكل دين خُلُقًا، وإن خُلُق الإسلام الحياء**».

والحياء كله خير كما قال ﷺ: «**الحياء لا يأتي إلا بخير**»[٣].

الله تعالى حيي:

والله جلت أسماؤه منعوت بالحياء كما يليق بعظمته، فعن سلمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله حيي كريم يستحي أن يرفع الرجل إليه يديه أن يردهما صِفْرًا خائبتين**»[٤].

وعن يعلى بن أمية رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله حيي ستير يحب الحياء والستر، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر**»[٥].

والحياء خُلُق ملازم للأنبياء عليهم السلام، فهذا سيد الحيين ﷺ كان أشد حياءً من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئًا يكرهه عُرِف في وجهه[٦].

وهذا موسى عليه السلام لا يُرى من جلده شيء، ولا يظهر من عورته أقل من مثقال ذرة، ولا يكشف من بدنه إلا ما ينكشف من الرجال غالبًا.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن موسى عليه السلام كان رجلاً حييًّا ستيرًا لا يُرى من جلده شيء استحياءً منه، فآذاه مَنْ آذاه من بني إسرائيل،**

---

(١) أي: العجز عن الجرأة على البذاء والفحش.

(٢) أي: المبالغة في التفاصح.

(٣) أخرجه البخاري رقم (٦١١٧).

(٤) صحيح: أخرجه أبو داود (١٤٨٨)، والترمذي (٣٥٥١)، وابن ماجه (٣٨٦٥)، وصححه ابن حبان (٢٣٩٩، ٢٤٠٠)، والحاكم (١/٤٩٧)، وحسنه الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١/٤٩٧)، والبغوي في «شرح السنة» (٥/١٨٦)، وصححه محقق «شرح السنة».

(٥) صحيح: أخرجه أحمد (٤/٢٢٤)، وأبو داود (٤٠١٢، ٤٠١٣)، والنسائي (١/ ٢٠٠)، وصححه الألباني في «الإرواء» (٢٧٩٣).

(٦) أخرجه البخاري رقم (٣٥٦٢)، ومسلم رقم (٢٣٢٠).

فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده، إما برص، وإما أدْرة[١]، وإما آفة، وإن الله أراد أن يبرِّأه مما قالوا لموسى، فخلا يومًا وحده، فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه[٢]، فأخذ موسى عصاه عريانًا أحسن ما خلق الله وأبرأه مما يقولون، وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربًا[٣] بعصاه، فوالله إن بالحجر لنَدْبًا[٤] من أثر ضربه ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا، فذلك قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩]»[٥].

فانظر إلى عظمة موسى عليه السلام في حيائه، وانظر إلى بني إسرائيل في تجرئهم على كبائر الفواحش دون اكتراث، وإلمامهم بالمحاقر والخطايا دون تورع، لذا حل بهم غضب الله وعقابه.

الحياء فطرة:

والحياء فطرة فطر الله الخلق عليها، فأبونا آدم وأمنا حواء عليهما السلام لما انكشفت عورتهما في الجنة تعجلا تغطيتها بورق الجنة، يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢].

وإبليس لعنه الله منذ خلق الإنسان يعمل على تغيير هذه الفطرة لئلا تسير على منهج الله، قال تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (١١٨) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١١٨، ١١٩].

وقد نجح الشيطان نجاحًا باهرًا فدعا جماعة كبيرة من النساء وكذا الرجال إلى خلع جلباب الحياء، فهرولن إلى دعوته، فخرجن من بيوتهن سافرات متبرجات مميلات مائلات.

---

(١) أَدَرة (وقيل: أُدْرة): نفخة في الخصية.

(٢) عدا بثوبه: مضى مسرعًا.

(٣) وطفق بالحجر ضربًا: طفق يضرب الحجر ضربًا.

(٤) نَدْبًا: أثرًا.

(٥) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء رقم (٣٤٠٤)، ومسلم: كتاب الفضائل- باب (فضائل موسى عليه السلام)، وكتاب الحيض.

وأهل الفساد يحضون المرأة على أن تبدي مــن عورتها أكثر مما صنعت، وتغري الرجل أشد مما أغـرت، وييسرون لها خرق نظـام الفطرة فيسمون ضـلالهم حرية وتقدمًا ورقيًا ومدنية.

الحياء خُلُق محمود بين خُلُقين ذميمين:

الحيــاء كائن بين خُلُقين ذميـمين: (الخجل، والشطارة)؛ فالإفـراط فيه الحـياء المطلق حتى في الحق فلا ينكر صاحبه منكرًا، ولا يأمر بمعروف، ولا يكف ظالمًا، ولا يدفع مجرمًا.

وهذا من أشنع الخطأ إذ إن صاحـبه يقر المنكر ويرضى بالباطل ثم يـدفعه ذلك إلى المداهنة، والرياء، والنفـاق، ومن هنا اشتهـر المثل الشعبي الـساقط: (تمسكن حتى تتمكن)، وأدهى منه: (إن ذهبت إلى بلد تعبد العجل حش وأعطه[*]).

بينما الحق جل ذكره يقول: ﴿وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وقد ذاع بين المتدينين المسلمين قولهم: (لا حـياء في الدين)، أي: لا حياء في السؤال عن أحكام الدين.

وأدهى من السابق وأمـرُّ ترك الحياء جميـعه، وصاحب هذا الحال يتــجرأ على الآثام، ويرتكب الفواحش مـا ظهر منها وما بطن، ولا يؤثر فـيه رؤية الحق تعالى لأفعاله، وبصر الخلق بأعماله.

* إذا لم تسـتح فاصنع مـا شئت: ولا ريب أن الرجل إذا مـزق الحجـاب عن وجهه، ولم يتـهيب على عمله حسابًا، ولم يخش في سلوكـه لومة لائم، مد يد الأذى للناس، وطغى على كل من يقع في سلطانه، وإذا ضاع الحياء فلا حياة.

يقول رسولنا ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولـى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت»، فإذا سقطت صبغة الحياء عن الوجـه كما تسقط القشـرة الخضراء عن العود الغض، فقـد آذنت الحياة الفاضلة بالضمور، وتهـيأ الحطام الباقي أن يكون حطبًا للنار[1].

(*) لفظه بالعامية يخالف ما ذكرته، لكنني عبرت عنه بالفصحى.

(١) «خُلُق المسلم» (صـ ١٥٤).

والعبد إذا سقط منه الحياء فقد عرض نفسه لانتقام الله جل ذكره، فظهرت عليه آثار المقت والغضب الإلهي، وأصبح مُبغَضًا من عباد الله، فاجتمع عليه الغضبان القاتلان: غضب الله، وغضب خلقه.

علامات الحياء:

وللحياء علامات ودلائل تنبئ عن اتصاف المرء بهذا الخلق منها:

١- أداء حق الله جل ذكره وعدم التفريط فيه.

٢- التغير والانكسار خوفًا من العيب والذم.

٣- الخجل من الظهور برذيلة.

٤- الاستحياء من القبائح وعدم فعلها علانية.

٥- الحذر من النظر إلى العورات مع الرجال والنساء.

٦- الخجل من ذكر العورات والتحدث بالكلمات البذيئة والعبارات الفاحشة والألفاظ الساقطة.

٧- ستر العورة أمام الخلق والخالق إلا مَنْ اضطر.

أقسام الحياء:

وقد قُسِّم الحياء على عشرة أوجه، كل قسم منها يتعلق بالله وبالإنسان نفسه وبغيره من خلق الله، وربما غلبت صلتها بأحد هذه الثلاثة:

١- الحياء من الله.

٢- والحياء من النفس سيما إن خلا العبد بنفسه.

٣- والحياء من الخلق.

وهذه الأقسام هي:

١- **حياء العبودية:** ذلك لأن العبد يطعم من خير الله، ويحيا بكرم الله، ويتحرك بفضل الله، وما من نعمة وخير يصل إليه إلا والله سببه، لذا كان من الواجب المتحتم المسارعة إلى طاعته، يقول ﷺ: **«استحيوا من الله حق الحياء»**.

قالوا: إنا نستحيي يا رسول الله. قال: **«ليس ذاكم، ولكن من استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى، وليحفظ البطن وما حوى، وليذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء»**(١).

إن الإنسان في حضرة الرجال الذين يجلهم، ويحرص على استرضائهم بضبط سلوكه ضبطًا محكمًا، فيتكلم بقدر، ويتصرف بحذر، والمسلم الذي يعرف من تعاليم دينه أنه لا يغيب عن الله أبدًا؛ لأنه ماثل في حضرته ليلاً ونهارًا، ينبغي أن يكون تهيبه لجلال الله أعظم، وتأدبه بشرائعه أحكم(٢)، وذلك معنى الحديث: **«استحي من الله كما تستحيي من الرجل الصالح من قومك»**.

٢- **حياء الجناية:** كهذا الرجل الذي أسرف على نفسه، يقول رسول الله ﷺ: **«إن رجلاً كان قبلكم رغسه الله مالاً(٣)، فقال لبنيه لما حُضر: أي أب كنت لكم؟ قالوا: خير أب، قال: فإني لم أعمل خيراً قط، فإذا مت فأحرقوني ثم اسحقوني ثم ذروني في يوم عاصف، ففعلوا فجمعه الله عز وجل فقال: ما حملك؟ قال: مخافتك، فتلقاه برحمته»**(٤).

وشهد الفضيل بن عياض الموقف يوم عرفات، فرفع رأسه إلى السماء وقد قبض على لحيته وهو يبكي بكاء الثكلى ويقول: واسوأتاه منك وإن عفوت.

وعن محمد بن حاتم قال: قال الفضيل بن عياض: لو خُيِّرت بين أن أُبْعث فأدخل الجنة وبين أن لا أُبعث لاخترت أن لا أُبعث. قيل لمحمد بن حاتم: هذا من الحياء؟ قال: نعم، هذا من طريق الحياء من الله عز وجل.

يا خجلة العبد من إحسان سيده ... يا حسرة القلب من ألطاف معناه
فكم أسأت وبالإحسان قابلني ... واخجلتي واحيائي حين ألقاه

(١) حسن: أخرجه أحمد (١/ ٣٨٧)، والترمذي رقم (٢٥٨٨) وقال: هذا حديث غريب. والحاكم (٤/ ٣٢٣) وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) «خُلُق المسلم» (صـ ١٥٤).

(٣) أي كثَّر الله تعالى له من المال.

(٤) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، وكتاب الرقاق- باب (الخوف من الله)، وكتاب التوحيد، ومسلم: كتاب التوبة.

يا نفس كم بخفي اللطف عاملني وقد رآني على ما ليس يرضاه
يا نفس كم زلة زلت بها قدمي وما أقال عثاري ثَمَّ إلاه
يا نفس توبي إلى مولاك واجتهدي وصابري فيه إيقانًا برؤياه

ولما احتضر الأسود بن يزيد بكى، فقيل له: ما هذا الجزع؟ قال: ما لي لا أجزع؟! ومَنْ أحق بذلك مني؟! والله لو أتيت بالمغفرة من الله عز وجل لأهمني الحياء منه مما قد صنعت، إن الرجل ليكون بينه وبين الرجل الذنب الصغير فيعفو عنه ولا يزال مستحييًا منه.

يا حسرة العاصين عند معادهم هذا وإن قدموا على الجنات
لو لم يكن إلا الحياء من الذي ستر القبيح فيا لها الحسرات

وهذا هو الإمام أحمد بن حنبل دخل عليه أبو حامد الخلقاني فأنشده هذه الأبيات:

إذا ما قال لي ربي أما استحييت تعصيني
وتخفي الذنب من خلقي وبالعصيان تأتيني
فما قولي له لما يعاتبني ويُقصيني

فأمره أحمد بإعادتها، فأعادها عليه، فدخل أحمد داره وجعل يرددها ويبكي.

يقول الحسن: «لو لم نبك إلا للحياء من ذلك المقام لكان ينبغي لنا أن نبكي فنُطيل البكاء».

٣- حياء التقصير: كحياء الملائكة الذين **﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾** [التحريم: ٦]، و **﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾** [الأنبياء: ٢٠].

وكحياء الأنبياء عليهم السلام في عرصات القيامة وهم المعصومون من الذنوب المبرءون من العيوب، روى أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«يجمع الله الناس يوم القيامة فيهتمون لذلك، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا. قال: فيأتون آدم، فيقولون: أنت آدم أبو الخلق، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا.**

فيقول: لست هناكم. فيذكر خطيئته التي أصاب، فيستحيي من ربه منها....».

٤- **حياء الإجلال والتعظيم:** يراد به حياء تعظيم الله تعالى، وذلك يعود إلى كمال معرفة العبد بعظمة ربه وخوفه من مقامه.

ومن هذا اللون حياء النبي ﷺ من ربه تعالى يوم المعراج، فقد كتب الله جل وعلا على أمته ﷺ خمسين صلاة، فنزل بها حتى وصل إلى موسى عليه السلام فطلب منه أن يرجع إلى ربه فيسأله التخفيف، فظل يتردد بين موسى وربه حتى جعلها خمسًا، فقال موسى عليه السلام: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك. قال: سألت ربي حتى استحييت، ولكن أرضى وأسلم[1].

ومنه حياء عمرو بن العاص من النبي ﷺ، يقول عمرو: «والله إن كنت لأشد الناس حياءً من رسول الله ﷺ، فما ملئت عيني من رسول الله ﷺ، ولا راجعته بما أريد حتى لحق بالله عز وجل حياءً منه»، وفي رواية: «إنه لم يكن شخص أبغض إليّ منه- يعني النبي ﷺ- فلما أسلمت لم يكن شخص أحب إليّ منه، ولا أجلّ في عيني منه، ولو سئلت أن أصفه لكم لما أطقت لأني لم أكن أملأ عيني منه إجلالاً له».

أشتاقه فإذا بدا	أطرقت من إجلاله
لا خيفة بل هيبة	وصيانة لجماله
الموت في إدباره	والعيش في إقباله
وأُصَدّ عنه إذا بدا	وأروم[2] طيف خياله

ومنه حياء عبد الله بن عمر رضي الله عنهما؛ إجلالاً لكبار الصحابة ممن هم أسن منه، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وهي مَثَلُ المسلم، حدثوني ما هي؟**»، فوقع الناس في شجر البوادي، ووقع في قلبي أنها النخلة، فنظرت فإذا أبو بكر وعمر فاستحييت.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٠٤).

(٢) أي: قصد.

ويعلمنا النبي ﷺ هذا النوع من أنواع الحياء، فعندما جاءه سعيد بن زيد رضي الله عنه يسأله قائلاً: أوصني. فقال: «**أوصيك أن تستحيي من الله تعالى كما تستحيي من الرجل الصالح من قومك**»[١].

٥- **حياء الحشمة والأدب**: ذاكم حياء الفطرة، ولبنتي العبد الصالح في ذلك القدح المعلى.

ولنقرأ هذه الآيات في موقف موسى عليه السلام معهما: ﴿**وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا**﴾ [القصص: ٢٣- ٢٥].

قال عمر رضي الله عنه: «ليست بسلفع من النساء خرَّاجة ولاَّجة، ولكن جاءت مستترة قد وضعت كم درعها على وجهها استحياءً»[٢].

وفي رواية: «جاءت تمشي على استحياء قائلة بثوبها على وجهها، ليست بسلفع من النساء خرَّاجة ولاَّجة».

تمشي على استحياء مشية وقار وسكينة وأدب وتواضع، بثياب عفة وطهارة وتحجب وكمال استتار، بلا تبرج ولا تبجج ولا تشبه بالرجال، ولا ضربة بالأرجل، ولا ارتفاع صوت، ولا تشم رائحتها، ولا تثير شهوة.

قصيرة ألفاظ قصيرة بيتها ... ومن حفظته في مغيب ومشهد

وورد أن فاطمة بنت عتبة رضي الله عنها جاءت تبايع رسول الله ﷺ، فأخذ عليها ﴿**أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ**﴾ [الممتحنة: ١٢]، فوضعت يدها على رأسها حياءً، فأعجبه ما رأى منها، فقالت عائشة رضي الله عنها: أقِري أيتها المرأة، فوالله ما بايعناه إلا على هذا. قالت: فنعم إذن[٣].

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (صـ ٤٦).

(٢) أخرجه الحاكم (٤/٧) وصححه على شرط الشيخين، وسكت عنه الذهبي.

(٣) أخرجه أحمد (٦/١٥١).

* عائشة رضي الله عنها تستحيي من الأموات!!

عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قـالت: «كنت أدخل البيت الذي دفن فيه رسول الله ﷺ وأبي رضي الله عـنه واضعة ثوبي، وأقـول: إنما هو زوجي وأبي، فلما دفن عمر رضي الله عنه فوالله ما دخلته إلا مشدودة عليَّ ثيابي حياءً من عمر رضي الله عنه»[١].

وهذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه يسـتحيي أن يسـأل رسول الله ﷺ عن المذي لمكان ابنته فاطمة رضي الله عنها منه، فـعنه قال: كنت رجلا مذَّاءً، فأمرت المقداد أن يسأل النبي ﷺ، فـسأله فقال: «فيـه الوضوء»، وفي رواية أخرى قال: كنت رجلاً مـذَّاءً، فأمـرت رجلاً أن يسـأل النبي ﷺ لمكان ابنته، فـسأله فـقال: «توضأ واغسل ذكرك»[٢].

وفاطمة رضي الله عنها من الحياء بمكان، فعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتى فاطمـة بعبد قد وهبـه لها، قال: وعلى فاطمـة رضي الله عنها ثوب إذا قنَّعت به رأسها لم يبلغ رجليها، وإذا غطت به رجليـها لم يبلغ رأسها، فلما رأى النبي ﷺ ما تلقى قال: «إنه ليس عليك بأس، إنما هو أبوك وغلامك»[٣].

وقد أتت فاطمـة رضي الله عنها رسول الله ﷺ تسأله خادمًـا، فقال: «ما جاء بك يا بنية؟»، فقالت: جئت أسلم عليك، واستـحيت، حتى إذا كان القابلة أتته فـقالت مـثل ذلك، وفي رواية: «أن رسـول الله ﷺ جـاءها وعليًّـا وقد أخـذا مضجعهـما. . .». الحديث وفيه: «فجلس عند رأسها فـأدخلت رأسها في اللفاع حياءً من أبيها».

وبلغت التابعيات الذروة السامقة في الحياء والأدب، حتى إن إحداهن قد يشغل عنها زوجهـا بالعبادة وقيام الليل وصيـام النهار والاعتكاف، فتستـحيي أن تُصرِّح بطلب النكاح والمعاشرة ولو في مجلس القضاء والحكم.

---

(١) أخرجه البخاري.
(٢) أخرجه أبو داود.
(٣) أخرجه البخاري.

عن محمد بن معن الغفاري قال: أتت امرأة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالت: يا أمير المؤمنين، إن زوجي يصوم النهار ويقوم الليل، وأنا أكره أن أشكوه وهو يعمل بطاعة الله عز وجل، فقال لها: نعم الزوج زوجك، فجعلت تكرر هذا القول ويكرر عليها الجواب، فقال له كعب الأسدي: يا أمير المؤمنين، هذه المرأة تشكو زوجها في مباعدته إياها عن فراشه. فقال عمر: كما فهمت كلامها فاقض بينهما. فقال كعب: عليّ بزوجها. فأُتي به، فقال له: إن امرأتك هذه تشكوك. قال: أفي طعام أو شراب؟ قال: لا. فقالت المرأة:

يا أيها القاضي الحكيم رشده ... ألهى خليلي عن فراشي مسجده
زهَّده في مضجعي تعبده ... فاقض القضا كعب ولا ترده
نهاره وليله ما يرقده ... فلست في أمر النساء أحمده

فقال زوجها:

زهَّدني في النساء وفي الحَجَل ... أني امرؤ أذهلني ما نزل
في سورة النحل وفي السبع الطول[1] ... وفي كتاب الله تخويف جلل

فقال كعب:

إن لها عليك حقًّا يا رجل ... تصيبها في أربع لمن عَقَل
فأعطها ذاك ... ودع عنك العلل

ثم قال: إن الله عز وجل قد أحل لك من النساء مثنى وثلاث ورباع، فلك ثلاثة أيام ولياليهن تعبد فيهن ربك. فقال عمر: والله ما أدري من أي أمريك أعجب؟! أمِن فهمك أمرهما، أم من حكمك بينهما؟! اذهب فقد وليتك قضاء البصرة[2].

* حياء الأدب مع الله:

وهذا النوع من أنواع الحياء يتعلق بالله تعالى إذا خلا العبد بنفسه، فعن بهز بن

(١) السبع الطُّوَل: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والتوبة.
(٢) انظر «قصص التابعيات» للمؤلف، وانظر «حياة الصحابة».

حكيم عن أبيه عن جده قال: قلت: يا رسول الله، عوراتنا ما نأتي منها وما نذر؟ فقال ﷺ: «**احفظ عورتك إلا من زوجتك وما ملكت يمينك**». قلت: فإذا كان القوم بعضهم في بعض؟ قال: «**إن استطعت أن لا يرينها أحد فلا يرينها**». قلت: فإذا كان أحدنا خاليًا؟ قال: «**فالله تبارك وتعالى أحق أن يستحيى منه الناس**»(١).

٦- **حياء الكرم**: بأن يصبر على طول جلوس الأضياف واسترسالهم في الحديث مع المشقة والسآمة، وذلك كحياء الرسول ﷺ من القوم الذين دعاهم لوليمة زينب بنت جحش رضي الله عنها، فتـهيأ للقيام فلم يقومـوا، فلما رأى ذلك قام، فلما قام قام مَنْ قام، وقعـد ثلاثة نفر يتحدثون، فاستحيـا أن يقول لهم قوموا، فنزلت الآية: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ**﴾ [الأحزاب: ٥٣](٢).

٧- **حياء الاستحقار واستصغار النفس**: كحياء العبد من ربه عز وجل حين يسأله حوائجه احتقارًا لشأن نفسه، واستصغارًا لها.

وقد يكون لهذا النوع سببان: أحدهما: استحقار السائل نفسه، واستعظام ذنوبه وخطاياه.

والثاني: استـعظام مسئوله كحـال مَنْ قال: إني لأستحـيي أن أسأل ربي الدنيا وهو مالكها، فكيف أسألها غير مالكها؟

٨- **حياء المحبة**: هو حياء المحب من محبوبه، حـتى أنه إذا خطر عليه في غيبته هاج الحياء من قلبـه، وأحس به في وجهه، ولا يدري ما سببـه، وكذلك يعرض للمحب عند مـلاقاته محبـوبه ومفاجـأته له روعة شديدة، ولا ريب أن للمحـبة

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الحمام باب ما جاء في التعري رقم (٤٠١٧)، والترمذي: كتاب الأدب- باب (ما جاء في حفظ العورة) رقم (٢٦٧٠)، و(٢٧٩٥)، وذكره البخـاري تعليقًا بصيغة الجزم في كتاب الغـسل- باب (من اغتسل عريانًا) (١/ ٢٦٦) وقال الحافظ ابن حـجر: إسناده إلى بهز صحيح. وحسنه الترمذي وصححه الحاكم.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأحزاب.

سلطانًا قاهرًا للقلب أعظم من سلطان من يقهر البدن، فأين من يقهر قلبك وروحك إلى من يقهر بدنك؟!

ولذلك تعجبت الملوك والجبابرة من قهرهم للخلق وقهر المحبوب لهم وذلهم له، فإذا فاجأ المحبوب محبه ورآه بغتة أحس القلب بهجوم سلطانه فاعتراه روعة وخوف.

٩- **حياء الشرف والعزة**: أما حياء الشرف والعزة فحياء النفس العظيمة الكبيرة إذا صدر منها ما هو دون قدرها مِنْ بذل أو عطاء أو إحسان، فإنه يستحيي مع بذله حياء شرف نفس وعزة، وهذا له سببان:

أحدهما: هذا.

والثاني: استحياؤه من الآخذ حتى كأنه هو الآخذ السائل، حتى إن بعض أهل الكرم لا تطاوعه نفسه بمواجهته لمن يعطيه حياءً منه، وهذا يدخل في حياء التلوم لأنه يستحيي من خجلة الآخذ.

١٠- **حياء المرء من نفسه**: «وأما حياء المرء من نفسه فهو حياء النفوس الشريفة العزيزة الرفيعة من رضاها لنفسها بالنقص، وقناعتها بالدون، فيجد نفسه مستحييًا من نفسه حتى كأن له نفسين يستحيي بإحداهما من الأخرى، وهذا أكمل ما يكون من الحياء، فإن العبد إذا استحيا من نفسه فهو بأن يستحيي من غيره أجدر»[1].

* أهل الحياء:

وقد سلك الصديقون والصالحون والمؤمنون سبيل الحياء، كما كان عند الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، فضربوا أروع الأمثلة في الحياء.

ولنبدأ بسيد السلف الصالح :

قال أبو بكر رضي الله عنه: «استحيوا من الله، فإني لأدخل الخلاء فأقنع رأسي حياءً من الله عز وجل»[2].

---

(١) «مدارج السالكين» (جـ ٢).

(٢) أخرجه سفيان كما في «الكنز» (٢/ ١٤٤).

* خطبة للصديق في الحياء: وخطب الصديق في المسلمين فقال: «أيها الناس، استحيوا من الله، فوالله مـا خرجت لحاجة منذ بايعت رسول الله ﷺ أريد الغائط إلا وأنا مُقنِّع رأسي حياءً من الله»(١).

* من أقوال عمر في الحياء: وقال عـمر رضي الله عنه: «مَنْ قَلَّ حـياؤه قَلَّ ورعه، ومَنْ قَلَّ ورعه مات قلبه»(٢).

وقال: « مَن استحيا استخفى، ومَن استخفى اتقى، ومَنْ اتقى وقِيَ».

وأما عثمان رضي الله عنه وأرضاه فكان أكـثر أصحاب النبي ﷺ حياءً، حتى أن الملائكة تستحيي منه كما قال رسول الله ﷺ: «**إن عثمان حيي ستير تستحي منه الملائكة**»(٣).

وتقول عائشة رضي الله عنهـا: كان رسول الله ﷺ مضطجعًا في بيـتي كاشفًا عن فخذيه أو ساقـيه فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على تلك الحـال، فتحدث ثم استأذن عـمر فأذن له وهو كذلك، فتحـدث ثم استأذن عثمـان فجلس رسول الله ﷺ وسوَّى ثيابه- يقول الراوي: ولا أقول ذلك في يوم واحـد- فدخل فتحدث، فلما خرج قالت عائشة: دخـل أبو بكر فلم تهش له، ولم تباله، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك، فقال: «**ألا أستحيي من رجل تستحيي منه الملائكة؟**»(٤).

وفي رواية: « . . . إن أبا بكر استأذن علـى رسول الله ﷺ وهو مضطجع على فراشه لابس مرط عائشة فأذن لأبي بكر وهو كذلك فقضى إليه حاجته ثم انصرف ثم استأذن عمر فأذن له وهو على تلك الحال فـقضى إليه حاجته ثم انصرف، قال عثمان: ثم استأذنت عليه فجلست وقال لعائشة: «**اجمعي عليك ثيابك**»، فقضيت إليه حـاجتي ثم انصرفت، فـقالت عـائشة: يا رسول الله، مـا لي لم أرك فزعت لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما كما فزعت لعثمان؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إن عثمان رجل حيي، وإني خشيت إن أذنت له على تلك الحال أن لا يبلغ إليَّ في حاجته** »(٥).

---

(١)، (٢) «مكارم الأخلاق» لابن أبي الدنيا (صـ ٢٠).

(٣) أخرجه أبو يعلى، وانظر «الصحيحة» رقم (١٦٨٧).

(٤)، (٥) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل- باب (فضائل عثمان رضي الله عنه).

وذكر الحسن عثمان رضي الله عنه: «إن كان ليكون في البيت والباب عليه مغلق فما يضع عنه ثوبه ليفيض عليه الماء يمنعه الحياء أن يقيم صلبه»(١).

* حياء الأشعري:

وقال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: «إني لأغتسل في البيت المظلم فما أقيم صلبي حتى آخذ ثوبي حياءً من ربي عز وجل».

وعن أنس رضي الله عنه قال: «كان أبو موسى الأشعري إذا نام لبس ثيابًا عند النوم مخافة أن تنكشف عورته»(٢).

ورأى أبو موسى قومًا يقفون في الماء بغير أُزُر، فقال: «لأن أموت ثم أنشر ثم أموت ثم أنشر ثم أموت ثم أنشر أحب إليَّ من أن أفعل مثل هذا!!»(٣).

وقال رسول الله ﷺ لأشج عبد القيس: «**إن فيك لخُلُقين يحبهما الله**». قلت: ما هما؟ قال: «**الحلم والحياء**». قلت: قديمًا كانا فيَّ أو حديثًا؟ قال: «**لا بل قديمًا**». قلت: الحمد لله الذي جبلني على خُلُقين يحبهما الله(٤).

* وعمرو بن عتبة لا يخاف الأسد حياءً من الله، لله دَرُّه، كان يخرج إلى العدو مع الناس فلا يتحارس الناس لكثرة صلاة عمرو، رأوه ليلة يصلي فسمعوا زئير الأسد فهربوا وهو قائم يصلي فلم ينصرف، فقالوا له: أما خفت الأسد؟ فقال: إني لأستحي من الله أن أخاف شيئًا سواه(٥).

* حياء الجراح بن عبد الله: ذاكم مُقدَّم الجيوش فارس الكتائب أبو عقبة الجراح بن عبد الله الحكمي، كان بطلاً شجاعًا مهيبًا طوالاً عابدًا قارئًا كبير القدر، قال عن نفسه: «تركت الذنوب حياءً أربعين سنة ثم أدركني الورع»(٦).

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٧٣، ٧٤) وقال الهيثمي (٩/ ٨٢): رواه أحمد ورجاله ثقات.

(٢) أخرجه ابن سعد (٤/ ٨٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٦٠).

(٣) أخرجه ابن سعد (٤/ ٨٤).

(٤) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (ح٥٨٤)، وابن أبي شيبة (٧/ ٥١٦)، والحديث في «صحيح الأدب المفرد» (صـ ٤٥٤).

(٥) «حلية الأولياء» (٤/ ١٥٦، ١٥٧).

(٦) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ١٨٩، ١٩٠).

* حياء محمد بن الفضل: يقول محمد بن الفضل: «ما خطوت أربعين سنة خطوة لغير الله، وأربعين سنة ما نظرت في شيء أستحسنه حياءً من الله».

* حياء عامر بن عبد قيس: قال أبو عمران الجوني: «قيل لعامر بن عبد قيس: إنك تبيت خارجًا، أما تخاف الأسد؟ فقال: إني لأستحي من ربي أن أخاف شيئًا دونه»[1].

* ثلاثون سنة في قمة الحياء: وهذا هو أبو مسلم الخولاني يقول عن نفسه: «من نعمة الله عليَّ أنني منذ ثلاثين سنة ما فعلت شيئًا يُستحيا منه إلا قربي من أهلي».

* ومحمد بن سيرين عجب في حيائه: أما محمد بن سيرين فحياؤه فوق الخيال، يقول عن نفسه: «ما غشيت امرأة قط لا في يقظة ولا في نوم غير أم عبد الله، وإني لأرى المرأة في المنام فأعلم أنها لا تحل لي فأصرف بصري».

* * *

(١) «السير» (٤/١٧).

(٥) الغيرة

تبلد الإحساس كارثة تنبئ عن فساد الشخصية، وسوء الطوية، وضعف النفس، وموت القلب.

* أنواع الغيرة:

«وملاك الغيرة وأعلاها ثلاثة أنواع:

١- غيرة العبد لربه أن تنتهك محارمه وتُضيَّع حدوده.

٢- وغيرته على قلبه أن يسكن إلى غيره وأن يأنس بسواه.

٣- وغيرته على حرمته أن يتطلع إليها غيره.

فالغيرة التي يحبها الله ورسوله دارت على هذه الأنواع الثلاثة، وما عداها فإنها من خدع الشيطان»[١].

والنوع الثالث هو المراد عند إطلاق نعت الغيرة، فيقال: فلان غيور: إذا غار على حرمه أن يتطلع إليها غيره.

والغيرة مظهر من مظاهر الغضب لله والحمية من أجل دينه وحرماته، والله جل وعلا يحبها ما دامت من أجل حفظ أعراض المسلمين وحرماتهم، فإنه سبحانه يغار على حرماته لذا حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«ليس شيء أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله، من أجل ذلك أثنى على نفسه، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين»**[٢]. وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله يغار، والمؤمن يغار، وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حُرِّم عليه»**[٣].

---

(١) «روضة المحبين» (صـ ٣٢٠).

(٢) أخرجه الشيخان.

(٣) أخرجه الشيخان وأحمد والترمذي.

وقال ﷺ: «المؤمن يغار، والله أشد غيرًا»(١).

* **غيرة النبي ﷺ:** كان النبي ﷺ أعدل الخلق غيرة على أزواجه، حدث أن أم المؤمنين صفية بنت حيي جاءت إلى النبي ﷺ وهو معتكف، قالت: كان رسول الله ﷺ معتكفًا فأتيته أزوره ليلاً، فحدثته ثم قمت لأنقلب فقام معي ليقلبني، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد، فمر رجلان من الأنصار، فلما رأيا رسول الله ﷺ أسرعا، فقال النبي ﷺ: «**على رسلكما إنها صفية زوجي ...**»(٢).

عن سعد بن عبادة رضي الله عنه قال: لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح(٣)، فقال رسول الله ﷺ: «**أتعجبون من غيرة سعد؟ لأنا أغير منه، والله أغير مني، ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن**»(٤).

* **داود عليه السلام يغار على أزواجه:** وداود عليه السلام يغار على أزواجه، فيمنع أن يدخل أحد من الرجال عليهن في غيبته صيانة لهن وغيرة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**كان داود النبي عليه السلام فيه غيرة شديدة، فكان إذا خرج أُغلقت الأبواب فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع، قال: فخرج ذات يوم ورجع فإذا في وسط الدار رجل قائم، فقال له: مَنْ أنت؟ قال: أنا الذي لا أهاب الملوك، ولا يمنع مني الحُجَّاب. قال داود: أنت والله ملك الموت، مرحبًا بأمر الله، فدخل داود مكانه، فقبضت نفسه، حتى فرغ من شأنه، وطلعت الشمس، فقال سليمان للطير: أظلي على داود، فأظلت عليه الطير حتى أظلمت عليهما الأرض، فقال لها سليمان: اقبضي جناحًا جناحًا**». قال أبو هريرة: «يرينا رسول الله ﷺ كيف فعلت الطير؟ وقبض رسول الله ﷺ بيده، وغلبت عليه المضرحية(٥)»(٦).

---

(١) أخرجه مسلم (٨/ ١٠١)، وأحمد (٢/ ٢٣٥، ٣٠١، ٤٣٨).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٢٠٣٥) كتاب الاعتكاف، ومسلم رقم (٢١٧٥).

(٣) أي: غير مبال ولا مكترث.

(٤) أخرجه البخاري .

(٥) المضرحية: واحدها: مضرحي، وهو الصقر الطويل الجناح، والمراد: غلبت على التظليل عليه الصقور الطوال الأجنحة.

(٦) جيد: أخرجه أحمد في «المسند» رقم (٩٤٢٢)، وقال العراقي في تخريج الإحياء (٤/ ٤٦٤): إسناده جيد.

* **غيرة علي رضي الله عنه:** ولله دَرُّ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، لما رأى فاطمة بنت النبي ﷺ تستاك غار عليها من أن يمس السواك ثغرها، فأنشأ يقول:

لقد فزت يا عود الأراك بثغرها ... وما خفت يا عود الأراكِ أراكا
لو كنت من أهل القتال قتلتك ... وما لي يا سواكُ سواكا

* المرأة تغار على زوجها: وها هي عائشة رضي الله عنها تغار على النبي ﷺ، فعن عروة بن الزبير أنها حدثته أن رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلاً، قالت: فغرت عليه، فجاء فرأى ما أصنع، فقال: «**ما لك يا عائشة؟ أغرت؟**»، فقلت: وما لي لا يغار مثلي على مثلك؟ فقال: «**أو قد جاءك شيطانك؟**». قلت: يا رسول الله، أو معي شيطان؟ قال: «**نعم**». قلت: ومع كل إنسان؟ قال: «**نعم**». قلت: ومعك يا رسول الله؟ قال: «**نعم، ولكن ربي عز وجل أعانني عليه حتى أسلم**»(١).

* غيرة الزبير: عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قالت: «تزوجني الزبير رضي الله عنه وماله في الأرض مال ولا مملوك ولا شيء غير فرسه، قالت: فكنت أعلف فرسه وأكفيه مئونته وأسوسه، وأدق النوى لناضحه، وأعلفه وأسقيه، وأخرز غَرْبه، وأعجن، ولم أكن أحسن الخبز، فكان يخبز لي جارات من الأنصار، وكن نسوة صدق، قالت: وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التي أقطعه رسول الله ﷺ على رأسي وهي على ثلثي فرسخ(٢)، قالت: فجئت يومًا والنوى على رأسي فلقيت رسول الله ﷺ ومعه نفر من أصحابه، فدعا لي ثم قال: أخ أخ ليحملني خلفه فاستحييت أن أسير مع الرجال، وذكرت الزبير وغيرته، قالت: وكان من أغير الناس، قالت: فعرف رسول الله ﷺ أني قد استحييت فمضى، فجئت الزبير، فقلت: لقيني رسول الله ﷺ وعلى رأسي النوى ومعه نفر من أصحابه، فأناخ لأركب معه فاستحييت وعرفت غيرتك،

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٨١٥) كتاب صفة القيامة.

(٢) «حياة الصحابة» (٢/ ٦٩١).

فقـال: والله لحملك النوى كان أشد علـي من ركوبك معه!! قـالت: حتى أرسل إلي أبو بكر بعد ذلك بخادم فكفتني سياسة الفرس».

*** الغيرة المرفوضة:**

كما يجب على الرجل أن يغار على زوجتـه وعرضه، فإنه يطلب منه الاعتدال في الغـيرة، فلا يبـالغ فيـها حـتى يسيء الظن بزوجتـه، ولا يسرف في تـقصي حركاتها وسكناتها لئلا ينقلب البيت ناراً، وإنما يصح ذلك إن بدت أسباب حقيقية تستدعي الريبة.

يقول رسول الله ﷺ: «**إن من الغيرة ما يحبه الله، ومنهـا ما يبغضه الله، ومن الخيلاء ما يحبه الله ومنها ما يبـغضه الله، فأما الغيرة التي يحبها الله فالـغيرة في الريبة، والغيرة التي يبغـضها الله، فالغـيرة في غيـر ريبة، والاختـيال الذي يحبه الله اختـيال الرجل بنفـسه عند القتال وعند الصدمة[1]، والاختيال الذي يبغضه الله الاختيال في الباطل**»[2].

*** الديوث:**

ونقيض الغيرة المحمودة الدياثة، ومعناها: تغافل الزوج أو القريب عن مصادقة زوجته أو قريبته للرجـال، ووقوعها معهم في الفاحشة أو مقدماتهـا لمحبة فيها أو لدين عليه لها.

يقــول النبي ﷺ: «**ثلاثة لا يـدخلون الجنة: الـعــاق لوالديه، والديـوث، ورجلة النساء**»[3].

* * *

---

(١) عند الصدمة: أثناء المعركة.

(٢) أخرجه أبو داود والنسائي.

(٣) صحيح: أخرجه أحمد (٢/ ١٣٤)، والنسائي رقم (٢٥٦٢)، وأبو يعلى رقم (٥٥٥٦).

(٦) الستر

الستر: خُلُق يراد به ستر القبيح، وتغطية العيب، واجتناب تتبع عورات المسلمين.

وربنا سبحانه سمَّى نفسه الرحمن الرحيم؛ رحمن يرحم ويغفر ويعفو ويتجاوز ويصفح، ورحيم يستر العبد ولا يفضحه إلا إذا كان الخير في فضحه، كأن يقبل على المعصية مرات ولا يرعوي ولا ينزجر، ولا يردعه رادع من دين أو خُلُق أو عقل، فالفضيحة في حق هذا العبد حسنة؛ لأنها تعيده إلى طريق الطاعة، وتجدد له الأمل في العفو، فالله لا يفضح عبده أول مرة.

ورد أن عمر رضي الله عنه جيء إليه بسارق، فلما أُدخل عليه قال: يا أمير المؤمنين، إنها أول مرة. قال: اصدقني. قال: إنها المرة العشرون. قال: إن الله لا يفضح عبده في أول مرة.

والله جل شأنه ستير يحب الستر والستيرين، يقول ﷺ: «**إن الله حيي ستير يحب الحياء والستر، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر**»[١].

ومن جميل ستره، وعظيم كرمه، وجليل رحمته أن العبد يقدم إليه يوم القيامة على رءوس الأشهاد، فيضع عليه ستره فلا يراه أحد، ولا يكشف سوءته مخلوق كائنًا من كان.

قال رجل لعبد الله بن عمر: يا أبا عبد الرحمن، كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة؟ قال: سمعته يقول: «**إن الله يدني منه المؤمن، فيضع عليه كنفه ويستره من الناس، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم يا رب، حتى إذا قرره بذنوبه فرأى في نفسه أنه قد هلك، قال له: يا عبدي، إني لم أسترها عليك في الدنيا إلا وأنا أريد أن أغفرها لك اليوم، فيُعطى كتاب حسناته، وأما الكافرون**

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٢٤)، وأبو داود رقم (٤٠١٢، ٤٠١٣)، والنسائي (١/ ٢٠٠)، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» رقم (٢٧٩٣).

والمنافقون ﴿وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨]»(١).

وإن الله إذا ستر على عبده عورته في الدنيا فهو أكرم من أن يكشفها في الآخرة، وإن كشفها في الدنيا فهو أكرم من أن يكشفها مرة أخرى.

يقول النبي ﷺ: «**لا ستر الله على عبد في الدنيا إلا ستره يوم القيامة**»(٢).

* جزاء السِّتير:

وزيادة على هذا الفضل والكرم فإن من ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة، قال ﷺ: «**لا يستر عبدٌ عبدًا في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة**»(٣).

فواجب على كل مسلم أن يستر زلات إخوانه، ويغطي عيوب من انكشف أمامه ستره، فلا يحل لمسلم أن يأخذ سقطة لأخيه طريقًا لفضحه وترويعه وإرهابه وإشاعة عيوبه وأخطائه، وقد توعد الله تعالى من فعل ذلك بأشد العقاب في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾ [النور: ١٩].

ولا يجوز لمسلم أن يوبخ مسلمًا في حضوره أو غيبته عن ذنب قد أقيم عليه الحد فيه، فإنَّ فضحه أمام بعض الناس لا يعني إعلان عيبه وزلله في المجالس كلها، أو على رءوس الخلق أجمعين، ولو كان قد حُدَّ في ذنب أو ذنوب عشرات المرات.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أُتي النبي ﷺ برجل قد شرب خمرًا، فقال: «**اضربوه**». قال أبو هريرة: فمنا الضارب بيده والضارب بنعله والضارب بثوبه، فلما انصرف قال بعض القوم: أخزاك الله. فقال ﷺ: «**لا تقولوا هكذا، لا تعينوا عليه الشيطان**»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري .

(٢) أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين.

(٣) أخرجه مسلم رقم (٢٥٩٠).

(٤) أخرجه البخاري رقم (٦٧٧٧).

وعنه قـال: قـال النبي ﷺ: «**إذا زنت الأمـة فـتـبين زناها فـليـجلدها الحـد، ولا يثرب**[١]**، ثم إن زنت الثانية فـليجلدها الحد ولا يثرب عليهـا، ثم إن زنت الثالثة فليبـعها ولو بحبل من شعر**»[٢].

سـبحـان الله! ما أعظم هذا الدين، ينـهى السادة أن يوبخـوا الإماء الزانيـات لزناهن مرات ومرات، ألا فليتق الله أقوام علموا بهـفوة لتقي أو زلة لعالم فأطلقوا ألسنتـهم في عرضـه محـتجين بخطئـه، ألا لعنة الله على الخائضين فـي أعراض المسلمين.

وكما يستر المؤمن الأحياء المؤمنين فإنه يستر الأموات، فإن غسَّل ميتًا فرأى عيبًا أو رأى ما ينبئ عن سوء خاتمة ستر وكـتم ولم يخبر أحدًا بما رأى، قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ غسَّل ميتًا فكتم، غفر الله له أربعين مرة**»[٣].

وأعظم الستر ما يتـحمل فيه المرء ما لا يطيق، قال أحمـد بن مهدي: «جاءتني امرأة ببغداد في ليلة من الليالي فذكرت أنها من بنات الناس، وأنها امتُحنت بمحنة وسألتني بالله أن أستـرها، فقلت: وما محنتك؟ فقـالت: أُكرهت على نفسي[٤]، وأنا حبلى، وذكرت للناس أنك زوجي، وأن ما بي من الحبل منك، فلا تفضحني استرني سترك الله. فسكت عنها ومضت، فلم أشعر حـتى وضعت، وجاء إمام المحلة في جماعة الجيران يهنئـونني بالولد، فأظـهرت لهم التهلل ووزنت في اليوم الثاني دينارين ودفـعتهمـا إلى الإمام فقلت: أبلغ هذا إلى تلك المرأة لتنفـقه على المولود، فإنه سبب مـا فرق بيني وبينها. فكنت أدفع كل شهـر دينارين، وأوصلها بيـد الإمـام وأقول: هـذه نفقـة المولود، إلى أن أتـى على ذلك سنتـان ثم توفي المولود، فجاءني الناس يعزونني، فكنت أظهر لهم التسليم والرضا، فجاءتني المرأة ليلة من الليالي بعد شهر ومعها تلك الدنانير التي كنت أبعث بها بيد الإمام فردتها وقالت: سترك الله كـما سترتني. فقلت: هذه الدنانيـر كانت صلة مني للمولود،

---

(١) التثريب: أي التوبيخ.

(٢) أخرجه البخاري رقم (٢١٥٢)، ومسلم رقم (١٧٠٣).

(٣) أخرجه الحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي.

(٤) أي: على الزنا.

وهي لك فإنك ربيتيه فاعملي فيها ما تريدين»[١].

* استر نفسك: وكما يستر المؤمن عباد الله فإنه يستر نفسه، فلا يشهر خطاياه أمام الخلق، ولا يذكر زلاته أمام الناس ولو كانوا أصدقاء إلا على وجه السؤال والفتيا دون تحديد أنه الفاعل سيما عند من يعرفه.

يقول ﷺ: **«من ابتلي بشيء من هذه القاذورات فليستتر بستر الله عليه»**[٢]؛ لأن الحديث عن الفواحش والخطايا نشر للفاحشة وإشاعة.

يقول النبي ﷺ: **«كل أمتي معافى إلا المجاهرون، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله عليه فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه»**[٣].

وفي مقابل الستر فإنه يحرم على المسلم فضح أخيه وتتبع عثراته، يقول رسولنا ﷺ: **«يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من تتبع عورة مسلم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته فضحه على رءوس الأشهاد»**[٤].

وقال ﷺ: **«إنك إن اتبعت عورات المسلمين أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم»**[٥].

* * *

---

(١) «قصص الصالحين» (صـ ٩٩) للمؤلف.

(٢) حديث صحيح.

(٣) أخرجه البخاري رقم (٢١٥٢)، ومسلم (١٧٠٣).

(٤) حسن.

(٥) أخرجه أبو داود رقم (٤٨٩٠) بإسناد صحيح كما قال النووي في «الرياض» (صـ ٣٩٦).

(٧) توقير العلماء والأتقياء والشيوخ

توقير العلماء وإجلال الأتقياء وإكرام الشيوخ خُلُق عظيم يدلنا ديننا عليه كل يوم عشرات المرات، فلا تكاد تمر بنا صلاة إلا ونفقهه مرة أو مرتين، فاقرأ معي التشهد: «التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. . .».

إنك بعد أن حييت ربك، وسلمت على نبيك ثم قدَّرت عباد الله الصالحين فأدخلتهم في التحية، فكيف تغفل عن إجلالهم بعد هذا التقدير الذي لا ينسى؟

ونلمس في فريضة الحج هذا المعنى، فإن الحاج أو المعتمر بعد أن يطوف بالبيت يستحب له أن يصلي عند مقام إبراهيم عليه السلام ركعتين، لأن إبراهيم عليه السلام أول من أذن بالحج، فأنت تذكره وتشكره لأن الله تعالى أجرى الخير على يديه.

ولجلال هذا المعنى فإن القرآن المجيد خص هذه السنة وحدها دون غيرها من سنن الحج بل وسنن العبادات بالذكر فقال: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥].

وإجلال علماء الشرع الإسلامي صاحب قدم السبق في التعظيم، فهم الذين يخشون ربهم حق الخشية، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

وهم أعرف الخلق بالله، لذلك أشهدهم على وحدانيته فقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

لذا فإن الله جل وعلا فضلهم على غيرهم فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

وهذا يستلزم توقيرهم وإجلالهم واحترامهم وتبجيلهم وتقديرهم أكثر من غيرهم، وإعطاءهم حقهم المختص بهم دون إفراط أو تفريط، يقول عليه صلوات

الله وسلامه: «**ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا ويعرف لعالمنا حقه**»[(١)].

ويضاف هذا الحق إلى حقوق كثيرة، فإن كان حاملاً للقرآن فله حقان: حق العلم، وحق حمل القرآن، وإن كان شيخًا فله ثلاثة حقوق: حق العلم، وحق حمل القرآن، وحق السن، وإن كان صالحًا فله أربعة حقوق: حق العلم، وحق حمل القرآن، وحق السن، وحق الصلاح، وإن كان قريبًا فله خمسة حقوق: حق العلم، وحق حمل القرآن، وحق السن، وحق الصلاح، وحق القرابة.

وإن كان جارًا فله ستة حقوق: ما ذُكر، ويزاد عليه حق الجار، ثم له حق سابع هو حق الإسلام.

فالعلم يرفع بيتًا لا عماد له والجهل يهدم بيت العز والكرم

لهذا قال الشاعر:

تعلم فليس المرء يولد عالمًا وليس أخو علم كمن هو جاهل
وإن كبير القوم لا علم عنده صغير إذا التفت عليه المحافل

* غلام يقدم في مجلس أمير المؤمنين لعلمه:

والعالم يكرم ويبجل ولو كان غلامًا، يتجلى لنا ذلك من إكرام أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما، فقد كان عمر يجلسه في مجلسه ويقدمه على الأشياخ لعلمه مع أنه غلام، فقال له بعض الأشياخ: كيف تقدم هذا الغلام علينا وفي أولادنا من هو أسن منه؟ فقال عمر رضي الله عنه: ما تقولون في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] فقال بعضهم: هو فتح مكة. وسكت بعضهم، فقال عمر رضي الله عنه: ما تقول يا ابن عباس؟ قال: هو أجل رسول الله ﷺ أهدي إليه. قال: هذا الذي أعلمه عنها[(٢)].

ويدخل في الأدب مع العلماء الأخذ بالركاب، فعل ابن عباس رضي الله عنهما ذلك بركاب زيد بن ثابت، وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا.

---

(١) حديث حسن: أخرجه أبو داود والترمذي.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة النصر.

وأخذ عمر بغرز زيد حتى رفعه وقال: هكذا فافعلوا بزيد وأصحاب زيد.

وعلماء الشرع، وقرَّاء القرآن، والصالحون أحق الناس بمجالس الأمراء ومرافقة الزعماء، روى ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قدم عيينة بن حصن فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر رضي الله عنه، وكان القراء أصحاب مجلس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شبانًا، فقال عيينة لابن أخيه: لك وجه عند هذا الأمير فاستئذن لي عليه. فاستئذن له، فأذن له عمر رضي الله عنه»(١).

هؤلاء هم ندماء عمر وجلساؤه، وهؤلاء هم أصحاب الرأي والمشورة عنده.

والفقهاء العالمون بالقرآن يقدمون على غيرهم بعد الموت فيدفنون في القبور قبل غيرهم، عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد- يعني في القبر- ثم يقول: «**أيهما أكثر أخذًا للقرآن؟**». فإذا أُشير له إلى أحدهما قدمه في اللحد(٢).

* ومن حق العالم الحياء منه، وعدم الهجوم على الفتيا في حضوره، فعن شهر بن حوشب قال: «كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا تحدثوا وفيهم معاذ بن جبل رضي الله عنه نظروا إليه هيبة له»(٣).

وعن أبي مسلم الخولاني قال: «دخلت مسجد حمص، فإذا فيه نحوًا من ثلاثين كهلاً من أصحاب النبي ﷺ، وإذا فيهم شاب أكحل العينين، براق الثنايا، لا يتكلم ساكت، فإذا امترى القوم(٤) في شيء أقبلوا عليه فسألوه، فقلت لجليس لي: مَنْ هذا؟ فقال: معاذ بن جبل رضي الله عنه. فوقع في نفسي حبه، فكنت معهم حتى تفرقوا»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٨٢٨٦).

(٢) أخرجه البخاري رقم (١٣٤٣).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٣١) وفيه (شهر) وهو ضعيف.

(٤) امترى القوم: من المرية، والمرية: الشك.

(٥) أخرجهما أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٣١).

وعنه أنه دخل المسجد مع أصحاب رسول الله ﷺ أحضر ما كانوا أول إمرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: «فجلست مجلسًا فيه بضع وثلاثون كلهم يذكرون حديثًا عن رسول الله ﷺ، وفي الحلقة فتى شاب شديد الأدمة حلو المنطق وضيء، وهو أشب القوم سنًّا، فإذا اشتبه عليهم من أحاديث القوم شيء ردوه إليه فحدثهم حديثهم، ولا يحدثهم شيئًا إلا أن يسألوه، قلت: مَنْ أنت يا عبد الله؟ قال: أنا معاذ بن جبل»(١).

* إجلال حامل القرآن العامل به:

ولحامل القرآن الذي يعمل بما فيه حق خاص، وإجلال معين يناسب علمه وفضله، يقول ﷺ: «**إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط**»(٢).

وحامل القرآن الفقيه أحق المسلمين بالتقدم لإمامة الصلاة لا ينازعه فيها منازع، يقول النبي ﷺ: «**يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة، فإن كانوا في السنة سواء فأقدمهم هجرة، فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سنًّا، ولا يؤمَّن الرجلُ الرجلَ في سلطانه، ولا يقعد في بيته على تكرمته إلا بإذنه**»(٣).

فإن لم ينل الإمامة لوجود من يفضله فهو أحق الناس بالصلاة في الصف الأول خلف الإمام، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليليني منكم أولو الأحلام**(٤) **والنهى**(٥) **ثم الذين يلونهم- ثلاثًا-**»(٦).

* حق الكبير:

إكرام الشيخ الكبير من إجلال الله تعالى، لذا يجب علينا أن ننزله منزلته، ونزيد في توقيره، قال رسول الله ﷺ: «**ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويعرف**

---

(١) أخرجهما أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٣١).
(٢) حسن: أخرجه أبو داود رقم (٤٨٤٣).
(٣) أخرجه مسلم رقم (٦٧٣).
(٤) أولو الأحلام: أهل العلم والفضل، وقيل: البالغون.
(٥) النُّهى: العقول.
(٦) أخرجه مسلم رقم (٤٣٢).

شرف كبيرنا»(١).

ولتوقير الكبير مظاهر كثيرة:

منها: إنزاله منزلته اللائقة به.

ومنها: قضاء حاجاته التي يريدها أو يعجز عنها.

ومنها: مرافقته إن احتاج إلى رفيق.

ومنها: تقديمه في الحديث على غيره إن تساوى معهم في العلم والفضل.

فعن سهل بن أبي حَثمة رضي الله عنه قال: «انطلق عبد الله بن سهل ومُحيصة ابن مسعود إلى خيبر وهي يومئذ صلح، فتفرقا، فأتى محيصة إلى عبد الله بن سهل وهو يتشحط في دمه قتيلاً فدفنه ثم قدم المدينة فانطلق عبد الرحمن بن سهل ومحيصة وحويصة ابنا مسعود إلى النبي ﷺ، فذهب عبد الرحمن يتكلم، فقال: «كبِّر كبِّر». وهو أحدث القوم، فسكت فتكلما فقالا . . .»(٢).

ومنها: تقديمه في المناولة والإعطاء، قال ﷺ: «**أراني في المنام أتسوك بسواك، فجاءني رجلان أحدهما أكبر من الآخر، فناولت السواك الأصغر، فقيل لي: كبِّر. فدفعته إلى الأكبر منهما**»(٣).

ومنها: التلطف معه في القول، ورعاية أغراضه.

ومنها: مساعدته وحمله وإجازته الطريق.

*** إجلال الأمير العادل:**

ومما يلتحق بهذه الآداب السابقة إجلال ذي السلطان المقسط، والحاكم العادل، ومَنْ في منزلته.

عن عروة قال: دخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه على أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه فإذا هو مضطجع على طنفسة رحله متوسد الحقيبة، فقال له عمر:

---

(١) حديث صحيح أخرجه أبو داود، والترمذي وقال: حسن صحيح.

(٢) أخرجه البخاري رقم (٣١٧٣)، ومسلم رقم (١٦٦٩).

(٣) أخرجه مسلم رقم (٢٢٧١).

ألا اتخذت ما اتخذ أصحابك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، هذا يبلغني المقيل.

قال معمر في حديثه: «لما قدم عمر الشام تلقاه الناس وعظماء أهل الأرض، فقال عمر: أين أخي؟ قالوا: مَنْ؟ قال: أبو عبيدة. قالوا: الآن يأتيك. فلما أتاه نزل فاعتنقه ثم دخل عليه بيته، فلم ير في بيته إلا سيفه وترسه ورحله»[1].

*** واليوم توقير اللاهين واللاعبين:**

واللائح أن هذا الخُلُق تحول عن أهله إلى غير أهله، فصار التقدير والتعظيم للممثلين ولاعبي كرة القدم خاصة، ألا ترى الأموال الكثيرة الوفيرة، والهدايا الجسيمة، والمرتبات العظيمة التي ينالها هؤلاء اللاعبون، ناهيك عن التكريم المعنوي الذي لم يحظ به عالم ولا صالح، فوسائل الإعلام المقروءة والمرئية والمسموعة تضيع أقلامها وأوقاتها وأفرادها خدمة لأصحاب الأقدام الذهبية.

من أجل ذلك نشأت ناشئة من أبناء المسلمين لا تعرف قدوة ولا مثالاً عاليًا إلا في اللاعبين واللاعبات، أو الفنانين والفنانات، وأصبح عقل الأمة الآن في رجلها وسرَّتها.

* * *

(١) أخرجه أحمد كما في «صفة الصفوة» (١/ ١٤٣)، وابن المبارك في «الزهد» كما في «الإصابة» (٢/ ٢٥٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٠١).

(٨) الحلم

الحلم: هو احتمال الأذى، وكظم الغيظ، والعفو عن المسيء، والإحسان إلى المخطئ، وملك النفس عند الغضب.

والحلم أفضل من كظم الغيظ؛ لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلم، أي: تكلف الحلم، ولا يحتاج إلى كظم الغيظ إلا من هاج غيظه، ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة، ولكن إذا تعود ذلك مدة صار ذلك اعتياداً فلا يهيج الغيظ، وإن هاج فلا يكون في كظم الغيظ تعب، وهو الحلم الحقيقي، وهو دلالة على كمال العقل واستيلائه، وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل ولكن ابتداؤه التحلم[١].

وللحلم فضل عظيم وثواب جسيم، يكفي أن الله جل جلاله قد سمى نفسه الحليم، والعبد مطالب أن يتخلق بما يجوز له التخلق به من أسماء الله على قدره، كما أن الحلم يرفع منزلة العبد، ويعلي مكانته على رءوس الخلائق يوم القيامة فيعطيه أجرًا عظيمًا.

يقول صاحب الخُلُق العظيم ﷺ: **«مَنْ كظم غيظًا وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رءوس الخلائق حتى يخيره من الحور العين ما شاء»**[٢].

والحلم دليل من أدلة طريق الجنة، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رجل لرسول الله ﷺ: دلني على عمل يدخلني الجنة. قال رسول الله ﷺ: **«لا تغضب ولك الجنة»**[٣].

لذا لما كرر عليه رجل طلب الوصية كرر عليه الوصية باجتناب الغضب، وقال: **«لا تغضب»**. قال الرجل: **«ففكرت حين قال النبي ﷺ ما قال فإذا الغضب يجمع الشر كله»**[٤].

---

(١) «إحياء علوم الدين» للغزالي (٣/ ١٨٧، ١٨٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٤/ ٢٤٨)، والترمذي (٣/ ٢٥١)، وابن ماجه (٢/ ١٤٠٠) وحسنه الترمذي.

(٣) قال المنذري في «الترغيب»: رواه الطبراني بإسنادين أحدهما صحيح.

(٤) أخرجه البخاري (١٠/ ٥١٩ فتح)، وقول الرجل في مسند أحمد.

ومن أراد أن يبعد عن غضب الله فلا يغضب، فقد سأل رجل رسول الله ﷺ: ما يبعدني من غضب الله؟ قال: «لا تغضب»(١).

ومع هذا وذاك فإنه: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب». كما قال النبي ﷺ، وصدق من قال:

يقابلني السفيه بكل حمق ... فأرفض أن أكون له مجيبًا
يزيد سفاهة فأزيد حلمًا ... كعود زاده الإحراق طيبًا

وقال محمود الوراق:

سألزم نفسي الصفح عن كل مذنب ... وإن كثرت منه عليَّ الجرائم
وما الناس إلا واحدًا من ثلاثة ... شريف ومشروف ومثلي مقاوم
فأما الذي فوقي فأعرف قدره ... وأتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذي دوني فإن قال صنت عن ... إجابته عرضي وإن لام لائم
وأما الذي مثلي فإن زل أو هفا ... تفضلت إن الفضل بالحلم حاكم

* * *

إذا نطق السفيه فلا تجبه ... فخير من إجابته السكوت
سكت عن السفيه فظن أني ... عييت عن الجواب وما عييت

ولله دَرُّ القائل:

أحب مكارم الأخلاق جهدي ... وأكره أن أعيب وأن أعابا
وأصفح عن سباب الناس حلمًا ... وشر الناس من يهوى السبابا
ومن هاب الرجال تهيبوه ... ومن حقر الرجال فلن يُهابا

* * *

وفي الحلم ردع للسفيه عن الأذى ... وفي الخرق إغراء فلا تك أخرقا
فتندم إذ لا ينفعك ندامة ... كما ندم المغبون لما تفرَّقا

---

(١) قال العراقي في «تخريج الإحياء» (٣/١٧٦): رواه الطبراني في «مكارم الأخلاق»، وابن عبد البر بإسناد حسن.

* أقسام الحلم:

والحلم أقسام، قال السري السقطي: «الحلم على خمسة أقسام:

الأول: حلم غريزي، وهو هبة من الله للعبد به يعفو عمن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويصل به رحمه وإن قطعه.

والثاني: حلم تحالم، وهو أن يكظم العبد غيظه رجاء الثواب وفي القلب كراهة.

والثالث: حلم مذموم، وهو حلم العبد على من جنى عليه رياءً وسمعة، أي: يرائي به جلساؤه وهو حاقد ساكت.

والرابع: حلم كبر، وهو أن لا يرى الشخص أهلاً بأن يجاوبه.

والخامس: حلم مهابة ومذلة»(١).

والحلم كائن بين خُلُقين ذميمين:

أحدهما: البرود والدياثة، فلا يغضب صاحبه إذا انتهكت حرمة من حرمات الله، ولا يتغيظ إذا اعتدي على عرضه.

والآخر الخطير: الإفراط في الغضب أو التهور.

والناس في الغضب والرجوع إلى الحق أربع طبقات، يقول النبي ﷺ: **«ألا إن بني آدم خلقوا على طبقات، ألا وإن منهم البطيء الغضب السريع الفيء، ومنهم سريع الغضب سريع الفيء فتلك بتلك، ألا وإن منهم سريع الغضب بطيء الفيء، ألا وخيرهم بطيء الغضب سريع الفيء، وشرهم سريع الغضب بطيء الفيء، ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم، أما رأيتم إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه، فمن أحس بشيء من ذلك فليلصق بالأرض»**(٢).

* **سيد الحلماء:** وللنبي محمد ﷺ في هذا الخُلُق وغيره قدم السبق، فقد أوذي في الله وما أوذي أحد بمثل ما أوذي، وصبر في الله وما صبر مثله أحد.

---

(١) «تنبيه المغتربين» (صـ ٧٢).

(٢) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن.

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: «لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام، فناداني فقال: إن الله تعالى قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد أرسل إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال، فسلم عليَّ ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربي إليك لتأمرني بأمرك بما شئت، إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين(١)، فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا»(٢).

أي حلم هذا! يمشي ما يقرب من مائة كيلو متر إلى أهل الطائف ليدعوهم إلى عبادة الله وحده فيسبونه، ويؤذونه، ويأتيه جبريل وملك الجبال عليهما السلام ويعرضان عليه الانتقام الشديد ممن آذوه إلا أنه يرفض هذا ويدعو لهم بالإيمان، إنه سيد الحلماء.

ولنقرأ هذا الموقف: يقول أنس رضي الله عنه: «كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة، فنظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد، مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه، فضحك ثم أمر له بعطاء»(٣).

وصدقت عائشة رضي الله عنها إذ قالت: «ما ضرب رسول الله ﷺ شيئًا قط بيده، ولا امرأة ولا خادمًا، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله تعالى، فينتقم لله تعالى»(٤).

---

(١) الأخشبان: الجبلان المحيطان بمكة. والأخشب: هو الجبل الغليظ.

(٢) أخرجه البخاري رقم (٣٢٣١)، ومسلم رقم (١٧٩٥).

(٣) أخرجه البخاري رقم (٣١٤٩)، ومسلم رقم (١٠٥٧).

(٤) أخرجه مسلم رقم (٢٣٢٨).

* أقوال ومواقف في الحلم وكظم الغيظ: وقد كان سلفنا الطيب من هذا الخُلُق على قدر جليل:

عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: «أغلظ رجل لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، فقال أبو برزة: ألا أضرب عنقه؟ فانتهره، فقال: ما هذا لأحد بعد رسول الله ﷺ»(١).

وعن عمر رضي الله عنه قال: « ما تجرع عبد جرعة من لبن أو عسل خير من جرعة غيظ»(٢).

وقال: «من اتقى الله لم يشف غيظه، من خاف الله لم يفعل ما يشاء، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون»(٣).

* حلم عمر: وأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يُشتم ويُظلم في مجلسه وسلطانه وسط وزرائه، ويكظم غيظه، ويعفو عمن أساء إليه، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قدم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر رضي الله عنه فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس رضي الله عنه وكان من النفر الذين يدنيهم عمر رضي الله عنه، وكان القراء أصحاب مجلسه ومشورته كهولاً كانوا أو شبانًا، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي، لك وجه عند هذا الأمير فاستئذن لي عليه. فاستئذن له فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هيه يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجَزْل(٤)، ولا تحكم بيننا بالعدل. فغضب عمر حتى همَّ أن يوقع به، فقال الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. وإن هذا من الجاهلين!! فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقّافًا عند كتاب الله عز وجل»(٥).

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٩)، والنسائي (٧/ ١١٠)، وأبو يعلى رقم (٧٩، ٨٢)، وصححه الألباني في «صحيح سنن النسائي» رقم (٣٧٩٦).

(٢) كما في «كنز العمال» (٢/ ١٦١).

(٣) «الإحياء» (٣/ ١٨٧).

(٤) الجزل: العطاء الوفير الكثير.

(٥) أخرجه البخاري رقم (٤٦٤٢، ٧٢٨٦).

قال ابن عمر رضي الله عنهما: «ما رأيت عمر غضب قط فذُكر الله عنده أو خُوِّف أو قرأ عنده إنسان آية من القرآن إلا رقد عما كان يريد»(١).

وعن أسلم قال: «قال بلال رضي الله عنه: يا أسلم، كيف تجدون عمر؟ قلت: خير، إلا أنه إذا غضب فهو أمر عظيم، فقال بلال: لو كنت عنده إذا غضب قرأت عليه القرآن حتى يذهب غضبه»(٢).

وعن مالك الدار عن أبيه عن جده قال: «صاح عليَّ عمر رضي الله عنه يومًا، وعلاني بالدِّرَّة، فقلت: أذكرك بالله. قال: فطرحها، فقال: لقد ذكرتني عظيمًا»(٣).

وعن عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ [آل عمران: ٣٩]. قال: السيد الذي لا يغلبه الغضب.

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥]: «هو الرجل يشتمه أخوه فيقول: إن كنت كاذبًا فغفر الله لك، وإن كنت صادقًا فغفر الله لي».

وقال عمر رضي الله عنه: «تعلموا العلم، وتعلموا للعلم السكينة والحلم».

وقال علي رضي الله عنه: «ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر علمك، ويعظم حلمك، وأن لا تباهي الناس بعبادة الله، وإذا أحسنت حمدت الله تعالى، وإذا أسأت استغفرت الله تعالى».

وقال الحسن: «اطلبوا العلم وزينوه بالوقار والحلم».

وقال أبو الدرداء: «أدركت الناس ورقًا لا شوك فيه، فأصبحوا شوكًا لا ورق فيه، إن عرفتهم نقدوك، وإن تركتهم لم يتركوك. قالوا: كيف نصنع؟ قال: تقرضهم من عرضك ليوم فقرك».

---

(١) أخرجه ابن سعد.

(٢)، (٣) «منتخب كنز العمال» (٤/ ٤١٣).

وقال علي رضي الله عنه: «إن أول ما عوض الحليم من حلمه أن الناس كلهم أعوانه على الجاهل».

وقال لقمان: «ثلاثة لا يُعْرفون إلا عند ثلاثة: لا يُعرف الحليم إلا عند الغضب، ولا الشجاع إلا عند الحرب، ولا الأخ إلا عند الحاجة إليه»(١).

وشتم رجل سلمان الفارسي، فقال له: «إن خفَّت موازيني فأنا شر مما تقول، وإن ثقلت موازيني لم يضرني ما تقول».

وقال رجل لمعاوية رضي الله عنه: «إني نذرت أن أضرب أمير المؤمنين على رأسه- وكان الأمير معاوية- فقال معاوية: أوف بنذرك، وارفق بالشيخ الكبير».

وقال معاوية: «لا يبلغ مبلغ الرأي حتى يغلب حلمه جهله، وصبره شهوته».

وقال معاوية لعرابة بن أوس: «بم سُدت قومك يا عرابة؟ قال: يا أمير المؤمنين، كنت أحلم عن جاهلهم، وأعطي سائلهم، وأسعى في حوائجهم، فمن فعل فعلي فهو مثلي، ومن جاوزني فهو أفضل مني، ومن قصر عني فأنا خير منه».

وضرب رجل قدم حكيم فأوجعه فلم يغضب، فقيل له في ذلك، فقال: «أقمته مقام حجر تعثرت به، فذبحت الغضب».

وما أكرم قول القائل:

أحب مكارم الأخلاق جهدي … وأكره أن أعيب وأن أعابا
وأصفح عن سباب الناس حلمًا … وشر الناس من يهوى السبابا
ومن هاب الرجال تهيَّبوه … ومن حقر الرجال فلن يهابا

* الأحنف بن قيس رضي الله عنه أستاذ في الحلم: قال: وجدت الحلم أنصر لي من الرجال.

وقال له رجل: علمني الحلم يا أبا نصر. فقال: «هو الذل يا ابن أخي، أتصبر

---

(١) «الإحياء» (٣/ ١٨٩، ١٩٠) بتصرف.

عليه؟». وقال: «لست حليمًا ولكني أتحالم»[(١)].

وقال أيضًا: «ما تعلمت الحلم إلا من قيس بن عاصم المنقري، لأنه قتل ابن أخ له بعض بنيه، فأُتي بالقاتل مكتوفًا يقاد إليه، فقال: ذَعَرتم الفتى. ثم أقبل على الفتى فقال: بئس ما فعلت!! نقصت عددك، وأوهنت عضدك، وأشمت عدوك، وأسأت بقومك، وأثمت بربك، وقطعت رحمك، ورميت نفسك بسهمك، خلوا سبيله، واحملوا إلى أم المقتول ديته، فإنها غريبة. ثم انصرف القاتل، وما حل قيس حبوته ولا تغير وجهه»[(٢)].

ومن أخبار حلمه: «أن رجلاً شتمه فسكت عنه، وأعاد الرجل فسكت عنه، وأعاد فسكت عنه، فقال الرجل: والهفاه، ما يمنعه أن يرد علي إلا هواني عنده».

وشتمه رجل فجعل يتبعه حتى بلغ حيه، فقال الأحنف: «يا هذا، إن كان بقي في نفسك شيء فهاته وانصرف لا يسمعك بعض سفهائنا فتلقى ما تكره»[(٣)].

عن القعقاع بن عمرو قال: «صعد الأحنف بن قيس فوق بيته، فأشرف على جاره، فقال: سوءة سوءة، دخلت على جاري بغير إذن، لا صعدت فوق هذا البيت أبدًا».

«وهذه جارية تتناول إبريقًا لتصب الماء على يدي أمير المؤمنين المنصور، فسقط منها، فغضب أمير المؤمنين، فقالت: ﴿والكاظمين الغيظ﴾، فقال: كظمت غيظي، قالت: ﴿والعافين عن الناس﴾ قال: عفوت عنك، قالت: ﴿والله يحب المحسنين﴾، قال: أعتقت لوجه الله» وهكذا حمله الحلم إلى العفو والإحسان.

وقيل: إن أويسًا القرني كان إذا رآه الصبيان يرمونه بالحجارة، فكان يقول لهم: «يا إخوتاه، إن كان ولا بد فارموني بالصغار حتى لا تدموا ساقي فتمنعوني عن الصلاة».

وقالت امرأة لمالك بن دينار: «يا مرائي. فقال: يا هذه، وجدت اسمي الذي

(١) «العقد الفريد» لابن عبد ربه (١/ ٢٨٧).

(٢) «وفيات الأعيان» (٢/ ١٨٨)، و«البداية والنهاية» (٨/ ٣٢٧).

(٣) «عيون الأخبار» (١/ ٢٨٤، ٢٨٧).

أصله أهل البصرة».

وكان ليحيى بن زياد الحارثي غلام سوء، فقيل له: لِمَ تمسكه؟ فقال: «لأتعلم الحلم عليه».

وشتم رجل الربيع بن خثيم، فقال له: «يا هذا، قد سمع الله كلامك، وإن دون الجنة عقبة، إن قطعتها لم يضرني ما تقول، وإن لم أقطعها فأنا شر مما تقول».

ومر عمر بن عبد العزيز في المسجد ليلاً ومعه غلامه، فوطأت قدمه رجلاً نائمًا، فقال الرجل- وهو لا يعلم من وطئه-: مجنون، فرد عليه خامس الخلفاء الراشدين وقال: لا. فقال الغلام: يا أمير المؤمنين، إنه يشتمك. فقال: إنما سألني أمجنون؟ فقلت: لا.

وبمثل رد الربيع بن خثيم على من شتمه رد إبراهيم بن أدهم على من سبه، فقد سبه رجل فقال: أنت كلب. فأجابه: إن دخلت الجنة فأنا خير من الكلب، وإن دخلت النار فأنا شر من الكلب.

وشتم رجل بكر بن عبد الله المزني رحمه الله وبالغ في شتمه وهو ساكت، فقيل له: ألا تشتمه كما شتمك؟ فقال: إني لا أعرف له شيئًا من المساوي حتى أشتمه به، ولا يحل لي أن أرميه بالكذب.

وقال رجل لثور بن يزيد رحمه الله: يا قدري، يا رافضي. فقال له: إن كنت كما قلت لي فأنا رجل سوء، وإن كنت على خلاف ذلك فأنت في حل مني.

وقد قال رجل مرة لسالم بن عبد الله بن عمر رضي الله عنهم: يا شيخ السوء. فقال له سالم: ما أراك أبعدت يا أخي[1].

وسب رجل ابن عباس رضي الله عنهما فلما فرغ قال: يا عكرمة، هل للرجل حاجة فنقضيها؟ فنكس الرجل واستحيى.

وقال رجل لعمر بن عبد العزيز: أشهد أنك من الفاسقين. فقال: ليس تقبل شهادتك.

---

(١) «تنبيه المغتربين» للشعراني (صـ ٧١، ٧٢) ط عيسى الحلبي.

وعن علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم أنه سبه رجل فرمى إليه بخميصة كانت عليه، وأمر له بألف درهم، فقال بعضهم: جمع له خمس خصال محمودة: الحلم، وإسقاط الأذى، وتخليص الرجل مما يبعد من الله عز وجل، وحمله على الندم والتوبة، ورجوعه إلى مدح بعد الذم، اشترى جميع ذلك بشيء من الدنيا يسير.

وقال رجل لبعض الحكماء: لأسبنك سبًّا يدخل معك في قبرك. فقال: معك يدخل لا معي.

واجتاز أبو عثمان الحيري يومًا في سكة، فطرحت عليه إجانة رماد، فنزل عن دابته فسجد سجدة الشكر ثم جعل ينفض الرماد عن ثيابه، ولم يقل شيئًا، فقيل: ألا زجرتهم؟ فقال: إن من استحق النار فصولح على الرماد لم يجز له أن يغضب.

ودعي أبو عثمان الحيري إلى دعوة، وكان الداعي قد أراد تجربته، فلما بلغ منزله قال له: ليس لي وجه. فرجع أبو عثمان، فلما ذهب غير بعيد دعاه ثانيًا، فقال له: يا أستاذ ارجع. فرجع أبو عثمان فقال له مثل مقالته الأولى فرجع، ثم دعاه الثالثة وقال: ارجع على ما يوجب الوقت. فرجع، فلما بلغ الباب قال له مثل مقالته الأولى، فرجع أبو عثمان ثم جاءه الرابعة فرده حتى عامله بذلك مرات، وأبو عثمان لا يتغير من ذلك، فأكب على رجليه وقال: يا أستاذ، إنما أردت أن أختبرك، فما أحسن خُلُقك!! فقال: إن الذي رأيت مني هو خُلُق الكلب، إن الكلب إذا دعي أجاب، وإذا زُجر انزجر[1].

* * *

علاج الغضب

يجب على كل مسلم ومسلمة معرفة أمراض القُلوب وعلاجها.

* أمراض القلوب وعلاجها:

ومرض القلب خفي قد لا يعرفه صاحبه، فلذلك يغفل عنه، وعلاجه هو أن

(١) «الإحياء» (٣/ ٧٦).

ينظر إلى العلة، ومن أراد أن يقف على عيوب نفسه فله في ذلك أربع طرق:

الأولى: أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس يعرفه عيوب نفسه.

والثانية: أن يختار صديقًا متدينًا وينصبه رقيبًا على نفسه.

والثالثة: أن يعرف عيوبه من ألسنة أعدائه.

والرابعة: أن يخالط الناس، فكل ما يراه مذمومًا بينهم يجتنبه.

ومن أمراض القلوب المتعلقة بهذا الخُلُق الذي معنا الآن:

(١) **الغضب**: الغضب شعلة من النار، ومن نتائجه: الحقد والحسد، وحقيقته: غليان دم القلب لطلب الانتقام، فمتى غضب الإنسان ثارت نار الغضب ثورانًا يغلي به دم القلب وينتشر في العروق، ويرتفع كالماء الذي يغلي في القدر.

ومن آثار الغضب في الظاهر تغير اللون، وشدة الرعدة في الأطراف، وخروج الأفعال عن الترتيب، واستحالة الخلقة، وتعاطي فعل المجانين، ولو رأى الغضبان صورته في حالة غضبه وقبحها لأنف لنفسه من تلك الحال، ومعلوم أن قبح الباطن أعظم.

* في بيان الأسباب المهيجة للغضب وعلاجها:

اعلم أن علاج كل علة بحسب مادتها، وإزالة أسبابها، فمن أسبابه: العجب والمزاح والمماراة والمضادة وشدة الحرص على فضول المال والجاه.

فينبغي أن يقابل كل واحد من هذه بما يضاده فيجتهد على حسم مواد الغضب وقطع أسبابه.

وأما إذا هاج الغاضب فيعالج بأمور:

أحدها: أن يتفكر في الأخبار الواردة في فضل كظم الغيظ والعفو والحلم والاحتمال.

الثاني: أن يخوف نفسه من عقاب الله تعالى، وهو: أن يقول: قدرة الله علي أعظم من قدرتي على هذا الإنسان، فلو أمضيت في غضبي لم آمن أن يمضي الله عز وجل غضبه علي يوم القيامة، فأنا أحوج ما أكون إلى العفو.

والثالث: أن يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام وتشمير العدو في هدم أعراضه والشماتة بمصائبه، فإن الإنسان لا يخلـو عن المصائب، فيخوف نفسه من ذلك في الدنيا والآخرة.

الرابع: أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب.

الخامس: أن يتفكـر في السبب الذي يدعوه إلى الانتقام، مـثل أن يكون سبب غضبه أن يقول له الشيطان: إن هذا يحمل منك على العجز والذلة، فليقل لنفسه: تأنفين من الاحـتمال الآن، ولا تأنفـين في خزي يوم القيـامة. وينبـغي أن يكظم غيظه فذلك يعظمه عند الله تعالى.

السادس: أن يعلم أن غضبه إنما كـان من شيء جرى على وفق مراد الله تعالى لا على وفق مراده، فكيف يقدم مراده على مراد الله تعالى؟

هذا ما يتعلـق بالقلب أما العمل فينبـغي له السكون والتعوذ وتغيـير الحال وإن كان قائمًا جلس، وإن كان جالسًا اضطجع، ويتوضأ، وليلصق نفسه بالأرض.

(٢، ٣) الحقد والحـسد: اعلم أن الغيظ إذا كُظم لعجـز عن التشفي في الحال رجع إلى البـاطن فاحـتقن فـيه فـصار حقـدًا، وعلامـته: دوام بغض الشـخص واستثقاله والنفور منه، فالحقد ثمرة الغضب، والحسد من نتائج الحقد.

واعلم أن الله تعالى إذا أنعم على أخيك نعمة فلك فيها حالتان:

إحداهما: أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها، فهذا هو الحسد.

والحالة الثانية: أن لا تكره وجودها، ولا تحب زوالهـا، ولكنك تشتهي لنفسك مثلها، فهذا يُسمى غبطة.

واعلم أن النفس قد جُبلت على حب الرفعة، فهي لا تحب أن يعلوها جنسها، فإذا علا عليها شق عليها، وكـرهته، وأحبت زوال ذلك ليقع التساوي، وهذا أمر مركوز في الطباع.

وعلاج الحسد: تارة بالرضا بالقضاء، وتارة بالزهد في الدنيا، وتارة فيما يتعلق بتلك النعم من هموم الدنيا وحساب الآخرة، فيتسلى بذلك، ولا يعلم بمقتضى ما

في النفس أصلاً، ولا ينطق فإذا فعل ذلك لم يضره ما وضع في جبلته.

فأما من يحسد نبيًّا على نبوته، فيحب أن لا يكون نبيًّا على نبوته، أو عالمًا على علمه، فيؤثر أن لا يرزق ذلك أو يزول عنه فـهذا لا عذر له، ولا تُجبل عليه إلا النفوس الكافرة أو الشريرة.

فأما إن أحب أن يـسبق أقرانه، ويطلع على ما لم يدركـوه فإنه لا يأثم بذلك، فإنه لـم يؤثر زوال ما عندهم بل أحب الارتفـاع عنهم ليزيد حظه عنـد ربه، قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وفي الصحيحين من حديث ابن عـمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**لا حـسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله عـز وجل القرآن فـهـو يقوم به آناء الليل وآناء النهـار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه في الحق آناء الليل وآناء النهار**».

والحسـد له أسباب: منـها: العداوة والتكبـر والعجب وحب الرياسـة وخبث النفس وبخلها، وأشدها العداوة والبغضاء، فإن من آذاه إنسان بسبب من الأسباب وخالفه في غـرضه أبغضه قلبه، ورسخ في نفسـه الحقد، والحقد يقتـضي التشفي والانتقام، فـمهما أصـاب عدوه من البلاء فرح بذلك وظنه مكافـأة من الله تعالى له، ومهما أصابته نعمة ساءه ذلك، فـالحسد يلزم البغض والعداوة ولا يفارقهما، وإنما غـاية التقي أن لا يبـغي، وأن يكره ذلك من نفسـه، فأمـا أن يبغض إنسـانًا فيستوي عنده مسرته ومساءته فهو غير ممكن.

وأما الكبر فهو أن يصيب بعض نظرائه مالاً أو ولاته فيخاف أن يتكبر عليه ولا يطيق تكبره وأن يكون من أصاب ذلك دونه فلا يحتمل ترفعه عليه أو مساواته.

وأما حب الرياسـة والجاه فمثالـه أن الرجل الذي يريد أن يكون عديم النظر في فن من الفنون إذا غلب عليه حب الثناء، واستـفزه الفرح بما يمدح به من أنه أوحد عصره، وفريد الدهر إذا سمع بنظير له في أقصى العالم ساءه ذلك وأحب موته أو زوال النعمة التي بها يشاركه في علم أو شجاعة أو عبادة أو صناعة أو ثروة أو غير ذلك، وليس ذلك إلا لمحض الرياسة بدعوى الانفراد.

وقد كـان علماء اليـهود ينكرون معـرفة النبي ﷺ، ولا يؤمنون به خـوفًا من

بطلان رئاستهم.

وأما خبث النفس وشحها على عباد الله فإنك تجد من الناس من لا يشتغل برئاسة ولا تكبر، وإذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله فيما أنعم عليه به شق عليه ذلك، وإذا وصف له اضطراب أمور الناس وإدبارهم وتنغيص عيشتهم فرح به فهو أبدًا يحب الإدبار لغيره، ويبخل بنعمة الله على عباده الذين ليس بينهم وبينه عداوة ولا رابطة، وهذا ليس له سبب عارض فيعمل على إزالته بل سببه خبث الجبلة- الفطرة- فيعسر إزالته.

فهذه أسباب الحسد، ويكثر الحسد بين أقوام تكثر بينهم الأسباب التي ذكرناها، ويقع ذلك غالبًا بين الأقران، فأصل العداوة التزاحم على غرض واحد، ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا.

*** دواء الحسد:**

الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب، ولا تداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل، والعلم النافع لمرض الحسد هو أن تعرف أن الحسد ضرر عليك في الدين والدنيا، وأنه لا يضر المحسود في الدين ولا في الدنيا بل ينتفع به، والنعمة لا تزول عن المحسود بحسدك، ولو لم تكن تؤمن بالبعث لكان مقتضى الفطنة إن كنت عاقلاً أن تحذر من الحسد لما فيه من ألم القلب مع عدم النفع، فكيف وأنت تعلم ما فيه من العذاب في الآخرة.

وبيان قولنا: إن المحسود لا ضرر عليه في الدين ولا في الدنيا بل ينتفع بحسدك في الدين والدنيا، لأن ما قدره الله له من نعمة لابد أن تدوم إلى الأجل الذي قدره، ولا ضرر عليه في الآخرة؛ لأنه لا يأثم هو بذلك بل ينتفع به؛ لأنه مظلوم من جهتك؛ لاسيما إذا أخرجت الحسد إلى القول والفعل.

وأما منفعته في الدنيا فهو من أهم أغراض الخلق غم الأعداء ولا عذاب أعظم مما أنت فيه من الحسد، فإذا تأملت ما ذكرنا علمت أنك عدو لنفسك وهو صديق لعدوك فما مثلك إلا كمثل من يرمي بحجر عدوه ليصيب مقتله فلا يصيبه ويرجع الحجر على حدقته- عينه- اليمنى فيقلعها فيزيد غضبه فيعود ويرميه بحجر أشد

من الأول فيرجع الحجر على عينه الأخرى فيعميها فيزداد غيظه فيرميه الثالثة فيعود الحجر على رأسه فيشدخه وعدوه سالم يضحك منه.

فهذه الأدوية العلمية فإذا تفكر الإنسان فيها أخمدت نار الحسد من قلبه، وأما العمل النافع فيه فهو أن يتكلف نقيض ما يأمره به الحسد، فإذا بعثه على الحقد والقدح في المحسود كلف نفسه المدح له والثناء عليه، وإن حمله الكبر ألزم نفسه التواضع له، وإن بعثه على كف الإنعام عنه ألزم نفسه زيادة في الإنعام.

وقد كان جماعة من السلف إذا بلغهم أن شخصًا اغتابهم أهدوا إليه هدية.

فهذه أدوية نافعة للحسد جدًّا إلا أنها مُرة وربما يسهل شربها بأن يعلم أنه إذا كان لا يكون كل ما تريد فأرد- اطلب- ما يكون وهذا هو الدواء الكلي، ثم كيف تحسده على الدنيا وقد ذم القدر الزائد عن الحاجة منها.

* * *

(٩) الرحمة

الرحمة رقة في القلب بها يألم الإنسان لمصاب كل مصاب، ويفزع لقضاء حاجة كل محتاج، فيرحم الصغير، ويعطف على الفقير، ويساعد المحتاج، ويطعم المسكين، ويرق للضعيف، ويشفق على المبتلى، ويفرج كرب المكروب.

والإسلام رسالة خير وسلام وعطف على البشر كلهم، وقد قال الله لرسوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وسور القرآن الكريم مفتتحة كلها بـ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾[١].

لكن ذئاب البشر أبوا إلا اعتراض الرحمة المرسلة، ووضع الجنادل في مجراها حتى تنقطع عن الناس مواردها، فيهلكوا بعيداً عنها في أودية الحيرة والجهالة[٢].

وربُّ المؤمنين وإله الناس سمى نفسه الرحمن الرحيم، ووصف ذاته بأنه أرحم الراحمين، وخير الراحمين، ورحمته وسعت كل شيء، ورحمته سبقت غضبه.

والله سبحانه كتب على نفسه الرحمة كما قال: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢].

فهو الذي أوجد الأشياء وقدرها ... وهو الذي يرحم العاصي ويستره
يخفي القبيح ويبدي كل صالحة ... ويغمر العبد إحساناً ويشكره
ومن يلوذ به في دفع نائبة ... يعطيه من فضله عزاً وينصره
فنسأل الله جمعاً حسن خاتمة ... عند الممات وصفواً لا يكدره

* الله أرحم بعباده: وكل ما نراه من آثار رحمته في الدنيا ما هو إلا جزء واحد من رحمات الله تعالى، يقول الرسول ﷺ: «**جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلائق**

---

(١) عدا سورة التوبة لأنها نزلت في المنافقين، والمنافقون لا يستحقون الرحمة.

(٢) «خُلُق المسلم» (صـ ١٩١).

حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه».

وفي رواية: «إن لله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخر الله تعالى تسعة وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة»(١).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قدم رسول الله ﷺ بسبي فإذا امرأة من السبي تسعى إذ وجدت صبيًا في السبي فأخذته فألزقته ببطنها فأرضعته، فقال رسول الله ﷺ: «أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟». قلنا: لا والله. قال: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها»(٢).

لكنه جل وعز قيَّد رحمته بمن تخلق بها فرحم الخلق على قدره كإنسان، يقول تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ...﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧].

وقال النبي ﷺ: «مَنْ لا يَرحم لا يُرحم»(٣).

والرحماء يرحمهم الرحمن سبحانه، والراحمون يرحمهم الرحمن، ويدخلهم جنته، ويرضى عنهم، فعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ رُفع إليه ابن ابنته وهو في الموت ففاضت عينا رسول الله ﷺ، فقال له سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: «هذه رحمة جعلها الله تعالى في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»(٤).

والرحماء من أهل الجنة، يقول رسول الله ﷺ: «أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٦٠٠٠)، ومسلم رقم (٢٧٥٢).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٥٩٩٩)، ومسلم رقم (٢٧٥٤).

(٣) أخرجه البخاري رقم (٥٩٩٧)، ومسلم رقم (٢٣١٨).

(٤) أخرجه البخاري رقم (٧٣٧٧)، ومسلم رقم (٩٢٣).

(٥) أخرجه مسلم رقم (٢٨٦٥).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها فأطعمتها ثلاث تمرات، فأعطت كل واحدة منهما تمرة ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها، فاستطعمتها ابنتاها، فشقت التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما، فأعجبني شأنها، فذكرت الذي صنعت لرسول الله ﷺ، فقال: «**إن الله قد أوجب لها بها الجنة أو عتقها بها من النار**»[1].

*** الرحمة بالأبوين:**

ومن صور الرحمة المفروضة: الرحمة بالوالدين برًّا ورقة وحنانًا ولطفًا وشفقة وودًّا وكرمًا ورعاية وخدمة واحترامًا وتقديرًا وعدم عصيان أو هجر أو إلحاق أذى.

يقول الرحمن سبحانه: ﴿**إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا**﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

وتخص الأم في ذلك بمزيد رحمة وحنان ورقة وشفقة.

لأمك حق لو علمت كثير ... كثيرك يا هذا لديه يسير
فكم ليلة باتت بثقلك تشتكي ... لها من جواها[2] أنة وزفير
وفي الوضع لو تدري عليها مشقة ... فمن غصص منها الفؤاد يطير
وكم غسلت عنك الأذى بيمينها ... وما حجرها إلا لديك سرير
وتفديك مما تشتكيه بنفسها ... ومن ثديها شراب لديك نمير
وكم مرة جاعت وأعطت قوتها ... حنانًا وإشفاقًا وأنت صغير
فآهًا لذي عقل ويتبع الهوى ... وآهًا لأعمى وهو بصير
فدونك فارغب في عميم دعائها ... فأنت لما تدعو إليه فقير

وصدق القائل:

وألذ كأس في الوجود شربتها ... كأس المحبة من عميق هواكِ

(١) أخرجه مسلم.

(٢) الجوى: الحرقة من شدة الوجد.

يسري حنانك في دمائي مثلما — تسري النضارة في الخميل الزاكِ
أوَ لست روح الكون في إشراقه — ومواكب التاريخ بعض سناكِ
هيهات توجد في الحياة سعادة — إلا إذا جادت بها كفَّاكِ
تتهللين إذا ابتسمت وإن بكت — عيناي فجَّرت الأسى عيناكِ
وأحسُّ في روحي نشيدًا ملهمًا — ينساب منك فما أرق صداكِ
مهما غنمت من الحياة فلن أرى — شيئًا يضارع في الحياة رضاكِ
أماه أفراح الوجود تجمعت — لتكون عيد الكون في مغناكِ
فتقبلي حب القلوب هدية — فلطالما أهديتها نعماكِ
أنت الحياة جمالها وبهاؤها — أنت الحياة لولاك لم ننعم بها لولاكِ

* **الرحمة بالصبيان**: ومن ألوان الرحمة الرحمة بالأطفال بالعطف عليهم ورعايتهم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قبَّل النبي ﷺ الحسن بن علي رضي الله عنهما، فقال الأقرع بن حابس: إن لي عشرة من الولد ما قبَّلت منهم أحدًا. فقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ لا يَرحم لا يُرحم**»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ، فقالوا: أتُقبِّلون صبيانكم؟ فقال: «**نعم**». قالوا: لكنا والله ما نُقبِّل. فقال رسول الله ﷺ: «**أو أملك إن كان الله نزع من قلوبكم الرحمة**»(٢).

وكان النبي ﷺ يتجوز في الصلاة عندما يسمع بكاء صبي، فعن أبي قتادة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني لأقوم إلى الصلاة وأريد أن أطوِّل فيها، فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه**»(٣).

* **الرحمة بالنساء**: ومن مظاهر الرحمة الرحمة بالنساء بإكرامهن وملاطفتهن والرفق بهن ومعاملتهن باللين والرقة وعدم إيذائهن، واستخدام الأسلوب الأيسر في معاشرتهن، يقول النبي ﷺ: «**استوصوا بالنساء خيرًا، فإن المرأة خلقت من ضلع،**

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٥٩٩٧)، ومسلم رقم (٢٣١٨).
(٢) أخرجه البخاري رقم (٥٩٩٨)، ومسلم رقم (٢٣١٧).
(٣) أخرجه البخاري رقم (٧٠٧).

وإن أعـوج ما في الضلع أعـلاه، فـإن ذهبت تقيـمـه كسـرته، وإن تركـته لم يزل أعـوج، فاستوصوا بالنساء»(١).

ويقول: «**أكمل المـؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلُقًا، وخياركم خياركم لنسائهم**»(٢).

وقال: «**اللهم إني أُحرِّج**(٣) **حق الضعيفين: اليتيم والمرأة**»(٤).

*** الرحمة بالفقراء والضعفاء والمرضى والأيتام: ومن صور الرحمة:**

- الرحمة بالفقراء بمساعدتهم وإعانتهم وإيتائهم الزكاة والصدقة.

- الرحمة بالضعفاء بالدفاع عنهم والانتصار لهم.

- الرحمة بالمرضى بمداواتهم وزيارتهم وقضاء حـوائجهم والعمل على راحتهم وحذر الإساءة إليهم.

- الرحمة بالخدم بإحسان معاملتهم والرفـق فيما يُكلَّفون من أعمال والعفو عن زلاتهم.

عن أبي مسعود البدري قال: كنت أضرب غـلامًا لي بالسوط، فسمعت صوتًا من خلفي: اعلم أبا مسعود. فلم أفهم الصوت من الغضب، فلما دنا مني إذا هو رسول الله ﷺ، فإذا هو يقول: «**اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك من هذا الغلام**». فقلت: يا رسـول الله هو حر لوجه الله تعالى. فـقال: «**أما لو لـم تفعل للفـحتك النار**»(٥).

- الرحمة بكبار السن برعايتهم وأداء مصالحهم.

- الرحمة بالأيتام بكفالتهم الكفالة المعنوية والكفالة المادية.

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٣٣٣١)، ومسلم رقم (١٤٦٨).

(٢) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) أُحَرِّج: أُلْحِق الحَرَج- وهو الإثم- بمَنْ ضيع حقهما، ،وأُحَذِّر مِنْ ذلك تحذيرًا بليغًا، وأزجر عنه زجرًا أكيدًا.

(٤) أخرجه النسائي رقـم (٩١٥٠) بإسناد جيد، والحديث حسن صحيح كـما في «رياض الصالحين» (صـ ٩١).

(٥) أخرجه مسلم رقم (١٦٥٩).

* **الرحمة بـالحيوان:** ومن ألوان الرحمة بالحيـوان سقيًا وإطعامًا وإحـسانًا ودفعًا للأذى ومداواة من الأمراض.

وهذا رجل يدخل الجنة، ويُغـفر له من أجل رحـمته بكلب، فـعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**بينما رجل يمشي بطريق إذ اشتد عليه العطش، فوجد بئرًا فنزل فيهـا فشرب وخرج فإذا كلب يلهث[1] يأكل الثرى[2] من العطش، فقال الرجل: لقـد بلغ هذا الكلب من العطش مـثل الذي بلغ مني. فنزل البـئـر فمـلأ خفـه ثم أمسكه بفـيه حتى رقى فسـقى الكلب، فشكر الله له فغـفر له**». فقالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم لأجرًا؟ فقال: «**في كل ذات كبد رطبة أجر**»[3].

ودخلت بغي الجنة لسـقيـها كلبًـا، يقول رسـول الله ﷺ: «**بينمـا كلب يطيف بركُية[4] كاد يقتله العطش إذ رأته بغي[5] من بغايا بني إسرائيل، فنزعت موقها[6] فسقته فغُفر لها به**»[7].

ودخلت امرأة النار في قـطة لم تطعمهـا، قال ﷺ: «**دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض**»[8]. أي: حشراتها.

ومن الرحمة بالحيوان عدم إيذائه أو وسمه في الوجه أو اللهو به، قال ابن عمر رضي الله عنهما: «لعن رسول الله ﷺ من اتخذ شيئًا فيه الروح غرضًا[9]»[10].

ومرَّ رسول الله ﷺ بحمار قد وسم في وجهه فقال: «**لعن الله مَنْ وسمه**»[11].

---

(١) يلهث: يُخرج لسانه من العطش.

(٢) يأكل الثرى: يكدم بفمه الأرض الندية.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب المساقاة رقم (٢٣٦٣)، ومسلم: كتاب السلام رقم (٢٢٤٤).

(٤) الرُّكية: البئر تُحفر، وجمعها: ركايا، وركِي.

(٥) البغي: المرأة الفاجرة.

(٦) موقها: خفها.

(٧) أخرجه البخاري: كتاب الأنبياء رقم (٣٤٦٧)، ومسلم: كتاب السلام.

(٨) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق رقم (٣٣١٨)، ومسلم: كتاب السلام.

(٩) أي: هدفًا.

(١٠) أخرجه البخاري رقم (٥٥١٥)، ومسلم رقم (١٩٥٨).

(١١) أخرجه مسلم رقم (٢١١٧).

* شبهة: والرحمة لا تعني الرضا والسكوت عن تقصير المقصرين، وإجرام المجرمين، وفجور الفاجرين، وظلم الظالمين بل يجب تأديب هؤلاء وعقابهم وإقامة حد الله عليهم، فإن قيل: هذا يتنافى مع الرحمة. قلنا: لا يتنافى، فإن الناظر اللبيب يدرك أن عقاب واحد أو تأديب مقصر لدفع شره عن آلاف، ولزجر ملايين عن فعله أحق وألزم.

والأب يعاقب ولده أحيانًا على وجه التأديب.

قسا ليزدجروا ومن يك حازمًا   فليقس أحيانًا على مَنْ يرحم

ومن هنا تعلم أن ما يقدره الله من ابتلاء على الخلق فإنما فيه الرحمة والخير لهم.

* القسوة: وضد الرحمة القسوة التي تكمن في موت القلب، وإدمان الظلم، وانعدام الإحساس، وغيبة الضمير، وهجر الشفقة، ووفاة العواطف، وسكون المشاعر.

وأصحاب هذه النعوت أبعد الخلق عن الله عز وجل، يقول جل وعلا: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

وقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

وقال: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

لذلك لم يحزنهم قتل الأنبياء، وتحريم كلام الله، ونقض المواثيق معه، ورمي الصديقات بالفاحشة، والكفر بآيات الله، وأخذ الربا، وأكل أموال الناس بالباطل.

وأخيرًا... فإن الرحمة تقع بين خُلُقين ذميمين:

أحدهما: القسوة.

والثاني: الرأفة بالمقصرين والمعاندين.

* * *

(١٠) العفو

﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ [المائدة: ١٣].

العفو معناه: أن يستحق حقًّا فيسقطه ويبري عنه من قصاص أو غرامة.

فيعفو عمَّن أساء إليه وآذاه، ويتجاوز عن ماله الذي سُرق أو أُخذ غصبًا ويمسك لسانه ولو بالدعاء عمَّن ظلمه.

والعفو من صفات المتقين المستحقين للجنة يقول تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٦].

والعفو برهان على صلاح العبد وتقواه:

قال تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ ... بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

وقال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

وقال: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

وقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

العفو لا يزيد العبد إلا عزًّا.

والعفو لا يزيد المؤمن إلا عزًّا، والإحسان لا يزيد المؤمن إلا كرامة.

يقول ﷺ: «**ما نقص مال عبد من صدقة وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله - عز وجل -**»[١].

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٥٨٨).

ولعظم قدر هذا الخلق أمر الله تعالى سيد الخلق ﷺ به، فقال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقال: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥].

خذ العفو عن جاهل قد بغى   عليك تفز بالمقام الأمين
وبالعرف فأمر وكن محسنًا   وواصل وأعرض عن الجاهلين

وكان النبي ﷺ كما أمره ربه أحلم الناس وأرغبهم في العفو عند المقدرة.

روى جابر أنه ﷺ كان يقبض للناس يوم حنين من فضة في ثوب بلال فقال له رجل: يا رسول الله اعدل، فقال له رسول الله ﷺ: «**ويحك، فمن يعدل إذا لم أعدل فقد خبت وخسرت إن كنت لا أعدل ...**»[(١)].

وفي هذا اليوم أيضًا: قسَّم قسمة فقال رجل: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، فذكر ذلك للنبي ﷺ فاحمرَّ وجهه، وقال: «**رحم الله أخي موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر**»[(٢)].

ويوم خيبر جاءته يهودية بشاة مسمومة... فجيء بها إليه فسألها عن ذلك فقالت: أردت قتلك، فقال: «**ما كان الله ليسلطك عليَّ**»، قالوا: ألا تقتلها، قال: «**لا**»[(٣)].

وفي غزوة بني قينقاع جاءه رجل وهو نائم حتى قام على رأسه بالسيف، فقال: من يمنعك مني؟ فقال: «**الله**»، فسقط السيف من يده فأخذ رسول الله ﷺ السيف، وقال: «**من يمنعك مني؟**» فقال: كن خير آخذ، فقال: «**قل أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله**»، فقال: لا، غير أني لا أقاتلك ولا أكون معك ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلى سبيله، فجاء أصحابه، فقال: جئتكم من عند خير الناس[(٤)].

ويوم فتح مكة وقعت قريش في قبضته فقال: «**ما تظنون أني فاعل بكم؟**» قالوا:

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه الشيخان.

(٣) أخرجه الشيخان.

(٤) أخرجه مسلم.

خيرًا أخ كريم وابن أخ كريم، فقال: «لا أقول إلا كما قال يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ...﴾ [يوسف: ٩٢]، اذهبوا فأنتم الطلقاء»(١).

ثمَّ أمر الله تعالى المؤمنين بالعفو عن الناس مهما كان قدر الأذى الذي لحق العبد من أخيه فيقول: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

واقترنت المغفرة بالعفو في هذا الموطن لأن المتحقق بهذا الخلق يتجاوز عن الخطأ ويعفو عن المذنب، ويستر زلته.

كما أن هذا الأمر - وهو الافتراء على السيدة عائشة رضي الله عنها وأشباهه يكثر فيه القيل والقال، ويدوم ذكره مع تتابع الأيام، ولا ينسى إلا بعد سنين؛ لذا رغب العفو سبحانه في كبح جماح اللسان؛ لئلا ينطلق بالإنكار والتوبيخ والعتاب للآثم فيذهب بحلاوة العفو.

وإن المرء ليدهش عندما يطالع هذا الخبر، فالصديق رضي الله عنه عندما سمع بأن مسطح بن أثاثة رضي الله عنه قريبه ومولاه قد وقع في شباك المفترين الإفك على السيدة عائشة رضي الله عنها منع عنه عطاءه وخيره، فلما نزلت هذه الآية قال: أنا أحب أن يغفر الله لي، فعفا عنه وصفح، وأعاد عليه جوده وفضله.

تأمل رجل يُرمَى في عرض ابنته من قريبه ومولاه المُقتات من كرمه، فماذا يكون منه؟!

كان من الصِّدِّيق العفو ودوام العطاء، إنه عفو الصِّدِّيق الأكبر!!

والعفو مندوب حتى مع الكافرين المجرمين والمشركين المفسدين لكنه عفو الأقوياء الشجعان القادرين قال جل شأنه: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩].

---

(١) أخرجه الشيخان.

وقال: عن اليهود أيضًا: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

فإذا كان المؤمن يعفو ويصفح عن هؤلاء - مع ما صنعوه - إلى أن يأتي الله بحكمه فيهم.

ومن مواقف العفو عند المقدرة:

ما جاء عن الحرماوي قال: كتب عمر بن الخطاب إلى فيروز الديلمي[١] رضي الله عنهما:

أما بعد: فقد بلغني أنه شغلك أكل اللباب[٢] بالعسل، فإذا أتاك كتابي هذا فأقدم على بركة الله، فاغز في سبيل الله.

فقدم فيروز فاستأذن على عمر رضي الله عنه فأذن له، فزاحمه فتى من قريش، فرفع فيروز يده فلطم أنف القرشي، فدخل القرشي على عمر مستدميًا[٣]، فقال له: من فعل بك؟ قال: فيروز، وهو على الباب، فأذن لفيروز بالدخول فدخل، فقال: ما هذا يا فيروز؟ قال: يا أمير المؤمنين، إنا كنا حديثي عهد بملك، وإنك كتبت إليَّ ولم تكتب إليه، وأذنت لي بالدخول ولم تأذن له، فأراد أن يدخل في إذني قبلي، فكان مني ما قد أخبرك، قال عمر رضي الله عنه: القصاص، قال فيروز: لا بد؟ قال: لا بد، فجثى فيروز على ركبتيه، وقام الفتى ليقتص منه، فقال له عمر رضي الله عنه: على رسلك أيها الفتى، حتى أخبرك بشيء سمعته من رسول الله ﷺ، سمعت رسول الله ﷺ ذات غداة وهو يقول: «**قُتِل الليلة الأسود العنسي الكذاب، قتله العبد الصالح فيروز الديلمي**»، أفتراك مقتصًّا منه بعد إذ سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟! قال الفتى: قد عفوت عنه بعد إذ أخبرتني عن

---

(١) الصحابي الجليل فيروز الديلمي: هو أبو الضحاك فيروز الديلمي، فارسي الأصل، بعثه كسرى إلى قتال الحبشي، وقد أسلم، وتوفي سنة (٥٣هـ).

(٢) اللباب: الخبز المصنوع من الدقيق النقي الخالص.

(٣) أي: يخرج الدم منه.

رسول الله ﷺ بهذا، فقال فيروز لعمر: أفترى هذا مخرجي مما صنعت إقراري له وعفوه غير مستكره؟ قال: نعم، قال فيروز: فأشهدك أن سيفي وفرسي، وثلاثين ألفًا من مالي هبة له، قال: عفوت مأجورًا يا أخا قريش، وأخذت مالًا(١).

علمنا الصحابي فيروز الديلمي رضي الله عنه.

- الاعتراف بالذنب.

- وقبول القصاص والرضا به والتواضع لأمر الله.

- ورد العفو بهدية، ومقابلة التحية بتحية أحسن.

* وعلمنا الصحابي القرشي درس العفو عند المقدرة ودرس إكرام من أكرمه رسول الله ﷺ.

- أما سيدنا عمر رضي الله عنه فلقننا درسًا في العدل الكامل، وعدم التفريق بين الرعية في إقامة الحدود، وعدم المبالاة بالمناصب والزعامات أمام منهج الله.

عُلبة بن زيد مثال سامق في العفو:

وهذا رجل يتصدق بعرضه. كان علبة بن زيد من البكائين الذين جاءوا إلى النبي ﷺ يوم تبوك ليستحملهم فلم يجد ما يحملهم عليه فـ ﴿**تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ**﴾ [التوبة: ٩٢].

وقام علبة رضي الله عنه فصلى من الليل وبكى، وقال: اللهم إنك قد أمرت بالجهاد، ورغَّبت فيه، ثمَّ لم تجعل عندي ما أتقوى به مع رسولك، ولم تجعل في يد رسولك ما يحملني عليه، وإني أتصدق على كل مسلم بكلمة مظلمة أصابني فيها من مال، أو جسد، أو عِرض، ثمَّ أصبح مع الناس، فقال النبي ﷺ: «**أين المتصدق الليلة**»، فلم يقم إليه أحد، ثمَّ قال: «**أين المتصدق فليقم**» فقام إليه، فأخبره، فقال النبي ﷺ: «**أبشر فوالذي نفس محمد بيده لقد كتبت في الزكاة المتقبلة**»(٢).

---

(١) أخرجه ابن عساكر: كذا في «الكنز» (٧/ ٨٣).

(٢) صحيح: ورد مسندًا موصولاً كما قال الحافظ في «الإصابة» (٢/ ٤٩٣)، وانظر «زاد المعاد» تحقيق الأرناؤوطيين (غزوة تبوك).

الانتصار:

قد لا يأخذ المسلم بخلق العفو ولا يعمل بطريقة المحسنين، ويريد أن يقتص ممن آذاه في نفسه أو عِرضه أو ماله.

فإن كان القصاص في الأموال والجراحات فلا ضير.

أما إن كان الإيذاء باللسان كالشتم والسب واللعن فإنه لا يجوز للمؤمن القصاص في ذلك لكن له الإنكار والتكذيب، فمن قال له: يا كلب أحلّ له أن ينكر قائلاً: لست كلبًا أو اسكت يا كاذب.

ومن قذف لا يقذف.

ومن حلف عليه بالكذب فلا يحلف كذبًا.

ومن شهد عليه زوراً فلا يشهد مثله.

ومن سُب أبواه فلا يسب أبوي الساب.

وما أعدل قول القائل:

إذا زل الكريم فكن حليمًا ... فإن الحلم حينئذ مزية
وإن جاء اللئيم إليك عمداً ... بما كسبت يداه من الأسِيَّة
ولم يخضع لعفوك باعتراف ... فعجِّل بالمكافأة القوية
فإنَّ الحر يكفيه ملام ... وإن العبد تصلحه الأذية[1]
فعامل كل إنسان بحكم ... وفي هذا ترى فصل القضية

* * *

(١) أي: القصاص أو التأديب لا الظلم.

(١١) التواضع

التواضع: مشتق من الفعل وضع، ودخول التاء عليه، وهي دالة على الطلب - تعطي إشارة إلى أن المرء الرفيع المنزلة - لكي يحقق التواضع - فإنه يتنزل عن مرتبته.

والتواضع اصطلاحًا: لين الجانب وخفض الجناح، ونقيضه الكبر، ويخالف المهانة والذل.

الفرق بين التواضع والمهانة:

والفرق بين التواضع والمهانة أن التواضع يتولد من بين العلم بالله سبحانه ومعرفة أسمائه وصفاته ونعوت جلاله، وتعظيمه، ومحبته، وإجلاله، ومن معرفته بنفسه وتفاصيلها وعيوب عملها وآفاتها، فيتولد من بين ذلك كله خلق التواضع، وهو انكسار القلب لله، وخفض جناح الذل والرحمة بعباده، فلا يرى له أحد فضلاً، ولا يرى له عند أحد حقًّا، بل يرى الفضل للناس عليه، والحقوق لهم قِبله، وهذا خلق إنما يعطيه الله عز وجل من يحبه ويكرمه ويقربه.

وأما المهانة: فهي الدناءة والخسة وبذل النفس وابتذالها في نيل حظوظها وشهواتها، كتواضع السّفل في نيل شهواتهم... وتواضع طالب كل حظ لمن يرجو نيل حظه منه، فهذا كله ضعة لا تواضع، والله سبحانه يحب التواضع ويبغض الضعة والمهانة(١).

فضل التواضع:

أثنى الحق المتكبر بهذا الخلق على عباده عباد الرحمن فقال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

أي: بسكينة ووقار من غير تجبرية ولا استكبار.

---

(١) «الروح» لابن القيم (صـ ٣١٣)، و«أخلاق الدعاة إلى الله» للدكتور طلعت عفيفي (صـ ٧٣) ن دار عالم الكتب ط أولى سنة (١٤٢١هـ) (٢٠٠٠م).

قال ابن القـيم: «أي: سكينة ووقارًا متـواضعين، غير أشـرين ولا مرحين ولا متكبرين، قال الحسن: علماء حلماء».

وقال محمد ابن الحنفـية: «أصحاب وقار وعفة لا يسفـهون، وإن سُفِه عليهم حلموا».

والهون -بالفتح- في اللغة: الرفق واللين، والهُون -بالضم- الهوان، فالمفتوح منه صـفـة لأهل الإيمان، والمضـموم صـفـة لأهل الكفـران، وجـزاؤهم من الله النيران[1].

- والتواضع علامة من علامات حب الله للعبد، وصفة من صفات حزب الله، قال جل وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

أي: متـواضعين رحـماء بإخـوانهم وأرحامـهم، متـعزِّزين علـى خصومـهم وأعدائهم.

- ولما كان الذل منهم ذل رحـمة وعطف وشفـقة وإخبـات، عدَّاه بأداة «على» تضمينًا لمعاني هذه الأفعال، فإنه لم يُرد به ذل الهوان الذي صاحبه ذليل، وإنما هو ذل اللين والانقيـاد الذي صاحبـه ذلول، فالمؤمن ذلول كمـا في الحديث: «**المؤمن كالجـمل الذلول**» والمنافق والفـاسق ذليلان، وأربعـة يعشـقهم الذل أشد الـعشق: الكذاب، والنمام، والبخيل، والجبار.

وقوله: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، هو من عزة القوة والمنعة والغلبة.

قال عطاء رضي الله عنه: «للمؤمنين كالوالـد لولده، وعلى الكافرين كالسبع على فـريسـته»، كـما قال فـي الآية الأخرى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

وهذا عكس حال من قيل فيهم:

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٢٧).

كبرًا علينا وجبنًا عن عدوكم   لبئست الخلتان الكبر والجبن

والثواب العظيم والأجر المقيم في الآخرة للمتواضعين يقول تعالى شأنه: ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [القصص: ٨٣].

وفي هذا المعنى يقول ﷺ: «**... ما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**»(١).

قال النووي: «وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله» فيه وجهان:

أحدهما: يرفعه الله في الدنيا ويثبت له بتواضعه في القلوب منزلة، ويرفعه الله عند الناس، ويجل مكانه.

والثاني: أن المراد ثوابه في الآخرة، ورفعه فيها بتواضعه في الدنيا.

والتواضع يقتل الفخر والبغي.

يقول ﷺ: «**إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد**»(٢).

والتواضع غاية الشرف:

تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «إنكم لتغفلون عن أفضل العبادات: التواضع»(٣).

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «وجدنا الكرم في التقوى، والغنى في اليقين، والشرف في التواضع».

وقال عروة بن الورد: «التواضع أحد مصائد الشرف، وكل نعمة محسود عليها صاحبها إلا التواضع».

وقال إبراهيم بن شيبان: «الشرف في التواضع، والعز في التقوى، والحرية في القناعة».

---

(١) أخرجه مسلم (١٦/ ١٤٣ نووي) كتاب البر والصلة.

(٢) أخرجه مسلم كتاب الجنة.

(٣) «الإحياء».

وقال مصعب بن الزبير: «التواضع مصايد الشرف».

وصدق من قال:

تواضـع تكن كـالنـجم لاح لنـاظر على صـفـحـات الماء وهو رفـيع
ولا تك كـالدخـان يعلو بنـفـسـه إلى طبـقـات الجـو وهو وضـيع

ولله در القائل:

إنَّ التـواضع من خـصـال المتـقي وبه التـقيُّ إلى المعـاني يرتـقي

وقال الشاعر:

تواضع إذا مـا كـان قـدرك عـاليًـا فـإن اتضـاع المرء من شيم العـقل

وقال يوسف بن أسباط:

وكـفـى بمُلتـمس التـواضع رفـعـة وكـفى بمُلتـمس العلو سِـفـالاً

وقال مقـدام العلماء معاذ بن جبل رضي الله عنه: «لـن يبلغ العبد ذرى الإيمان حتى يكون التواضع أحب إليه من الشرف، ومـا قل من الدنيا أحب إليه مما كثر، ويكون من أحب وأبغض في الحق سواء، يحكم للناس كما يحكم لنفسه»(١).

مظاهر التواضع:

وللتواضع أدلة تثبت أن المنعوت بها من المتواضعين منها:

١ - مجـالسة الفـقراء، والأكل مع الأيتام والضـعفاء، والمشـي مع المساكين، وقضاء حوائج المحتاجين، وإطعام الوالدين.

٢ - قبول الحق ممن تحب وممَّن تبغض، فتقـبله من عدوك كما تقبله من وليك، وإذا لم ترد عليه حقه، فكيف تمنعه حقًّا له قبلك؟! بل حقـيقة التواضع: أنه إذا جاءك قـبلته منه، وإذا كان له عليك حق أديتـه إليه، فلا تمنعك عداوته من قـبول حقه ولا من إتيانه إياه.

٣ - إذا جاء من أساء يعتذر من إساءته، فإنَّ التواضع يوجب عليك قبول المعذرة.

---

(١) «الزهد» لابن المبارك (صـ ٥٢).

٤ - إن تقدم الرجل على أمثاله فهو متكبر وإن تأخر عنهم فهو متواضع.

٥ - إن قام من مجلسه لذي علم وفضل وأجلسه فيه، وكذا إن قام وسوَّى له نعله وخرج إلى باب المنزل؛ ليشيعه فهو متواضع.

٦ - إن قابل عامة المسلمين ببشر وطلاقة وتلطف معهم في السؤال وأجاب دعوتهم وسعى في حاجتهم ولم ير نفسه خيرًا منهم فهو متواضع.

٧ - إن زار غيره ممن هو دونه في الفضل أو مثله وحمل معه متاعه، أو مشى معه في حاجته فهو متواضع.

٨ - إن جالس الفقراء والمساكين والمرضى والأيتام والأطفال وذوي العاهات وأجاب دعوتهم وأكل معهم.. فهو متواضع.

٩ - إن أكل أو شرب في غير إسراف، وليس في غير مخيلة فهو متواضع.

تواضع سيد المرسلين ﷺ:

وكان للنبي ﷺ في هذا القدح المعلى.

تواضعه مع ربه - تعالى -:

فقد عرض عليه ربه أن عبدًا رسولاً أو نبيًّا ملكًا، فاختار أن يكون عبدًا رسولاً، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء فإذا ملك ينزل، فقال جبريل: إنَّ هذا الملك ما نزل منذ يوم خلق قبل الساعة، فلما نزل قال: يا محمد، أرسلني إليك ربك، قال: أفملكًا نبيًّا يجعلك، أو عبدًا رسولاً؟ قال جبريل: تواضع لربك يا محمد، قال: **«بل عبدًا رسولاً»**(١).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«يا عائشة لو شئت لسارت معي جبال الذهب، جاءني ملك، إنَّ حجزته لتساوي الكعبة، فقال: إنَّ ربك يقرأ عليك السلام، ويقول: إن شئت نبيًّا عبدًا، وإن شئت نبيًّا ملكًا، فنظرت إلى جبريل**

---

(١) قال الهيثمي في «المجمع» (٩/ ١٩): رواه أحمد والبزار وأبو يعلى، ورجال الأوَّلَيْن رجال الصحيح، ورواه أبو يعلى بإسناد حسن.

عليه السلام فأشار إليَّ أن ضع نفسك، قال: فقلت: نبيًّا عبدًا، قالت: وكان رسول الله ﷺ بعد ذلك لا يأكل متكئًا، يقول: «آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد»(١).

تواضعه في بيته:

عن الأسود بن يزيد قال: سُئلت عائشة: وما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: «كان يكون في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة»(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «إنما كان فراش رسول الله ﷺ الذي ينام عليه، أدمًا حشوه ليف»(٣).

وعن عباد بن تميم عن عمه: «أنه رأى النبي ﷺ مستلقيًا في المسجد واضعًا إحدى رجليه على الأخرى»(٤).

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يركب الحمار، ويلبس الصوف، ويعتقل الشاة، ويأتي مراعاة الضيف»(٥).

وعن ثابت قال: «أخرج إلينا أنس بن مالك قَدَح خشب غليظًا مضببًا بحديد، فقال: يا ثابت، هذا قدح رسول الله ﷺ»(٦).

وعن أنس قال: «كان ﷺ يؤتى بالتمر فيه دود، فيفتشه، يخرج السوس منه»(٧).

وعن أنس قال: «إنَّ خياطًا بالمدينة دعا النبي ﷺ لطعامه، قال: فإذا خبز شعير بإهالة سنخة(٨)، وإذا فيه قرع، قال: فرأيت النبي ﷺ يعجبه القرع، قال أنس:

---

(١) صحيح لغيره: رواه البغوي في «شرح السنة».
(٢) أخرجه البخاري.
(٣) أخرجه مسلم.
(٤) أخرجه البخاري ومسلم.
(٥) أخرجه الحاكم في «المستدرك» وصححه ووافقه الذهبي.
(٦) أخرجه الترمذي في «الشمائل» وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٦٧٦).
(٧) أخرجه أبو داود وابن ماجه وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (٢١١٣).
(٨) الإهالة: هي مما يؤتدم به من الأدهان، والسنخة: المتغيرة الرائحة.

لم يزل يعجبني القرع منذ رأيت رسول الله ﷺ يعجبه»[١].

وعن عـمـرو بن حـريث قـال: «رأيت رسـول الله ﷺ يصلي فـي نعلين مخصوفتين[٢]»[٣].

وعن أنس: «أن رسول الله ﷺ كان إذا أكل طعامًا لعق أصابعه الثلاث»[٤].

وعنه قال: «مـا علمت النبي ﷺ أكل على سُكُرُّجة[٥] قط، ولا خبز له مرقق قط، ولا أكل على خـوان قط، قيل لقـتـادة: فعـلام كانوا يأكلون؟ قـال: على السفر»[٦].

تواضعه ﷺ مع الخلق:

عن أنس رضي الله عنه: «أن رسـول الله ﷺ كـان يمر على الصبـيـان فيـسلم عليهم».

وعن جرير رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ كان يمر بنساء فيسلم عليهن»[٧].

وقال أنس رضي الله عنه: «كانت الأَمَة تأخذ بيده ﷺ فتنطلق به حيث شاءت»[٨].

وعن أنس رضي الله عنه: «أن امـرأة جاءت إلى النبي ﷺ فقـالت له: إن لي إليك حاجة. فقال: «**يا أمَّ فلان، اجلسي في أي طرق المدينة شئت أجلس إليك**»[٩].

---

(١) أخرجه أحمد بإسناد صحيح.

(٢) النعلان المخصوفتان: أي المخروزتان أو المُرقَّعتان.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم.

(٤) أخرجه مسلم.

(٥) السُكُرُّجة (بضم السين والكاف والراء المشددة المضمومة): هي إناء صغير يوضع فيه الشيء القليل المشهي للأكل كالسلطة. والخـوان (بكسر الخاء ويضم): وهو مرتفع يهيئ ليـؤكل الطعام عليه. والسُفُر: جمع (سفرة) وهي ما يمد ويبسط من جلد أو ثياب ليؤكل عليه.

(٦) أخرجه البخاري رقم (٦٤٥٠).

(٧) صحيح: رواه أحمد في مسنده عن جرير، وأخرجه ابن السني والطبراني في «الكبير»، والبخاري في «الأدب»، وأبو داود والترمذي عن أسماء الأنصارية، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٨٩١).

(٨) رواه البخاري.

(٩) رواه البخاري ومسلم.

وفي رواية لمسلم: «فخلا معها في بعض الطريق حتى فرغت من حاجتها».

وعن سهل بن حنيف قال: «كان رسول الله ﷺ يأتي ضعفاء المسلمين ويزورهم، ويعود مرضاهم، ويشهد جنائزهم»[١].

وعن أنس رضي الله عنه قال: «كان ﷺ يُردف خلفه، ويضع طعامه على الأرض، ويُجيب دعوة المملوك، ويركب الحمار»[٢].

وعن أبي أيوب رضي الله عنه قال: كان ﷺ يركب الحمار، ويخصف النعل ويرقع القميص، ويلبس الصوف، ويقول: «**من رغب عن سنتي فليس مني**»[٣].

عن الحسن البصري رحمه الله أنه ذُكر رسول الله ﷺ فقال: «لا والله، ما كانت تُغلق دونه الأبواب، ولا يقوم دونه الحجاب، ولا يُغدى عليه بالجفان، ولا يروح عليه بها، ولكنه كان بارزًا، من أراد أن يلقى نبي الله لقيَه، وكان يجلس بالأرض، ويُوضع طعامُه بالأرض، يلبس الغليظ، ويركب الحمار، ويُردف عبده، ويعلف دابته بيده»[٤].

وعن أنس رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ كان يزور الأنصار، ويسلم على صبيانهم، ويمسح رءوسهم»[٥].

وعن أنس رضي الله عنه أنه قال: إن كان رسول الله ﷺ ليُخالطنا حتى يقول لأخ لي صغير: «**يا أبا عُمير، ما فعل النغير؟**»[٦].

---

(١) صحيح: رواه أبو يعلى والطبراني والحاكم وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (٢١١٢).

(٢) صحيح: رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٢١٢٥).

(٣) حسن: أخرجه ابن عساكر عن أبي أيوب، وأخرجه أبو الشيخ والسهمي وابن سعد عن الحسن البصري مرسلاً، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٨٢٢) و«السلسلة الصحيحة» رقم (٢١٣).

(٤) «صفة الصفوة» (١/ ١٦٨، ١٦٩).

(٥) صحيح: أخرجه النسائي والطحاوي وأبو نعيم في «الحلية»، والخطيب في تاريخه، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (١٢٧٨)، و«صحيح الجامع» رقم (٤٨٢٣).

(٦) رواه البخاري ومسلم والترمذي واللفظ له، وأبو عمير: أخ لأم أنس، وهو ابن أبي طلحة، والنغير: هو عصفور صغير.

وفي رواية البخاري: «كان أحسن الناس خلقًا، وكان لي أخ يُقال له: أبو عُمير، وهو فطيم، كان إذا جاءنا قال: **«يا أبا عُمير، ما فعل النُّغير؟»**، لنُغر كان يلعب به.

وعن أنس رضي الله عنه قال: «لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ، قال: وكانوا إذا رأوه لم يقوموا، لما يعلمون من كراهته لذلك»(١).

وعن أنس رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ كان إذا لقيه أحد من أصحابه فقام معه، قام معه فلم ينصرف حتى يكون الرجل هو الذي ينصرف عنه، وإذا لقيه أحد من أصحابه فتناول يده، ناوله إياها فلم ينزع يده منه حتى يكون الرجل هو الذي ينزع يده منه، وإذا لقي أحدًا من أصحابه فتناول أذنه، ناوله إياها، ثم لم ينزعها حتى يكون الرجل هو الذي ينزعها عنه»(٢).

وعن ابن أبي أوفى رضي الله عنه: «أنه ﷺ كان يُكثر الذكر، ويُقل اللغو، ويطيل الصلاة، ويقصر الخطبة، وكان لا يأنف ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين والعبد، حتى يقضي له حاجته»(٣).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تُطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»**(٤).

وعن أنس أن رجلاً قال: «يا محمد أيا سيدنا وابن سيدنا، وخيرنا، وابن خيرنا، فقال رسول الله ﷺ: **«يا أيها الناس، عليكم بتقواكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد بن عبد الله، أنا عبد الله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلنيها الله»**(٥).

---

(١) صحيح: رواه الترمذي والبخاري في «الأدب المفرد».

(٢) حسن: أخرجه ابن سعد وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٦٥٦).

(٣) صحيح: رواه النسائي والحاكم عن ابن أبي أوفى، والحاكم عن أبي سعيد وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٨٨١).

(٤) رواه البخاري في صحيحه: كتاب بدء الخلق- باب قوله تعالى: **﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾** [مريم: ١٦].

(٥) صحيح: رواه أحمد في مسنده، وقال الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٥٧٢): إسناده على شرط مسلم.

وعن جابر رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يتـخلف في المسير فيزجي الضعيف، ويردف، ويدعو لهم»(١).

وعن أبي رفاعة تميم بن أسيد رضـي الله عنه قال: «انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب، فقلت: يا رسول الله، رجل غريب جاء يسأل عن دينه، لا يدري ما دينه؟ فأقـبل عليَّ رسول الله ﷺ وترك خطبتـه، حتى انتهـى إليَّ، فأتي بكرسي حسبتُ قوائمـه حديداً، فقعد عليه، وجعل يعلمني ممـا علمه الله، ثم أتى خطبته فأتم آخرها»(٢).

تواضع أئمة السلف:

وقد كان الصحابة والتابعون وتابعوهم رضي الله عنهم أوعية التواضع.

هذا صديق الأمة أبو بكر رضي الله عنه يخـدم عجوزاً كبيرة ويعد لهـا طعامها وشرابها.

والفاروق رضي الله عنه يمشي مع الطفل ويوصله إلى بيته.

عن سنان بن سلمـة الهذلي قال: «خـرجت مع الغلمان ونحن بالمدينـة نلتقط البلح، فإذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه معه الدِّرة، فلما رآه الغلمان تفرَّقوا في النخل، قال: وقمت وفـي إزاري شيء قد لقطته، فقلت: يا أميـر المؤمنين هذا ما تُلقي الريح، قـال: فنظر إليه في إزاري فلم يضـربني، فقلت: يا أمـير المؤمنين، الغلمان الآن بين يدي وسيأخذون ما معي، قال: كلا امش، قال: فجاء معي إلى أهلي»(٣).

وعن الحسن قال: «خـرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه في يوم حـار واضعًا رداءه على رأسه، فـمرَّ به غـلام على حمـار، فقـال: يا غلام، احملنـي معك، فوثب الغلام عن الحمار، وقـال: اركب يا أمير المؤمنين، قال: لا، اركب وأركب أنا خلفك، تريد تحـملني على المكان الوطيء وتركب أنت على الموضع الخـشن،

---

(١) صحيح: رواه أبو داود والحاكم وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٢١٢٠).

(٢) رواه مسلم.

(٣) أخرجه ابن سعد (٧/ ٩٠).

فركب خلف الغلام، فدخل المدينة وهو خلفه والناس ينظرون إليه»[١].

عمر يخدم العجوز:

عن الأوزاعي: «أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج في سواد الليل فرآه طلحة، فذهب عمر فدخل بيتًا، ثمَّ دخل بيتًا آخر، فلما أصبح طلحة ذهب إلى ذلك البيت، فإذا بعجوز عمياء مُقعدة، فقال لها: ما بال هذا الرجل يأتيك؟ قالت: إنه يتعاهدني منذ كذا وكذا، يأتيني بما يصلحني ويُخرج عني الأذى.

فقال طلحة: ثكلتك أمك يا طلحة، أعثرات عمر تتبع»[٢].

تواضع ذي النورين:

وذو النورين عثمان حيي ستير متواضع.

عن ميمون بن مهران قال: «أخبرني الهمداني أنه رأى عثمان بن عفان رضي الله عنه وهو على بغلة، وخلفه عليها غلامه نائل، وهو خليفة»[٣].

وعن عبد الله الرومي قال: «كان عثمان رضي الله عنه يلي وضوء الليل بنفسه، فقيل له: لو أمرت بعض الخدم فكفوك، فقال: لا، إنَّ الليل لهم يستريحون فيه»[٤].

وعن الزبير بن عبد الله أن جدته أخبرته وكانت خادمًا لعثمان، وقالت: «وكان عثمان لا يوقظ نائمًا من أهله إلا أن يجده يقظانًا فيدعوه فيناوله وضوءه، وكان يصوم الدهر»[٥]. وعن الحسن البصري قال: «رأيت عثمان رضي الله عنه نائمًا في المسجد في ملحفة ليس حوله أحد وهو أمير المؤمنين».

لله درك يا أبا عمرو.

يا أستاذ العبادة والتواضع.

---

(١) أخرجه الدينوري كما في «منتخب كنز العمال» (٤/ ٤١٧).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٤٨) وهو منقطع.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٦٠).

(٤) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» كما في «الإصابة» (٢/ ٤٦٣).

(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٦٠).

تواضع أبي تراب:

وعليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه طلق الدنيا ثلاثًا لا رجعة فيها.

عن أبي مطر قال: «خرجت من المسجد فإذا رجل ينادي خلفي: ارفع إزارك فإنه أتقى لربك، وأنقى لثوبك، وخذ من رأسك إن كنت مسلمًا، فإذا هو عليٌّ، ومعه الدرَّة، فانتهى إلى سوق الإبل، فقال: بيعوا ولا تحلفوا، فإن اليمين تنفق السلعة وتمحق البركة، ثمَّ أتى صاحب التمر فإذا خادم تبكي، فقال: ما شأنك؟ قالت: باعني هذا تمرًا بدرهم، فأبى مولاي أن يقبله، فقال: خذه وأعطها درهمًا فإنه ليس لها أمر، فكأنه أبى، فقلت: ألا تدري من هذا؟ قال: لا، قلت: عليٌّ أمير المؤمنين، فصبَّ تمره وأعطاها درهمًا، وقال: أحب أن ترضى عني يا أمير المؤمنين، قال: ما أرضاني عنك إذا وفَّيتهم. ثمَّ مرَّ مجتازًا بأصحاب التمر، فقال: أطعموا المسكين يربو كسبكم، ثمَّ مرَّ مجتازًا حتى انتهى إلى أصحاب السمك، فقال: لا يباع في سوقنا طاف[1]، ثمَّ أتى دار بزاز وهي سوق الكرابيس، فقال: يا شيخ أحسن بيعي في قميص بثلاثة دراهم، فلما عرفه لم يشتر منه شيئًا، ثم أتى غلامًا حَدَثًا فاشترى منه قميصًا بثلاثة دراهم لبسه ما بين الرسغين إلى الكعب، فجاء صاحب الثوب، فقيل: إنَّ ابنك باع من أمير المؤمنين قميصًا بثلاثة دراهم، قال: فهلا أخذت منه درهمين؟ فأخذ الدرهم ثم جاء به إلى عليّ فقال: أمسك هذا الدرهم، قال: ما شأنه؟ قال: كان قميصًا ثمنه درهمان باعك ابني بثلاثة دراهم، قال: باعني رضاي وأخذت رضاه»[2].

ما جاء عن صالح بياع الأكسية عن جدته قالت: «رأيت عليًّا رضي الله عنه اشترى تمرًا بدرهم، فحمله في ملحفته، فقلت له: أو قال له رجل -: أحمل عنك يا أمير المؤمنين، قال: لا، أبو العيال أحق أن يحمل»[3].

وعن زاذان عن علي رضي الله عنه: «أنه كان يمشي في الأسواق وحده وهو

---

(١) طاف: السمك الطافي: هو الذي يموت في الماء ثم يعلو ويظهر.

(٢) أخرجه ابن راهويه وأحمد في «الزهد»، وعبد بن حُميد وأبو يعلى والبيهقي وابن عساكر كما في« المنتخب» (٥/ ٥٧).

(٣) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» رقم (٥٥١) وابن عساكر.

والٍ، يرشد الضال[١]، وينشد الضال، ويعين الضعيف، ويمر بالبياع والبقال فيفتح عليه القرآن ويقرأ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣]، ويقول: نزلت هذه الآية في أهل العدل والتواضع من الولاة وأهل القدرة على سائر الناس»[٢].

وعن جرموز قال: «رأيت عليًّا رضي الله عنه وهو يخرج من القصر وعليه قطريتان: إزار إلى نصف الساق، ورداء مشمر قريب منه، ومعه درَّة له يمشي بها في الأسواق، ويأمرهم بتقوى الله وحسن البيع، ويقول: أوفوا الكيل والميزان، ويقول: لا تنفخوا اللحم»[٣].

تواضع عبد الله بن سلام الحبر:

وهذا عبد الله بن سلام.

ورد أنه مرَّ في السوق وعليه حزمة من حطب، فقيل له: ما يحملك على هذا وقد أغناك الله عن هذا؟ قال: أردت أن أدفع الكِبر، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يدخل الجنة من في قلبه خردلة من كِبر**»[٤].

تواضع حذيفة رضي الله عنه:

وحذيفة بن اليمان رضي الله عنه في زمرة المتواضعين.

عن محمد بن سيرين قال: «كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا بعث عاملاً كتب في عهده: أن اسمعوا له وأطيعوا ما عدل عليكم، فلما استعمل حذيفة رضي الله عنه على المدائن، كتب في عهده: أن اسمعوا له وأطيعوا وأعطوه ما سألكم، فخرج حذيفة من عند عمر على حمار موكف وعلى الحمار زاده، فلما قدم المدائن استقبله أهل الأرض والدهاقين وبيده رغيف وعِرق من لحم على حمار

---

(١) الضال (الأولى): ضد المهتدي، والضال (الثانية): بمعنى الضائع.

(٢) أخرجه ابن عساكر كما في «المنتخب» (٥/ ٦٥)، والبغوي كما في «البداية» (٨/ ٥).

(٣) أخرجه ابن سعد (٣/ ١٨)، وابن عبد البر في «الاستيعاب» (٣/ ٤٨).

(٤) أخرجه مسلم (ح٩١)، وأبو داود (ح٤٠٩١)، والترمذي (ح ١٩٩٨)، وابن ماجه (٤١٧٣)، وأخرجه بلفظه الطبراني (١٠/ ٩٢).

على إكاف[١]، فقرأ عهده إليهم، فقالوا: سلنا ما شئت، قال: أسألكم طعامًا آكله، وعلف حماري هذا ما دمت فيكم، فأقام فيهم ما شاء الله، ثم كتب إليه عمر: أن اقدم، فلما بلغ عمر قدومه كمَن له على الطريق في مكان لا يراه فلما رآه عمر على الحال الذي خرج من عنده عليه أتاه فالتزمه وقال: أنت أخي وأنا أخوك»[٢].

وعن ابن سيرين قال: «إن حذيفة رضي الله عنه لما قدم المدائن قدم على حمار على إكاف وبيده رغيف وعِرق، وهو يأكل على الحمار»، وزاد طلحة بن مصرف في روايته: «وهو سادل رجليه من جانب»[٣].

* أبو ذر يساوي بينه وبين خادمه:

حرص أبو ذر رضي الله عنه على امتثال أمر النبي ﷺ ولو كان في ذلك مخالفة هوى النفس والطبع والبيئة والمجتمع.

ندرك هذا من هذا الموقف: عن المعرور بن سويد قال: «رأيت أبا ذر رضي الله عنه بالرَّبذة[٤] وعليه بُرد غليظ وعلى غلامه مثله، قال: فقال القوم: يا أبا ذر، لو كنت أخذت الذي على غلامك فجعلته مع هذا فكانت حلة، وكسوت غلامك ثوبًا غيره، قال: فقال أبو ذر: إني كنت ساببت رجلاً، وكانت أمه أعجمية، فعيَّرته بأمه، فشكاني إلى رسول الله ﷺ فقال: **«يا أبا ذر، إنك امرؤ فيك جاهلية، فقال: إنهم إخوانكم فضَّلكم الله عليهم، فمن لم يلائمكم فبيعوه ولا تعذِّبوا خلق الله»**[٥].

أي تواضع وأي حلم وأي أدب. وأي عطف وأيُّ عدل.

سبحان الله، يستوي السيد الحر مع العبد الرقيق الخادم الغلام.

إنه تربية سيد الخلق ﷺ وكفى.

---

(١) الإكاف: البرذعة.

(٢) أخرجه ابن سعد كما في «الكنز» (٧/ ٢٣).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٧٧).

(٤) الربذة: مكان يبعد عن المدينة ثلاثة أميال.

(٥) أخرجه أبو داود رقم (٥١٥٧) وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٧٨٢٢).

وفيه وفي تواضعه قال ﷺ: «**من سرَّه أن ينظر إلى تواضع عيسى، فلينظر إلى أبي ذر**»(١).

تواضع سلمان رضي الله عنه:

وسلمان يركب حمارًا ويقود به الجيش.

عن ميمون بن مهران عن رجل من بني عبد القيس قال: «رأيت سلمان رضي الله عنه في سرية، وهو أميرها على حمار وعليه سراويل، وخدمتاه تَذَبذبان(٢) والجند يقول: قد جاء الأمير، فقال سلمان: إنما الخير والشر بعد اليوم»(٣).

عن سلامة العجلي قال: «جاء ابن أخت لي من البادية يقال له: قدامة: فقال لي: أحب أن ألقى سلمان الفارسي رضي الله عنه فأسلم عليه، فخرجنا إليه، فوجدناه بالمدائن، وهو يومئذ على عشرين ألفًا، ووجدناه على سرير يسف خوصًا(٤)، فسلمنا عليه، قلتً: يا أبا عبد الله هذا ابن أخت لي قدم عليَّ من البادية فأحب أن يسلم عليك، قال: وعليه السلام ورحمة الله، قلت: يزعم أنه يحبك قال: أحبه الله»(٥).

وسلمان الأمير يعجن عجينه بنفسه:

وعن أبي قلابة أن رجلاً دخل على سلمان رضي الله عنه وهو يعجن، فقال: ما هذا؟ فقال: بعثنا الخادم في عمل- أو قال: في صنعة- فكرهنا أن نجمع عليه عملين - أو قال: صنعتين، ثمَّ قال: فلان يقرئك السلام، قال: متى قدمت؟ قال: منذ كذا وكذا، قال: فقال: أما إنك لو لم تؤدها كانت أمانة لم تؤدها(٦).

---

(١) أخرجه أبو يعلى وابن سعد وابن حبان والحاكم وصححاه، وانظر «سلسلة الأحاديث الصحيحة» رقم (٢٣٤٣).

(٢) خدمتاه تَذَبْذَبَان: أي ساقاه تتحركان.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٩٩).

(٤) يسف خوصًا: ينسجه، والخوص: ورق النخل.

(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٩٧).

(٦) أخرجه أحمد وابن سعد (٤/ ٦٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٠١) وانظر «صفوة الصفوة» (١/ ٢١٨).

وصورة أخرى من تواضع الزعماء:

عن ثابت قال: «كان سلمان رضي الله عنه أميرًا على المدائن، فجاء رجل من أهل الشام من بني تيم الله، معه حمل تين، وعلى سلمان أندرورد وعباءة، فقال لسلمان: تعال احمل - وهو لا يعرف سلمان - فحمل سلمان، فرآه الناس فعرفوه فقالوا: هذا الأمير، فقال: لم أعرفك، فقال له سلمان: لا، حتى أبلغ منزلك»[١].

سبحانك يا من شرحت صدورهم لك.

أمير المدائن يحمل حمل تين ويبلغ منزل صاحبه!!

والتابعون كذلك: عن طريف قال: «رأيت الربيع بن خثيم يحمل عرقة[٢] إلى بيت عمته».

وعن إبراهيم بن أبي عبلة قال: «رأيت أم الدرداء مع نساء المساكين جالسة ببيت المقدس».

وعن حماد بن زيد قال: «ما رأيت محمد بن واسع إلا وكأنه يبكي، وكان يجلس مع المساكين والبكائين».

ورأى ابن واسع - رحمه الله - ابنًا له يمشي مشية منكرة، فقال: تدري بكم شريت أمك؟ بثلاثمائة درهم، وأبوك - لا كثر الله في المسلمين مثله - وأنت تمشي هذه المشية[٣].

قال عبد الله بن زيد: «كنا نجلس إلى مكحول، ومعنا سعيد بن عبد العزيز، فكان يسقي الماء في مجلس مكحول».

وقال ابن جابر: « أقبل يزيد بن عبد الملك إلى مجلس مكحول، فهممنا أن نوسِّع له، فقال: دعوه يتعلم التواضع».

---

(١) أخرجه ابن سعد (٤/ ٦٣)، وأبو نعيم في الحلية» (١/ ٢٠٠).

(٢) العرقة: هي القفة المنسوجة بالخوص.

(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ٣١٥).

وبلغ عمر بن عبد العزيز أن ابنًا له اشترى خاتمًا بألف درهم، فكتب إليه عمر: بلغني أنك اشتريت فصًّا بألف درهم، فإذا أتاك كتابي، فبع الخاتم وأشبع به ألف بطن، واتخذ خاتمًا بدرهمين، واجعل فصه صينيًّا، واكتب عليه: «رحم الله امرأً عرف قدر نفسه»(١).

ودخل على عمر بن عـبد العزيز واحد من أقربائه فهـاله ما رأى؛ لقد رآه لائذًا بركن شمس عن داره، مـتدثرًا بإزار، فحسـبه مريضًـا فسأله: ما الخطب يا أمـير المؤمنين؟ فأجابه عمر: لا شيء... إني أنتظر ثيابي حتى تجف، فعاد الزائر يسأل الخليفة، وما ثـيابك يا أمير المؤمنين؟ قال عمر: قـميص ورداء وإزار، قال الزائر: ألا تتخذ قمـيصًا آخر ورداءً أو إزارًا؟ فأجابه: قـد كان لي ذلك ثمَّ تمزقت، قال: ألا تتخذ سـواها؟ فيطرق عمر، ويجهش بالـبكاء، ويردد قول الله تعالى: ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [القصص: ٨٣].

وقال رجاء بن حيوة: قُوِّمت ثياب عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - وهو يخطب باثني عشر درهمًا، وكـانت قباء وعمامة وقميـصًا وسراويل ورداء وخفين وقلنسوة.

تواضع الإمام أحمد:

قال أبو بكر المروزي: «لم أرَ الفـقير في مـجلس أعز منه في مجلس أبي عـبد الله، كان مائلاً إليهم مقصراً عن أهل الدنيا، وكان فيه حلم، ولم يكن بالعجول، وكان كـثير التـواضع، تعلوه السكينة والوقار، إذا جلس في مـجلسه بعد العـصر للفتيا لا يتكلم حتى يسأل، وإذا خرج إلى مسـجده لم يتصدر، يقعد حيث انتهى به المجلس».

وأعرف عالمًا سافر للدعوة إلى الله في قافلة الدعاة إلى صعيد مصر فاغتنم غيبة الدعاة ممن هم دونه أو مثله فنظف لهم نعالهم.

---

(١) السابق (٢/ ٣١٦).

ويتعلق بهذا الخلق ثلاثة أخلاق مذمومة:

(١) الكبر:

إن الكبر خلق باطن يـصدر عن أعمال هـي ثمرته فيظهـر على الجوارح وذلك الخلق هو رؤية النفس على المتكبـر عليه يعني يرى نفسه فوق الـغير في صـفات الكمـال فعند ذلك يكون مـتكبـراً وبهذا ينفـصل عن العـجب، فإن العـجب لا يستدعي غير المعجب حتى لو قدر أن يـخلق الإنسان وحده تصور أن يكون معجبًا ولا يتصور أن يكون متكبراً إلا أن يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوقه فإن الإنسان متى رأى نفسه بعين الاستعظام، حقر من دونه وازدراه، وصفة هذا المتكبر أن ينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى الحمير استجهالاً واستحقاراً.

وآفـة الكبر عظيـمـة وفيـه يهلك الخـواص، وقلما ينفـك عنه العبـاد والزهاد والعلماء. وكيف لا تعظم آفته وقد أخبر النبي ﷺ أنه: «**لا يدخلُ الجنة من كان في قلبه مثقالُ ذرة من كبر**»[١].

ومن شر أنواع الكبر مـا يمنع من استفادة العلم وقبول الحق والانقـياد له. وقد تحصل المعرفة للمتكبر ولكن لا تطاوعه نفـسه على الانقياد للحق كما قال تعالى: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا**﴾ [النمل: ١٤]. وهذا تكبر على الله وعلى رسوله ﷺ.

ما هو الكبر؟: الكبر هو احـتقار الناس واسـتعظام نفـسه عليهم، وقـد شرح الرسول ﷺ الكبـر فقال: «**الكبرُ بطرُ الحـقِّ وغمط الناسِ**»[٢]، ومعنى غمط الناس الازدراء بهم واستحقارهم.

درجات الكبر:

١ - أن يكون الكبر مستقـرًا في قلب الإنسان، فهو يرى نفسـه خيرًا من غيره إلا أنه يجتهد ويتواضع.

٢ - أن يظهر لك بأفعاله من الترفع في المجالس والتقدم على الأقران والإنكار

---

(١)، (٢) رواهما مسلم رقم (٩١).

على من يقصر في حقه.

٣ - أن يظهر الكبر بلسانه كالدعاوى والمفاخر وتزكية النفس وحكايات الأحوال في معرض المفاخرة لغيره.

٤ - أن التكبر يظهر في شمائل الإنسان كصُعر وجهه ونظره شزرًا وإطراق رأسه وجلوسه متربعًا ومتكئًا وفي أقواله، حتى في صوته ونغمته وصيغة إيراده الكلام ويظهر ذلك أيضًا في مشيته وتبختره وقيامه وقعوده وحركاته وسكناته، وسائر تقلباته، ومن خصال المتكبر:

١ - أن يحب قيام الناس له.

٢ - أن لا يمشي إلا ومعه أحد يمشي خلفه.

٣ - أن لا يزور أحدًا تكبرًا على الناس.

٤ - أن يستنكف من جلوس أحد إلى جانبه أو مشيه معه.

٥ - أن لا يتعاطى بيده شغلاً في بيته.

٦ - أن لا يحمل متاعه من سوقه إلى بيته.

علاج الكبر:

الأول: في استئصال أصله وقطع شجرته وذلك بأن يعرف الإنسان نفسه ويعرف ربه فإنه إذا عرف نفسه حق المعرفة علم أنه أذل من كل ذليل ويكفيه أن ينظر في أصل وجوده بعد العدم من تراب ثم من نطفة خرجت من مخرج البول ثم من علقة ثم من مضغة. وقد أشار الله تعالى إلى هذا بقوله: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ [عبس: ١٨، ١٩]، فأحياه بعد الموت وأحسن تصويره وأخرجه إلى الدنيا وأشبعه وأرواه وكساه وهداه وقواه، فمن هذا بدايته فأي وجه لكبره وفخره؟! على أنه لو دام له الوجود على اختياره لكان لطغيانه طريق، بل قد سلط عليه الأخلاط المتضادة والأمراض الهائلة، بينما بنيانه قد تم إذ هو قد وهى وتهدم لا يملك شيئًا لنفسه ضرًا ولا نفعًا بينما هو يذكر الشيء فينساه، ويستلذ بالشيء فيرديه، ويروم الشيء فلا يناله ثم لا يأمن أن يسلب حياته بغتة

هذا أوسط حاله، وذاك أول أمـره، وأما آخر أمره فـالموت الذي يعده جماداً كـما كان ثم يلقى في التـراب فيصـير جيفـة منتنة وتبلى أعضاؤه وتنخـر عظامه ويأكل الدود أجزاؤه. ثم بعـد طول البلى تجمع أجزاؤه المتـفرقة ويحضـر عرصة القيـامة فيرى أرضًـا مبدلة وجبالاً مـسيرة وسماء منشـقة ونجومًا منكدرة وشـمسًا مكورة وأحوالاً مظلمة وجحيمًا تزفر وصحائف تنشر، ويقال له: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]، فما لمن هذا حاله في التكبر؟ فإن صار إلى النار فالبهائم أحسن حالاً منه.

ومن العلاج العملي: التواضع بالفعل لله تعالى ولـعباده وذلك بالمواظبة على استـعمـال خلق المتواضـعين، وإلينا رسول الله ﷺ وطـريقته ومـا كان عليـه من التواضع والأخلاق الجميلة.

الثاني: التكبر بالأنسـاب: فمن اعتـراه الكبر من جهة الـنسب فليعلم أن هذا تعزز بكمال غيره ثم يعلم أباه وجده فإن أباه القريب نطفة قذرة وأباه البعيد تراب.

الثالث: التكبر بالقوة: إن المتكبـر بقوته ينظر إلى نفسه لو آلمه عرق عـاد أعجز من كل عاجـز، وإن حَمي تُحلحِل من قوته مـا لا يعود في مدة، وإن شـوكة لو دخلت في رجله لأعجزته، وبقة لو دخلت في أذنه لأقلقته.

الرابع: التكبر بسبب الغنى: فإذا تأمل خلقًا من اليهود وجدهم أغنى منه فأُفٍّ لشرف تسبق به اليهود ويستلبه السارق في لحظة فيعود صاحبه ذليلاً.

الخامس: التكبر بسبب العلم: فليعلم أن حجة الله على العالم آكد من الجاهل وليتفكر في الخطر العظيم الذي هو بصدده، فـإن خطره أعظم من خطر غيره كما أن قدره أعظم من قدر غيره، وليعلم أن الكبر لا يليق بالله سبحانه، وأنه إذا تكبر صار ممقوتًا عند الله تعالى بغيضًا عنده. وقد أحب الله منه أن يتواضع وكذلك كل سبب يعالجه بنقيضه ويستعمل التواضع.

واعلم: أن هذا الخلق كسائر الأخلاق له طرفان ووسط: فطرفه الذي يميل إلى الزيادة يُسَـمى تكبرًا، وطرفـه الذي يميل إلى النقصـان يُسمى تخـاسـًا ومذلة. والوسط يُسمى تواضعًا وهو المحمود، وهو أن يتواضع من غـير مذلة فخير الأمور

أوساطها. فمن تقدم على أقرانه فهو متكبر. ومن تأخر عنهم فهو متواضع. لأنه قد وضع شيئًا من قدره فأما إذا أدخل على العالم إسكاف أو نحوه فتنحى له عن مجلسه وأجلسه فيه ثم قدم له نعله ومشى معه إلى الباب فقد تخاسس وتذلل، فذلك غير محمود بل المحمود العدل وهو أن يعطي كل ذي حق حقه لكن تواضعه للسوقة بالرفق في السؤال واللين في الكلام وإجابة الدعوة والسعي في الحاجة ولا يحقره، ولا يستصغره. والله أعلم.

(٢) العجب:

من أمراض القلوب: العجب بالعمل، وهو محبط للعمل مذهب للأجر والثواب، صاحبه مستحق للعقاب، إن العجب يدعو إلى الكبر لأنه أحد أسبابه فيتولد من العجب الكبر ومن الكبر الآفات الكثيرة. وهذا مع الخلق. فأما مع الخالق، فإن العجب بالطاعات نتيجة استعظامها فكأنه يمنّ على الله تعالى بفعلها، وينسى نعمته عليه بتوفيقه لها، ويعمى عن آفاتها المفسدة لها. وإنما يتفقد آفات الأعمال من خاف ردَّها دون من رضيها وأعجب بها، والعجب إنما يكون بوصف كمال من علم أو عمل، فإن ضاف إلى ذلك أن يرى حقًّا له عند الله إدلالاً فالعجب يحصل باستعظام ما عجب به والإدلال يوجب توقع الجزاء مثل أن يتوقع إجابة دعائه وينكر رده.

علاج العُجب:

إن الله سبحانه هو المنعم عليك بإيجادك وإيجاد أعمالك فلا معنى لعجب عامل بعمله، ولا عالم بعلمه، ولا جميل بجماله، ولا غني بغناه؛ إذ كل ذلك من فضل الله تعالى وإنما الآدمي محل لفيض النعم عليه وكونه محلاً له نعمة، فإن قلت: إن العمل حصل بقدرتك ولا يتصور العمل إلا بوجودك ووجود عملك وإرادتك وقدرتك. فمن أين قدرتك وكل ذلك؟ من الله تعالى لا منك فإن كان العمل بالقدرة فالقدرة مفتاحه، وهذا المفتاح بيد الله تعالى، وما لم تعط المفتاح لا يمكنك العمل، كما لو قعدت عند خزانة مغلقة لم تقدر على ما فيها إلا أن تعطى مفتاحها؛ عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يُدخل أحدًا منكم عمله الجنة»، قالوا: ولا أنت

يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل». رواه البخاري ومسلم.

العُجب بالنسب:

كما يتخيل أنه ينجو بشرف آبائه، وعلاجه أن يعلم أنه متى خالف آباءه، وظن أنه ملحق بهم فقد جهل، وإن اقتدى بهم فإنهم لم يكن العجب من أخلاقهم بل الخوف والإزراء على النفس، وإنما شرفوا بالطاعة المحمودة، لا بنفس النسب. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

فإن قلت: إنما يرجو الشريف أن يشفع فيه ذوو قرابته، فالجواب: إن كل المسلمين يرجون الشفاعة وقد يشفع في الشخص بعد إحراقه بالنار وقد يقوى الذنب فلا تنجي الشفاعة. ومثله المنهمك في الذنوب اعتمادًا على رجاء الشفاعة كمثل المريض المنهمك في الشهوات اعتمادًا على طبيبه الحاذق، وذلك جهل فإن اجتهاد الطبيب ينفع بعض الأمراض لا كلها.

ويوضح هذا أن سادات الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا يخافون الآخرة فكيف يتكل من ليس في مثل مراتبهم؟!

العجب بالرأي الخطأ:

كما قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨]. وعلاج هذا أشد من علاج غيره، فإن هذا متى كان معجبًا برأيه لم يصغ إلى نصح ناصح، وكيف يترك ما يعتقده نجاة؟! وإنما علاجه في الجملة أن يكون متهمًا لرأيه أبدًا، لا يغتر به إلا أن يشهد له قاطع من كتاب، أو سنة، أو دليل عقلي جامع لشروط الأدلة ولن يعرف ذلك إلا بمجالسة أهل العلم وممارسة الكتاب والسنة، والأولى لمن لم يتفرغ لاستغراق العمر في العلم أن لا يخوض في المذاهب ولكن يقف عند اعتقاد الجمل، وأن الله سبحانه واحد لا شريك له: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وأن رسول الله ﷺ صادق فيما جاء به ويؤمن بما جاء به القرآن من غير بحث ولا تنقير، ويصرف زمنه في التقوى وأداء الطاعات فمتى خاض في المذاهب ورام ما لا يصل إلى معرفته هلك.

(٣) الغرور:

من الناس من غرته الدنيا ومنهم أقوام لهم طاعات ومعاصي إلا أن معاصيهم أكثر، وهم يظنون أن حسناتهم ترجح، ومنهم من يظن أن طاعاته أكثر من معاصيه وسبب ذلك أنه يحفظ عدد حسناته ولا يحاسب نفسه على سيئاته ولا يتفقد ذنوبه كالذي يستغفر الله ويسبحه مائة مرة في اليوم ثم يظل طول نهاره يغتاب المسلمين ويتكلم بما لا يرضى، فهو ينظر في فضائل التسبيح والاستغفار ولا ينظر في عقوبة الغيبة والكلام المنهي عنه.

ويقع الاغترار في الأغلب في حق أربعة أصناف: العلماء، والعباد، والزهاد، والأغنياء:

فأما أهل العلم فالمغترون منهم فرق: منهم فرق أحكموا العلوم الشرعية، والعقلية، وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصي وإلزامها الطاعات واغتروا بعلمهم وظنوا أنهم من الله بمكان، ومنهم فرقة أخرى أحكموا العلم والعمل الظاهر ولم يتفقدوا قلوبهم ليمحوا الصفات المذمومة منها كالكبر والحسد والرياء، وفرقة أخرى علموا أن هذه الأخلاق الباطنة مذمومة إلا أنهم بعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها.

وأما العباد: فمنهم فرقة أهملوا الفرائض واشتغلوا بالنوافل والفضائل. وفرقة أخرى اغتروا بقراءة القرآن ولم يعملوا به. وفرقة أخرى اغتروا بالصوم وأكثروا منه وهم لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة والفضول. ومنهم من اغتر بالحج فيخرج إليه من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون واسترضاء الوالدين وطلب الزاد الحلال، وفرقة أخرى أخذوا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونسوا أنفسهم.

وأما الزهاد: فمنها من زهدت في المال وقنعت بالدون من اللباس والطعام وقنعت من المسكن بالمساجد فظنت أنها أدركت رتبة الزهاد، وهم مع هذا شديدو الرغبة في الرياسة والجاه فقد تركوا أهون الأمرين وباؤوا بأعظم المهلكين، وفرقة منهم اغتروا بالزي والنطق والهيئة.

وأما أصحاب الأموال (الأغنياء): ففرقة منهم يحرصون على بناء المساجد

والمدارس ويكتبون أسماءهم عليها ليتخلد ذكرهم. ومنهم البخلاء الذين يشتغلون بالعبادات البدنية كالصيام والصلاة ويتركون العبادات المالية كالزكاة والصدقة.

فأما علاج الغرور فهو: مدار الآخرة على معنى واحد وهو تقويم القلب، ولا يعجز عن ذلك إلا من لم تصدق نيته؛ فإن الإنسان لو اهتم بأمر الآخرة كما يهتم بأمر الدنيا لنـالها. وقد فعل ذلك السلف الصالح ومن تـبعهم بإحسان ويسـتعان على التخلص من الغرور بأشياء منها:

العقل: وهو النور الأصلي الذي يدرك به الإنسان حقائق الأشياء.

المعرفة: التي يعرف بها الإنسان نفسـه، وربه ودنياه وآخرته فيعرف وصف الله جل جلاله، ويستعين على معرفة الدنيا والآخرة بذكر الموت ونسيان الدنيا. فيعرف من العبـادات والمعاملات ما هو مـحتاج إليـه. ويعرف من الحلال والحرام جـميع العقبـات المانعة من طريق الله تعالى. ويعرف من الأخلاق والآداب المحـمود منها والمذموم.

* * *

(١٢) الأمانة

فإن أداء الأمانة خلق رفيع وأدب جم لا تستقيم الحياة إلا به، ولا تقوم المعاملات إلا عليه، تحتاجه الأمة الإسلامية في جميع شئونها، تحتاجه مع الإمام في أداء حق رعيته، وتحتاجه مع إمام المسجد في مسجده، ومع البائع في بيعه، والتاجر في تجارته، والمدرس في مدرسته، والزوجة في بيتها، والعمل في عمله، والجندي في موقعه، والباحث في بحثه، والغاسل مع الميت.

والحق الذي لا مراء فيه أن أمة لا تعرف أداء الأمانة وصيانة الحقوق أمة ضعيفة مهينة ذليلة.

والأمانة نوعان:

١ - **النوع الأول:** الأمانة العامة، وهي أمانة التكاليف الشرعية أمرًا ونهيًا، وفعلاً وتركًا، وقولاً وعملاً، واعتقادًا، وفيها: نزل قول الله جل ثناؤه: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾ [الأحزاب: ٧٢، ٧٣].

عرضت الأمانة بالاختيار والإرادة: مَنْ المطيع؟ فأبت السموات والأرض والجبال ذاك العرض، وأبين إلا البقاء والدوام على طاعة الجبر والقسر، وخافت هذه المخلوقات من عصيان المنتقم الجبار؛ لما في الاختيار من جواز العصيان والكفران سيما مع كثرة الأعداء وجبروت المتجبرين وكبر المتكبرين، ومآل العصاة النار وغضب الجبار.

أما الإنسان فإنه حمل أمانة التكاليف:

ولِمَ لا يحملها وهو الذي رُزق نعمة العقل التي تجعله يُغَلِّب جانب الطاعة، خصوصًا وأنه علم أنه إن غلَّب جانب المعصية في بعض الأحيان أمكنه العودة إلى طريق الطاعة ثانية؟!

ولِمَ لا يحملها وهو المؤهل جسـديًّا لأداء العبادة، بخـلاف غيره من الكائنات التي لا تستطيع أن تركع وتسجد وتقوم وتقعد؟!

ولِمَ لا يحملها، وهو المؤهل لقـيادة مكان التكليف وهو الأرض، فكل ما على ظهر البسيطة يخضع له ويطيعه؟!

ولِمَ لا يحـملهـا وفي أدائها الفـوز العظيم ورؤية الملك الجـمـيل وعطاء المنان الكريم؟!

ولِمَ لا يحملها وهو الذي وعد بالإعانة على حفظ الأمانة؟! قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، ومن استـعان بالله نجَّاه، ومن فـوَّض إليه الأمر كفاه، ومن لاذ به قوَّاه.

ولِمَ لا يحملها وهو الذي نظر إلى «جـانب المكلِّف وقال: المودع عالم قادر لا يعرض الأمانة إلا على أهلها وإذا أودع لا يتركها بل يحفظها بعينه وعونه فقبلها؟! (تفسير الرازي).

كل هذا وغيره حض الإنسان على قبـول العرض الإلهي الذي فيه الفوز بالجنان إن حفظ أمانة الرحمن.

والأمانة تستـدعي مُؤَمِّنًا، والمُؤَمِّن هنا هو الله جل وعلا وأعظم بأمـانة مُؤَمِّنها رب العالمين، وتستدعي مؤتمنًا، والمؤتَمَنُ هنا هو الإنسـان ولما كان أكثر بني آدم قد خانوا الأمانة بخيانتهم لله وللرسل عليهم السلام حكم الله جل ثناؤه على الإنسان بأنه: ﴿كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ظلومًا لنفسه، جهولاً بانتقام ربه وعاقبة عصيانه.

لكن لما كـان هذا الحمل الثـقـيل بهذه المكانة قـال الله: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٣].

فلا تخف يا خائن الأمانة فباب التوبة مفتوح، فعد إلى الأمانة فصنها واحفظها ولا تضيع الوديعة ولا تعبث بها أو تضعها في غير موضع حفظها.

واعلم: أن اللصوص ينتظرون لحظة غـفلتك للانقضاض على الأمانة وسـلبها كلها أو بعضـها، فإذا لم تغلق الأبواب وتُوقِظَ الحُرَّاس حامـوا حول الحصن المنيع لسرقة الوديعة، وقد ينام الحارس فيفـتح العدو الباب، فربما أفاق الحراس، بعد أن أخذ من الأمانة شيئًا صغيراً، وهذا ليس فيه كبير أذى وعذاب؛ لأن المؤمِّن قد عفا وتجاوز عن صغيـر الذنب أو كبيره إن صحت التوبة وصـدقت العودة، أما إن يسر المؤتمن للعدو سرقة الأمانة فضاعت فإنها لن تعود، ورجوعها عسير.

ويا لخسارتك وخيبتك إن سلبت الأمـانة كلها، فإن ربك صاحب الأمانة أقسم ليذيقنك أليم عذابه وشديد عقابه.

والنوع الثاني من الأمانة: أمانة الودائع، وهي من أخطر الواجبات التي تركها كثير من المسلمين.

هذه الأمانة صفة من صفات المؤمنين قال تعالى: **﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ② وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ③ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ④ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ⑤ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ⑥ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ⑦ وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ⑧ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ⑨ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ⑩ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾** [المؤمنون: ١ - ١١].

وقال تعالى: **﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ⑲ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ⑳ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلاَّ الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢) وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾** [المعارج: ١٩ - ٣٥].

الأمانة على الصراط:

وهذه الأمانة بألوانهـا ومظاهرها تنتظر العبد يوم القـيامة عند الصـراط لتدخله

الجنة إن أداها أو تكردسه في النار إن خانها يقول ﷺ: «... **وترسل الأمانة والرحم فيقومان جنَبَتي الصراط يمينًا وشمالاً...**»[١].

وقد أمر الله تعالى بأداء هذه الأمانة على وجهها يقول تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا**﴾ [النساء: ٥٨].

وسبب نزولها ما رواه محمد بن إسحاق بسنده أن رسول الله ﷺ لما نزل بمكة واطمأن الناس خرج حتى جاء إلى البيت فطاف به سبعًا على راحلته يستلم الركن بمحجن في يده، فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة وقد استكن له الناس في المسجد قال ابن إسحاق:

«فحدثني بعض أهل العلم - وذكر بقية الحديث إلى أن قال -: فجلس رسول الله ﷺ في المسجد فقام إليه علي بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده، فقال: يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع الساقية صلى الله عليك، فقال رسول الله ﷺ: «**أين عثمان بن طلحة؟**» فَدُعي له فقال له: «**هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم وفاء وبر**».

قال ابن جرير: عن ابن جريج في الآية قال: نزلت في عثمان بن طلحة قبض منه رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة فدخل في البيت يوم الفتح فخرج وهو يتلو هذه الآية: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا**﴾ [النساء: ٥٨]، فدعا عثمان إليه فدفع إليه المفتاح، وقال عمر بن الخطاب: لما خرج رسول الله ﷺ من الكعبة وهو يتلو هذه الآية: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا**﴾ [النساء: ٥٨]... الآية، فداه أبي وأمي ما سمعته يتلوها قبل ذلك.

وقد أمر ﷺ بأداء الأمانة إلى أهلها فقال: «**أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك**»[٢].

---

(١) أخرجه مسلم رقم (١٩٥).

(٢) رواه أحمد وأهل السنن عن الحسن بن سمرة.

ومن خان الأمانة فهو عاص لله ولرسوله ﷺ وفيه خصلة من النفاق، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧]، لا تخونوا الله والرسول في الأمانة العامة أمانة التكاليف، ولا تخونوا أماناتكم الخاصة من الودائع.

وقال رسول الله ﷺ: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان**»، رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة، وزاد مسلم في رواية: «**وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم**»، ورواه أبو يعلى من حديث أنس ولفظه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وحج واعتمر، وقال: إني مسلم**»، فذكر الحديث.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**أربع من كنَّ فيه كان منافقًا خالصًا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**». رواه البخاري ومسلم.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا إيمان لمن لا أمانة له ولا صلاة لمن لا طهور له**» رواه الطبراني. ونحن في العصر الذي قال فيه المصطفى ﷺ: «**خيركم قرني ثم الذي يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يكون بعدهم قوم يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السِّمن**». رواه البخاري ومسلم.

نعم يخونون ولا يؤتمنون.

وكان ﷺ يستعيذ من الخيانة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة**»، رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه.

ويوم أن تصير الأمانة مغنمًا فسيحل بنا البلاء.

فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة فقد حل بها البلاء**»، قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: «**إذا كان**

المغنم دولاً، وإذا كانت الأمـانة مغنمًا، والزكاة مـغرمًا، وأطاع الرجل زوجتـه، وعق أمه، وبر صديقـه، وجفـا أباه، وارتفعت الأصـوات في المساجـد، وكان زعيم الـقوم أرذلهم، وأُكرم الرجل مـخافة شره، وشُربت الخـمر، ولُبس الحرير، واتُخذت القـينات والمعازف، ولعن آخر هذه الأمة أولهـا، فليرتقبوا عند ذلك ريحًـا حمراء أو خسفًا أو مـسخًا». رواه الترمذي.

وفي رواية له عن أبي هريرة: «إذا اتخذ الفيء[1] دولاً، والأمانة مـغنمًا، والـزكاة مغرمًـا، وتُعُلِّم لغير الدين، وأطاع الرجل امرأته، وعق أمه، وأدنى صـديقه، وأقصى أباه، وظهرت الأصوات في المساجد، وساد القبيلـة فاسقهم، وكان زعيم القوم أرذلهم، وأكرم الرجل مخـافة شره، وظهرت القينـات والمعازف، وشربت الخمور، ولعـن آخر هذه الأمة أولها، فليـرتقبوا عند ذلك ريحًا حـمراء، وخسفًا ومـسخًا وقذفًـا وآيات تتابع كنظام بالٍ قُطع سلكه فتتابع»، رواه الترمذي وقال: حديث غريب[2].

ومن هذه الأمانة الخاصة صدق الوعد والوفاء بالعهد، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: ٣٤]، ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤].

كمـا أن إخلاف الوعـد ونقض العهد من الخـيانة، وأيما خـيانة! قـال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥ - ٧٧].

وعن أنس قال: ما خطـبنا رسول الله ﷺ إلا قال: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عـهـد له». رواه أحـمد والبـزار والطبـراني في الأوسط وابن حبـان في صحيحه إلا أنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال في خطبته.

وعن عمرو بن الحسن رضي الله عنه قـال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أيما رجل أمَّن رجلاً على دمه ثم قتله فأنا من القـاتل بريء، وإن كان المقتول كافرًا». رواه ابن

(١) الفيء: المراد به أموال بيت المال.

(٢) وهو ضعيف السند لكنه صحيح المعنى يشهد لمعناه أحاديث كثيرة.

ماجه وابن حبان في صحيحه واللفظ له، وقال ابن ماجه: **«فإنه يحمل لواء غدر يوم القيامة»**.

وعن أبي بكرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«من قتل نفسًا معاهدة بغير حقها لم يرح رائحة الجنة، وإن ريح الجنة ليوجد من مسيرة مائة عام»**.

وفي رواية: **«من قتل معاهدًا في عهده لم يرح[(١)] رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام»**. رواه ابن حبان في صحيحه وهو عند أبي داود والنسائي بغير هذا اللفظ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«ألا من قتل نفسًا معاهدة له ذمة الله وذمة رسوله، فقد أخفر بذمة الله فلا يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفًا»**[(٢)].

وعن يزيد بن شريك قال: رأيت عليًّا رضي الله عنه على المنبر يخطب فسمعته يقول: لا والله ما عندنا من كتاب نقرؤه إلا كتاب الله، وما في هذه الصحيفة فنشرها فإذا فيها أسنان الإبل وأشياء من الجراحات وفيها قال رسول الله ﷺ: **«ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم فمن أخفر مسلمًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه يوم القيامة عدلاً ولا صرفًا»**[(٣)].

يقال أخفر بالرجل: إذا غدر به.

عدلاً ولا صرفًا: أي لا يقبل منه فرضًا ولا نفلاً.

وتظل الأمانة تذهب شيئًا فشيئًا، حتى لا يكون لها أثر يذكر، نعم قد يوجد أناس كما في عصرنا توضع لهم الألقاب لكنه انتفاخ وفراغ وخشوع النفاق، مظاهر كاذبة وما خفي كان أعظم.

يعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب

---

(١) فيها كل أشكال الضبط (يَرِح، يُرَح، يَرَح): يشم أو يجد الريح.

(٢) رواه ابن ماجه والترمذي واللفظ له وقال: حديث حسن صحيح. وخريفًا: أي عامًا.

(٣) رواه مسلم وغيره.

أيها المؤمن:

تعالَ معي لـنرى حال من لم يؤد الأمانة في الدنيا مع قـدرته على أدائها، لكن من تاب هنا أو رد الأمانة أو اسـتحل صاحبـها حتى عفـا عنه أو كان ينوي الأداء وعجز لعجز قدري، فإن الله سيؤدي عنه والله ذو الفضل العظيم.

ما حال الخائن والغادر؟

أما في الدنيا: فالنتيجة الحتمية انتشار القتل بينهم، وتسليط العدو عليهم فيأخذ بعض ما في أيديهم.

فعن بريدة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**ما نقض قوم العـهد إلا كان القتل بينهم ولا ظهرت الفاحـشة في قوم إلا سُلِّط عليهم الموت، ولا منع قـوم الزكاة إلا حُبِس عنهم القطر**»(١). أي: المطر.

وأما في الآخرة: فسيخرج من قـبره عليه من الهم والغم ما لا يعلمه إلا الله، حافيًا، عريانًا، ويساق إلى أرض المحشر، وتحـدث له فضيحة تشهدها الخلائق ألا وهي: ينصب له لواء عند دبره، مكتـوب عليه: هذه غدرة فـلان ابن فلان، وهو يحمل غدرته من المال أو غيرها يسير بها وسط الخلائق من الإنس والجن والملائكة والحيوان فيا لها من حسرات.

قال رسول الله ﷺ: «**إذا جمع الله الأولـين والآخرين يوم القـيامة يرفع لـكل غادر لواء، فقيل: هذه غدرة فلان ابن فلان**»، رواه مسلم وفي رواية لغير مسلم: «**لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به يقال: هذه غدرة فلان**».

وتأمل هذا المشـهد لخـائن الأمانة يقـال له: «أدِّ الأمانة»، وإن مـات شهـيدًا! فيقول: كيف أؤديها وقد ذهبت الدنيا؟! فـيقال: «انطلقوا به إلى الهاوية»، فيسقط فيها ويرى الأمانة أمامه ممثلة له كهيئتها في الدنيا فيحملها فإذا أراد أن يخرج زلت عن كتفه فهو يتردى وراءها أبد الآبدين.

فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها إلا

---

(١) رواه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم.

الأمانة، قال: يؤتى بالعبد يوم القيامة وإن قتل في سبيل الله، فيقال: أدّ أمانتك، فيقول: أي رب وكيف وقد ذهبت الدنيا؟! فيقال: انطلقوا به إلى الهاوية، وتمثل له أمانته كهيئتها يوم دفعت إليه فيراها فيعرفها فيهوي في أثرها حتى يدركها فيحملها على منكبيه حتى إذا ظن أنه خارج زلت عن منكبيه فهو يهوي في أثرها أبد الآبدين، ثم قال: الصلاة أمانة، والوضوء أمانة، والوزن أمانة، والكيل أمانة، وأشياء عددها وأشد ذلك الودائع»، قال زاذان: فأتيت البراء بن عازب فقلت: ألا ترى إلى ابن مسعود قال كذا، قال: صدق أما سمعت الله يقول: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا**﴾ [النساء: ٥٨][١].

إخوتاه كلما مرت الأيام ذهبت الأمانة من القلوب شيئًا فشيئًا حتى ترفع فلا تجد رجلاً أمينًا.

روى مسلم (١٤٣) عن حذيفة قال: «حدثنا رسول الله ﷺ أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، فعلموا من القرآن، وعلموا من السنة، ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال: ينام الرجل النومة، فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل الوكت -أي الأثر اليسير-، ثم ينام الرجل فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر المجل[٢] كجمر دحرجته على رجلك فنفط، فتراه منتبرًا[٣]، وليس فيه شيء، ثم أخذ حصاة فدحرجها، على رجله - فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أمينًا حتى يقال للرجل: ما أظرفه ما أعقله، وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، والأمانة من الإيمان».

وسيأتي على الناس زمان تنقلب فيه الأحوال؛ لبعدهم عن هدي الكبير المتعال فيأتمنون الخائن ويخونون الأمين، يقول سيدنا رسول الله ﷺ: «**سيأتي على الناس سنوات خدَّاعات يُصدَّق فيها الكاذب، ويُكذَّب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن،**

---

(١) رواه أحمد والبيهقي موقوفًا، وذكر عبد الله بن أحمد في «الزهد» أنه سأل أباه عنه فقال: إسناده جيد.

(٢) المَجَل (بفتح الجيم): معناه انتفاخ جلد اليد من العمل وغيره.

(٣) مُنتبرًا: أي مرتفعًا.

ويخوِّن فيها الأمين، وينطق فـيها الرويبضة»، قيل: وما الرويبضة يا رسول الله؟ قال: «**الرجل التافـه يتكلم في أمر العـامة**»، رواه أحمد وابن مـاجه رقم (٤٠٣٦) وهو في «صحيح الجامع» رقم (٣٦٥٠).

واليقين الـذي لا شك فيه أن الأمـانة قد غـابت عن مواقع كثـيرة ومـجالات متـعددة في أحـوال المسلمين، لك أن تنظر نظرة فـاحصـة في أصحـاب المناصب العالية والمراتب المتوسطة في العالم الإسلامي سترى الأصاغر السفهاء الفسقة سادة الناس، وسترى الأكابر البررة مستضعفين.

لذا قال ﷺ لمن جاء يسـأله عن الساعة فقال: متى السـاعة؟ قال: «**إذا ضُيِّعت الأمانة فانتظر الساعة؟**» قال: وما إضاعتها؟ قال: «**إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر السـاعة**»، حتى بعض بـيوت الله وليهـا الجهال، وغـشاها أئمة فـسقـة مدخنون، وجلس الحملان الذين لا علم لهم ولا دين على المنابر.

وصدق رسول الله ﷺ عندما قال: «**لا تبكوا على الدين إذا وليه أهله، ولكن ابكوا على الدين إذا وليه غـير أهله**»، رواه أحمد (٤٢٢)، والحاكـم (٤/ ٥١٥)، وصححه الذهبي وضعفه الألباني.

أيهـا المؤمنون مـا سُمـيـتم مـؤمنين إلا لأن الناس يأتمنونكم على أعـراضـهـم وأموالهم: «**فالمؤمن من أمـنه الناس على أعراضهـم وأموالهم**»، كمـا قال ﷺ ومن ادَّعى الإيمان وهو خائن، فهو كذاب، فلا إيمان لمن لا أمانة له، وإن ادعى الإسلام صُدِّق، وإن ادَّعى الإيمان كُذِّب.

يا مـعـشر من آمن بـلسانه ولـم يدخل الإيمان قلبـه لا يصح لكم إيمان إلا إذا أريتمونا إخلاصًا في أعمالكم وحفاظًا على ودائع غيركم.

فتوبوا إلى بارئكم ولا تُشمتوا بنا الأعداء.

* * *

* مجالات الأمانة:

وللأمانة مجالات كثيرة وأبواب متعددة بحيث أنها تشمل الدين والدنيا:

وأهم هذه المجالات:

١ - أمانة الكلمة:

والكلمة أمانة.

يقول النبي ﷺ: **«إذا حدث الرجل الحديث ثمَّ التفت فهي أمانة»**.

وقالوا: قلوب الأحرار قبور الأسرار.

٢ - والمؤذنون مؤتمنون على صلاة المسلمين وحاجتهم وصيامهم، يقول ﷺ: **«المؤذنون أمناء المسلمين على صلاتهم وحاجتهم»**(١)، وقال: **«المؤذنون أمناء المسلمين على فطرهم وسحورهم»**(٢).

- والأمانة في إمامة الصلاة بأداء أركانها ورعاية سننها يقول الصادق الأمين ﷺ: **«الإمام ضامن فإن أحسن فله ولهم وإن أساء فعليه ولا عليهم»**(٣).

- ومن الأمانة في الصلاة أن لا يخص الإمام نفسه بالدعاء بل يدعو لنفسه وللمأمومين يقول ﷺ: **«لا يحل لامرئ أن ينظر في جوف بيت امرئ مسلم حتى يستأذن، فإن نظر فقد دخل، ولا يؤم قومًا فيخص نفسه بدعوة دونهم، فإن فعل فقد خانهم، ولا يقوم إلى الصلاة وهو حَقِن حتى يتخفف»**(٤).

٣ - وفي غسل الميت لا يتولاه إلا العالم التقي الأمين الذي يكتم الذنوب ويستر العيوب، قال رسول الله ﷺ: **«ليغسل موتاكم المأمونون»**(٥).

والأمانة تتعلق بالميت في غسله وكفنه ودفنه وتنفيذ وصاياه وسداد ديونه وتقسيم ميراثه.

---

(١) أخرجه البيهقي، والحديث حسن كما في «الإرواء» للألباني رقم (١١٨).

(٢) أخرجه الطبراني، والحديث حسن كما في «الإرواء» للألباني رقم (١١٨).

(٣) أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه، وانظر «السلسلة الصحيحة» رقم(١٧٦٧).

(٤) أخرجه أبو داود (١/ ٩٠)، والترمذي (٢/ ٣٥٧) وحسنه، وابن ماجه (١/ ٦١٩).

(٥) أخرجه ابن ماجه.

٤ - أمانة التعامل مع المرأة:

ومن ذلك أمانة المعاملة مع المرأة بالإحسان إليها وإكرامها وصيانتها عمًّا يشق عليها، نلمح هذا في قصة موسى مع ابنتي العبد الصالح: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٤ - ٢٦].

٥ - أمانة الزوجة:

والزوج أمين على زوجته فلا يكلفها ما لا تطيق، ولا يجبرها على معصية الله كما في الحديث: «**إنكم أخذتموهن بأمانة الله**»[1].

٦ - ومن أعظم مظاهر الأمانة: صيانة المرأة لعرض زوجها في حضوره وغيبته، فلا تدخل بيته رجلاً أجنبيًّا ومن باب أولى لا تعرض عرضها لرجل غيره.

٧ - المشورة أمانة:

وإذا طلب من المرء النصح أو دعي لاستشارة في أمر ما فعليه أن يكون صادقًا أمينًا في مشورته ونصيحته. يقول رسول الله ﷺ: «**المستشار مؤتمن**»[2].

٨ - أمانة التجارة:

والأمانة في التجارة واجبة. يقول النبي ﷺ: «**التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين**»[3].

فعلى التاجر ألا يخفي عيب السلعة أو يرفع سعرها؛ اغتنامًا لجهل المشتري بسعرها، أو يطفف في الكيل والميزان.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود والترمذي وصححه.

(٢) أخرجه أهل السنن الأربعة وأحمد والحاكم وابن حبان وصححاه.

(٣) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن.

٩ - والعامل في الدولة أمين فيما استرعي فيه ليس له أن يأخذ درهمًا زيادة على حقه المعلوم، فإن أخذ ما ليس من حقه نصب له لواء غدر تحت دبره يوم القيامة، كما أنه أمين على أداء الأعمال والحقوق على وجهها، يقول ﷺ: **«لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة يرفع له بقدر غدره، ألا ولا غادر أعظم غدرًا من أمير عامة»**(١).

ومن كتم ولو إبرة جاء بها يحملها يوم القيامة، قال النبي ﷺ: **«من استعملناه منكم على عمل فكتمنا مخيطًا فما فوقه، كان غلولاً يأتي به يوم القيامة»**، فقام إليه رجل أسود من الأنصار، كأني أنظر إليه، فقال: يا رسول الله، اقبل مني عملك، قال: **«ومالك؟»** قال: سمعتك تقول كذا وكذا، قال: **«وأنا أقوله الآن: من استعملناه على عمل فليجئ بقليله وكثيره، فما أوتي منه أخذ وما نُهي عنه انتهى»**(٢).

فالقليل والكثير يأتي به الغادر يوم القيامة، يقول تبارك وتعالى: **﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾** [آل عمران: ١٦١].

١٠ - والخازن الذي يتولى الصرافة في هيئة أو شركة أمين على ما معه من مال ليبلغه أربابه كاملاً دون نقص. يقول الصادق الأمين ﷺ: **«الخازن المسلم الأمين الذي يعطى ما أُمِر به كاملاً موفَّرًا طيبة به نفسه فيدفعه إلى الذي أمر له به أحد المتصدقين»**(٣).

١١ - ومن الأمانة ألا نختار للأعمال العامة والولايات وغيرها إلا الأكفاء علمًا وعملاً وصلاحًا؛ لأن بحسن اختيار هؤلاء يستقيم شأن الأمة، وتصل الحقوق إلى أصحابها، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله ألا تستعملني: قال: فضرب بيده على منكبي ثمَّ قال: **«يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة وإنها يوم القيامة حسرة وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها»**(٤).

---

(١) أخرجه مسلم رقم (١٧٣٨).

(٢) أخرجه مسلم رقم (١٨٣٣).

(٣) أخرجه أحمد، والشيخان، والنسائي عن أبي موسى.

(٤) أخرجه مسلم رقم (١٨٢٥).

ولما رأى يوسف - عليه السلام - أنه أحق الناس بالولاية رشح نفـسه لها فقال لعزيز مصر: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

فانظر كيف قدم أمانته وعلمه على تقواه وصلاحه.

ولا ريب أن ترشيح غير الكفء للولايات والوزارات والأعمـال العامة وغيرها تهاونًا أو لنيل منافع كرشوة أو قرابة... من الخيانة العظمى.

يقول رسول الله ﷺ: **«من استعمل رجلاً على عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين»**[1].

وعن يزيد بن أبي سـفيـان، قـال: قال لي أبو بكر الصـديق حين بعـثني إلى الشام، يا يـزيد إنَّ لك قرابة عسـيت أن تؤثرهم بالإمارة، وذلك أكـثر مـا أخاف عليك بعدمـا قال رسول الله ﷺ: **«من ولي من أمر المسلمين شـيئًا فأمَّر عـليهم أحدًا محاباة فعليه لعنة الله، لا يقبل منه صرفًا ولا عدلاً حتى يدخله جهنم»**[2].

١٢ - ومن صـور الأمانة: الأمـانة في الشـركة، فـلا يكذب الشـريكان على بعضهما، ولا يخون أحدهما صاحبه، ولا يأخذ ما ليس من حقه.

يقـول الحق جل جلاله فـي الحديث القـدسي: **«أنا ثالث الشـركـاء مـا لم يخن أحدهما صاحبه»**.

* * *

(١) أخرجه الحاكم وصححه.

(٢) أخرجه الحاكم وصححه.

(١٣) الوفاء

خلق عظيم وأدب فذ، به صلاح العبادات والمعاملات، وغياب البغضاء والشحناء.

يقوم على أداء الحقوق إلى أهلها في العقود والعهود قولاً وعملاً مع الله تعالى وخلقه، ويرتقي فوق هذا ليبلغ مرتبة السمو بدوام الإحسان واستمرار المعروف وتواصل الخير وبقاء الأدب والتعظيم والاحترام في الحياة والممات والسراء والضراء.

أمر الله تعالى بأداء هذا الخُلُق مع الخالق والخلق فقال: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: ٣٤].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

ووهب حبه ورضاه لمن يوفي بعهده.

فقال تعالى في معرض إنكاره على اليهود غدرهم بالعهود: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٥، ٧٦].

ثمَّ يشير ثانية إلى أن من هؤلاء صفتهم أهل صدق وتقوى فيقول: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

والحافظون للعهود والراعون للمواثيق هم المؤمنون حقًّا كما قال الله في صفات المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨].

وأعطى الله جل وعلا الموفين بالعهود ولا ينقضون المواثيق أجرًا عظيمًا،

وأثابهم على وفائهم بعهودهم جنات عدن.

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ١٩ - ٢٤].

ورزق من أوفى بالعهود أجرًا جليل القدر كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

ورهَّب النبي ﷺ من الغدر حتى كان يكثر ما يختم خطبه بقوله: «**لا دين لمن لا عهد له**»(١).

بل وجعل نكث العهود والغدر في العقود من خصال المنافقين حيث يقول: «**أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**»(٢).

وفاء الله:

والحق سبحانه نعت نفسه بهذا الخلق في أكثر من موضع في كتابه، فإنه سبحانه لا يخلف وعده ومن ذلك تفضله على الطائعين بالثواب والجنة، وانتقامه من الكافرين والعاصين بالعقاب والنار.

قال أصدق القائلين: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ

---

(١) أخرجه الشيخان: البخاري رقم (٣٤)، ومسلم رقم (٥٨).

(٢) حسن.

ونُودُوا أَن تلكُمُ الجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) ونَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ [الأعراف: ٤٢ - ٤٤].

وقال جل ذكره: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٣، ٧٤].

وكما قال جل ذكره: ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠].

وفي حادث الإسراء بالنبي ﷺ ذكر الله أن هدف الإسراء: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ [الإسراء: ١]، وقد كان الواقع كما أخبر به الحق جل ذكره: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم: ١٨].

ووعد الله جل وعلا رسوله ﷺ: «لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده».

وقد وعد الله المجاهدين في سبيله فصدقهم، وعاهدهم فوفاهم أجورهم وأكرمهم وجاد عليهم.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١١، ١١٢].

وصدق الله وعده يقول ﷺ: «انتدب الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا إيمان بي وتصديق برسلي أن أرجعه بما نال من أجر وغنيمة أو أدخله الجنة، ولولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية، ولوددت أني أقتل في سبيل الله، ثمَّ أحيا، ثمَّ أقتل، ثمَّ أحيا، ثمَّ أقتل»(١).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، وكتاب الجهاد، وكتاب التوحيد.

أنواع الوفاء:

والوفاء أنواع لا يكون العبد وفيًّا حقًّا إلا إذا تحقق بها كاملة.

(أ) فمن أعظم ألوان الوفاء: الوفاء مع الله تعالى في العـهود التي قطعها العبد بينه وبين ربه سيما ما أكده بالأيمان أو النذور.

قال تبارك وتعالى: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وقد أمر الله عباده أن يوفوا بالنذر في ميقاته على هيئته دون زيادة أو نقصان أو تغيير.

قال جل ثناؤه: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩].

ومدح الله جل وعلا الأبـرار؛ لأنهم يتخلقون بهذا الخلق وجـزاهم عليه بالجنة فقال: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١) وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢) مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾ [الإنسان: ٥ - ١٤].

ونقض الميثاق مع الله جـل شأنه من أكبر الكبائر وأعظم الآثـام يستلزم غضب الله وانتقامه وشدة عقابه.

ثبت أن رجلاً من المنافـقين قد عاهد الله جل وعـلا أنه إذا آتاه الله المال ليعطين الفقـراء وليكونن من الصالحين فلمـا أعطاه الله من فضله نكث العـهد مـعه ومنع الفقير حقه فزاده الله نفاقًا على نفاقه.

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٥ - ٧٨].

ونكث العهد مع الله برهان وحجة على استخفاف العبد بقدر ربه جل ثناؤه.

فإنه لو أعطى صبيًّا عهدًا بأمر ما ثمَّ أخلف عهده لسقط من عين الصبي واستحق اللوم والعتاب، فكيف بالعهد مع شديد العقاب؟!

لذا فإن الإنسان يوم القيامة لا يقدر على دفع حجة الله عليه في هذا الجرم المبين.

ففي الحديث القدسي الصحيح أن الله جل وعلا يقول: **«ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطي بي ثم غدر، ورجل باع حرًّا فأكل ثمنه**(١)**، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطه أجره»**(٢).

وفي رواية أن الحق جل وعلا قال: **«ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ومن كنت خصمه خصمته**(٣)**، رجل أعطى بي عهدًا ثمَّ غدر، ورجل حلف على يمين صبرة**(٤) **بعد العصر ليقتطع به مال رجل مسلم، ورجل منع فضل مائه فيقول الله جل وعلا له يوم القيامة: اليوم أمنعك فضل مائي كما منعت فضل ما لم تعمل يداك»**(٥).

لذلك غضب على اليهود ومقتهم؛ لأنهم نكثوا العهد معه في توحيده وعبادته وحسن الخُلُق مع خلقه.

قال تعالى: **﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾** [البقرة: ٨٣].

ونكثوا العهد في السير على الصراط المستقيم واتباع المنهج القويم قال جل وعلا: **﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾** [البقرة: ٦٣، ٦٤].

---

(١) أي: باع الحر على أنه عبد كرهًا وظلمًا.

(٢) أخرجه البخاري رقم (٢٢٢٧).

(٣) أي: دحضت حجته.

(٤) أي: كذبًا.

(٥) أخرجه البخاري.

ونكثوا العهد الإلهي الآمر بدخول الباب سجدًا وعدم الاعتداء في السبت قال الحق سبحانه: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (١٥٤) فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [النساء: ١٥٤، ١٥٥].

ونكثوا عهدهم مع الله بعدم قتل إخوانهم وعدم إخراجهم من ديارهم قال جل ذكره: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٤، ٨٥].

وإنما يقترن الوفاء بالعهد مع الخوف من الله؛ تعظيمًا لقدر العهود مع الله جل جلاله.

كما قال عن الأبرار: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧].

ومن الوفاء مع الله شكر النعمة والاعتراف بفضله والإنفاق مما وهبه والتصدق مما أعطى والرد على الجميل بالجميل.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**إن ثلاثة من بني إسرائيل: أبرص، وأقرع، وأعمى أراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكًا، فأتى الأبرص، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن وجلد حسن، ويذهب الذي قد قذرني الناس، فمسحه فذهب عنه قذره وأُعطي لونًا حسنًا، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الإبل، فأعطي ناقة عشراء، فقال: بارك الله لك فيها.**

فأتى الأقرع فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن ويذهب عني هذا الذي قذرني الناس، فمسحه عنه، وأعطي شعرًا حسنًا، قال: فأي المال أحب إليك؟ فقال: البقر، فأعطي بقرة حاملاً، وقال: بارك الله لك فيها.

فأتى الأعمى فقال: أي شيء أحب إليك، قال: أن يرد الله إليّ بصري، فأبصر الناس، فمسحه فردَّ إليه بصره، قال: فأيُّ المال أحب إليك؟ قال: الغنم فأعطي شاة والدًا، فأنتج هذان وولد هذا، فكان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم.

ثمَّ إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته فقال: رجل مسكين قـد انقطعت بي الحبال في سـفري، فـلا بلاغ لي اليـوم إلا بالله ثمَّ بك، أسـألك بالذي أعطاك اللون والجلد الحسن والمال بعيرًا أتبلغ به في سفري، فقال: الحقوق كثيرة، فقال: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك النـاس، فقيـرًا فأعطاك الله؟ فـقال: إنما ورثت هذا المال كـابرًا عن كابر، فـقال: إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت .

وأتى الأقرع في صـورته وهيئتـه، فقال له مثل مـا قال لهذا وردَّ عليـه ما ردَّ على هذا، فقال: إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأعمى في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين وابن سبـيل انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثمَّ بك، أسألك بالذي ردَّ عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري، فقـال: قد كنت أعمى فردَّ الله إليَّ بصري، فخذ ما شـئت ودع ما شئت، فوالله ما أجهدك اليوم بشيء أخذته لله عز وجل، فقـال: أمسك مالك فإنما ابتليتم، فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك»[١].

ومن عِظَم الوفاء بالعهود والمواثيق مع الله تعالى أنه يبقى في ذمة العبد ولو بعد موته، يؤديه بإشارة منه قبل وفاته، أو يقوم به غيره بعد موته، ومن لم يوف بعهد الله ولو بعد مـوته فقد ارتكب حوبًا كـبيرًا، ومن فـعل ذلك من الورثة أو أرحام الهالك؛ ليحوز المال لنفسه ضنًّا به على الوفاء بحق الله فقد خسـر خسرانًا مبينًا، فإنَّ الحق سبـحانه قد جعل الوفـاء بعقد العبـد معه دينًا يجب سداده قبـل تقسيم الميراث، وأومأ إلى ذلك في كتابه أربع مرات إذ يقول: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء: ١١].

(ب) الوفاء مع الرسول ﷺ:

وذلك باتباع سنتـه، والسير علـى منهاجه وتوقـيره، وتقديم حـبه على النفس والمال والولد والوالد والناس أجـمعين، والتضـحيـة من أجله، والاشـتيـاق إلى رؤيته، وكثرة الصلاة عليه، والتأدب بآدابه، والتخلق بأخلاقه، والإيمان بما جاء به

(١) أخرجـه البخاري: كـتاب الأنبيـاء- باب (حديث أبرص وأقرع...)، وكـتاب الأيمان- باب (لا يقول: ما شاء الله وشئت)، وأخرجه مسلم: كتاب الزهد.

كافة، وحفظ ما تيسر من كلامه، والتشبه بمخبره ومظهره، وأداء حقوقه، والتبرك بآثاره، والدعوة إلى شرعه، والتسليم بأمره وقضائه، وقبول ما جاء به، والانقياد لأوامره ونواهيه، وإكرام آل بيته، ومحبة أصحابه، ونشر سنته، وتعلم سيرته، وتروية الأطفال مغازيه وأخباره، وسؤال الوسيلة له، والدرجة الرفيعة، والدعاء لنيل شفاعته، والشرب من حوضه، والحشر في زمرته، وتحت لوائه، ومرافقته في أعلى جنات الخلد.

- ومن صور هذا النوع من أنواع الوفاء: الوفاء ببيعة النبي ﷺ وقد بايع النبي ﷺ أصحابه في أكثر من موقف.

قال جابر: قلنا: يا رسول الله، علام نبايعك؟ قال: «**على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن تقوموا في الله لا تأخذكم في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمت إليكم، وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة**»[(١)].

وقد وفَّى الأنصار رضي الله عنهم ببنود البيعة وأدوها كما ينبغي، ورعوها حق رعايتها؛ لذا قال جل وعلا: ﴿**وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ [التوبة: ١٠٠].

- ومن الوفاء للنبي ﷺ تنفيذ وصاياه التي أوصى بها قبل وفاته، وأدركته المنية قبل أن يوفِّي بها، وذلك كما صنع أبو بكر رضي الله عنه في مال البحرين.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «قال لي النبي ﷺ: «**لو قد جاء مال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا**»، فلم يجئ مال البحرين حتى قُبض النبي ﷺ، فلما جاء مال البحرين أمر أبو بكر رضي الله عنه فنادى: من كان له عند رسول الله ﷺ عِدَة أو دين فليأتنا فأتيته، وقلت له: إنَّ النبي ﷺ قال لي كذا فحثى لي حثية، فعددتها فإذا هي خمسمائة، فقال لي خذ مثليها»[(٢)].

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٢٢)، والبيهقي في سننه (٩/ ٩)، وصححه الحاكم وابن حبان.

(٢) أخرجه البخاري رقم (٢٢٩٦)، ومسلم رقم (٢٣١٤).

النوع الثاني: الوفاء مع الخلق:

أما الوفاء مع الناس في العهود والمواثيق والمواعيد.

١ - وأكبر جوانب هذا الوفاء ما كـان فيه توكيد بالحلف بالله أو بالبراء من دينه - وإن كان هذا لا يصح - قال جل وعلا: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ [النحل: ٩١، ٩٢].

٢ - ومن الوفـاء: الوفـاء في الكيل والميـزان وعـدم بخس الناس أشيـاءهم وحقوقهم وإيقاعهم في الخسران.

فمن الوصـايا العشر التي وردت فـي الكتب الإلهية قـول الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ [الأنعام: ١٥٢]؛ وقال سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الإسراء: ٣٥].

٣ ـ ومن ألوانه أيضًا: الوفـاء في المعاملة بأداء الشـروط دون غدر أو نقض أو غش، قـال رسول الله ﷺ: «المسلمـون عند شـروطهم»[(١)]. ومنه: الوفـاء بإعطاء الأجير أجره.

كما سبق في الحديث القدسي: «**ثلاثة أنا خصمهم... وذكر منهم: ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطه أجره**».

٤ - ومن الوفاء أن لا يـنسى المسلم من أحسن إليـه، وألا ينقطع خيـره عمن ينتظر جوده وفـضله، بل يدوم إحسانه ويـستمر كـرمه لمن أوصل الخيـر إليه حيًّا وميتًا، حاضرًا وغائبًا.

وأولى الناس بذلك الوالدان ولو كانوا أمواتًا.

فعـن أبي أسيـد قال: كنت مع النبي ﷺ جـالسًا فـجاءه رجل من الأنـصار، فقال: يا رسول الله. . هل بقي من بر والديّ من بعد موتهما شيء؟

---

(١) صحيح: أخرجه أهل السنن.

قال: **«نعم، ... الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما: فهذا الذي بقي عليك»**(١).

ويقول ﷺ: **«إنَّ من أبر البر صلة الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولي»**(٢).

وإنفاذ عهدهما يكون بالوفاء بتنفيذ وصاياهما فيما أجازه الشرع.

ومن الوفاء للوالدين الدعاء لهما والتصدق عليهما بعد موتهما، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رجلاً قال للنبي ﷺ: إن أبي مات وترك مالاً ولم يوص، فهل يُكفِّر عنه أن أتصدق عنه؟ قال: **«نعم»**(٣).

الوفاء للزوجة:

- ومن الوفاء للزوجة الميتة ذكر محاسنها، وإكرام أهلها وأرحامها، وبر صديقاتها وصويحباتها.

ومن باب أولى: الاستغفار لها، وإنفاذ عهدها، والتصدق من أجل دوام أجرها.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما غِرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة رضي الله عنها وما رأيتها قط، ولكن كان يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة، ثم يقطِّعها أعضاءً، ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة، فيقول: **«إنها كانت وكانت وكان لي منها الولد»**. وفي رواية: «وإن كان ليذبح الشاة، فيُهدي في خلائلها منها ما يسعهن».

وفي رواية: «كان إذا ذبح الشاة، يقول: **«أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة»**.

وفي رواية قالت: استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ فعرف استئذان خديجة، فارتاح لذلك فقال: **«اللهم هالة بنت خويلد»**(٤).

- ووفاء الزوجة لزوجها المتوفي أولى سيما إن كان لها أولاد منه.

---

(١) حسن: أخرجه أهل السنن: أبو داود رقم (٥١٤٢)، وابن ماجه رقم (٣٦٦٤).

(٢) أخرجه مسلم رقم (٢٥٥٢).

(٣) أخرجه أحمد ومسلم.

(٤) أخرجه البخاري رقم (٣٨١٦)، وأخرجه مسلم رقم (٢٤٣٥).

وذلك يكون بالثناء عليه ورعاية أولاده وإنفاذ وصاياه وسداد ديونه والاستغفار له والتصدق. . .

- وأحق بهذا الوفاء الزوج الحي، وتضيف إليه الشكر والخدمة والطاعة.

يقول ﷺ: **«لا ينظر الله إلى امرأة لا تشكر لزوجها وهي لا تستغني عنه»**[(١)].

والعاقل يدرك أن الأيام دول والأحوال تتغير والظروف تنقلب.

لكل شيء إذا ما تمَّ نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تُبقِي على أحد ولا يدوم على حال لها شان

* * *

دع الأيام تجري في أعنتها ولا تبيتن إلا خالي البال
ما بين غمضة عين وانتباهتها يُغيِّر الله من حال إلى حال

فقد يصبح الغني فقيرًا، والفقير غنيًّا، والحر عبدًا، والعبد حرًّا، والقوي ضعيفًا، والضعيف قويًّا.

وقد روي أن رجلاً كان له صديق فقير.. فكان يعطيه من فضل الله الذي عنده.. وبمرور الزمن انقلب الحال فأصبح الغني فقيرًا، والفقير غنيًّا... غير أن الفقير لم يكن وفيًّا للذي كان يحسن إليه، فكان إذا رأى صديقه حوَّل وجهه حتى لا يراه فيضطر إلى إعطائه.. وعندما ظهر هذا للصديق الأول قال له:

تراني مقبلاً فتصد عني وتزعم أنني أبغي رضاكَ
سيغنيني الذي أغناك عني فلا فقري يدوم ولا غناك[(٢)]

ومنه: أن تحسن إلى أستاذك الذي كان يدرس لك في مرحلة من مراحل التعليم اقتحمتها، وذلك بالسؤال عنه ومقابلته بوجه طليق واحترام عال.

---

(١) صحيح: أخرجه النسائي في عشرة النساء رقم (٢٤٩- ٢٥١)، والبزار رقم (١٤٦٠)، والحاكم (٢/ ١٩٠).
(٢) «من وصايا الرسول ﷺ» لطه العفيفي (١/ ١٠٨) بتصرف.

الوفاء بأداء الديون:

ومن الوفاء للمسلم: إعطاؤه ماله المقترض عند القدرة، كاملاً موفورًا غير منقوص طيبة به النفس، فإن لم يجد فعليه أن يعتذر له عن تقصيره، ويعرض عليه إنظاره إلى أن يقضي، فإن لم يفعل فقد خان الأمانة وغدر بعهده، وعُدَّ في موضع السارق، يقول النبي ﷺ: «**أيما رجل تدين دينًا وهو مجمع أن لا يوفيه إياه لقي الله سارقًا**»(١).

وعن محمد بن عبد الله بن جحش رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ قاعدًا حيث توضع الجنائز فرفع رأسه قبل السماء ثمَّ خفض بصره فوضع يده على جبهته، فقال: «**سبحان الله، سبحان الله، ما أنزل من التشديد**» قال: فعرفنا وسكتنا حتى إذا كان الغد سألنا رسول الله ﷺ فقلنا: ما التشديد الذي نزل؟ قال: «**في الدين، والذي نفسي بيده لو قتل رجل في سبيل الله، ثمَّ عاش ثمَّ قتل، ثمَّ عاش ثمَّ قتل وعليه دين ما دخل الجنة حتى يقضى عنه**»(٢).

وهذا الوفاء واجب ولو مع الزوجة أو ذوي الأرحام، فلا يحق لأحد أن يجحد زوجته أو أقاربه.

ويعلمنا الزبير رضي الله عنه درسًا في الوفاء بقضاء الديون فيعهد إلى ولده بقضاء دينه والوفاء بما عليه لأصحابه.

عن هشام بن عروة عن أبيه عن ابن الزبير قال: «لما وقف الزبير يوم الجمل، دعاني، فقمت إلى جنبه، فقال: يا بني! إنه لا يقتل اليوم إلا ظالم أو مظلوم، وإني لا أراني إلا سأُقتل اليوم مظلومًا، وإنَّ من أكبر همي لديني، أفترَى ديننا يبقي من مالنا شيئًا؟ يا بُني، بعْ ما لنا، فاقض ديني، فأوصى بالثلث وثلث الثلث إلى عبد الله، فإن فضَل من مالنا بعد قضاء الدين شيء فثلث لولدك.

قال هشام: وكان بعض ولد عبد الله قد وازى بعض بني الزبير خُبيب وعبَّاد، وله يومئذٍ تسع بنات، قال عبد الله: فجعل يوصيني بدينه، ويقول: يا بني! إن

---

(١) قال في «الترغيب»: رواه ابن ماجه والبيهقي، وانظر صحيح ابن ماجه رقم (١٩٥٤).

(٢) أخرجه النسائي والطبراني في «الأوسط».

عجزت عن شيء منه، فاستعن بمولاي، قال: فوالله، ما دريت ما عنى حتى قلت: يا أبه! من مولاك؟ قال الله عز وجل، قال: فوالله ما وقعت في كُربة من دينه إلا قلت: يا مولى الزبير اقضِ عنه، فيقضيه.

قال: وقُتل الزبير، ولم يدَع ديناراً ولا درهمًا، إلا أرضين بالغابة، وداراً بالمدينة، وداراً بالبصرة، وداراً بالكوفة، وداراً بمصر قال:

وإنما كان الذي عليه أن الرجل يجيء بالمال، فيستودعه، فيقول الزبير: لا، ولكن هو سلف، إني أخشى عليه الضيعة، وما وَليَ إمارة قط ولا جباية ولا خراجًا، ولا شيئًا، إلا أن يكون في غزو مع النبي ﷺ أو مع أبي بكر وعمر وعثمان فحسبتُ دينه، فوجدته ألفي ألف ومائتي ألف، فلقي حكيم بن حزام الأسدي عبد الله فقال: يا ابن أخي! كم على أخي من الدين؟ فكتمه، وقال: مائة ألف، فقال حكيم: ما أرى أموالكم تتسع لهذه! فقال عبد الله: أفرأيت إن كانت ألفي ألف ومائتي ألف! قال: ما أراكم تطيقون هذا، فإن عجزتم عن شيء فاستعينوا بي، وكان الزبير قد اشترى الغابة بسبعين ومائة ألف، فباعها عبد الله بألف ألف وستمائة ألف. وقال:

مَن كان له على الزبير دين، فليأتنا بالغابة، فأتاه عبد الله بن جعفر، وكان له على الزبير أربعمائة ألف، فقال لابن الزبير: إن شئت تركتها لكم، قال: لا، قال: فاقطعوا لي قطعة، قال: لك من هاهنا إلى هاهنا، قال: فباعه بقضاء دينه، قال: وبقي منها أربعة أسهم ونصف، فقال المنذر بن الزبير: قد أخذت سهمًا بمائة ألف، وقال عمرو بن عثمان: قد أخذت سهمًا بمائة ألف، فقال معاوية: كم بقي؟ قال: سهم ونصف، قال: أخذته بمائة وخمسين ألفًا، قال: وباع ابن جعفر نصيبه من معاوية بستمائة ألف، فلما فرغ ابن الزبير من قضاء دينه، قال بنو الزبير: اقسم بيننا ميراثنا، قال: لا والله! حتى أنادي بالموسم أربع سنين، ألا مَن كان له على الزبير دين فليأتنا فلنقضه، فجعل كل سنة ينادي بالموسم، فلما مضت أربع سنين، قسم بينهم فكان للزبير أربع نسوة. قال: فرُفع الثلث فأصاب كل امرأة ألف ألف ومائة ألف، فجميع ماله خمسون ألف ألف، ومائتا ألف»[1].

---

(١) أخرجه البخاري بطوله رقم (٣١٢٩) كتاب فرض الخُمس- باب (بركة الغازي).

- ومن الوفاء أن يعجل الغني أو القادر بسداد الدين ولا يماطل أو يجهد الدائن بالبحث عن حقه.

يقول النبي ﷺ: «**مطل الغني ظلم، وإذا اتبع**(١) **أحدكم على مليء فليتبع**»(٢).

بل إن مماطلة الغني وتأخيره دفع الحق الذي عليه يحل ذكره بسوء المعاملة؛ ليجتنب الناس تسليفه كما يقول النبي ﷺ: «**ليُّ**(٣) **الواجد يُحِلُّ عرضه وماله**»(٤).

فعلى العبد المؤمن إذا استسلف سلفًا أن يقضي خيرًا منه كما كان رسول الله ﷺ إذا استسلف من رجل سلفًا قضاه، ودعا له، فقال: «**بارك الله لك في أهلك ومالك، إنما جزاء السلف الحمد والأداء**»(٥).

الوفاء العجيب:

وهذه صورة فذة بلغ فيها الوفاء قمته.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إنه ذكر أن رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار، قال: ائتني بشهداء أشهدهم، قال: كفى بالله شهيدًا، قال: ائتني بكفيل، قال: كفى بالله كفيلاً. قال: صدقت، فدفعها إليه إلى أجل مسمى، فخرج في البحر، فقضى حاجته، ثم التمس مركبًا يقدم عليه للأجل الذي كان أجله، فلم يجد مركبًا فأخذ خشبة، فنَقَرها**(٦) **وأدخل فيها ألف دينار، وصحيفة معها إلى صاحبها، ثمَّ زجَّج**(٧) **موضعها ثمَّ أتى بها البحر، ثمَّ قال: اللهم إنك قد علمت أني استلفت من فلان ألف دينار فسألني كفيلاً، قلت: كفى بالله كفيلاً، فرضي بك وسألني شهيدًا، فقلت: كفى بالله شهيدًا، فرضي بك، وإني قد جهدت أن أجد مركبًا أبعث إليه**

(١) اتُّبع: أي إذا أحيل أحدكم على غني فليقبل.

(٢) أخرجه البخاري رقم (٢٢٨٧)، ومسلم رقم (١٥٦٤).

(٣) لَيُّ: أي مطل.

(٤) أخرجه البخاري تعليقًا (٥/ ٦١)، وصححه الحاكم وابن حبان.

(٥) أخرجه النسائي (٧/ ٣١٤)، وابن ماجه رقم (٢٤٢٤)، وأحمد (٤/ ٣٦) وإسناده قوي.

(٦) نقرها: ثقبها.

(٧) زجّج موضعها: سوى موضع النقر وأصلحه.

بالذي له، فلم أجد مركبًا، وإني استودعتكها، فرمى بها في البحر، حتى ولجت فيه، ثمَّ انصرف ينظر وهو في ذلك يطلب مركبًا يخرج إلى بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركبًا يجيء بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطبًا فلما كسرها، وجد المال والصحيفة، ثمَّ قدم الرجل الذي كان تسلف منه فأتاه بألف دينار، وقال: والله ما زلت جاهدًا في طلب مركب لآتيك، فما وجدت مركبًا قبل الذي أتيت فيه، قال: فإن الله قد أدى عنك الذي بعثت به في الخشبة فانصرف بألفك راشدًا»(١).

الوفاء بصدق الوعد:

المؤمن يوفي بوعده ولا يخلف ما وعد به.

وقد مدح الله جل ذكره إسماعيل عليه السلام بأنه صادق الوعد، وذلك لأنه وفى بأعظم ما يوفَّى به، وجاد بأفضل ما يُجاد به، فعندما قال له أبوه: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]؛ لذا قال فيه ربه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤].

وروى ابن جرير أن إسماعيل عليه السلام وعد رجلاً مكانًا أن يأتيه فيه، فجاء ونسي الرجل، فظل به إسماعيل وبات حتى جاء الرجل من الغد، فقال: ما برحت من هاهنا؟ قال: لا، قال: إني نسيت، قال: لم أكن لأبرح حتى تأتيني فلذلك (كان صادق الوعد).

وقال ابن شوذب: بلغني أنه اتخذ ذلك الموضع مسكنًا(٢).

- ومن الوفاء للمسلمين - خاصة العلماء والأتقياء منهم - الدعاء لهم وسلامة القلب نحوهم وذكر محاسنهم، والسكوت عن زلاتهم، والإحسان إلى الأحياء منهم بالسؤال عنهم.

يقول الحق جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الكفالة رقم (٢٢٩١)، وكتاب الاستئذان، وأحمد (٢/ ٣٤٨، ٣٤٩).

(٢) تفسير ابن جرير عند هذه الآية، وتفسير ابن كثير (٣/ ١٢٥).

﴿سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

حفظ الأسرار:

ومن الوفاء بالعهد: حفظ الأسرار.

وأحق الأسرار بالحفظ والستر أسرار الفراش.

يقول النبي ﷺ: **«إنَّ من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة، الرجل يفضي إلى المرأة وتُفضِي إليه ثمَّ ينشر سرَّها»**[١].

ثمَّ إن حفظ الأسرار بعد ذلك واجبة في أي قول أو فعل حتى يأذن صاحب السر بنشره.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن عمر رضي الله عنه حين تأيمت[٢] بنته حفصة، قال: «لقيت عثمان بن عفان رضي الله عنه فعرضت عليه حفصة، فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر؟ قال: سأنظر في أمري فلبثت ليالي، ثم لقيني، فقال: قد بدا لي أن لا أتزوج يومي هذا، فلقيت أبا بكر الصديق رضي الله عنه فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر، فصمت أبو بكر رضي الله عنه فلم يرجع إليَّ شيئًا، فكنت عليه أوجد[٣] مني على عثمان، فلبثت ليالي، ثم خطبها النبي ﷺ فأنكحتها إياه، فلقيني أبو بكر، فقال: لعلك وجدت عليَّ حين عرضت عليَّ حفصة فلم أرجع إليك شيئًا؟ فقلت: نعم، قال: فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت عليَّ إلا أني كنت علمت أن النبي ﷺ ذكرها، فلم أكن لأفشي سر رسول الله ﷺ، ولو تركها النبي ﷺ لقبلتها»[٤].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كن أزواج النبي ﷺ عنده، فأقبلت فاطمة رضي الله عنها تمشي ما تخطئ مشيتها من مشية رسول الله ﷺ شيئًا، فلما رآها رحب بها، وقال: «مرحبًا بابنتي»، ثمَّ أجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثمَّ سارَّها

---

(١) أخرجه مسلم رقم (١٤٣٧).

(٢) تأيمت: أي صارت بلا زوج.

(٣) أي: أشد غضباً.

(٤) أخرجه البخاري رقم (٤٠٠٥).

فبكت بكاء شديدًا، فلما رأى جزعها سارَّها الثانية فضحكت، فقلت لها: خصَّك رسول الله ﷺ من بين نسائه بالسِّرار، ثمَّ أنتِ تبكين؟ فلما قام رسول الله ﷺ سألتها، ما قال لك رسول الله ﷺ؟ قالت: ما كنت لأفشي على رسول الله ﷺ سِره، فلما توفي رسول الله ﷺ قلت: عزمت عليك بما لي عليك من الحق، لما حدثتني ما قال لك رسول الله ﷺ؟ فقالت: أما الآن فنعم، أما حين سارَّني في المرة الأولى فأخبرني: **«إن جبريل كان يعارضه القرآن في كل سنة مرة أو مرتين، وأنه عارضه الآن مرتين، وإني لا أرى الأجل إلا قد اقترب، فاتقي الله واصبري، فإنه نعم السلف أنا لك»**، فبكيت بكائي الذي رأيت، فلما رأى جزعي سارني الثانية، فقال: **«يا فاطمة أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين أو سيدة نساء هذه الأمة»**، فضحكت ضحكي الذي رأيت[1].

(د) الوفاء مع غير المسلم:

ومن الوفاء: الوفاء مع غير المسلم.

ففي يوم الهجرة أمر النبي ﷺ عليًّا رضي الله عنه أن يبيت في فراشه ليموِّه على الكافرين، ويرد الأمانات والودائع التي كانت عند رسول الله ﷺ إلى أربابها المشركين، بينما كان المشركون في أثناء ذلك يضطهدون المسلمين ويسومونهم سوء العذاب.

يقول الصادق الأمين ﷺ: **«أيما رجل أمَّن رجلاً على دمه، ثمَّ قتله، فأنا من القاتل بريء ولو كان المقتول كافرًا»**[2].

وانظر إلى هذا العبد الأسود الحبشي من أهل خيبر الذي كان في غنمه لسيده، فلما رأى أهل خيبر قد أخذوا السلاح، سألهم ماذا تريدون؟ قالوا: نقاتل هذا الذي يزعم أنه نبي فوقع في نفسه ذكر النبي ﷺ، فأقبل بغنمه إلى رسول الله ﷺ فقال: ماذا تقول؟ قال: **«أدعو إلى الإسلام، وأن تشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، وأن لا تعبد إلا الله»**.

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٣٦٢٤)، ومسلم رقم (٢٤٥٠).

(٢) النسائي، وابن حبان.

قال العبـد: فما لي إن شهدت وآمـنت بالله عز وجل؟ قال: «**لك الجنة إن مت على ذلك**». فأسلم، ثمَّ قال: يا نبي الله! هذه الغنم عندي أمـانة، فقال له رسول الله ﷺ: «**أخرجها من عندك وارمها بالحصباء[1]، فإن الله سيؤدي عنك أمانتك**»، ففعل فرجعت الغنم إلى سيدها، فعلم اليهودي أن غلامه أسلم ...»[2].

وهكذا أدى الأمانة لليهودي أثناء قتال اليهود.

كمال الوفاء:

وتمام الوفاء وكمال الإحسان.

بأداء ألوان الوفاء كلـها مع الله ومع الناس ومع النفس، وقد كـملت لإبراهيم عليه السـلام هذه الخصال، وزاد عليـها في تضحـيته بولده الوحـيد أداءً لحق ربه تبارك وتعالى قال تعالى: ﴿**وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ**﴾ [النجم: ٣٧].

كما أنه وفَّى بثلاثين خصلة لهي أكمل الخصال وأشرفها وأعظمها.

عشر في سورة التوبة: ﴿**التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [التوبة: ١١٢].

وعشر في سورة المؤمنون: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ**﴾ [المؤمنون: ١ - ١٠].

وعشر فـي سورة الأحزاب: ﴿**إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [الأحزاب: ٣٥].

---

(١) الحصباء: صغار الحصى.

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ١٣٦)، وصححه وخالفه الذهبي.

(١٤) السماحة

وكن رجـــلاً على الأهوال جَلدًا وشيـمتك السـماحة والوفاءُ

السماحة معناها: طيب في النفس عن كرم وسخاء، وانشراح في الصدر عن نقاء وتقى، وذلة للمؤمنين دون هوان، والتجاوز عن النذر اليسير من المال، ومساهلة في التعامل دون غبن وغرر، وتيسير في طريقة الدعوة إلى الله دون مجاملة.

والسماحة عنوان الإيمان، وشيمة المؤمن، وصفة المحسن.

قال رسول الله ﷺ: «**الإيمان: الصبر والسماحة**»(١).

والسماحة باب من أبواب الرحمة يرحم الله بها عباده، يقول النبي ﷺ: «**رحم الله عبدًا سمحًا إذا باع، سمحًا إذا اشترى، سمحًا إذا قضى، سمحًا إذا اقتضى**»(٢).

والسماحة تنجي العبد من كربات يوم القيامة، وتظله تحت عرش الله يوم لا ظل إلا ظله، يقول النبي ﷺ: «**من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفِّس عن معسر أو يضع عنه**»(٣).

وقال: «**من أنظر معسرًا أو وضع له، أظله الله يوم القيامة تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله**»(٤).

والسماحة مفتاح كبير من مفاتيح الجنة.

قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ رجلاً لم يعمل خيرًا قط، وكان يداين الناس، فيقول**

---

(١) أخرجه أبو يعلى والطبراني في «مكارم الأخلاق»، وصححه الألباني كما في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» رقم (٥٥٤).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٢٠٧٦).

(٣) أخرجه مسلم رقم (١٥٦٣).

(٤) أخرجه الترمذي رقم (١٣٠٦)، وابن ماجه رقم (٢٤١٧)، وقال: حديث حسن صحيح.

لرسوله: خذ ما تيسر واترك ما عُسر، وتجاوز، لعل الله أن يتجاوز عنا، فلما هلك، قال الله: هل عملت خيراً قط؟ قال: لا إلا أنه كان لي غلام، وكنت أداين الناس، فإذا بعثته يتقاضى، قلت له: خذ ما تيسَّر واترك ما عُسِر، وتجاوز، لعل الله أن يتجاوز عنا، قال الله: قد تجاوزت عنك»(١).

«إن رجلاً ممَّن كان قبلكم أتاه ملك الموت ليقبض نفسه، فقال له: هل عملت من خير؟ قال: ما أعلم، قال له: انظر. قال: ما أعلم شيئًا غير أني كنت أبايع الناس وأحارفهم، فأنظر الموسر وأتجاوز عن المعسر، فأدخله الله الجنة»(٢).

والسماحة دليل على صلاح العبد وفضله.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي ﷺ يتقاضاه، فأغلظ له فهمَّ به أصحابه، فقال رسول الله ﷺ: «دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً»، ثم قال: «أعطوه سِنًّا مثل سنّه»، قالوا: يا رسول الله، لا نجد إلا أمثل من سِنه، قال: «أعطوه فإن خيركم أَحسنكم قضاءً»(٣).

صور السماحة:

وللسماحة صور كثيرة:

فمنها: السماحة في معاملة الناس، فيقابلهم بوجه طليق ويساعد محتاجهم ويعين ضعيفهم، ويرد سائلهم ولو بالقليل.

قال الرسول ﷺ: «ردُّوا السائل ولو بظلف محرق»(٤).

ومنها: السماحة في البيع والشراء.

عن سويد بن قيس قال: «جَلبت أنا ومحرمة العبدي بزًّا من هَجَر، فجاءنا النبي ﷺ فساومنا بسراويل، وعندي وزَّان يزن بالأجر، فقال النبي ﷺ للوزَّان:

---

(١) أخرجه النسائي وابن حبان في صحيحه والحاكم وصححه.

(٢) أخرجه أحمد والشيخان: البخاري رقم (٣٤٨٠)، ومسلم رقم (١٥٦١، ١٥٦٢).

(٣) أخرجه البخاري رقم (٢٣٠٦)، ومسلم رقم (١٦٠١).

(٤) أخرجه مالك وأحمد والبخاري في «التاريخ» والترمذي وابن حبان والحاكم وصححاه، وانظر «صحيح الجامع» رقم (٣٥٠٢).

«زن وأرجح»[١].

وعن جابر رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ اشترى منه بعيراً، فوزن له فأرجح»[٢].

ومنها: السماحة في القضاء والإقضاء، فيقضي الدين ويهدي عليه، أو يكرم الدائن ويعفو عن زلاته ويتجاوز عن كثرة تردده؛ لأن لصاحب الحق مقالاً.

ويسد الدَّيْن إن وجد له قضاء، فإن لم يجد وكان الدائن محتاجًا فليستلف ابتغاء إعانته ومساعدته فكأنه رد على الوفاء بوفاء.

عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ يتقاضاه دَيْنًا كان عليه، فاشتد عليه حتى قال: أُحرِّج عليك[٣] إلاّ قضيتني. فانتهره أصحابه، فقالوا: ويحك! تدري مَنْ تكلم؟ فقال: إني أطلب حقي. فقال النبي ﷺ: «**هلاَّ مع صاحب الحق كنتم؟**». ثم أرسل إلى خولة بنت قيس فقال لها: «**إن كان عندك تمر فأقرضينا حتى يأتينا تمر فنقضيك؟**». فقالت: نعم، بأبي أنت وأمي يا رسول الله. فاقترضه، فقضى الأعرابي، وأطعمه، فقال: أوفيت أوفى الله لك. فقال ﷺ: «**أولئك خيار الناس، لا قُدِّست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متعتع**[٤]»[٥].

ومنها: السماحة في التجاوز عن المعسر بوضع جزء من المال عنه أو التصدق عليه والعفو عن الحق الذي عنده، وهذا خير وأكرم، وإلا فإنظاره ورحمته هو التسامح.

* * *

(١) أخرجه أبو داود رقم (٣٣٣٦)، والترمذي رقم (١٣٠٥)، والنسائي رقم (٤٥٩٢) وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) أخرجه البخاري رقم (٢٦٠٤).

(٣) أُحرِّج عليك: من (الحَرَج) وهو التشديد، أي أشدد عليك وأرجوك.

(٤) أي: غير مردود ومنقوص.

(٥) أخرجه ابن ماجه والبزار والطبراني بإسناد جيد كما قال المنذري (٣/ ٥٤)، وانظر «صحيح سنن ابن ماجه» للألباني رقم (١٩٦٩).

(١٥) الشجاعة

الشجاعة خُلُق رفيع يدل على كمال النفس، ورباطة الجأش، والثبات على المبدأ، والتضحية، وبذل أغلى ما يُبذل من أجل الحق، والاستهانة بالمبنى تحقيقًا للمعنى (المبنى: الجسد، والمعنى: سعادة الآخرة).

والشجاعة صفة من صفات الأنبياء والمرسلين والصالحين، فنبينا محمد ﷺ كان أشجع الناس[١].

يقول علي رضي الله عنه: «لقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي ﷺ وهو أقربنا، وكان من أشد الناس يومئذٍ بأسًا»[٢].

وقال: «كنا إذا احْمَرَّ البأس، ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب منه»[٣].

وفي يوم حنين ولَّى اثنا عشر ألف صحابي عدا مائة مدبرين، وبقي النبي ﷺ وحده يقول: «**أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب**»[٤].

*** زيد بن الخطاب يهرول إلى الشهادة:**

وهكذا كان أصحابه رضي الله عنهم أساتذة في الشجاعة، أبطالاً في التضحية من أجل الله تعالى، كزيد بن الخطاب رضي الله عنه.

عن عمر بن عبد الرحمن- من ولد زيد بن الخطاب- عن أبيه رضي الله عنه قال: «كان زيد بن الخطاب يحمل راية المسلمين يوم اليمامة، وقد انكشف المسلمون حتى ظهرت حنيفة على الرجال، فجعل زيد بن الخطاب يقول: أما الرحال فلا رحال، وأما الرجال فلا رجال. ثم جعل يصيح بأعلى صوته: اللهم

---

(١) أخرجه الشيخان.

(٢) قال العراقي في «تخريج الإحياء» (٣/ ٤١١): أخرجه أبو الشيخ بإسناد جيد.

(٣) أخرجه مسلم بلفظ آخر، وأخرجه النسائي بإسناد صحيح كما قال العراقي (٣/ ٤١١).

(٤) أخرجه الشيخان.

إني أعتذر إليك من فرار أصحابي، وأبرأ إليك مما جاء به مسيلمة ومحكم بن الطفيل[١]. وجعل يشد بالراية يتقدم بها في نحر العدو، ثم ضارب بسيفه حتى قُتل رحمة الله عليه ووقعت الراية فأخذها سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنه، فقال المسلمون: يا سالم، إنا نخاف أن نؤتى من قبلك. فقال: بئس حامل القرآن أنا إن أُوتيتم من قبلي!! وقُتل زيد بن الخطاب سنة اثنتي عشرة من الهجرة»[٢].

«هذا أميركم، قد أقر الله عينه بالفتح، وختم له بالشهادة».

قيلت هذه العبارة في البطل الباسل: النعمان بن مُقَرِّن المزني، فلما كانت معركة القادسية، وانهزم الفرس لاذوا بـ (نهاوند) وجيَّشوا جيوشهم حتى اكتمل لهم مائة وخمسون ألفًا من أشداء المقاتلين، فلما وقف الفاروق عمر رضي الله عنه على أخبار هذا الحشد العظيم عزم على أن يمضي إلى مواجهة هذا الخطر الكبير بنفسه، ولكن وجوه المسلمين ثنوه[٣] عن ذلك، وأشاروا عليه أن يرسل قائدًا يعتمد عليه، فقال عمر: أشيروا عليّ برجل لأوليه ذلك الثغر. فقال: والله لأُولِّين على جند المسلمين رجلاً يكون إذا التقى الجمعان أسبق من الأسنة، هو النعمان بن مُقَرِّن المزني. فقالوا: هو لها. فكتب إليه يقول:

«من عبد الله عمر بن الخطاب إلى النعمان بن مقرن، أما بعد... فإنه بلغني أن جموعًا من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة (نهاوند)، فإذا أتاك كتابي هذا فسِرْ بأمر الله وبعون الله وبنصر الله بِمَنْ معك من المسلمين، ولا توطئهم وَعْرًا فتؤذيهم، فإن رجلاً واحدًا من المسلمين أحب إليّ من مائة ألف دينار، والسلام عليك».

هب النعمان بجيشه، فلما أقبل الفرسان على نهاوند، وجدوا في حوافر الخيل شظايا من حديد تشبه رءوس المسامير، فنظروا في الأرض فإذا العجم قد نثروا قطع الحديد في الأرض؛ ليعوقوا الفرسان والخيل عن الوصول إلى نهاوند، فلما

(١) محكم بن الطفيل: قائد جيش مسيلمة الكذاب، قتله البراء بن مالك في هذه المعركة.

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٢٧)، وأخرجه ابن سعد (٣/ ٢٧٤).

(٣) ثنوه: ردوه.

سمع النعمان بالخبر أمر الجند أن يثبتوا في أماكنهم، وأن يوقدوا النيران في الليل ليراهم العدو، وعند ذلك يتظاهرون بالخوف منه والهزيمة أمامه ليغروه باللحاق بهم، وإزالة ما زرعه من حسك الحديد.

وجازت الحيلة على الفرس، فما أن رأوا طليعة جيش المسلمين تمضي منهزمة أمامهم حتى أرسلوا عمالهم فكنسوا الطرق من الحسك، فكر عليهم المسلمون، واحتلوا تلك الدروب.

عسكر النعمان بجيشه على مشارف نهاوند، وعزم على مفاجأة العدو، فقال لجنوده: إني مكبر ثلاثًا، فإذا كبرت الأولى فليتهيأ من لم يكن قد تهيأ، وإذا كبرت الثانية فليشدد كل رجل منكم سلاحه على نفسه، فإذا كبرت الثالثة فإني حامل على أعداء الله فاحملوا معي.

كبر البطل الباسل تكبيراته الثلاث، واندفع في صفوف العدو كأنه الأسد هاجمًا، وتدفق وراءه الجنود، ودارت بين الفريقين حرب ضروس، تمزق فيها جيش الفرس شر ممزق، وملأت قتلاه السهل والجبل، وسالت دماؤه في الممرات والدروب، فزلق جواد النعمان بالدماء فصُرع، وأصيب البطل إصابة قاتلة، فأخذ أخوه اللواء من تحت يده، وغطاه ببردة كانت معه، وكتم أمر مصرعه عن المسلمين.

ولما تم الفتح الكبير الذي سماه المسلمون (فتح الفتوح) سأل الأبطال عن قائدهم الباسل النعمان بن مُقَرِّن، فرفع أخوه البردة عنه وقال: هذا أميركم، قد أقر الله عينه بالفتح، وختم له بالشهادة[١].

* حب الشهادة في سبيل الله:

وهذا عكرمة رضي الله عنه يهرول إلى الشهادة: عن ثابت البناني أن عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه ترجَّل يوم كذا وكذا، فقال له خالد بن الوليد رضي الله عنه: لا تفعل، فإن قتلك على المسلمين شديد. فقال: خلّ عني يا خالد، فإنه قد

---

(١) انظر «أسد الغابة» (٢/ ٢١١)، و(٣/ ٧)، و«الإصابة» (٣/ ٥٦٣) ترجمة رقم (٨٧٥٢)، و«تهذيب التهذيب» (١٠/ ٤٥٦).

كان لك مع رسول الله ﷺ سابقة، وإني وأبي كنا من أشد الناس على رسول الله ﷺ. فمشى حتى قُتل(١).

* **عكرمة يبايع على الموت:** وفي رواية عن أبي عثمان الغساني عن أبيه قال: «قال عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه يوم اليرموك: قاتلت رسول الله ﷺ في مواطن وأَفِر منكم اليوم؟! ثم نادى: مَنْ يبايع على الموت؟ فبايعه عمه الحارث بن هشام، وضرار بن الأزور رضي الله عنهما في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم، فقاتلوا قدام فسطاط خالد رضي الله عنه حتى أُثْبِتوا(٢) جميعًا جراحًا، وقُتل منهم خلق منهم ضرار بن الأزور رضي الله عنه(٣).

* **لبس كفنه وهو حي:**

شهد ثابت بن قيس الأنصاري مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها، وكان رضي الله عنه يشتاق إلى الشهادة في سبيل الله تعالى، فلما كانت الحروب بين المسلمين ومسيلمة الكذاب تولَّى ثابت رضي الله عنه راية الأنصار، وكانت الغلبة في بداية هذه المعارك لجند مسيلمة الكذاب، حتى بلغ بهم الأمر أن اقتحموا فسطاط(٤) خالد بن الوليد، وهموا بقتل زوجته أم تميم، وقطعوا حبال الفسطاط، ومزقوه شر ممزق.

عند ذلك تحنَّط(٥) ثابت رضي الله عنه ولبس كفنه، ووقف على رءوس الأشهاد وقال: يا معشر المسلمين، ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله ﷺ، بئس ما عوَّدتم أعداءكم من الجرأة عليكم، وبئس ما عودتم أنفسكم من الانخذال لهم. ثم رفع طرفه إلى السماء وقال: اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء من الشرك (يعني: مسيلمة وقومه)، وأبرأ إليك مما يصنع هؤلاء (يعني: المسلمين).

---

(١) أخرجه البيهقي (٩/ ٤٤)، وانظر «كنز العمال» (٧/ ٧٥).

(٢) أُثبِتوا: أُقعِدوا عن الحركة من شدة القتال.

(٣) «البداية والنهاية» لابن كثير (٧/ ١١).

(٤) الفسطاط: الخيمة.

(٥) تحنَّط: وضع الحنوط على جسده، والحنوط: الطيب.

ثم هبَّ مقاتلاً ومحاربًا ومعه الرهبان الفرسان: البراء بن مالك، وزيد بن الخطاب، وسالم مولى أبي حذيفة وغيرهم رضي الله عنهم، وأبلى بلاءً عظيمًا، وما زال يضرب بسيفه في كل واد حتى أثخنته[١] الجراح[٢]، وقابل الأنبياء والشهداء في الجنة.

*** العمليات الاستشهادية: إلقاء النفس بين صفوف العدو:**

ومن شجاعتهم منقطعة النظير أنهم كانوا يعجلون إلى لقاء ربهم، فيغمسون أنفسهم في وسط صفوف الأعداء.

عن أبي عمران رضي الله عنه قال: «كنا بمدينة الروم، فأخرجوا إلينا صفًّا عظيمًا من الروم، فخرج إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر، وعلى أهل مصر عقبة ابن عامر رضي الله عنه، وعلى الجماعة فضالة بن عبيد رضي الله عنه، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل بينهم، فصاح الناس، وقالوا: يلقي بيده إلى التهلكة! فقام أبو أيوب فقال: أيها الناس! إنكم لتأولون هذا التأويل، وإنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار لما أعز الله الإسلام، وكثر ناصروه، فقال بعضنا لبعض سرًّا دون رسول الله ﷺ: إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله تعالى قد أعز الإسلام، وكثر ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا، وأصلحنا ما ضاع منها. فأنزل الله تعالى على نبيه ﷺ ما يرد علينا ما قلنا، وللفقراء في سبيل الله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]. وكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها وتركنا الغزو، فما زال أبو أيوب شاخصًا في سبيل الله حتى دُفن بأرض الروم»[٣].

*** الفدائي البطل:**

ظهرت بطولات الصحابة رضي الله عنهم أمام جيش مسيلمة على أرض

---

(١) أثخنته: أوهنته وأضعفته.

(٢) انظر «الإصابة في تمييز الصحابة» (١/ ١٩٥) رقم (٩٠٤)، و«الاستيعاب» (١/ ١٩٢)، و«أسد الغابة» (١/ ٢٧٥) رقم (٥٦٩).

(٣) أخرجه الترمذي وقال: حديث غريب صحيح، ووضعه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» رقم (٢٣٧٣).

اليمامة، ومن هؤلاء الأبطال البواسل البراء بن مالك رضي الله عنه، فعندما رأى خالد بن الوليد رضي الله عنه اشتعال نيران الحرب، قال: إليهم يا فتى الأنصار. مشيرًا إلى البراء بن مالك، فالتفت البراء إلى قومه وقال: يا معشر الأنصار، لا يفكرن أحد منكم بالرجوع إلى المدينة، فلا مدينة لكم بعد اليوم، وإنما هو الله وحده ثم الجنة.

ثم حمل على المشركين وحملوا معه، وانبرى يشق الصفوف، ويعمل سيفه في رقاب أعداء الله حتى زلزل أقدامهم، فلجأوا إلى (حديقة الموت)[1] وهي حديقة عالية الجدران، فأغلق مسيلمة وجنده أبوابها، وجعلوا يرمون المسلمين بنبالهم.

عند ذلك تقدم البطل الباسل، وقال: يا قوم، ضعوني على ترس، وارفعوا الترس على الرماح ثم اقذفوني إلى الحديقة قريبًا من بابها، فإما أن أستشهد، وإما أن أفتح لكم الباب.

وفي لمح البصر جلس البراء على تُرْس، فقد كان ضئيل الحجم، نحيل الجسم، ورفعته عشرات الرماح حتى نزل في قلب حديقة الموت، فلما رأته جند مسيلمة أقبلت إليه من كل حدب وصوب، وما زال البطل يجالدهم أمام باب الحديقة حتى قتل عشرة منهم، وفتح الباب وبه بضع وثمانون جرحًا ما بين ضربة بسيف، وطعنة برمح، ورمية بسهم، فتدفق المسلمون على (حديقة الموت) من أسوارها وأبوابها، وأعملوا السيف في رقاب جند مسيلمة الكذاب، حتى قتلوا منهم قريبًا من عشرين ألفًا، ووصلوا إلى مسيلمة فأردوه قتيلاً، وحُمل البراء بن مالك إلى متاعه ليُداوى، وأقام عليه خالد بن الوليد رضي الله عنه شهرًا يعالجه حتى جاء الشفاء.

ظل البراء بن مالك الأنصاري رضي الله عنه يتوق إلى الشهادة في سبيل الله، وحنينًا إلى اللقاء بالنبي ﷺ حتى إذا كان يوم فتح (تُسْتَر) من بلاد فارس، فقد تحصن الفرس بإحدى القلاع المنيعة، فحاصرهم المسلمون، وأحاطوا بهم من كل جانب، فلما طال الحصار، وازداد البلاء بالفرس جعلوا يُدلُّون من فوق أسوار

---

(١) سميت بذلك؛ لكثرة مَنْ قُتل فيها في هذه المعركة.

القلعة سلاسل من حديد عُلِّقت بها كلاليب من فولاذ حُميت بالنار حتى أصبحت أشد توهجًا من الجمر، فكانت تغرز في أجساد المسلمين، وتعلق بها، فيرفعونهم إليهم إما موتى، وإما على وشك الموت، فعلق كُلَّاب منها بأنس بن مالك أخي البراء بن مالك، فما أن رآه البراء حتى وثب على جدار الحصن، وأمسك بالسلسلة التي تحمل أخاه، وجعل يعالج الكُلاب ليخرجه من جسده، فأخذت يده تحترق وتدخن فلم يهتم بها حتى أنقذ أخاه، وهبط إلى الأرض بعد أن غدت يده عظامًا ليس عليها لحم. وفي هذه المعركة دعا البراء بن مالك رضي الله عنه أن يرزقه الله الشهادة، فأجاب الله دعاءه، ولقي الله شهيدًا(١).

* يغلب مائة ألف:

وهذه بطولة فذة لابن الزبير رضي الله عنهما استخدم فيها كياسته وفطنته وخداعه، فهزم مائة ألف.

يقول ابن الزبير رضي الله عنهما: «هجم علينا جُرجير في عشرين ومائة ألف، فأحاطوا بنا ونحن في عشرين ألفًا- يعني: نوبة إفريقية- قال: واختلف الناس على ابن أبي سرح، فدخل فسطاطه، فرأيت غِرَّةً من جُرجير بَصُرت به على برذون أشهب، معه جاريتان تظللان عليه بريش الطواويس، بينه وبين جيشه أرض بيضاء، فأتيت أميرنا ابن أبي سرح فَنَدب لي الناس، فاخترت ثلاثين فارسًا، وقلت لسائرهم: البثوا على مصافكم. وحملت، وقلت لهم: احموا ظهري. فخرقت الصف إلى جُرجير، وخرجت صامدًا، وما يحسب هو ولا أصحابه إلا أني رسول إليه حتى دنوت منه، فعرف الشر، فثابر(٢) برذونه موليًا، فأدركته، فطعنته، فسقط، ثم احتززت رأسه، فنصبته على رمحي، وكبَّرت، وحمل المسلمون، فارفض العدو، ومنحنا الله أكتافهم»(٣).

---

(١) انظر للقصتين السابقتين: «الطبقات الكبرى» (٣/ ٤٤١ و ٧/ ١٧، ١٢١)، و«الاستيعاب» لابن عبد البر (١/ ١٣٧)، و«الإصابة في تمييز الصحابة» (١/ ١٤٣ رقم ٦٢٠).

(٢) ثابر، وفي لفظ: فتبادر.

(٣) انظر «نسب قريش» (صـ ٢٣٧، ٢٣٨)، وتهذيب ابن عساكر (٧/ ٤٠٢)، و«تاريخ الإسلام» للذهبي (٢/ ٧٨- ٨٠)، و«سير أعلام النبلاء» (٣/ ٣٧١)، وفتح إفريقية كان سنة سبع وعشرين.

* بطلة الجهاد: خولة بنت الأزور

وللنساء المؤمنات شـأن عظيم في الشجاعة والبطولـة، خُذ مثلاً: هذه التـابعية التي تضيء صفحات هذه القصة، صنعت بطولات نادرة على أرض المعارك:

فـفي معـارك المسلمين مع الروم رتب خـالد عـسكره مـيمنة ومـيـسرة وقلبًـا وجناحين، فجعل في القلب معاذ بن جـبل، وفي الميمنة عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، وفي الميـسرة سعد بن عامـر، وفي الجناح الأيسر شُرَحْبيل بن حَسَنة، وفي الساقة يزيد بـن أبي سفيان في أربعة آلاف فـارس حول الحريم والأولاد، ثم التفت إلى النسوة، وهن: عـفراء بنت غفار الحميرية، وأم أبان ابنة عـتبة- وكانت عروسًا قد تزوج بها في هذا اليوم أبان بن سعيد بن العاص، والخضاب في يدها، والعطر في رأسها- وخولة بنت الأزور، ومزروعة بنت عملوق، وسلمة بنت زارع وغيرهن من النسوة ممن عُرفن بالشجاعة والبراعة.

فقال لهن خالد: يا بنات العمالقة وبقية التبابعة، قد فعلتن فعلاً أرضيتن به الله تعـالى والمسلمين، وقد بقي لكـن الذكر الجـميل، وهذه أبواب الجنة قـد فُتـحت لكُنّ، وأبواب النار قد أُغلقت عنكن وفُـتحت لأعدائكن، واعلمن أني أثق بكن، فإن حملت طائفة من الروم عليكن فقاتلن عن أنفسكن.

وإن رأيتن أحـدًا من المسلمين قـد ولَّى هاربًا فدونكـن إياه بالأعمـدة، وارمين بولده وقلن له: أين عن أهلك ومالك وولدك وحـريمك؟ فإنكن ترضين بذلك الله تعالى.

فقـالت عفراء بنت غفـار: أيها الأمير، والله لا يفـرحنا إلا أن نموت أمامك، فلنضربن وجوه الروم، ولنقاتلن إلـى أن لا تبقى لنا عين تطرف، والله ما نبالي إذا رمينا الروم كلهم. قال: فجزاهن خيراً. ثم عاد إلى الصفوف فجعل يطوف بينهم بفـرسه، ويُـحرِّض الناس علـى القتـال، وهو ينادي برفـيع صـوته: يا مـعاشـر المسلمين، انصروا الله ينصركم، وقاتلوا في سبيل الله واحتسبوا نفوسكم في سبيل الله، ولا تحملوا حتى آمركم بالحملة، ولتكن السـهام إذا خرجت من أكباد القسي كأنها من قوس واحدة، فإذا تلاصقت السهام رشقًا كالجراد لم يخل أن يكون منها

سهم صائب، و ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، واعلموا أنكم لن تلقوا بعد هذا عدوًّا مثله، وإن هذه الفئة جملتهم وأبطالهم وملوكهم، فجرِّدوا السيوف، وأوتروا القسي، وفوقوا السهام.

ثم إن خالد أقبل ووقف في القلب مع عمرو بن العاص، وعبد الله بن عمرو، وقيس بن هبيرة، ورافع بن عميرة، وذي الكلاع الحميري، وربيعة بن عامر ونظائرهم.

قال: فلما نظر وَرْدَان إلى جيش المسلمين قد زحف، زحفوا، وكانوا ملء تلك الأرض في الطول والعرض من كثرتهم، فترامى الجمعان، وتلاقى الفريقان، وقد أظهر أعداء الله الصلبان والأعلام، ورفع المسلمون أصواتهم بالتهليل والتكبير والصلاة والسلام على البشير النذير.

فلما قرب القوم بعضهم من بعض خرج من علوج[1] الروم شيخ كبير، وعليه قلنسوة سوداء، فلما قرب من المسلمين نادى بلسان عربي: أيكم المقدم فليخاطبني، وليخرج إليّ وعليه أمان. قال: فخرج إليه خالد بن الوليد، فقال له القس: أنت أمير القوم؟ فقال خالد: كذلك يزعمون ما دمت على طاعة الله وسنة رسوله، وإن أنا غيَّرت أو بدلت فلا إمارة لي عليهم، ولا طاعة.

قال القس: بهذا نُصرتم علينا. ثم قال: اعلم أنك توسطت بلادًا ما جسر ملك من الملوك أن يتعرض لها، ولا يدخلها، وإن الفرس دخلوها ورجعوا خائبين، وإن التبابعة أتوها وأفنوا أنفسهم عليها، وما بلغوا ما أرادوا، ولكنكم أنتم نُصرتم علينا، وإن النصر لا يدوم لكم، وصاحبي وَرْدان قد أشفق عليكم، وقد بعثني إليكم، وقال: إنه يعطي كل واحد منكم دينارًا وثوبًا وعمامة، ولك أنت مائة دينار ومائة ثوب ومائة عمامة، وارحل عنا بجيشكم، فإن جيشنا على عدد الذَّر، ولا تظن أن هؤلاء مثل مَنْ لقيت من جموعنا، فإن الملك ما أنفذ في هذا الجيش إلا عظماء البطاركة والأساقفة.

قال خالد: والله ما نرجع إلا بإحدى ثلاث خصال: إما أن تدخلوا في ديننا،

---

(١) جمع (عِلْج) وهو الكافر من العجم.

أو تؤدوا الجزية، أو القتـال. وأما ما ذكرت من أنكم عدد الذَّر فـإن الله تعالى قد وعدنا النصر على لسان محمد ﷺ، وأنـزل ذلك في كتابه العزيز، وأما ما ذكرت من أن صاحبكم يعطي كل واحد منا دينارًا وعمـامة وثوبًا؛ فعن قريب إن شاء الله نرى ثيابكم وبلادكم وعمائمكم كل ذلك في ملكنا وبأيدينا.

فقال الراهب: إني راجع إلى صاحبي أخبـره بجوابك. ثم لوى راجعًا، وأخبر وردان بما كان من جـواب خالد، فقـال وردان: أيظن أننا مثل مَنْ لقيـه من قبل؟ وإنما هؤلاء لحقـهم الطمع إذ تقاصـرنا عن قتـالهم، والملك قد أرسل إليـهم أكابر البطارقة، وما بيننا وبينهم إلا جولة الجائل ثم نتركهم صرعى.

ثم رتب أصـحابه، وزحف وقـدم أمامه الرجـالة صفًّـا أمام الـقوم والخيـالة، وبأيديهم المزاريق والقسي.

قال فصاح مـعاذ بن جبل: معاشر الناس إن الجنة قـد زخرفت لكم، والنار قد فتحت لأعـدائكم، والملائكة عليكم قد أقبلت، والحور العين قـد تزينت للقائكم فأبشروا بالجنة السرمدية، ثم قرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١٠].

بارك الله فيكم الحملة. فـقال خالد: مهلاً يا معـاذ حتى أوصي الناس، ومشى في الصفوف ورتبها وقال: اعلموا أن هؤلاء أضعافكم فطاولوهم إلى وقت العصر فإنها ساعة نُرزق فيها النصر، وإياكم أن تولوا الأدبار فيراكم الله منهزمين، ازحفوا على بركة الله تعالى.

فلما تقارب الجمعان رمت الروم سهامهم رمية واحدة.

قال: فقتلوا رجالاً وجرحوا أُناسًا، وخالد قد منع الناس من الحملة.

فقال ضرار بن الأزور: وما لنا والوقوف والحق سبحانه وتعالى قد تجلى علينا، والله ما يظن أعداء الله إلا أننا قد فشلنا عنهم وجزعنا، فأمرنا بالحملة حتى نحمل معك.

قال: فأنت لهـا يا ضرار، فخرج ضِـرار بن الأزور، وقال: والله ما من شيء أشـهى إلى قلبي من ذلك، ثم حـمل ضـرار وقـد تدرَّع بدرع كـان لبطرس أخي

بولص، وألقى الزرد على وجهه وركب جواده، وكان عليه يومئذ جُبَّتان من جلود الفيلة كان قد أخذها أيضًا من بطرس، وقد أخفى نفسه عن الرّوم بلباسه ذلك، وقد أطلق عنانه وقوَّم سنانه [١]وحمل في صفوفهم، فما كان قدر ساعة حتى قتل من الروم عشرين فارسًا ومثلها رجالة.

قال عنان بن عوف النجبي: كنت ممن يعد قتلى ضرار في حملته هذه فرسانًا ورجالاً ثلاثين فارسًا.

ووصل الخبر إلى خالد أن ضرارًا قد أُسِر بيد الروم، وأنه قتل من الروم خلقًا كثيرًا فعظم ذلك على خالد، وقال: في كَم العدو؟ قالوا: في اثني عشر ألف فارس، فقال: والله ما ظننت إلا أنهم في عدد يسير، ولقد غررت بقومي، ثم سأل عن مُقدمهم من يكون؟ فقيل: وردان صاحب حِمص، وقد قتل ضرار ولده همدان، فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ثم أرسل إلى أبي عبيدة يستشيره فبعث إليه أبو عبيدة يقول له: اترك على الباب الشرقي من تَثق به وسِر إليهم فإنك تطحنهم بإذن الله تعالى، فلما وصل الجواب إلى خالد قال: والله ما أنا ممن يبخل بنفسه في سبيل الله، ثم أوقف بالمكان ميسرة بن مسروق العبسي رضي الله عنه ومعه ألف فارس، وقال له: احذر أن تنفذ من مكانك.

فقال ميسرة: حُبًّا وكرامة، وعطف خالد بالناس، وقال لهم: أطلقوا الأعِنة وقوموا الأسنة فإذا أشرفتم على العدو فاحملوا حملة واحدة ليخلص فيها ضرار إن شاء الله تعالى إن كانوا أبقوا عليه، والله إن كانوا عجلوا عليه لنأخذن بثأره إن شاء الله تعالى، وأرجو أن لا يُفجعنا به، ثم تقدم أمام القوم وجعل يقول[٢]:

اليوم يوم فازَ فيه من صدق ... لا أرهبُ الموتَ إذا الموتُ طرق
لأروين الرمح من ذوي الحدَق ... لأهتكن البيض[٣] هتكًا والدَّرق
عسى أرى غدًا مقام من صَدَق ... في جنة الخلد وألقى من سبق

(١) أطلق قيد فرسه، وأعد سيفه.
(٢) الأبيات من بحر الكامل.
(٣) البيض: أي: الروم (أوروبا).

فبينما خالد يتـرنم بهذا، إذ نظر إلى فارس على فرس طويل وبيده رمح طويل وهو لا يبينُ منه إلا الحدق، والفروسية تلوح من شمائله، وعليه ثياب سود، وقد تظاهر بها من فوق لأمَته، وقد خرم وسطه بعمـامة خضراء وسحبها على صدره، ومن ورائه، وقد سبق أمام الناس كأنه نار، فلمـا نظره خالد قال: ليت شعري من هذا الفارس وايم الله إنه لفارس شجاع، ثم أتبعه خالد والناس، وكان هذا الفارس أسبق الناس إلى المشركين، وقال: وكـان رافع بن عميرة الطائي رضي الله عنه في قتال المشركين، وقد صبر لهم هو ومن مـعه إذ نظر خالدًا وقد أنجده هو ومن معه من المسلمين، ونظر إلى الفارس الذي وصـفناه وقد حمل على عسـاكر الروم كأنه النار المحرقة فزعزع كتائبهم وحطم مـواكبهم، ثم غاب في وسطهم فما كانت إلا جولة الجائل حتى خرج وسِنانه مُلَطَّـخ بالدماء من الروم، وقد قتل رجالاً وجَندلَ أبطالاً وقد عـرض نفسه للهـلاك، ثم اخترق القـوم غير مُكتـرث بهم ولا خائف وعطف على كراديس الروم في الناس وكثر قلقهم عليـه فأما رافع بن عميرة ومن معه فـما ظنوا إلا أنه خالد وقـالوا: ما هذه العملات إلا لخـالد فهم على ذلك إذ أشرف عليهم رضي الله عنه وهو في كـبكبة من الخيل: فقال رافع بن عـميرة مَنْ الفارس الذي تقدم أمامك؟! فلقد بذل نفسه ومهجته، فقال خالد: والله إنني أشد إنكارًا منكم له، ولقد أعجـبني ما ظهر منه ومن شمائله، فقـال رافع: أيها الأمير إنه مُنغمس في عـسكر الروم يطعن يمينًا وشمالاً، فـقالد خالد: معـاشر المسلمين احملوا بأجـمعكم وساعدوا المُحـامي عن دين الله. قال: فأطلقوا الأعنـة وقوِّموا الأسِنة والتصق بعـضهم ببعض وخـالد أمامهم إذ نظر إلى الفارس وقـد خرج من ذلك، حمل خالد ومن معه ووصل الفارس المذكور إلى جيش المسلمين.

قال: فتأملوا فرأوه قد تخـضَّب بالدماء، فصاح خالد والمسلمون: لله درك من فارس بذل مهجته في سبيل الله، وأظهر على الأعداء اكشف لنا عن لثامك، قال: فمـال عنهم ولم يخاطبهم وانغـمس في الروم فتصـايحت به الروم من كل جانب وكذلك المسلمون، وقالوا: أيها الرجل الكريم أميرك يخاطبك وأنت تعرض عنه، اكشف عن اسـمك وحسبك لتزداد تعظيـمًا فلم يرد عليهم جوابًا، فلمـا بعد عن خالد سار إليـه بنفسه، وقال: ويحك لقد شـغلت قلوب الناس وقلبي بفعلك من

أنت؟ قال: فلما لجَّ عليه خالد خاطبه الفارس من تحت لثامه بلسان التأنيث، وقال: إنني يا أمير لم أعرض عنك إلا حياء منك لأنك أمير جليل وأنا من ذوات الخدور وبنات الستور؛ وإنما حملني على ذلك أني مُحرقة الكبد زائدة الكمَد، فقال لها من أنت؟ قالت: أنا خولة بنت الأزور المأسور بيد المشركين أخي هو ضرار، وإني كنت من بنات العرب وقد أتاني الساعي بأن ضرارًا أسير فركبت وفعلت ما فعلت، قال خالد: نحمل بأجمعنا ونرجوا من الله أن نصل إلى أخيك فنَفُكُّه، قال عامر بن الطفيل: كنت عن يمين خالد بن الوليد حين حملوا وحملت خولة أمامه وحمل المسلمون وعَظُم على الروم ما نزل بهم من خولة بنت الأزور وقالوا: إن كان القوم كلهم مثل هذا الفارس فما لنا بهم من طاقة، ولما حمل خالد ومن معه إذا بالروم قد اضطربت جيوشهم ونظر وردان إليهم فقال لهم: اثبتوا للقوم فإذا رأوا ثباتكم ولُّوا عنكم، ويخرج أهل دمشق يعينونكم على قتالهم، قال: فثبت المسلمون، وحمل خالد بالناس حملة منكرة وفرق القوم يمينًا وشمالاً وقصد خالد مكان صاحبهم وردان عند اشتباك الأعلام والصلبان، وإذا حوله أصحاب الحديد والزر والنضيد، وهم مُحدقون به، فحمل خالد عليهم حملة مُنكرة، واشتبك المسلمون بقتال الروم وكل فرَقة مُشغلة بقتال صاحبها، وأما خولة بنت الأزور فإنها جعلت تجول يمينًا وشمالاً وهي لا تطلب إلا أخاها، وهي لا ترى له أثرًا ولا وقفت له على خبر إلى وقت الظهر، وافترق القوم بعضهم عن بعض وقد أظهر الله المسلمين على الكافرين، وقتلوا مقتلة عظيمة، قال: وتراجعت كل فرقة إلى مكانها وقد كُلمَتْ أفئدة الروم مما ظهر لهم من المسلمين، وقد هموا بالهزيمة، وما يمسكهم إلا الخَوف من صاحبهم وردان، فلما رجع القوم إلى مكانهم أقبلت خولة بنت الأزور على المسلمين وجعلت تسألهم رجلاً رجلاً عن أخيها، فلم تر من المسلمين من يُخبرها أنه نَظَره أو رآه أسيرًا أو قتيلاً، فلما يئست منه بكت بكاءً شديدًا وجعلت تقول: يا ابن أمي ليت شعري في أي البيداء[1] طرحوك، أم بأي سنان طعنوك، أم بالحسام قتلوك، يا أخي أختك لك الفداء لو أني أراك أنقذتك من أيدي الأعداء؛ ليت شعري أترى ألا أراك بعدها

---

(١) البيداء: الصحراء.

أبداً، فقد تركت يا ابن أمي في قلب أختك جمرة لا يخمد لهيبها ولا يطفأ، ليت شعري لحقت بأبيك المقتول بين يدي النبي ﷺ فعليك مني السلام إلى يوم اللقاء.

قال: فبكى الناس من قولها وبكى خالد وهمَّ أن يعاود بالحملة إذ نظر إلى كردوس من الروم قد خرج من ميمنة العقبان فتأهب الناس لحربهم، وتقدم خالد وحوله أبطال المسلمين فلما قربوا من القوم رموا رماحهم من أيديهم والسيوف وترجلوا ونادوا بالأمان فقال خالد: اقبلوا أمانهم وائتوني بهم، فأتوا إليه. فقال خالد من أنتم؟ فقالوا: نحن من جُند الرجل وردان ومقامنا بحمص وقد تحقق عندنا أنه ما يطيقكم ولا يستطيع حربكم، فأعطونا الأمان واجعلونا من جملة من صالحتهم من سائر المدن حتى نؤدي لكم المال الذي أردتم في كل سنة، فكل من في حمص يرضى بقولنا.

فقال خالد: إذا وصلت إلى بلادكم يكون الصلح إن شاء الله إن كان لكم فيه أرب ولكن نحن ههنا لا نُصالحكم ولكن كونوا معنا إلى أن يقضي الله ما هو قاض، ثم إن خالداً قال لهم: هل عندكم علم عن صاحبنا الذي قتل ابن صاحبكم؟ قالوا: لعله عاري الجسد الذي قَتَل منا مقتلة عظيمة وفجع صاحبنا في ولده. قال خالد: عنه سألتكم؟ قالوا: بعثه وردان عندنا أسيراً على بغل.

ووكل به مائة فارس وأنفذه إلى حمص ليرسله إلى الملك ويخبره بما فعل، قال: ففرح خالد بقولهم، ثم دعا برافع بن عميرة الطائي، وقال: يا رافع ما أعلم أحداً أخبر منك بالمسالك وأنت الذي قطعت بنا المفازة من أرض السماوة وأعطشت الإبل، وأوردتها الماء، وأوردتنا أركة وما وطئها جيش قبلنا لمفازتها، وأنت أوحد أهل الأرض في الحيل والتدبير فخذ معك من أحببت واتبع أثر القوم فلعلك أن تلحق بهم وتخلص صاحبنا من أيديهم، فلئن فعلت ذلك لتكونن الفرحة الكبرى، فقال رافع بن عميرة: حُبًّا وكرامة، ثم إنه في الحال انتخب مائة فارس شداداً من المسلمين وعزم على المسير فأتت البشارة إلى خولة بمسير رافع بن عميرة ومن معه في طلب أخيها ضرار فتهلَّل وجهها فرحًا وأسرعت إلى لبس سلاحها وركبت جوادها وأتت إلى خالد بن الوليد، ثم قالت له: أيها الأمير

سألتك بالطاهر المطهر محمد سيد البشر إلا ما سرحتني مع من سرَّحت فلعلي أن أكون مشاهدة لهم. فقال خالد لرافع: أنت تعلم شجاعتها فخذها معك. فقال له رافع: السمع والطاعة وارتحل رافع ومن معه، وسارت خولة في أثر القوم ولم تختلط بهم، وسار إلى أن قرب من سلية، قال: فنظر رافع فلم يـر للقوم أثرًا، فقال لأصحابه: أبشروا فإن القوم لم يصلوا إلى ههنا، ثم إنه كَمَن بهم في وادي الحياة فبينما هم كامنون إذا بغبرة قد لاحت. فقال رافع لأصحابه: أيقظوا خواطركم وانتبهوا، فأيقظ القوم هممهم وبقوا في انتظار العدو وإذا بهم قد أتوا وهم محدقون بضرار، فلما رأى رافع ذلك كبر وكبر المسلمون معه، وحملوا عليهم فلم يكن غير ساعة حتى خلص الله ضرارًا وقتلوهم جميعًا وأخذوا سلبهم.

قال: وإذا بعساكر الروم قد أقبلت منهزمة وأولهم لا يلتفت إلى آخرهم، فعلم رافع أن القوم انهزموا فأقبل يلتقطهم بمن معه، قال: وكان خالد لما أرسل رافع بن عميرة في طلب ضرار، ليخلصه ومعه المائة فارس صدم وردان صدمة من يحب الشهادة ويبتغي دار السعادة، وصدم المسلمون الروم، فما لبثوا أن ولوا الأدبار وركنوا إلى الفرار وكان أولهم وردان، واتبعهم المسلمون وأخذوا أسلابهم وأموالهم ولم يزالوا في طلبهم إلى وادي الحياة، فاجتمع المسلمون برافع بن عميرة الطائي وضرار بن الأزور وسلموا عليهم وفرحوا بضرار رضي الله عنه وهنَّؤوه بالسلامة[1].

في معركة المسلمين مع الروم حول دمشق أسر الروم طائفة من المسلمات وعُرضت النسوة المأسورات على قادة الروم فتسابقوا إلى النساء وكل من سبق إلى واحدة يقول: هي لي حتى قسموا الغنيمة على ذلك. . وكان في النساء عجائز من حِمير وتُبَّع من نسل العمالقة والتبابعة، وكن قد اعتدن ركوب الخيل فقالت لهن خَولة بنت الأزور:

يا بنات حمير بقية تُبَّع، أترضين بأنفسكن علوج الروم، ويكون أولادكن عبيدًا

---

(١) «فتوح الشام» للواقدي ج١ (صـ ٦٥- ٦٧).

لأهل الشرك، فأين شجاعتكن وبراعتكن التي نتحدث بها عنكن في أحياء العرب، ومحاضر الحَضر ولا أراكن إلا بمعزل عن ذلك، وإني أرى القتل عليكن أهون من هذه المصائب وما نزل بكن من خدمة الروم الكلاب.

فقالت عفرة بنت غفار الحميرية: صدقت والله، يا بنت الأزور نحن والله في الشجاعة كما ذكرت، وفي البراعة كما وصفت، لنا المشاهد العظام والمواقف الجسام، ووالله اعتدنَ ركوب الخيل وهجوم الليل غير أن السيف يحسن فعله في مثل هذا الوقت، وإنما دهمنا العدو على حين غفلة، وما نحن إلا كالغنم، فقالت خولة: يا بنات التبابعة والعمالقة خذوا أعمدة الخيام وأوتاد الأطناب ونحمل بها على هؤلاء اللئام فلعل الله ينصرنا عليهم أو نستريح من معرة العرب، فقالت عفرة بنت غفار: والله ما دعوتِ إلا ما هو أحب إلينا مما ذكرتِ، ثم تناولت كل واحدة عموداً من أعمدة الخيام، وصِحن صيحة واحدة وألقت خولة على عاتقها عمود الخيمة، وسعت من ورائها عفرة، وأم أبان بنت عتبة وسلمة بنت زارع ولُبَنَى بنت حارم ومزروعة بنت عملوق وسلمة بنت النعمان، ومثل هؤلاء رضي الله عنهن، فقالت لهن خولة: لا ينفك بعضكن عن بعض، وكن كالحلقة الدائرة ولا تتفرقن فيقع بكن التشتيت وحطمن رماح القوم واكسرن سيوفهم.

قال: فهجمت خولة أمامهن، فأول ما ضربت رجلاً من القوم على هامته بالعمود فتجندل صريعاً والتفت الروم ينظرون ما الخبر؟ فإذا هم بالنسوة، وقد أقبلن والأعمدة بأيديهن، فصاح البطريق: يا ويلكن ما هذا؟ فقالت عفرة: هذه فعالنا فلنضربن القوم بهذه الأعمدة ولا بد من قطع أعماركم وانصرام آجالكم يا أهل الكفر.

فجاء بطرس وقال: تفرقوا عن النسوة ولا تبذلوا فيهن السيوف، ولا أحد منكم يقتل واحدة منهن وخذوهن أسارى ومن وقع منكم بصاحبتي فلا ينلها بمكروه، فتفرَّق القوم عليهن وحدقوا بهن من كل جانب، وراموا الوصول إليهن فلم يجدوا إلى ذلك سبيلاً، ولم تزل النساء لا يدنو إليهن أحد من الروم إلا ضربن قوائم فرسه فإذا تنكَّس عن جواده بادرت النساء بالأعمدة فيقتلنه ويأخذن سلاحه.

وقد نجحت النسوة في قتل ثلاثين رجلاً من الروم، فلما نظر بطرس إلى ذلك غضب غضبًا شديدًا، وترجّل وترجلت أصحابه نحو النساء، والنساء يحرِّض بعضهن بعضًا ويقلن: متنا كرامًا ولا تمُتن لئامًا، وأظهر بطرس رأسه وتلهفه عندما نظر إلى فعلهن، ونظر إلى خولة بنت الأزور، وهي تجول كالأسد وتقول:

نحن بنات تُبَّع وحمير ... وضربنا في القوم ليس يُنكَر
لأننا في الحرب نار تَسْعر ... اليوم تسقون العذاب الأكبر

فلما سمع بطرس ذلك من قولها، ورأى حسنها وجمالها، قال لها: يا عربية، اقصري عن فعالك فإني مُكرِمك بكل ما يسرك، أما ترضين أن تكوني سيدة أهل دمشق فلا تقتلي نفسك، فقالت له: يا ملعون ويا ابن ألف ملعون، والله لئن ظفرت بك لأقطعن رأسك، والله ما أرضى بك أن ترعى لي الإبل، فكيف أرضاك أن تكون كفؤًا. قال: فلما سمع كلامها حرَّض أصحابه على القتال، وقال: أترون عارًا أكبر من هذا العار في بلاد الشام، إن النسوة غلبنكم فاتقوا غضب الملك، فافترق القوم وحملوا حملة عظيمة وصبر النساء لهم صبر الكرام، فبينما هم على ذلك إذ أقبل خالد بن الوليد رضي الله عنه ومن معه من المسلمين، ونظروا إلى الغبار وبريق السيوف، فقال لأصحابه: من يأتيني بخبر القوم؟ فقال رافع بن عميرة الطائي: أنا آتيك به، ثم أطلق جواده حتى أشرف على النسوة وهن يقاتلن قتال الموت.

قال: فرجع وأخبر خالدًا بما رأى، فقال خالد: لا أعجبُ من ذلك إنهن من بنات العمالقة ونسل التبابعة، وما بينهن وبين تبع إلا قرن واحد. فقال خالد: لا تعجب يا رافع واعلم أن هؤلاء النسوة لهن الحروب المذكورات والمواقف المشهورات، وإن يكن فعلهن ما ذكرت، فلقد سُدْنَ على نساء العرب إلى آخر الأبد، وأزلن عنهن العار، فتهللت وجوه الناس فرحًا ووثب ضرار بن الأزور عندما سمع كلام رافع، فقال خالد: مهلاً يا ضرار ولا تعجل فإنه من تأنى نال ما تمنَّى، فقال: أيها الأمير لا صبر لي عن نصرة بنت أبي وأمي.

فقال خالد: قد قرب الفرج إن شاء الله تعالى، ثم إن خالدًا وثب ووثب

أصحابه، وقال: معاشر الناس إذا وصلتم إلى القوم فتفرقوا عليهم وأحدقوا بهم فعسى أن يخلص حريمنا، فقالوا: حبًّا وكرامة، ثم تقدم خالد فبينما القوم في قتال شديد مع النسوة إذ أشرف عليهم المواكب والكتائب والأعلام والرايات، فصاحت خولة: يا بنات التبابعة، قد جاءكم الفرج ورب الكعبة، ونظر بطرس إلى الكتائب المحمدية، وقد أشرفت فخفق فؤاده، وارتعدت فرائصه، وأقبل القوم ينظر بعضهم بعضًا.

فصاح بطرس: يا معشر النسوة، إن الشفقة والرحمة قد دخلت في قلبي؛ لأن لنا أخوات وبنات وأمهات وقد وهبتكن للصليب، فإذا قدم رجالكن فأخبرنهن بذلك، ثم عطف يريد الهرب إذ نظر إلى فارسين قد خرجا من قلب العسكر أحدهما قد تكمن في سلاحه، والآخر عاري الجسد، وقد أطلقا عنانهما كأنهما أسدان. وكانا خالدًا وضرارًا، فلما رأت خولة أخاها قالت له: إليَّ يا ابن أمي أقبل؟ صاح بها بطرس: انطلقي إلى أخيك، فقد وهبتك له، ثم ولى يطلب الهرب، فقالت له خولة - وهي تهزأ به -: ليس هذا من شيم الكرام تظهر لنا المحبة والقرب، ثم تظهر الساعة الجفاء والتباعد، وخطت نحوه، فقال: قد زال عني ما كنت أجد من محبتك، فقالت له خولة: لا بد لي منك على كل حال، ثم أسرعت إليه وقد قصده ضرار. فقال له: خذ أختك عني فهي مباركة عليك، وهي هدية مني إليك، فقال له ضرار: قد قبلت هديتك وشكرتها وإني لا أجد لك إلا سنان رمحي فخذ هذه مني إليك، ثم حمل عليه ضرار وهو يقول: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦].

ثم همهم إليه بالطعنة ووصلت إليه خولة فضربت قوائم فرسه فكبا به الجواد ووقع عدو الله إلى الأرض، فأدركه ضرار قبل سقوطه وطعنه في خاصرته فاطلع السنان من الجانب الآخر فتجندل صريعًا إلى الأرض فصاح به خالد، لله درُّك يا ضرار هذه طعنة لا يخيب طاعنها. ثم حملوا في أعراض القوم وجميع المسلمين معهم فما كانت إلا جولة جائل حتى قتل من الروم ثلاثة آلاف رجل.

قال حامد بن عامر اليربوعي: «لقد عددت لضرار بن الأزور في ذلك اليوم ثلاثين قتيلاً، وقتلت خولة خمسة وعفراء بنت غفار الحميرية أربعة».

فلله درُّ المؤمنات البطلات المجاهدات المقاتلات اللاتي تفوقن على عظماء الأبطال وشجعان الرجال.

وننتقل إلى طفل جاهد بسيفه وسنانه ونفسه وحصانه بسبب إحسان أمه تربيته.

قال أبو قدامة- أحد قادة المسلمين في غزواتهم ضد الروم-: «كنت أميرًا فدعوت إلى الجهاد في سبيل الله فجاءت امرأة بورقة وصرة ففضضت الورقة لأقرأها لأنظر فيها.. فإذا في تلك الورقة: «بسم الله الرحمن الرحيم من أمة الله المسلمة إلى أمير جيش المسلمين سلام الله عليك أما بعد:

فإنك قد دعوتنا إلى الجهاد في سبيل الله ولا قوة لي على الجهاد ولا مقدرة لي على القتال وهذه الصرة فيها ضفيرتي... فخذها قيدًا لفرسك لعل الله يكتب لي شيئًا من ثواب المجاهدين».

يقول: فشكرت الله على توفيقها وعلمت أن المسلمين يشعرون بواجبهم ويتكتلون ضد أعدائهم.. فلما واجهنا العدو أبصرت صبيًّا حدثًا ظننت أنه ليس أهلاً للقتال؛ لصغر سنه، فزجرته رحمة به، فقال: كيف تأمرني بالرجوع، وقد قال الله تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً﴾ [التوبة: ٤١].

قال أبو قدامة: تركته ثم أقبل عليَّ، وقال: أقرضني ثلاثة أسهم، فقلت له: وأنا معجب ومشفق عليه، أنا أقرضك ما تريد بشرط أن تشفع لي إن منَّ الله عليك بالشهادة، وكنت أشعر نحوه بمحبة وتقدير. فقال: نعم إن شاء الله، فأعطيته الأسهم الثلاثة، ثم أقبل على العدو في قوة وحماس، وما يزال ينال من أعدائه وينالون منه حتى خرَّ صريعًا في ميدان القتال، وكانت عيني لا تفارقه طوال المعركة إعجابًا به وشفقة عليه فلما خر صريعًا أقبلت عليه وسألته: هل تريد طعامًا أو ماء؟ فقال: لا... إني أحمد الله على ما صرت إليه ولكن لي إليك حاجة، فقلت له: ليس أحب إلي من قضائها يا بني فمرني ما تشاء فقال وهو يلفظ أنفاسه الطاهرة: أقرئ أمي مني السلام، ثم ادفع إليها متاعي.

فقلتُ: ومن أمك أيها الغلام؟ قال: أمي هي التي أعطتك شعرها؛ ليكون قيدًا لفرسك حين عَجَزَتْ أن تقاتل بنفسها في سبيل الله تحت لوائك. فقلت: بارك الله

فيكم من أهل بيت. ثم فارق الحياة، فقمت نحوه بما يجب فلما دفنته لفَظَتْهُ الأرض فعاودتُ دفنه مرة أخرى أيضًا، فأعمقت له في الحفرة، ثم دفنته فَلَفَظته الأرض فعاودت دفنه مرى أخرى فأعمقت له في الحفرة، ثم دفنته فلفظته الأرض مرة ثالثة... فقلت: لعله خرج بغير رضاء أمه، فصليت ركعتين ودعوت الله أن يكشف لي عن أمر هذا الغلام فسمعت من يقول لي: يا أبا قدامة دع عنك ولي الله... فتركته وشأنه وعلمت أن له مع الله حالاً... وبينما نحن كذلك إذا بطير قد أقبل فأكله فتعجبت كثيرًا، ثم رجعت إلى أمه تنفيذًا لوصيته، فلما رأتني أقبلت عليَّ، وقالت: ما وراءك يا أبا قدامة؟ هل جئتني معزيًا أو جئتني مهنئًا؟ فقلت لها: ما معنى ذلك يا أمة الله؟ فقالت: إن كان ابني قد مات فجئتني مُعزيًا، وإن كان قد قتل في سبيل الله تعالى فقد جئتني مهنئًا فقصصت عليها قصته، وأخبرتها عن الطيور وما فعلت به، فقالت: لقد استجاب الله دعاءه، فقلت لها: وما ذاك؟ قالت: إنه كان يدعو الله في صلواته وخلواته ويقول في صباحه ومسائه: «اللهم احشرني في حواصل طير خضر»، والحمد لله على تحقيق أمله وإجابة دعائه، قال الأمير: فانصرفت عنها، وقد علمت لماذا كتب الله لنا النصر والتأييد على الأعداء.

وهذه رواية أخرى لقصة أم الغلام المحشور في حواصل طير خُضر:

ومن المواقف المضيئة في الصبر والثبات هذه القصة العجيبة التي رواها العالم المجاهد أبو قدامة الشامي، فلقد جلس ذات يوم في مسجد رسول الله ﷺ في المدينة المنورة فقال له أحد أصحابه: يا أبا قدامة حدثنا بأعجب ما رأيته في الجهاد.

قال: نعم، إني دخلت في بعض سنين مدينة (الرقة) أطلب جملاً أشتريه لأحمل عليه زادي وعتادي فبينما أنا جالس إذ أقبلت امرأة وقالت: يا أبا قدامة سمعتك وأنت تحدث الناس عن الجهاد وتحث عليه، وقد رُزقت من الشَّعر ما لم يُرزقهُ غيري من النساء وقد قصصته وأصلحت منه (شكالاً) للفرس وعفرته بالتراب لئلا ينظر إليه أحد فيفتن به، وقد أحببت أن تأخذه معك فإذا سرت إلى بلاد الأعداء وصرت في ديارهم، والتقى الجمعان ورميت النبال وجُردت السيوف وشُرعت الأسنة، فإن احتجت إليه: وإلا فادفعه لمن يحتاج إليه حتى يصيبه الغبار

في سبيل الله تعالى. فأنا امرأة أرملة وكان لـي زوج وعشيرة كلهم قتلوا في سبيل الله، ولو كان عليَّ جهاد لجاهدت.

قال: وناولتني الشكال، وقالت: يا أبا قدامة.

اعلم أن زوجي لما قُتِلَ خلف لي غـلامًا منْ أحسن الشباب، وقـد تعلم القرآن والفروسية والرماية وهو قوّام وصوّام وله من الـعمر خمس عشرة سنة وهو غائب في ضيعة خلفـها له أبوه فلعله يقدم قبل مسيرتك فأوجـهه معك هدية إلى الله عز وجل، وأنا أسألك بحرمة الإسلام لا تحرمني ما طلبت من الثواب.

قال أبو قدامة: فأخذت الشكال فإذا هو مضفور من شعر رأسها، فقالت: ألقه في بعض رحلك وأنا أنظر إليه ليطمئن قلبي، قـال: فطرحته في رحلي وخرجت من (الرقة) ومـعي أصحـابي، فلما صـرنا عند حصن مـسلمة بن عـبد الملك إذا بفارس يهتف من ورائي: يا أبا قدامة: توقف يرحمك الله.

فوقفت وقلت لأصـحابي: تقدموا أنتم حتى أنظر من هذا، فـإذا أنا بفارس قد دنا مني، وعـانقني، وقال: الحـمد لله الذي لم يحرمـني صحبـتك، ولـم يردني خائبًا، فقـلت له: يا أخي أسفر لي عن وجهك فإن كان يلزم مـثلك غزو أمرتك بالسير وإن لم يلزمك غزو رددتك.

فأسفر عن وجهه فإذا غلام كأنه القمر ليلة البدر وعليه آثار النعمة.

فقلت له يا أخي: ألك والد؟ قال: لا، لقد استشهد في سبيل الله، فقلت له: يا أخي، ألك والدة؟ قال: نعـم. قلت: اذهب إليها فـاستأذنهـا، فإن أذنت وإلا فأقِم عندها.

قال: يا أبا قدامة: أما تعرفني؟ قلت: لا.

قال: أنا ابن صاحبة الوديعة. ما أسرع ما نسيت وصية أمي صاحبة الشكال!

سألتك بالله لا تحـرمني الغزو معك في سـبيل الله تعالى، فـلا تحقرني لصـغر سني، فإني حافظ لكتاب الله عز وجل عارف بسنة رسول الله ﷺ، وعارف بفنون القـتال، وإن أمي قـالت لي: يا بني إذا لـقيت الأعـداء فـلا تولهم الدبر، وهب نفسك لله تعالى واطلب مجـاورة الله مع أبيك وإخوانك الصالحين في الجنة، فإذا

رزقك الله الشهادة فاشفع فيَّ يوم القيامة، فإنه بلغني أن الشهيد يشفع في سبعين من أهله، ثم ضمتني إلى صدرها، ورفعت رأسها إلى السماء وقالت: إلهي وسيدي ومولاي.

هذا ولدي وريحانة قلبي وثمرة فؤادي سلمتهُ إليك فقربهُ من أبيه.

قال أبو قدامة: فلما سمعت كلام الغلام بكيتُ بكاءً شديدًا أسفًا على حسنه وشفقةً عليه ورحمةً لقلب أمه، وتعجبًا من صبرها فقال: يا عمٍّ ممَّ بكاؤك؟

فقلت: أبكي شفقة عليك ورحمة بأمك.

ثم سرنا، ونزلنا تلك الليلة، فلما كان الغد رحلنا وهو لا يفتر عن ذكر الله، فتأملته فإذا هو أفرسنا إذا ركبنا، وخادمنا إذا نزلنا، وكلما سار قوي عزمه وزاد نشاطه وصفا قلبه وظهرت عليه علامات الفرح، فلم نزل سائرين حتى قربنا من ديار الأعداء عند الغروب، فجلسنا وجلس الغلام يطبخ لنا طعامًا لإفطارنا، وكنا صيامًا، فغلبه النعاس فنام طويلاً فتبسم وهو نائم، فقلت لأصحابي: انظروا ضحكه في نومه! فلما استيقظ قلت له: مالي رأيتك ضاحكًا في نومك؟

قال: رأيت رؤيا فأعجبتني وأضحكتني.

قلت له: وما هي؟

قال: رأيت كأني في روضة خضراء أنيقة أجول فيها، فرأيت قصرًا من فضة، شُرُفُه[1] من الدر والجوهر، وأبوابه من الذهب، وستوره مرخاة، وإذا بجَوارٍ يرفعنَ الستور، وجوهُهُنَّ كالبدور، فقلن لي: مرحبًا بك فأردت أن أمدَّ يدي إلى إحداهن، فقالت: لا تعجل ما آن لك.

وسمعت بعضهن يقول: هذا زوج المرضية، وقلن لي: تقدم يرحمك الله، فتقدمتُ أمامي فإذا في أعلى القصر غرفة من الذهب الأحمر فيها سرير من الزبرجد الأخضر، قوائمه من الفضة البيضاء، عليه جارية كأن وجهها الشمس، فلولا أن الله ثبتني لذهب بصري وطار عقلي، من حسن الغرفة وجمال الجارية

(١) جمع (شُرْفة).

الرائع البارع، فلما رأتني قالت: مرحبًا بك، وأهلاً وسهلاً يا ولي الله وحبيبه، أنت لي وأنا لك، فأردت أن أضمها إلى صدري، فقالت: يا ولي الله وحبيبه، لا تعجل فأنت بعيد من الخنا(١) والميعاد بيني وبينك غدًا فأبْشر.

قال أبو قدامة: فقلت له: يا حبيبي، رأيت خيرًا وخيرًا يكون إن شاء الله، ثم بتنا متعجبين من كلامه، فلما أصبحنا تبادرنا وركبنا، فإذا المنادي ينادي: يا خيل الله اركبي وبالجنة أبشري.

يا عباد الله انفروا خفافًا وثقالاً وجاهدوا، فما كان غير ساعة وإذا بجيش أعداء الله خذلهم الله قد أقبل كالجراد المنتشر، فكان أول من هجم عليهم الغلام، فبدَّدهم وفرّقهم وتوغل في صفوفهم فقتل منهم رجالاً، فلحقته وأخذت بعنان فرسه، وقلت: ارجع يا بني فأنت صبي لا تعرف خداع الحرب، فقال: يا عم، ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥].

فبينما هو يكلمني إذ هجم علينا الأعداء هجمة شديدة فحالوا بيني وبين الغلام ومنعوني عنه واشتغل كل واحد بنفسه.. فلما افترق الجمعان، رأيت القتلى فجلت بفرسي بينهم ورأيت الغلام بين سنابك الخيل وقد علاه الغبار وسالت دماؤه، فأقبلت عليه.. فلما رآني قال: يا عمي، لقد صدقت الرؤيا وربِّ الكعبة فرميت نفسي عليه وقبلته بين عينيه ومسحت التراب والدم عن وجهه الحسن، وقلت له: يا حبيبي لا تنس عمَّك أبا قدامة اجعله في شفاعتك يوم القيامة. فقال: مثلُك لا يُنسى، أتمسح وجهي بثوبك؟! ثوبي أحق به من ثوبك، دعه يا عمي ألقى الله تعالى به، يا عمي هذه الحوراء التي وصفتُ لك قائمة على رأسي تنظر خروج روحي وتقول لي: عجِّل فأنا مشتاقة إليك، بالله يا عمي، إن ردّك الله سالمًا فاحمل أمتعتي لوالدتي وسلّمها لها؛ لتعلم أني لم أضيع وصيتها، ولم أجبن عند لقاء الأعداء، واقرأ مني السلام عليها وقل لها: إن الله قبل هديتك.

ولي يا عم أخت صغيرة عمرها عشر سنوات كانت أول من يستقبلني إذا

---

(١) الكلام الفاحش البذيء.

دخلت ويودعني إذا خرجت وقالت لي وهي تودعني عند خروجي هذا: بالله يا أخي لا تبطئ عنا، فإذا لقيتها فاقرأ عليها مني السلام، وقل لها: يقول لك أخوك: الله يتولاّك، ثم تبسَّم، وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله، ثم خرجت روحه رضي الله عنه، فلما رجعنا من الغزو ودخلنا (الرقة) لم يكن لي همٌّ إلا دار أمِّ الغلام، فلما سألت عن دارها ودنوت منها إذ بجارية تشبهه حسنًا وجمالاً، تقول لكل من مر عليها: يا عم من أين جئت؟ فيقول: من الغزو، فتقول: أما رجع معكم أخي؟ فيقولون: لا، فلما سمعتها قربت منها فسألتني كذلك، ثم بكت، وقالت: ما بالي أرى الناس يرجعون وأخي لم يرجع؟ فغلبتني العبرة، ثم تجلدتُ خوفًا على الجارية، ثم قلت لها: قولي لأمِّك كلِّمي أبا قدامة، فسمعتني المرأة فخرجت إليَّ متغيرة اللون فسلَّمت عليها فردَّت عليّ السلام، وقالت: أمبشر أنت يا أبا قدامة أم مُعز؟ قلت: بيني لي البشارة من التعزية، يرحمكِ الله، قالت: إن كان ولدي رجع سالمًا فأنت معز، وإن كان قتل في سبيل الله فأنتَ مبشر، فقلت: أبشري فقد قبلت هديتك، فبكت وقالت: قُبِلَت؟ فقلت: نعم، فقالت: الحمد لله الذي جعله ذخيرة لي يوم القيامة، فاقتربت أخته مني، فقلت لها: أخوكِ يسلم عليك، ويقول لك: الله يتولاكِ، فصرخت وخرت مغشيًّا عليها، فحركتُها فإذا هي ميتة، فتعجبت من ذلك، ثم سلَّمت متاعه الذي كان معه لأمه وودعتها وانصرفت حزينًا على الغلام وأخته.

ومتعجبًا من صبر أمِّهما. والله أعلم(١).

* * *

(١) «فكاهة الأذواق من مشارع الأشواق في فضل الجهاد والترغيب والحث عليه» للقاضي الأديب الشيخ محمود العالم، توفي سنة (١٣١١هـ) (صـ ٧٦- ٨١). ط- دار الجيل بيروت، ويراجع «سراج القلوب وعلاج الذنوب» للشيخ أبي علي زين الدين علي المعيري بهامش الجزء الأول من «قوت القلوب» لأبي طالب المكي (صـ ١٠٥- ١٠٨).

بطلة أجنادين

أم حكيم بنت الحارث

ولنستمع الآن لبطلة من بطلات التضحية والجهاد والصبر.

تقول البطلة: كان ممن جرح في معركة أجنادين مع الروم الصحابي الجليل أبان ابن سعيد بن العاص أصابته نشابة كانت مسمومة فأحسن بلهيب السم في بدنه فتأخر، وحمله إخوانه إلى أن أتوا به إلى المعسكر.. ثم لمسته يد الشهادة فأوصلته إلى الجنة.

وكانت زوجته بنت عمه، وكان قد تزوجها بأجنادين، وكانت قريبة العهد بالعرس ولم يكن الخضاب ذهب من يدها، ولا العطر من رأسها، وكانت من المترجلات البازلات من أهل بيت الشجاعة والبراعة، فلما سمعت بموت بعلها أتته تتعثر في أذيالها إلى أن وقعت عليه، فلما نظرته صبرت واحتسبت، ولم يسمع منها غير قولها:

هنئت بما أعطيت ومضيت إلى جوار ربك الذي جمع بيننا، ثم فرق، ولأجهدن حتى ألحق بك فإني لمتشوقة إليك، حرام علي أن يمسني بعدك أحد، وإني قد حبست نفسي في سبيل الله عسى أن ألحق بك، وأرجو أن يكون ذلك عاجلاً، ثم حُفر له ودفن مكانه.. وصلى عليه خالد بن الوليد رضي الله عنه فلما غيب في التراب لم تقف على قبره دون أن أتت إلى سلاحه ولحقت بالجيش من غير أن تعلم خالدًا بذلك، وقالت: على أي باب قُتل بعلي[1]؟

فقيل لها: على باب توما، والذي قتله هو صهر الملك، فسارت إلى أصحاب شرحبيل بن حسنة رضي الله عنه.

قال شرحبيل بن حسنة رضي الله عنه رأيت يوم حصار دمشق رجلاً على باب توما يحمل الصليب - وهو أمام توما - وهو يشير إليه، اللهم انصر هذا الصليب

---

(١) أي: زوجي.

ومن لاذ به، اللهم أظهر له نصرته وأعل درجته.

قال شرحبيل: وأنا دائمًا أنظر إليه إذ رمته زوجة أبان بنبلة فلم تخطئ رميتها، وإذا بالصليب قد سقط من يده، وهوى إلينا وكأني أنظر لمعان الجوهر من جوانبه فما فينا إلا من بادر إليه ليأخذه وقد استتر بالدرق وتزاحم بعضنا على بعض كل منا يسبق إليه ليأخذه، ونظر عدو الله توما إلى ذلك من تنكس الصليب الأعظم وإهوائه إلى المسلمين.

فعند ذلك تغيظ توما وعظم عليه الأمر، وقال: يبلغ الملك أن الصليب الأعظم أخذ مني وملكته العرب، لا كان ذلك أبدًا، ثم إنه حزم وسطه وأخذ سيفه.

وقال: من شاء منكم فليتبعني ومن شاء فليقعد فلا بد لي من القوم عسى أن أشفي صدري . . . فتبعه القوم كالجراد المنتشر.. ونظر شرحبيل بن حسنة إلى عدو الله، وهو مقبل فرمى الصليب من يده وصادمه، فلما رأى عدو الله الصليب مرميًا على الأرض صرخ بأصحابه صرخة هائلة، ونظرت زوجة أبان بن سعيد - رضي الله عنه وعنها - إلى حملة عدو الله على شرحبيل.

فقالت: من هذا؟ قالوا: صهر الملك، وهو قاتل بعلك أبان بن سعيد، فلما سمعت ذلك منهم حملت حملة عظيمة إلى أن قاربته ورمته بنبلة، وكان الروم أرهبوها فلم تلتفت إليهم دون أن خفقت نبلتها على صاحبها، وقالت: بسم الله وعلى بركة رسول الله ﷺ، ثم أطلقتها، وكان عدو الله واصلاً إلى شرحبيل إذ جاءته النبلة فأصابت عينه اليمنى فسكنت النبلة فيها فتقهقر إلى ورائه صارخًا وهمت بأن ترميه بأخرى فتبادر إليه الرجال واستتروا بالطوارق وتبادر إليها قوم من المسلمين يحامون عنها، فلما أمنت من شر الأعداء أخذت ترمي بالنبل، ثم إنها رميت علجًا من الروم فأصابت صدره، فسقط هاويًا إلى الأرض..

فلو كان النساء كمثل هذه ... لفُضِّلت النساءُ على الرجالِ

وكم من نساء تستحق وصف الرجولة دون بعض الرجال. إي والله إنها البطولة في أسمى معانيها، بطولة في الصبر، بطولة في التضحية، بطولة في الثبات على المبدأ، بطولة في الشجاعة والدفاع عن الحق، بطولة في الجهاد في سبيل الله

تعالى، بطولة في حب الشهادة أو النصر.

بطولة في سلامة الدين وقوة اليقين. . .

بطولة تربية وبناء. .

بطولة تضحية وفداء. .

بطولة صلاح ووفاء. .

شجاعة اللسان:

ومن أعظم ألوان الشجاعة قول الحق وإن كان مرًّا، والأخذ على يد الظالمين وحملهم على الحق حملاً.

قال رسول الله ﷺ: **«سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله»**[١].

وعن طارق بن شهاب رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي ﷺ وقد وضع رجله في الغرز: أي الجهاد أفضل؟ قال: **«كلمة حق عند سلطان جائر»**[٢].

وذلك نشاهده بوضوح في عرض الأنبياء عليهم السلام عبادة الله وتوحيده ونبذ الشرك والأوثان في بلاط الجبابرة، وقصور الأكاسرة، ومساكن القياصرة.

كما حدث من موسى وهارون عليهما السلام عندما ذكّرا فرعون لعنه الله بوعد الله ووعيده وعظمته وتوحيده مع ما يُظن أن يفعله من ظلم وتجبر.

قال لهما ربهما: **﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٤٨) قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾** [طه: ٤٣ - ٥٢].

---

(١) أخرجه ابن ماجه بإسناد صحيح «الترغيب» (٣/ ٢٢٩).

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن.

فعلى المؤمن أن لا تمنعه هيبة الناس من قول الحق.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قام خطيبًا فكان فيما قال: «**ألا لا يمنعنَّ رجلاً هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه**»(١).

فكن عبد الله ممن لا يخاف في الله لومة لائم.

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والمكره وألا ننازع الأمر أهله، وأن نقوم - أو نقول - الحق حيث كنا، لا نخاف في الله لومة لائم»(٢).

وعلى العبد المؤمن ألا يحقِّر نفسه ويذلها بعدم المجاهرة بقول الحق والإنكار على المقصر والمذنب.

قال رسول الله ﷺ: «**لا يحقر أحدكم نفسه**»، قالوا: يا رسول الله، كيف يحقِّر أحدنا نفسه؟ قال: «**يرى أمرًا لله عليه فيه مقال ثُمَّ لا يقول فيه، فيقول الله - عز وجل - له يوم القيامة: ما منعك أن تقول فِيَّ كذا وكذا؟ فيقول: خشية الناس، فيقول: فإياي أحق أن تخشى**»(٣).

الشجاعة بين خُلقين ذميمين:

وليس معنى شجاعة القول سوء الأدب والاستطالة في أعراض الناس والمبالغة في إنكار المنكر.

وإنما معناه: الإعلان بالحق أمام معارضيه بأجمل كلمة وأعطر عبارة دون تجريح أو سب أو شتم أو لعن أو قذف أو تصريح كقوله ﷺ: «**ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا**».

فالمؤمن ناهيك عن الداعية أو العالم ينتقي أطايب الكلام كما يُنتقى أطايب التمر.

---

(١) أخرجه ابن ماجه بلفظه (٢/ ١٣٢٨): كتاب الفتن، وأخرجه الترمذي: كتاب الفتن ضمن حديث طويل، وقال: حديث حسن صحيح. وأخرجه أحمد (٣/ ١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأحكام، ومسلم: كتاب الإمارة.

(٣) أخرجه ابن ماجه: كتاب الفتن (٢/ ١٣٢٨)، وأخرجه أحمد (٣/ ٣٠)، وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده صحيح ورجاله ثقات.

وكم من كلام لين أحيا قلوبًا ميتة وأصلح أنفسًا مريضة وشرح صدورًا ضيقة، وأحق حقًّا وأبطل باطلاً. وكم من كلام بذيء - أريد به حق - أفسد أكثر مما أصلح، وعسَّر أشنع مما يسَّر، وأبعد أشد مما قرَّب ودحض حقًّا وأحق باطلاً.

والشجاعة أيضًا لا تعني التهور وإلقاء النفس للتهلكة، قال تعالى: ﴿وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، والمحسنون هنا هم الذين يحسنون صناعة الموت، فلا يلقون بأنفسهم ما لم تكن هناك منفعة أو ضرورة للفرد أو الجماعة.

- فالشجاعة بين خلقين ذميمين:

- بين الجبن والتهور.

- بين السكوت عن الحق والنصح السيئ.

شجاعة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

من العوامل التي ساعدت على صلاح بيئة السلف رضي الله عنهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولشجاعتهم في الحق وجرأتهم على أهل المعاصي والبدع لم يعبأوا بسطوة سلطان، ولا ظلم ظالم، ولا جبروت جبار، وكانوا في هذا الخلق على فهم عميق، وتطبيق دقيق.

عن قيس بن أبي حازم قال: لما ولي أبو بكر رضي الله عنه صعد المنبر فحمد الله، ثم قال: يا أيها الناس، إنكم تقرءون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإنكم تضعونها على غير مواضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إنَّ الناس إذا رأوا المنكر ولم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب»**(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قعد أبو بكر على منبر رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه أبو داود رقم (٤٣٣٨)، والترمذي (ح ٢١٦٨)، وابن ماجه (ح ٤٠٠٥)، وأحمد (١/ ٢، ٥، ٧، ٩) وهو في صحيحة الألباني رقم (١٥٦٤).

يوم سُمِّي خليفة رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ، ثمَّ مدّ يديه، ثمَّ وضعهما على المجلس الذي كان النبي ﷺ يجلس عليه من منبره.

ثمَّ قال: «سمعت الحبيب، وهو جالس على هذا المجلس يتأول هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، ثمَّ فسرها، فكان تفسيره لنا، أن قال: «**نعم، ليس من قوم عمل فيهم بمنكر، ويفسد فيهم بقبيح، فلم يغيروه، ولم ينكروه، إلا حق على الله أن يعمهم بالعقوبة جميعًا، ثمَّ لا يستجاب لهم**»، ثمَّ أدخل أصبعيه في أذنيه فقال: أن لا أكون سمعته من الحبيب فصمتا»(١).

وعن عمر رضي الله عنه: «ما يمنعكم إذا رأيتم السفيه يخرق أعراض الناس أن لا تعربوا(٢) عليه، قالوا: نخاف لسانه، قال: ذاك أدنى أن تكونوا شهداء»(٣).

وعن عثمان رضي الله عنه قال: «مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن يسلط عليكم شراركم، ويدعوا عليهم خياركم فلا يستجاب لهم»(٤).

وعن علي رضي الله عنه قال: «لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتجدنَّ في أمر الله، أو ليسومنكم أقوام يعذبونكم ويعذبهم الله».

وعنه قال: «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليسلطن عليكم شراركم، ثمَّ يدعوا خياركم فلا يستجابُ لهم».

وعلى الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يبدأ بنفسه أولاً، ثمَّ أهله وأولاده ثانيًا، ثمَّ الأقارب، ثمَّ الجيران، ثمَّ بقية المسلمين.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كان عمر إذا أراد أن ينهى الناس عن شيء

---

(١) أخرجه ابن مردويه كما في «كنز العمال» (٢/ ١٣٨).

(٢) لا تعربوا: أي: لا تنكروا.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة وأبو عبيد في «الغريب»، وابن أبي الدنيا في «الصمت» كما في «الكنز» (٢/ ١٣٩).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة: كذا في الكنز (٢/ ١٣٩).

تقدَّم إلى أهله فقال: لا أعلمن أحدًا وقع في شيء مما نهيتُ عنه إلا أضعفت له العقوبة»[(١)].

وعن عبد العزيز بن أبي بكرة أن أبا بكرة: «رضي الله عنه تزوج امرأة من بني غُدانة، وأنها هلكت فحملها إلى المقابر، فحال إخوتها بينه وبين الصلاة، فقال لهم: لا تفعلوا فإني أحق بالصلاة منكم، قالوا: صدق صاحب رسول الله ﷺ فصلَّى عليها، ثمَّ دخل القبر فدفعوه دفعًا عنيفًا فوقع فغُشي عليه، فحُمل إلى أهله، فصرخ عليه يومئذ عشرون من ابن وبنت له، قال عبد العزيز: وأنا يؤمئذٍ من أصغرهم، فأفاق إفاقةً، فقال: لا تصرخوا عليّ، فوالله ما من نفس تخرج أحب إليّ من نفس أبي بكرة، ففزع القوم فقالوا: لِمَ يا أبانا؟ قال: إني أخشى أن أدرك زمانًا لا أستطيع أن آمر بالمعروف ولا أنهى عن المنكر، ولا خير يومئذٍ»[(٢)].

علاج الجبن:

الجبن نقيض الشجاعة، وإنما يتأتى الجبن من تعظيم المخلوق ونسيان عظمة الخالق.

لذا فإن على من ابتلي به أن يداويه بما يلي:

١ - الخوف من الله وخشيته، والتفكر في قدرته على الخلق وتصرفه في الرزق.

٢ - التأمل في حقيقة المخلوق، فالمخلوق ضعيف مهما أوتي من قوة، عاجز مهما أعطي من قدرة، جاهل مهما رُزِق من علم، فقير مهما وهب من غنى.

٣ - النظر إلى العواقب:

فقول الحق لا يمنع رزقًا ولا يُقصِّر عمرًا، والوقوف في وجه الظالم لا يلغي حياة ولا ينفي ذكرًا.

بينما الشهادة في سبيل الله والتضحية رغبة فيما عند الله فيها عز الدنيا والفوز

---

(١) أخرجه ابن سعد وابن عساكر.

(٢) «سيرة الصحابة» للمؤلف.

بنعيم الآخرة.

وهي مع هذا يسيرة للغاية، يقول ﷺ: **«ما يصيب الشهيد من الشهادة إلا مثل وخز الإبرة»**[1].

وفي رواية: **«ما يجد الشهيد من القتل إلا كما يجد أحدكم من مس القرصة»**.

٤ - مطالعة سير المجاهدين الأبطال والفوارس الشجعان والعلماء الأخيار والدعاة الأحرار.

٥ - تعويد النفس على البذل والعطاء.

* * *

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم، وأحمد (٢/٢٩٧) والترمذي رقم (١٦٦٨) كتاب الجهاد وسنده حسن وصححه ابن حبان.

(١٦) العزة

لئن كانت القناعـة تعني الرضا بالقليل وانصـراف النفس عن الحرص والطمع، فإن العزة أوسع دائـرة فهي لا تكتفي بالاستـغناء عن المال، بل تعني اجتناب الذل أمام المخلوق في كافة الأحوال والأزمان.

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

نحـن للـحق ولـلإيمان جـند مـسلمـون
نحـن لا نخـشـى أذى الظلـم ولا ريب المنون
عـزة الإسـلام في الأنـفس تأبـى أن تهـون
وترى أن المعـالي لـلمـيـامين تـكون
فـابتـسم يـا مـوت للأبطال وابـكي يا سجـون
هـلَّل الـفـتـح المبـين يا جـنـود المسـلمـين
رغم أنـف الكـافـرين رددوا الله أكـبـر
نحن إن نُـسجن وإن نعـدم فـجنات الـنعـيم
هي مـأوانا وأهل البـغي في نـار السـمـوم
فـاملئـوا الأرض لهـيـبًا يا طواغـيـت الجـحـيم
واسـتـعـينوا بالمنايا.. مـرتع الـظلم وخـيم
حـسـبنا أنَّـا على شـرع النبـي المسـتـقـيم
هـلَّل الـفـتـح المبـين يا جـنـود المسلمـين
رغم أنـف الكـافـرين رددوا الله أكـبـر

فحزب الله تبارك وتعالى أعزة على الكافرين أشداء على المعاندين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى

الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ...﴾ [المائدة: ٥٤].

وقد عاشت أمة الإسلام حينًا من الدهر عزيزة منيعة كريمة مهابة.

عزة سيدنا عمر:

عندما ذهب عمر رضي الله عنه ليفتح بيت المقدس، قسم الطريق مع غلامه ثلاثة أقسام قسمًا يركب عمر رضي الله عنه وقسمًا يركب الغلام، وقسمًا يستريح فيه البعير، وكانت هذه القسمة بالقرعة، فأيهما وقعت عليه القرعة ركب، وحُدد المقدار الزمني للركوب بقراءة خمسين آية، هكذا، لا استماع أغاني ولا مشاهدة تمثيليات، ولا نظر لراقصات أو عاريات.

وعندما ركب الفاروق رضي الله عنه اعترضته مخاضة فنزل عن بعيره، ونزع موقيه(١) فأمسكهما بيده وخاض الماء رحمة بالبعير، فأبصره أبو عبيدة، فقال: قد صنعت اليوم صنيعًا عظيمًا عند أهل الأرض، صنعت كذا وكذا، قال: فصكَّ عمر في صدره وقال: أو لو غيرك يقولوها يا أبا عبيدة، إنكم كنتم أذل الناس وأحقر الناس وأقل الناس، فأعزكم الله بالإسلام فمهما تطلبوا العزة بغيره يذلكم الله(٢).

وعن أبي العالية الشامي قال: قدم عمر بن الخطاب الشام على طريق إيلياء (بيت المقدس) على جمل أورق تلوح صلعته للشمس، ليس عليه قلنسوة ولا عمامة تصطفق رجلاه بين شعبتي الرحل بلا ركاب، وطاؤه كساء أنبجاني ذو صوت، هو وطاؤه إذا ركب، وفراشه إذا نزل، حقيبته نمرة أو شملة محشوة ليفًا، هي حقيبته إذا ركب ووسادته إذا نزل، وعليه قميص من كرابين قد بلى وتخرَّق جنبه، فقال: ادعوا لي رأس القوم فدعوا له بالجلوس، فقال: اغسلوا قميصي وخيِّطوه وأعيروني ثوبًا أو قميصًا، فأتي بقميص كتان، فقال: ما هذا؟ قالوا: كتان، قال: وما الكتان؟ فأخبروه، فنزع قميصه فغُسِل ورُقِع، وأُتي به فنزع قميصهم ولبس قميصه، فقال له الجلوس: أنت ملك العرب، وهذه بلاد لا

---

(١) موقيه: أي خُفَّيه.

(٢) أخرجه الحاكم وقال: صحيح على شرط البخاري ومسلم.

تصلح بها الإبل، فلو لبست شيئًا غير هذا لكان أعظم في أعين الروم، فقال كلمة سجلها التـاريخ بقلمه المبارك: «نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فـلا نطلب بغير الله بديلاً»، فأتي بـبرذون فطرح عليه قطـيفة بلا سـرج ولا رحل فركبـه بها فـقال: احبـسوا احبـسوا، ما كنت أرى الـناس يركبون الشـيطان قبل هذا، فـأُتِي بجمله فركبه.

الرشيد معز ديار الإسلام:

وهارون الرشيد كـان على أثر هؤلاء، فقد كتب إليه ملك الروم نقـفور رسالة يقول فيها:

«من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد: فإن الملكة التي كانت قبلي، أقامتك مقام الرّخ، وأقامت نفسهـا مقام البيدق، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقًا بحمل أمثالها إليها، ولكن ذاك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي، فاردد مـا حصل قبلك من أموالها، وافتـدِ نفسك بما يقع به المصادرة لك، وإلا فالسـيف بيننا وبينك»، ولما قرأ الرشـيد الكتاب، اسـتفزه الغـضب حتى لم يُمكن أحـدًا أن ينظر إليه دون أن يخـاطبه، واستـعجم الرأي على الـوزير، ودعا الرشيـد بدواة وكتب على ظهـر الكتاب، «بسم الله الرحمـن الرحيم، من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قد قـرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه دون أن تسمعه والسلام»(١).

وشخص الرشيد من يومه، وسـار حتى نزل باب هرقلة ففتح وغنم، واصطفى وأفاد وخرَّب وحرق، فطلب نقفور الموادعة على خراج يؤدِّيه في كل سنة، فأجابه إلى ذلك، فلما رجع من غزوته وصار بالرقة، نقض نقفور العهد، وخان الميثاق، وكان البرد شـديدًا، فيئس نقفور من رجعـته إليه، وجاء الخبر بارتداده عـما أخذ عليه، فلما علم الرشيد بذلك كرَّ راجعًا في أشد محنة حتى أذله وأخضعه.

ملك مـجـرد للـجـهـاد بنفسـه ... فـعـدوُّه أبـدًا به مـقـهـورُ
نقض الـذي أعطيـتـه نـقـفـور ... وعليـه دائرة الـبـوار تدورُ

(١) «تاريخ الطبري» أحداث سنة (١٨٧- ١٩٠)، و«الكامل» لابن الأثير.

أعطاك جزيته وطأطأ خده ... حذر الصوارم والردى محذورُ

هذا هو الرشيد الذي لم يبق أسيرًا واحدًا في أيدي الروم في عهده!!

وفي عصرنا كل المسلمين أسرى!!

تملأ مسامع الأرض شدوًا ... دولة العز والعلا العامراتُ
منبر في سماء بغداد يعلو ... بالأماجيد دونه مُرهفَاتُ
قف ببغداد وهي فوق الروابي ... تختلس فوق روضها الوطئاتُ
ذاك هارون قف وحيِّ مليًّا ... هو عقد تزهو به حلقاتُ
زلزل الروم بالهزائم حتى ... زهدوا من جواريه حيث باتوا
مشرئبًا إلى انتصار جديد ... والعوالي في نصره معلناتُ
كلما أمَّ وجهة بخميس ... رحَّبتْ كي يزورهن جهاتُ
قد تحدى الغمام في الجو يسعى ... ظن أن البعير عنه فواتُ
قالوا: هوِّن فسوف تنزل فينا ... فلنا البحر والفضا والفلاة
دوحة العز قد سقتك الغوادي ... فوق أوراقك الدُّمى هامعاتُ
فلكم قد جناك دين ودنيا ... حيثُ طابت أبناؤها والبناتُ

وا معتصماه:

وعلى نهج هؤلاء كان الخليفة العباسي المعتصم، حدث أن رجلاً وقف عليه، وقال: يا أمير المؤمنين: كنت بعمورية وجارية من أحسن النساء أسيرة قد لطمها عِلج في وجهها فنادت وامعتصماه! فقال العلج[1]: وماذا يفعل المعتصم؟ هل يجيء على أبلق ينصرك؟ فزاد في ضربها، فأراد المعتصم وجهة عمورية وقال: لبيكِ أيتها الجارية هذا المعتصم بالله قد أجابك.

ثم تجهزوا إليها في اثني عشر ألف فرس أبلق، فلما وصل عمورية حاصرها حتى فتحت له، فلما دخلها ومعه الرجل الذي بلغه حديث الجارية، قال له: سر إلى الموضع الذي رأيتها فيه فسار به وأخرجها من موضعها وقال لها: يا جارية،

---

(١) العلج: الرجل من الفرنجة.

هل أجابك المعتصم؟ ثمَّ ملكها العلج الذي لطمها والسيد الذي كان يملكها وجميع ماله.

الملك الكامل يبصق في وجه هولاكو:

وعلى درب هؤلاء سـار الملك الكامل محـمد بن غـازي بن محمـد بن أيوب (أخو صلاح الدين) الذي كان يبرز إلى التتـار ويقاتلهم وينكي فيهم، فهابوه، ثمَّ بنوا عليهـم سوراً بإزاء البلد، (بأبرجة) ونفـدت الأقوات حـتى كان الرجل يموت فيؤكل.

وكان الكامل شديد البـأس، قوي النفس، لم ينقهر للتتـار بحيث إنهم أخذوا أولاده من حصنهم، وأتوه بهم إلى تحت سور (ميـافارقين) وكلموه أن يسلم البلد بالأمـان، فقـال: ما لكـم عندي إلا السيف، ودخل الـتتـار البلدة، ودخلوا دار الكامل، وأتوا به هولاكـو (بالرُّها) فإذا هو يشرب الخـمر، فناول الكامل كـأسًا، فأبى، وقال: هذا حرام، فقال لامرأته: ناوليه أنت، فناولته، فأبى وشتم، وبصق في وجه هولاكـو - فيما قـيل -، وكان الكامل ممَّن سار قـبل ذلك ورأى «القان» الكبير، وفي اصطلاحهم من رأى وجه (القـان) لا يقتل، فلما واجه هولاكو بهذا استشاط غضبًا وقتله.

ثمَّ طيف برأسـه بدمشق بالطبـول، وعُلِّق على باب الفـراديس، فلما انقلـعوا وجاء المظفَّر، دفن الرأس(١).

وفي زماننا:

لو قـيل للحـيـوان كن بشـرًا هنا   لبكـى وأعلن رفـضـه الحـيـوان
كم باسـمنا نـشِب النزاع ولـم يكن   رأي لنـا بنـشـوبه أو شـانُ
صـحـنا فلم يُشـفـق علينا عـقـرب   نحـنا ولـم يرفق بـنا ثعـبـان
ومن المجـيـر وقـد جـرت أقـدارنا   في أن يجـور الأهل والجـيـرانُ

عزة العلماء:

وعزة العلماء ضرورة لصون كرامتهم وتعظيم علمهم ورفعة قدرهم.

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٢٣/ ٢٠١، ٢٠٢).

دخل سفيان الثوري على أبي جعفر المنصور (الخليفة العباسي) فسأله المنصور أن يرفع إليه حاجته فأجابه: «اتق الله فقد ملأت الأرض ظلمًا وجورًا، فطأطأ المنصور رأسه، ثمَّ كرر عليه السؤال فأجابه: إنما نزلت هذه المنزلة بسيوف المهاجرين والأنصار، وأبناؤهم يموتون جوعًا، فاتق الله، وأدِّ إليهم حقوقهم، فطأطأ المنصور رأسه، وكرر عليه السؤال فتركه وانصرف»[١].

وقال أبو عاصم النبيل زعم لي سفيان قال: جاء ابن لسليمان بن عبد الملك، فجلس إلى جانب طاوس[٢] فلم يلتفت إليه.

فقيل له: جلس إليك ابن أمير المؤمنين فلم تلتفت إليه! قال: أردت أن يعلم أن لله عبادًا يزهدون فيما في يديه[٣].

من يمد رجله لا يمد يده:

ولما قدم السلطان عبد العزيز مصر زار الجامع الأزهر، وصحبه الخديوي، فإذا رجل بالجامع كأنه غير مهتم، فهو مُسند ظهره، ماد رجليه، فأسرع بالسؤال عنه، ثمَّ كلف أحد رجاله أن يذهب إليه بصُرَّة من المال يريد أن يعرف حاله، فلما جاءه الرسول ليعطيه قبض الشيخ عنه يده، وقال له: قل لمن أرسلك إنَّ من يمد رجله لا يمد يده[٤].

القارئ العزيز:

هذا هو الشيخ محمد رفعت الذي اتصل به الملك فاروق ليسأله هل سيحضر الحفل الذي عقدته الدولة المصرية برئاسة الملك فاروق: وكان الذي رفع سماعة الهاتف أخاه، فقال للشيخ: الملك فاروق يسألك هل ستحضر الحفل أم لا؟ فقال: قل له - ولم يقم ولم يقل أعطوني الهاتف لأجيبه - سأحضر.

فاتصل الملك فاروق مرة ثانية ليستيقن من حضور الشيخ فأجابه بالطريقة نفسها.

---

(١) «قصص الصالحين» للمؤلف (صـ ١٦٨).

(٢) التابعي المشهور طاوس بن كيسان اليماني.

(٣) «سير أعلام النبلاء»، و«صفة الصفوة».

(٤) «قصص الصالحين» للمؤلف (صـ ١٨٣).

ولو اتصل رئيس دولة بحامل قـرآن في زماننا لهرول إليـه، وقال: لا داعي يا باشا - أو يا ريس - للاتصال، وسآتي إليكم ولو كنت مريضًا. . .

فلا يليق بعالم الدين وحامل القرآن أن يذل نفسه ابتغاء الحياة الدنيا.

وصدق القائل:

يقـولون لي فيـك انقبـاض وإنما رأوا رجـلاً عن موقف الذل أحـجمـا
أرى النـاس من دانـهم هـان عنـدهم ومن أكـرمـتـه عـزة النفس أكـرمَـا
ولم أقضِ حق العلم إن كـان كلـمـا بدا طـمع صـيـرته لـي سُلمـا
إذا قـيل هـذا منهلٌ قـلت قـد أرى ولكن نفس الحر تحـتمل الظمـا
ولم أبتـذل في خدمة العلم مُهجتي لأخـدم من لاقـيت لكن لأُخـدمَـا
أأشـقى به غـرسًـا وأجنيـه ذلة إذن فـاتبـاع الجـهل قد كـان أحـزمَـا
ولو أن أهل العلم صـانوه صـانهم ولو عظَّمـوه في النفـوس لعظَّمَـا
ولكـن أذلوه فـهـان، ودنَّسـوا مُـحيَّـاه بالأطمـاع حـتى تجـهَّمـا

ومن أجل عزة المسلم نهى الشرع الحنيف عن سؤال الناس تكثرًا.

يقـول رسول الله ﷺ: **«من سـأل الناس تكثـرًا فـإنما يسـأل جـمرًا، فليسـتقل أو ليستكثر»**(١).

وقال: **«لا تزال المسـألة بأحـدكم حـتى يـلقى الله تعـالى وليس في وجـهه مُزعـة لحم(٢)»**(٣).

ونهى الشارع عن الإلحاف في المسألة؛ لما فيها من إذلال للمسلم ونزع للبركة.

يقول ﷺ: **«لا تلحفوا في المسألة فـوالله لا يسألني أحد منكم شيئًا فتخـرج له مسألته مني شيئًا وأنا له كاره فيبارك له فيما أعطيته»**(٤).

---

(١) أخرجه مسلم رقم (١٠٤١).

(٢) مُزعة لحم: قطعة لحم.

(٣) أخرجه البخاري رقم (١٤٧٤)، ومسلم رقم (١٠٤٠).

(٤) أخرجه مسلم رقم (١٠٣٨).

كما حرم أخذ المال بغير طيب نفس، ففي الحديث: «**ألا لا يحل مال امرئ مسلم بغير طيب نفس منه**»(١).

بل وزاد على ذلك فرغب في عدم سؤال الناس شيئًا يقول - عليه الصلاة والسلام -: «**لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره، خير له من أن يسأل أحدًا، فيعطيه أو يمنعه**»(٢).

مظاهر العزة:

وللعزة صور كثيرة ومظاهر متعددة:

أهمها: ألا يذل المسلم نفسه خوفًا من مخلوق أو رغبة في دنيا أو حرصًا على شهوة.

- ومن العزة ألا ينحني المسلم لأحد كائنًا من كان.

- ومن العزة ألا يقبل المؤمن يد أحد إلا إذا كان إجلالاً لجناب الجليل جل جلاله وذلك كتقبيل أيدي الأبوين وعلماء الشرع ومن يظن فيهم الصلاح.

- ومن العزة أن يرتدي العبد ثيابًا نظيفًا ونعلاً حسنًا.

ومنها:- ألا يطأطأ المؤمن رأسه طمعًا في مال أو حضًا على عطف أو ذلاً لمخلوق.

فقد رأى عمر رضي الله عنه رجلاً يمشي في السوق يطأطأ رأسه فعلاه بالدِّرة وقال: ارفع رأسك.

وكان يقول: أحب من الرجل إذا كان أمير القوم أن يكون كبعضهم، وإن لم يكن أميرهم فهو أميرهم.

- ومن العزة: أن لا يتعرض المسلم من البلاء لما لا يطيق فإن كان في رخاء وحفظ وعافية فلا يعرِّض نفسه للفتن ولا يتمنى لقاء العدو، فقد يتعرض لما يذل نفسه ويحقِّر شأنه.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود والترمذي وصححه.

(٢) أخرجه البخاري رقم (١٤٧٠)، ومسلم رقم (١٠٤٢).

قال رسول الله ﷺ: «**لا ينبغي لمؤمن أن يذل نفسه يتعرض للبلاء لما لا يطيق**»[1].

- ومن العزة أن لا يسأل الناس إلحافًا وتكثرًا.

- ومنها: أن يعلن المسلم عن دينه في أي مكان لا يتهيب أحدًا ولا يستحيي من الجهر بمبادئه.

إننا قد نرى أناسًا من المسلمين يستحون عن ذكر دينهم ويتنازلون عن أي قول أو فعل يميزهم عن غير المسلمين، بينما نشاهد كثيرًا من النصارى يصرخون بكفرهم أمام الدنيا لا يبالون بأحد ولا يخشون إنسانًا، عجب يقطع القلب، كافر يهتف بضلاله، ومسلم يخجل من عرض الحق الذي معه.

أسباب الذل:

للعز ضريبة من لم يدفعها دفع ضريبة الذل، وكما أن ضريبة العز أداء الطاعات وترك المنكرات وبذل النفس والنفيس تضحية لهذا الدين، فإن ضريبة الذل حب الدنيا وكراهية الموت وترك الجهاد.

فسبب الذل والهوان الذي أصاب المسلمين عبادة المال والتعلق بالدنيا واتباع الشهوات.

قال عليه الصلاة والسلام: «**إذا تبايعتم بالعينة[2]، وأخذتم أذناب البقر[3]، وتركتم الجهاد إلا سلط الله عليكم ذلاً لا يرفع عنكم أبدًا حتى تراجعوا دينكم**».

وفي رواية: «**إذا ضن الناس بالدينار والدرهم[4]، وتبايعوا بالعينة، واتبعوا أذناب البقر، وتركوا الجهاد في سبيل الله، أنزل الله بهم بلاء فلم يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم**»[5].

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه، وانظر «السلسلة الصحيحة» رقم (٦١٥).

(٢) تبايعتم بالعينة: بيع العينة معناه: أن يبيع سلعة إلى أجل ثم يشتريها في الحال بثمن أقل.

(٣) أخذتم أذناب البقر: كناية عن التعلق بالدنيا.

(٤) ضن الناس بالدينار والدرهم: بخلوا بهما وحرصوا عليهما.

(٥) أخرجه أبو داود رقم (٣٤٦٢)، والبيهقي (٥/٣١٦)، وأحمد رقم (٥٠٠٧)، والطبراني في الكبير بسند حسن.

ولن يترك الجهاد إلا من كرهوا الموت وتعلقوا بالدنيا، لذا جعل النبي ﷺ السبب الحقيقي في ضياع القدس[١] وغيرها من بلدان المسلمين راجعًا إلى حب الدنيا وكراهية الموت، قال ﷺ: «**يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها**»، قالوا: أمِن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: «**بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن**»، قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: «**حب الدنيا وكراهية الموت**»[٢].

فلا عز لمن لم يتق الله.

روي أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «من أراد غنى بلا مال، وهيبة بلا سلطان، وعزًّا بلا عشيرة، فليتق الله، فإنَّ الله يأبى أن يذل إلا من عصاه».

* * *

(١) للمزيد راجع كتابي «روضة الخطباء» (صـ ٤٥٥، ٤٥٦). ن - دار الفجر. القاهرة.

(٢) أخرجه أبو داود وابن حبان بسند حسن.

(١٧) الكرم

الجود والكرم والسخاء هذه المعاني المترادفة تدل على: بذل العبد ما لا يحتاج إليه لمحتاج أو غير محتاج، فهو بذل الفضل.

فإن كان بذل ما يحتاج إليه فهو الإيثار.

ولا ريب أن تعلق النفس بالمال شديد، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨].

وللمال زينة وفتنة وضراوة كضراوة الخمر يقول تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤].

ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥].

ويقول النبي ﷺ: «إنَّ لكل أمة فتنة وفتنة أمتي المال»(١).

لذا دعانا الله تعالى للبذل والعطاء فقال: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥] فالتهلكة في البخل والجشع والحرص على الدنيا.

وكم من قلوب تألفت وأنفس تغيرت وصدور شرحت بالبذل والعطاء والهدايا والصلات.

ولما كان الجود سجية يميل إليها الطبع الكريم حفَّه الإسلام بسياج القرب من الله وطلب رضاه، والفوز في الآخرة، فدعاه إلى الإنفاق في سبيل الله، ابتغاء أن يتحول من عادة إلى عبادة، ومن سجية إلى قربة، ومن إرادة الذكر عند الناس إلى إرادة الذكر عند الله.

---

(١) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وهذا يزيد العبد جودًا وكرمًا وبذلاً وسخاءً.

والإيمان يزيد المؤمن كرمًا وجودًا وسخاءً، فالمؤمن كريم بإيمانه سخي بإسلامه.

يقول رسول الله ﷺ: «المؤمن غِرٌّ[1] كريم، والفاجر خبٌّ لئيم»[2].

والله تعالى يبارك في مال الكريم المنفق، ويخلف عليه أكثر منه.

قال جل ثناؤه: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبأ: ٣٩]، وقال: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

ويقول عليه الصلاة والسلام: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا»[3].

ويقول ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا»[4].

وقال صلوات الله وسلامه عليه: «ثلاثة أقسم عليهن وأحدثكم حديثًا فاحفظوه، ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظلم عبد مظلمة صبر عليها إلا زاده الله عزًّا، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر، أو كلمة نحوها، وأحدثكم حديثًا فاحفظوه، قال: إنما الدنيا لأربعة نفر:

عبد رزقه الله مالاً وعلمًا، فهو يتقي فيه ربه ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقًّا، فهذا بأفضل المنازل.

وعبد رزقه الله علمًا، ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية، يقول: لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان، فهو بنيته، فأجرهما سواء.

وعبد رزقه الله مالاً، و لم يرزقه علمًا، فهو يخبط في ماله بغير علم، لا يتقي فيه ربه ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقًّا، فهذا بأخبث المنازل.

---

(١) غِر: طيب القلب لا يداهن ولا يخادع.

(٢) حسن: أخرجه أبو داود والترمذي والحاكم وصححه.

(٣) أخرجه البخاري رقم (١٤٤٢)، ومسلم رقم (١٠١٠).

(٤) أخرجه مسلم رقم (٢٥٨٨).

وعبد لم يرزقـه الله مالاً ولا علمًا، فهو يقـول: لو أن لي مالاً لعملت فيـه بعمل فلان، فهو بنيته، فوزرهما سواء»(١).

ويظل ثواب الصدقة يعظم وينمو حتى يصير أمثال الجبال الشماء.

يقول ﷺ: «من تصـدق بعدل تمرة من كـسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيـب فإنّ الله يقبلها بيمينه، ثمَّ يربِّيها لصاحبها كما يُربِّي أحدكم فلوَّه(٢) حتى تكون مثل الجبل»(٣).

وهذا واضح من قوله جل وعلا: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

والجود الواسع والبذل الكبير سبب في غسل الذنوب وتكفير الخطايا.

قال جل جلاله: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٧١].

وقال: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١٧].

الجود مفتاح من مفاتيح الجنة.

والإنفاق في سبيل الله مفتاح من مفاتيح الجنة.

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢].

ومن أعظم آثار الجـود والإنفاق في سبـيل الله أن أثرهما يبـقى ساري المفـعول كسبًا للأجـر بعد الموت يقول النبي ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»(٤).

ولله در الإمام السيوطي عندما قال:

إذا مـــات ابـن آدم ليس يـجـــري   عليـــه من خـصـــال غـيـر عـــشـر

---

(١) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) الفَلُو: المُهْر.

(٣) أخرجه البخاري رقم (١٤١٠)، ومسلم رقم (١٠١٤).

(٤) أخرجه مسلم.

علوم بثها ودعاء نجلٍ ... وغرس النخل والصدقات تجري
وراثة مصحف ورباط ثغر ... وحفر البئر أو إجراء نهر
وبيت للغريب بناه يأوي ... إليه أو بناه محلُّ ذكرِ
وتعليم لقرآن كريم ... فخذها من أحاديث بحصرِ

والبذل والسخاء دليل على قوة الإيمان وصدق التعلق بالآخرة.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رجلاً سأل النبي ﷺ: أي الإسلام خير؟ قال: **«تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»**(١).

وقال ﷺ: **«يا ابن آدم إن تبذل الفضل خير لك، وإن تمسكه شر لك، ولا تلام على كفاف، وابدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلى»**(٢).

والتصدق على الفقراء يبارك في المال ويزيده، ويفتح أبواب السماء بالمطر لتروي أرض المتصدق، بل ويخص بملك معين يقوم بسقي حديقة المتصدق، وهذا يشمل الأرض وغيرها من الأموال.

قال رسول الله ﷺ: **«بينما رجل يمشي بفلاة من الأرض، فسمع صوتًا في سحابة: اسق حديقة فلان، فتنحَّى ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حرَّة(٣)، فإذا شَرَجة(٤) من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله فتتبع الماء، فإذا رجل قائم في حديقته يُحَوِّل الماء بمسحاته فقال له: يا عبد الله ما اسمك؟ قال: فلان، للاسم الذي سمع في السحابة، فقال له: يا عبد الله لِمَ تسألني عن اسمي؟ فقال: إني سمعت صوتًا في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسق حديقة فلان لاسمك، فما تصنع فيها؟ فقال: أما إذ قلت هذا، فإني أنظر إلى ما يخرج منها، فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثًا، وأرد فيها ثلثه»**(٥).

---

(١) أخرجه البخاري رقم (١٢)، ومسلم رقم (٣٩).

(٢) أخرجه مسلم رقم (١٠٣٦).

(٣) الحَرَّة: الأرض المُلبسة حجارة سوداء.

(٤) الشَّرْجة هي مسيل الماء.

(٥) أخرجه مسلم رقم (٢٩٨٤).

وصدق الله جل ذكره عندما يقول في الحديث القدسي: **«يا ابن آدم أَنْفِقْ أُنْفِقْ عليك»**(١).

ولما كان الإنفاق في سبيل الله بهذه المكانة فإنه لا يجوز لأحد أن يغبط أحدًا إلا على هذا الخير.

حكايات الأسخياء:

كان رسول الله ﷺ أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان فلرسول أجود بالخير من الريح المرسلة، وبلغ من جوده أن الرجل كان يسلم ابتغاء عطاء النبي ﷺ فإنه كان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر.

قال أنس رضي الله عنه: «ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئًا إلا أعطاه، ولقد جاءه رجل فأعطاه غنمًا بين جبلين، فرجع إلى قومه، فقال: يا قوم أسلموا فإنَّ محمدًا يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، وإن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يلبث إلا يسيرًا حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها»(٢).

ويقول أبو هريرة رضي الله عنه: يقول رسول الله ﷺ: **«لو كان لي مثل أحد ذهبًا، لسرني أن لا تمر عليَّ ثلاث ليال وعندي منه شيء إلا شيء أرصده لدين»**(٣).

وأحب الأصحاب رضوان الله عليهم معالي الأمور ومكارم الأخلاق وكرهوا سفاسف الصفات فجادوا بأفضل ما يملكون وأنفقوا خير ما يجدون.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أنه قال عن زوج أمه أم سليم: «كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيِّب، فلما نزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنَّ الله تبارك وتعالى يقول: ﴿لَن

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٨٦٨٤)، ومسلم رقم (٩٩٣).

(٢) أخرجه مسلم رقم (٢٣١٢).

(٣) أخرجه البخاري رقم (٦٢٦٨)، ومسلم رقم (٩٤).

﴿تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وإنَّ أحب مالي إليَّ بَيْرحاء، وإنها صدقة لله تعالى أرجو برها وذُخرها عند الله تعالى فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال رسول الله ﷺ: «**بخٍ ذلك مال رابح ذلك مال رابح! وقد سمعت ما قلت وإني أرى أن تجعلها في الأقربين**»، فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه»(١).

وعن محمد بن المنكدر عن أم درة وكان تخدم عائشة رضي الله عنها قالت: «إن معاوية بعث إليها بمال في غرارتين ثمانين ومائة ألف درهم، فدعت بطبق فجعلت تقسم بين الناس، فلما أمست قالت: يا جارية هلم بفطوري فجاءتها بخبز وزيت، فقالت لها أم درة: ما استطعت فيما اليوم أن نشتري لنا بدرهم لحمًا نفطر عليه؟

فقالت: لو كنت ذكرتيني لفعلت».

وعن أبان بن عثمان قال: «أراد رجل أن يضار عبيد الله بن عباس فأتى وجوه قريش فقال لهم يقول لكم عبيد الله: تغدوا عندي اليوم، فأتوه حتى ملؤا عليه الدار، فقال ما هذا؟ فأخبر الخبر، فأمر عبيد الله بشراء فاكهة، وأمر قومًا فطبخوا وخبزوا، وقدّمت الفاكهة إليهم فلم يفرغوا منها حتى وضعت الموائد فأكلوا حتى صدروا، فقال عبيد الله لوكلائه: أو موجود لنا هذا كل يوم؟ قالوا: نعم، فقال: فليتغد عندنا هؤلاء كل يوم».

واجتمع قراء البصرة إلى ابن عباس وهو عامل بالبصرة فقالوا: لنا جار صوّام قوّام يتمنى كل واحد منا أن يكون مثله، وقد زوج ابنته من ابن أخيه وهو فقير وليس عنده ما يجهزها به، فقام عبد الله بن عباس فأخذ بأيديهم وأدخلهم داره وفتح صندوقًا فأخرج منه ست بدر، فقال: احملوا، فقال ابن عباس: ما أنصفناه أعطيناه ما يشغله عن قيامه وصيامه، ارجعوا بنا نكن أعوانه على تجهيزها فليس للدنيا من القدر ما يشغل مؤمنًا عن عبادة ربه، وما بنا من الكبر ما لا نخدم أولياء الله تعالى ففعل وفعلوا.

---

(١) أخرجه الشيخان: البخاري رقم (١٤٦١)، ومسلم رقم (٩٩٨).

وحكي أنه لما أجدب الناس بمصر وعبد الحميد بن سعد أميرهم فقال: والله لأعلمن الشيطان أني عدوّه، فأقال محاويجهم إلى أن رخصت الأسعار، ثم عزل عنهم فرحل وللتجار عليه ألف ألف درهم، فرهنهم بها حلي نسائه وقيمتها خمسمائة ألف ألف فلما تعذر عليه ارتجاعها كتب إليهم ببيعها ودفع الفاضل منها عن حقوقهم إلى من لم تنله صلاته.

وكان أبو مرثد أحد الكرماء فمدحه بعض الشعراء فقال للشاعر: والله ما عندي ما أعطيك ولكن قدمني إلى القاضي وادع عليّ بعشرة آلاف درهم حتى أقر لك بها ثم احبسني، فإن أهلي لا يتركوني محبوسًا، ففعل ذلك فلم يمس حتى دفع إليه عشرة آلاف درهم وأخرج أبو مرثد من الحبس.

وكان معن بن زائدة عاملاً على العراقين بالبصرة فحضر بابه شاعر فأقام مدّة أراد الدخول على معن فلم يتهيأ له فقال يومًا لبعض خدّام معن: إذا دخل الأمير البستان فعرفني، فلما دخل الأمير البستان أعلمه، فكتب الشاعر بيتًا على خشبة وألقاها في الماء الذي يدخل البستان، وكان معن على رأس الماء فلما بصر بالخشبة أخذها وقرأها فإذا مكتوب عليها:

أيا جود معن ناج معنًا بحاجتي فمالي إلى معن سواك شفيعُ

فقال: من صاحب هذه؟ فدعا بالرجل، فقال له: كيف قلت؟ فقال له، فأمر له بعشر بُدر، فأخذها ووضع الأمير الخشبة تحت بساطه، فلما كان اليوم الثاني أخرجها من تحت البساط وقرأها ودعا بالرجل فدفع إليه مائة ألف درهم، فلما أخذها الرجل تفكر وخاف أن يأخذ منه ما أعطاه فخرج، فلما كان في اليوم الثالث قرأ ما فيها ودعا بالرجل فطلب فلم يوجد، فقال معن: حق عليّ أن أعطيه حتى لا يبقى في بيت مالي ولا دينار.

* * *

المرأة الكريمة

وللمؤمنات في الجود شأن:

كان عبد الله بن عباس من أجواد العرب، وكان مُنصرفًا من الشام إلى الحجاز، فنزل منزلاً في الطريق، وطلب من غلمانه طعامًا فلم يجدوا، فقال لوكيله: «اذهب في هذه البرية، فلعلك تجد راعيًا أو حيًّا فيه لبنٌ أو طعام».

فمضى الغلمان، فرأوا عجوزًا في حيٍّ، فقالوا لها: «أعندك طعامٌ نبتاعه؟»، قالت: «أما البيع فلا، ولكن عندي مالي ولأبنائي به حاجة».

قالوا: «فأين بنوكِ؟» قالت: «في رعي لهم؛ وهذا أوان أوبتهم». قالوا: «فما أعددت لك ولهم؟» قالت: «خبزةً تحت قلتها». قالوا: «وما عِندكِ غير هذا؟» قالت: «لا شيء» قالوا: «فجودي لنا بشطرها».

فقالت: «أما الشطرُ فلا أجود به، وأما الكلُّ فخذوه».

فقالوا لها: «تمنعين النصف وتجودين بالكلِّ كمالاً وفضيلة، قالت: فأنا أمنعُ ما يضعني وأمنحُ ما يرفعني»، فأخذوها ولم تسألهم من هُم، ولا من أين جاءوا.

فلما جاءوا إلى عبد الله وأخبروه بخبرها عجب من ذلك، ثم قال لهم: «احملوها إليَّ الساعة»، فرجعوا إليها، وقالو لها: «انطلقي معنا إلى صاحبنا، فإنه يريد أن يراك»، فقالت: «ومن صاحبكم؟» قالوا: «عبد الله بن عباس».

قالت: «وأبيكم هذا هو الشرفُ العالي وذروته الرفيعة! وماذا تريدون مني؟» قالوا: «مكافأتك وبرك».

فقالت: «أوهًّا! والله لو كان ما فعلت معروفًا ما أخذت له بدلاً، فكيف وهو شيء يجب على الخلق أن يُشارك فيه بعضهم بعضًا؟!»، فلم يزالوا بها حتى أخذُوها إليه. فلمَّا وصلت إليه سلَّمت، فردَّ عليها السلام، وقرَّب مجلسها ثم قال لها: «ممن أنت؟».

قالت: «من بني كلب»، قال: «فكيف حالك؟» قالت: «أسهرُ اليسيرُ، وأهجع أكثر الليل، وأرى قرةَ العين في بني، فلم يكُ في الدنيا شيءٌ إلا وجدته فيهم».

قال: «فما ادخرت لبنيكِ إذا حضروا؟».

قالت: «ادخرتُ لهم ما قاله حاتِمُ طَيِّئ.

ولقد أبيت على الطوى وأظلُّهُ حتى أنال به كريم المأكل

فازداد عبد الله منها تعجبًا، ثم قال لها: «لو جاء بنوك وهم جياع فما كنت تصنعين؟».

قالت: «يا هذا لقد عظمت عندك هذه الخبزةُ حتى أكثرت فيها مقالك، وأشغلت بها بالك، فالْهَ عن هذا فإنه يفسد النفس».

فقال عبد الله: «أحضروا إليَّ أولادها»، فأحضروهم، فلما دنوا منه رأوا أمهم وسلموا، فأدناهم إليه وقال: «إني لم أطلبكم وأمكم لمكروه، وإنما أحبُّ أن أصلِح شأنكم، وألم شعثكم».

فقالوا: «إن هذا قل أن يكون إلا عن سؤال أو مكافأة لفعل قديم».

قال: «ليس شيء من ذلك، ولكن جاورتكمُ في هذه الليلة فأحببتُ أن أضع بعض مالي فيكم».

قالوا: «يا هذا نحن في خفضِ عيش وكفاف من الرزق، فوجِّهه نحو من يستحقه، وإن أردت النَّوالَ مبتدئًا من غير سؤال فتقدم، فمعروفك مشكورٌ، وبرُّكَ مقبولٌ».

فقال: «نعم، هو ذاك»، وأمر بعشرة آلاف درهم وعشرين ناقة، فقالت العجوز لأولادها: «ليقُل كل واحد منكم شيئًا من الشعر، وأنا أتبعكم في شيءٍ منه».

فقال الأكبر:

شهدت عليك بطيب الكلام وطيب الفعال وطيب الخبر

وقال الأوسط:

تبرعت بالجود قبل السؤال فعال عظيمٍ، كريم الخطر

وقال الأصغر:

وحق لمن كان ذا فعله أن يسترق رقاب البشر

وقالت العجوز:

فعمَّرك الله من ماجد ووُقيت كل الرَّدى والغير

مظاهر السخاء:

وللسخاء مظاهر منها:

١ - أن يعطي الرجل العطاء في غير مَنٍّ ولا أذى.

٢ - أن يفرح المعطي بالسائل الذي سأله ويُسر لإعطائه.

٣ - أن ينفق المنفق في غير إسراف ولا تقتير كما قال تعالى: **﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾** [الإسراء: ٢٩].

وقال في صفات عباد الرحمن: **﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾** [الفرقان: ٦٧].

٤ - أن يجود المكثر من كثيره، والمقلُّ من قليله في رضا نفس، وانبساط وجه، وطيب قول.

البخل:

وعكس الكرم البخل، والبخل خلق مذموم، وسلوك قبيح.

ذمه الشرع الحنيف وعابته النفوس الطيبة.

قال تعالى: **﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾** [الليل: ٨ - ١١].

ويقول النبي ﷺ: **«اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح[١]، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»**[٢].

---

(١) الشح: أشد من البخل.

(٢) أخرجه مسلم رقم (٢٥٧٨).

والبخل سبب من أسباب فساد الأمة وضعفها.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**نجاء أول هذه الأمة باليقين والزهد، ويهلك آخرها بالبخل والأمل**»[١].

والبخل عامل من عوامل نزع البركة ومحق الخير تقول أسماء رضي الله عنها: قال لي رسول الله ﷺ: «**لا توكي فيوكي الله عليك**»، وفي رواية: «**أنفقي أو أنفحي أو أنضحي**[٢] **ولا تحصي فيحصي الله عليك، ولا توعي فيوعي الله عليك**»[٣].

وكما في الحديث: «**ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعطِ ممسكًا تلفًا**»[٤].

ويضرب النبي ﷺ مثلاً للبخيل والمنفق فيقول: «**مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جُنَّتان**[٥] **من حديد من ثديهما إلى تراقيهما، فأما المنفق فلا يُنفق إلا سبغت، أو وفرت على جلده حتى تُخفي بنانه، وتعفو أثره، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئًا إلا لزقت كل حلقة مكانها، فهو يوسِّعها فلا تتسع**»[٦]، أي: أن المنفق كلما أنفق سبغت درعه وطالت حتى تجر وراءه، وتخفي رجليه وأثر مشيه وخطواته بخلاف البخيل الذي يوسِّعها فلا تتسع.

علاج البخل:

البخل: عكس الكرم، وأشد درجات البخل أن يبخل الإنسان على نفسه مع شدة الحاجة، فكم من بخيل يمسك المال ويمرض فلا يتداوى، ويشتهي حب المال فيمنعه منه البخل فكم من بخيل على نفسه مع الحاجة وبين من يؤثر على نفسه مع الحاجة، فالأخلاق عطايا يضعها الله حيث يشاء، وقد تكلم الناس في حد البخل

(١) حسن: أخرجه ابن أبي الدنيا (٣/ ٧٣٨٨) كنز، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢/ ٦٧٤٦)، وتحقيق المشكاة رقم (٥٢٨١).

(٢) أنفحي أو أنضحي: أي أنفقي. وقوله: لا توكي: لا تبخلي وتمنعي وكذا لا تحصي.

(٣) أخرجه البخاري رقم (١٤٣٣)، ومسلم رقم (١٠٢٩).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) الجُنَّة: الدرع التي تلبس لتقي الفارس في الحرب.

(٦) أخرجه البخاري رقم (٢٩١٧)، ومسلم رقم (١٠٢٦).

والسخاء فذهب قوم إلى أن حد البخل منع الواجب، وأن من أدى ما يجب عليه فليس ببخيل، لكن الصحيح أن البراءة مع البخل تحصل بفعل الواجب في الشرع واللازم بطريق المروءة مع طيب القلب بالبذل، وأما الواجب بالشرع فهو الزكاة ونفقة العيال، وأما اللازم بطريق المروءة فهو ترك المضايقة والاستقصاء عن المحقرات، فإن ذلك يستقبح من الفقير.

فأما علاج البخل: سبب البخل حب المال ولحب المال سببان:

أحدهما: حب الشهوات التي لا وصول إليها إلا بالمال مع طول الأمل، وإن كان قصر الأمل وله ولد فإنه يقوم مقام طول الأمل.

الثاني: أن يحب عين المال فمن الناس من معه ما يكفيه لبقية عمره لو اقتصر على ما جرت عادته به ويبقى معه آلاف. وعلاج كل علة بمضادة سببها، فيعالج حب الشهوات بالقناعة والصبر وطول كثرة ذكر الموت، ويعالج التفات القلب إلى الولد بأن من خلقه خلق معه رزقه وكم منا لم يرث شيئًا أحسن حالاً ممن ورث، فليحذر أن يترك لولده الخير ويقدم على الله بشر فإن ولده إن كان صالحًا فالله يتولاه، وإن كان فاسقًا فلا يترك له ما يستعين به على المعاصي وليردد على سمعه ما حدث من البخلاء والأسخياء، وإذا كثرت المحبوبات في الدنيا كثرت المصائب بفقدها، فمن عرف آفة المال لم يأنس به، ومن لم يأخذ منه إلا قدر حاجته وأمسك ذلك لحاجته فليس ببخيل.

* * *

(١٨) الإيثار

الإيثار: أن تجود بالمال مع الحاجة إليه.

والإيثـار من ألوان المثاليـة في الأخـلاق، فهـو فـوق الأخلاق المتـصلة بالمادة كالسخاء والقناعة والورع والزهد والعزة والوفاء...

وفوق الأخلاق المتعلقة بالمعنى كالرحمة والسماحة والحلم والعفو والرفق والأناة واللين والصبر والصدق وطهارة القلب...

والإيثار علامة من علامات النجـاح والفلاح والصلاح في الدنيا والآخرة، قال جل شأنه: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

إيثار الرسول ﷺ:

ورسولنا محمد ﷺ أستاذ المؤثرين.

ولننظر إليه عندما جاءه ثوب هـدية، فأخذه محتاجًا إليه، فطلبـه أحد أصحابه لنفسه فآثره النبي ﷺ به على نفسه.

فعن سـهل رضي الله عنه: «أن امـرأة جاءت النبي ﷺ ببُـردة منسوجـة فيـها حاشيتها، أتدرون ما البردة؟ قالوا: الشملة[1]، قال: نعم، قالت: نسجتها بيدي فجـئت لأكسوكـها، فأخـذها النبي ﷺ محتـاجًا إليـها فخـرج إلينا وإنها إزاره، فحسَّنها فلان، فـقال: أكسنيها ما أحسنها، قال القوم: مـا أحسنت، لبسها النبي ﷺ محتاجًا إليها ثمَّ سألتـه وعلمت أنه لا يرد؟! قال: إني والله ما سألته لألبسها إنما سألته لتكون كفني، قال سهل: فكانت كفنه»[2].

---

(١) الشملة: تشبه العباءة، فهي اسم لما يشتمل به المرء.

(٢) أخرجه البخاري رقم (١٢٧٧)، وابن ماجه رقم (٣٥٥٥).

ونراه ﷺ يؤثر غيره بالطعام والشراب مع شدة حاجته إليه.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «والذي لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع، ولقد قعدت يومًا على طريقهم الذي يخرجون منه، فمرَّ النبي ﷺ فتبسَّم حين رآني، وعرف ما في وجهي وما في نفسي، ثم قال: **«أبا هر»**، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: **«الحق»**، ومضى فاتبعته، فدخل فاستأذن، فأَذِن لي، فدخلت، فوجد لبنًا في قدح، فقال: **«من أين هذا اللبن؟»**، قالوا: أهداه لكَ فلان أو فلانة، قال: **«أبا هر»**، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: **«الحق إلى أهل الصفة فادعهم لي»**، قال: وأهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون على أهل ولا مال ولا على أحد، وكان إذا أتته صدقة بَعَث بها إليهم، ولم يتناول منها شيئًا، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها، فساءني ذلك. فقلت: وما هذا اللبن في أهل الصفة؟ كنت أحق أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها، فإذا جاءوا أمرني، فكنت أنا أعطيهم، وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن، ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ بُدٌّ، فأتيتهم فدعوتهم، فأقبلوا، واستأذنوا، فأَذِن لهم وأخذوا مجالسهم من البيت، قال: **«أبا هر»**، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: **«خذ فأعطهم»**، قال: فأخذت القدح فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثمَّ يرد عليّ القدح، فأعطيه الآخر فيشرب حتى يروى، ثمَّ يرد عليَّ القدح، حتى انتهيت إلى النبي ﷺ، وقد روي القوم كلهم، فأخذ القدح فوضعه على يده، فنظر إليَّ فتبسم، فقال: **«أبا هر»**، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: **«بقيت أنا وأنت»**، قلت: صدقت يا رسول الله، قال: **«اقعد فاشرب»**، فقعدت فشربت، فقال: **«اشرب»**، فشربت، فما زال يقول: **«اشرب»**، حتى قلت: لا والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلكًا، قال: **«فأرني»**، فأعطيته القدح، فحمد الله - تعالى - وسمَّى وشرب الفضلة»[1].

عجب الله من صنيعهما:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه: «أن رجلاً أتى النبي ﷺ فبعث إلى نسائه،

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٦٤٥٢).

فقلن: مـا معنا إلا الماء، فقـال رسول الله ﷺ: «من يَضُمُّ أو يضيف هذا؟»، فقال رجل من الأنصار: أنا، فـانطلق به إلى امرأته، فـقال: أكرمي ضـيف رسول الله ﷺ، فقـالت: ما عندنا إلا قـوت صبـياني، فـقال: هيـئي طعامك، وأصـبحي سراجك[١]، ونوِّمي صبـيانك، إذا أرادوا عـشاء، فهـيأت طعامـها، وأصـبحت سراجها، ونوَّمت صبيانها، ثمَّ قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته، فجعلا يُريَانه أنهمـا يأكلان، فـباتا طاويين[٢]، فلمـا أصبح غـدا على رسول الله ﷺ فـقال: «ضحك الله الليلـة - أو عجب - من فعـالكما»، فأنزل الله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]»[٣].

وهذا سـعد بن الربيع رضي الله عنه يعـرض على عبـد الرحمن بـن عوف أن يتزوج أجمل زوجتيه، ويشاطره ماله.

فعن أنس رضي الله عنه قـال: «قدم علينا عبد الرحـمن بن عوف وآخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع - وكـان كثير المال - قال سعـد: قد علَمت الأنصار أني من أكـثرها مـالاً، سـأقسم مـالي بيني وبينك شطريـن، ولي امرأتان فـانظر أعجبهما إليك فأطلقها حتى إذا حلت تزوجتها، فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك. . .»[٤].

إنك إن تعجب من إيثار سعد فلا تنس نبل عبد الرحمن.

ولم يكن هذا موقفًا استثنائيًّا بل الأنصار أجمعون كـانوا كذلك مُثُلاً عليا في الإيثار، قال أبو هريرة رضي الله عنه: «قالت الأنصار لرسول الله ﷺ: اقسم بيننا وبينهم النخل، قال: «لا يكفوننـا المئونة[٥] ويشركـوننا في الثـمر»، قالوا: سـمعنا وأطعنا»[٦].

---

(١) أصبحي سراجك: أي أصلحيها وأوقديها.

(٢) طاويين: أي جائعين.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار رقم (٣٧٩٨)، وكتاب التفسير رقم (٤٨٨٩).

(٤) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار رقم (٣٧٨٠، ٣٧٨١).

(٥) يكفوننا المئونة: أي العمل في البساتين من سقيها والقيام بها.

(٦) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار رقم (٣٧٨٢).

وحدث الهجرة نفسه أوضح دليل على هذا المعنى، فإنَّ المهاجرين قد جاءوا إلى المدينة فقاسموا إخوانهم الأنصار في ديارهم وطعامهم وشرابهم وكسائهم وأموالهم.

الإيثار بالحياة:

ويبلغ الإيثار مداه فيتنازل الصحابي عن حياته؛ إيثاراً لأخيه عن أعظم ما يملك.

عن حبيب بن أبي ثابت رضي الله عنه: «أن الحارث بن هشام، وعكرمة بن أبي جهل، وعياش بن أبي ربيعة رضي الله عنهم خرجوا يوم اليرموك حتى أثبتوا[١]، فدعا الحارث بن هشام بماء ليشربه، فنظر إليه عكرمة فقال: ادفعه إلى عكرمة، فلما أخذه عكرمة نظر إليه عياش، قال: ادفعه إلى عياش، فما وصل إلى عياش حتى مات، وما وصل إلى أحد منهم حتى ماتوا»[٢].

وانظر إلى أبي عبيدة ومعاذ رضي الله عنهما وهما يؤثران الفقراء على أولادهم.

عن مالك الدار رضي الله عنه: «أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أخذ أربعمائة دينار، فجعلها في صرة، فقال للغلام: اذهب بها إلى أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه ثمَّ تلَّه في البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع؟ فذهب بها الغلام إليه، فقال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك، فقال: وصله الله ورحمه، ثمَّ قال: تعالي يا جارية، اذهبي بهذه السبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان، حتى أنفذها، ورجع الغلام إلى عمر فأخبره، فوجده قد أعدَّ مثلها لمعاذ بن جبل فقال للغلام: اذهب بها إلى معاذ بن جبل وتلَّه في البيت حتى تنظر ما يصنع؟ فذهب بها الغلام إليه، فقال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك، فقال: رحمه الله ووصله، ثمَّ قال: تعالي يا جارية، اذهبي إلى بيت فلان بكذا، اذهبي إلى بيت فلان بكذا، فاطلعت

(١) أُثبتوا: لا يستطيعون الحركة من شدة الجوع.

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٤٢)، وأبو نعيم في «الحلية»، وابن سعد.

امرأة معاذ، وقالت: ونحن والله مساكين فأعطنا، فلم يبق في الخرقة إلا ديناران، فدحى بهما إليها، ورجع الغلام إلى عمـر، فأخبره، فسُرَّ بذلك فقال: إنهم إخوة بعضهم من بعض»[١].

هؤلاء هم رجال عمر.

والحسن بن علي إمام في الإيثار:

سأل رجل الحسن بن علي رضي الله عنهمـا حاجة، فقال له: يا هذا، إنَّ حق سؤالك إياي يعظم لديّ، ويدي تعجز عن إعطائك ما تسـتحقه، والكثير في ذات الله قليل، فإن قبلت الميسـور، ورفعت عني مئونة الاحتمـال والاهتمام لما أتكلفه من واجب حقك فعلت.

فقال الرجل: يا ابن بنت رسول الله أقبل، وأشكر العطية، وأعذر على المنع.

فدعا الحسن وكيله، وجعل يحاسبه حتى استقصى ما أنفقه، فقال: هات الباقي من ثلاثمائة ألف درهم، فأحضر وكيله خمسين ألف درهم، ثمَّ سأله الحسن: ماذا فعلت بالخمسمائة دينار؟

قال: هي عندي.

فقال الحسن: أحضرها.

فأحضرها، فدفع كل ما عنده من الدنانير والدراهم إلى الرجل، وقال لوكيله: هات من يحملها له.

فأتاه بحمَّـالين، وأعطى الحسن رداءه للرجل أجرة للحمالين، فـقال له وكيله: والله لم يبق عندنا درهم واحد في البيت.

فقال الحسن: أرجو أن يكون لي عند الله الأجر العظيم[٢].

* * *

(١) أخرجه الطبراني (٢٠/ ٣٣، ٣٤).

(٢) «روح الإسلام» لمحمد عطية الأبراشي (صـ ٤٦) ط مكتبة الأسرة مصر سنة (٢٠٠٣م).

(١٩) القناعة

غنى النفس والرضا بالمقسوم وعدم التطلع لما في أيدي الغير هذه هي القناعة.

قال ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العَرَض، ولكن الغنى غنى النفس»[(١)].

وقال ﷺ: «اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول، خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله»[(٢)].

وقال النبي ﷺ: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافًا، وقعنه الله بما آتاه»[(٣)].

وقال: «يا ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك، وإن تمسكه شر لك، ولا تلام على كفاف، وابدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلى»[(٤)].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته، ومن أنزلها بالله فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل»[(٥)].

وقال رسول الله ﷺ: «طوبى لمن هدي إلى الإسلام، وكان عيشه كفافًا وقَنِعَ»[(٦)].

ففي القناعة كمال الرضا وراحة النفس والبدن وعدم الالتفات إلى الخلق.

عن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: «سألت رسول الله ﷺ فأعطاني، ثمَّ سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: «يا حكيم، إنَّ هذا المال خضر حلو، فمن أخذه بسخاوة نفس[(٧)] بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس[(٨)] لم يبارك له فيه،

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٦٤٤٦)، ومسلم رقم (١٠٥١). والعرض: المال.

(٢) أخرجه البخاري رقم (١٤٢٧)، ومسلم رقم (١٠٣٤).

(٣) أخرجه مسلم رقم (١٠٥٤).

(٤) أخرجه مسلم رقم (١٠٣٦).

(٥) أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن.

(٦) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. وانظر «الصحيحة» رقم (١٥٠٦).

(٧) أي: عدم الإشراف إلى الشيء، والطمع فيه، والمبالاة به والشره.

(٨) إشراف نفس: تطلعها وطمعها بالشيء.

وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى»، قال حكيم: فقلت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لا أرزأ[١] أحدًا بعدك شيئًا حتى أفارق الدنيا، فكان أبو بكر رضي الله عنه يدعو حكيمًا ليعطيه العطاء فيأبى أن يقبل منه شيئًا، ثمَّ إنَّ عمر رضي الله عنه دعاه ليعطيه، فأبى أن يقبله، فقال: يا معشر المسلمين، أشهدكم على حكيم أني أعرض عليه حقه الذي قسمه الله له في هذا الفيء، فيأبى أن يأخذه، فلم يرزأ حكيم أحدًا بعد النبي ﷺ حتى تُوفي»[٢].

وصدق النبي ﷺ إذ يقول: «من طلب حقًا فليطلبه في عفاف وافٍ أو غير وافٍ»[٣].

ففي القناعة العفة والعفاف والرضا بما قسم الله لذا جعل النبي ﷺ من الثلاثة الذين يدخلون الجنة عفيفًا متعففًا ذا عيال.

فإذا طلب أحدكم الحاجة فليطلبها طلبًا يسيرًا، ولا يأتي الرجل، فيقول: إنك، وإنك.. فيقطع ظهره، فإنما يأتيه ما قسم من الرزق أو ما رزق.

فإذا رضيت بما قسم الله لك أرحت نفسك وبدنك وكنت عند الله محمودًا، وإن لم ترض بما قسم الله لك أتعبت نفسك، وبدنك وكنت عند الله مذمومًا وسُلطت عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحوش في البرية.

وما أجمل الحكمة القائلة: «القناعة كنز لا يفنى».

وعن عمرو بن تَغلب رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ أُتِي بمال أو سبي فقسَّمه، فأعطى رجالاً، وترك رجالاً، فبلغه أن الذين تركوا عتبوا، فحمد الله، ثمَّ أثنى عليه، ثمَّ قال: «أما بعد فوالله، إني لأعطي الرجل وأدع الرجل، والذي أدع أحب إليَّ من الذي أعطِي، ولكن إنما أعطي أقوامًا لما أرى في قلوبهم من الجزع والهلع[٤]، وأكِل أقوامًا إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير، منهم عمرو بن

(١) يرزأ: أي: لم يأخذ من أحد شيئًا.

(٢) أخرجه البخاري رقم (١٤٧٢)، ومسلم رقم (١٠٣٥).

(٣) أخرجه ابن ماجه وابن حبان والحاكم، وانظر الترغيب.

(٤) الهلع: أشد الجزع، وقيل: الضجر.

تغلب»، قال عمرو بن تغلب: فوالله ما أحب أنَّ لي بكلمة رسول الله ﷺ حُمر النَّعم»(١).

إنها القناعة.

وما أدراك ما القناعة؟

كن زاهدًا فيما حوته يد الورى ... تضحى إلى كل الأنام حبيبًا
أو ما ترى الخطاف حرم زادهم ... فغدا مقيمًا في البيوت ربيبًا

وقال الحسن: لا يزال الرجل كريمًا على الناس حتى يطمع في دنياهم، فإذا فعل ذلك استخفوا به وكرهوا حديثه وأبغضوه.

وصدق القائلون:

هي القناعة فالزمها تكن ملكًا ... لو لم تكن لك إلا راحة البدن
وانظر لمن ملك الدنيا بأجمعها ... هل راح منها بغير القطن والكفنِ

* * *

أرفه ببال فتى أمسى على ثقة ... أن الذي قسم الأرزاق يرزقه
فالعرض منه مصون لا يدنسه ... والوجه منه جديد ليس يخلقه
إنَّ القناعة من يحلل بساحتها ... لم يلق في دهره شيء يؤرقه

وقد قيل:

حتى متى أنا في حل وترحال ... وطول سعي وإدبار وإقبال
ونازح الدار لا أنفك مغتربًا ... عن الأحبة لا يدرون ما حالي
بمشرق الأرض طورًا ثمَّ مغربها ... لا يخطر الموت من حرصي على بالي
ولو قنعت أتاني الرزق في دعة ... إنَّ القنوع الغنى لا كثرة المال

وقال الشاعر:

العيش ساعات تمرْ ... وخطوب أيامك تكرْ

(١) أخرجه البخاري رقم (٩٢٣).

اقنع بعيشك ترضه واترك هواك لعيش حرْ
فلربَّ حتفٍ ساقه ذهب وياقوت ودُرْ

ولله در القائل:

كن عن همومك معرضًا وكِل الأمور إلى القضا
وأبشر بخير عاجل تنسى به ما قد مضى
فلرُبَّ أمرٍ مسخط لك في عواقبه رضا
ولربما اتسع المضيق وربما ضاق الفضا
الله يفعل ما يشاء فلا تكن متعرضا
الله عودك الجميل فقس على ما قد مضى

* * *

كن غني القلب واقنع بالقليل مت ولا تطلب معاشًا من لئيم
لا تكن للعيش مجروح الفؤاد إنما الرزق على الله الكريم

* * *

ولا تأسفن على الدنيا

لا تأسفن على الدنيا وحُليها فالموت لا شك يفنينا ويفنيها
واعمل لدار يكن رضوان خازنها والجار أحمد والرحمن ناشيها
أرض لها ذهبٌ والمسك طينتها والزعفران حشيش نابت فيها
أنهارها لبن محضٌ ومن عسل والخمرُ يجري رحيقًا في مجاريها
والطير تجري على الأغصان عاكفةً تسبح الله جهرًا في مغانيها
من يشتري الدار في الفردوس يعْمرها بركعة في ظلام الليل يحييها
أين الملوك التي عن حظها غفلت حتى سقاهم بكأس الموت ساقيها
أفنى القرون وأفنى كل ذي عُمر كذلك الموت يفني كل من فيها
لو أنها عقلت ماذا يراد بها ما طاب عيش لها يومًا ويلهيها
تلهو وتأمل آمالا تسير بها شريعة الموت تطوينا وتطويها
والله لو قنعت نفس بما رزقت من المعيشة إلا كان يكفيها

والله والله أيمانًا مكررة ثلاثة من يمين بعد ثانيها
لو أن في صخرة صمًّا ململمة في البحر راسية ملس نواحيها
رزقًا لعبد يراه الله لانفلقت حتى تؤدي إليه كل ما فيها
أو كان تحت طباق السبع مسلكها لسهل الله في المرقى مراقيها
حتى ينال الذي في اللوح خط له حتى أتته وإلا سوف يأتيها
أموالنا لذوى الميراث نجمعها ودورنا لخراب الدهر نبنيها
تلك المنازل في الآفات خاوية أضحت خرابًا وذاق الموت بانيها
النفس تبكي على الدنيا وقد علمت أن السلامة فيها ترك ما فيها
لا دار للمرء بعد الموت يسكنها إلا التي كان بعد الموت يبنيها
فإن بناها بخير طاب مسكنه وإن بناها بشر خاب بانيها

* * *

يا غافلين أفيقوا قبل بعثكم وقبل يؤخذ بالأقدام واللمم
والخلق قد شُغلوا والحشر جامعهم والله طالبهم بالحل والحرم
وقد تبدى لأهل الحشر كلهم وعد الإله من التعذيب والنقم
وكل نفس لدى الجبار شاخصة لا ينطقون بلا روح من الرحم

* * *

أيها المرء إنَّ دنياك بحر موجهُ طافح فلا تأمنها
وسبيل النجاة فيها منبر وهو أخذ الكفاف والقوت منها

- **ومن القناعة: اليأس مما في أيدي الناس:**

جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: أوصني وأوجز فقال: **«عليك باليأس مما في أيدي الناس فإنه الغنى، وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر، وصلِّ صلاتك وأنت مودِّع، وإياك وما يعتذر منه»**(١).

(١) أخرجه الحاكم والبيهقي في كتاب الزهد، وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «يا بني... إذا طلبت الغنى فاطلبه في القناعة.. فإنها مال لا ينفد، وإياك والطمع فإنه فقر حاضر، وعليك باليأس - مما في أيدي الناس - فإنك لم تيأس من شيء إلا أغناك الله تعالى عنه».

أي نعم

دع الحرص على الدنيا وفي العيش فلا تطمع
ولا تجمع من المال فما تدري لمن تجمع
فإنَّ الرزق مقسوم وسوء الظن لا ينفع
فقير كل ذي حرص غني كل من يقنع

* * *

عزيز النفس من لزم القناعة ولم يكشف لمخلوق قناعهْ
أفادتنا القناعة كل عز وهل عزٌّ أعزُّ من القناعه
فصيِّرها لنفسك رأس مال وصيِّر بعدها التقوى بضاعه
لتغنى في حياتك عن لئيم وتسعد في الجنان بصبر ساعهّ

وصدق الإمام الشافعي عندما قال:

أمتُّ مطامعي فأرحت نفسي فإنَّ النفس ما طمعت تهونُ
وأحييت القنوع وكان ميتًا ففي إحيائه عرضي مصونُ
إذا طمع يحل بقلب عبد علتهُ مهانة وعلاهُ هونُ

- ومن القناعة: مد اليد بالبذل إلى الغير خير من أن تمد إليه الأيدي:

قال طاوس لعطاء: إياك أن تطلب حوائجك ممن يغلق بابه دونك، وعليك بمن بابه مفتوح إلى يوم القيامة، وقد أمرك أن تسأله، ووعدك أن يجيبك.

وصدق القائل:

لحمل الصخر من قمم الجبال أحب إليَّ من منن الرجال
يقول الناس لي في الكسب عار فقلت: العار في ذل السؤال

تورع عن سؤال الخلق طرًّا ... وسل ربًّا كريمًا ذا هباتِ
ودع زهوات دنياك اللواتي ... تراها لا محالة ذاهباتِ

* * *

وجدت القناعة أصل الغنى ... فصرت بأذيالها ممسكُ
فلا ذا يراني على بابه ... ولا ذا يراني به منهكُ
وعشت غنيًّا بلا درهم ... أمرُّ على الناس شبه الملك

والقنوع عزيز النفس يطلب الحوائج بعزة نفس، لأنه يوقن أن رزقه وأجله بتصريف الله وحده.

قال سيد المرسلين ﷺ: **«إنَّ روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله، فإن الله تعالى لا ينال ما عنده إلا بطاعته»**(١).

ولله درّ قول القائل:

لا تخضعن لمخلوق على طمع ... فإن ذلك نقص منك في الدين
أرى رجالاً بأدنى الدين قد قنعوا ... وما أراهم رضوا في العيش بالدونِ
فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما استـ ... ـغنى الملوك بدنياهم عن الدينِ
واسترزق الله مما في خزائنه ... فإن رزقك بين الكاف والنونِ
ولا تصاحب أخا غنى تستغنِ به ... وعظِّم حرمة الدينِ
لن يقدر العبد أن يعطيك خردلة ... إلا بإذن الذي سواك من طينِ

وكتب بعض بني أمية إلى أبي حازم يعزم عليه إلا رفع إليه حوائجه.. فكتب إليه: قد رفعت حوائجي إلى مولاي.. فما أعطاني منها قبلت، وما أمسك عني قنعت.

---

(١) صحيح: أخرجه الحاكم وصححه، وأبو نعيم في «الحلية»، وانظر «صحيح الجامع» رقم (٢٠٨٥).

ولماذا يذل العبد نـفسه ولا يقنع بما قسم له، وقـد قدر الله الأرزاق وكتب على نفسه إيصال الرزق إلى عـبده فقال: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

وجاء في الأثر: يا ابن آدم لو ركـبت الريح هربًا من رزقك لركب رزقك البرق وأدركك حيثما كنت.

وكان أحد الصالحين يأكل على سفرته فجـاءت قطة فأخذت قطعة لحم فتركها، ثمَّ جاءت مرة ثانية، فـأخذت قطعة أخرى فتركها، ثمَّ جاءت المـرة الثالثة فأخذت قطعة فتـبعها فرآها قـد دخلت في جحر ووضعت قطعة اللـحم وانصرفت، فعلم أنها لم تأخذ قطعة اللحم لنفسها، فـانتظر أمام الجحر ينتظر من يخرج يأخذ قطعة اللحم، فإذا ثعـبان أعمى قـد خرج وأخذ قطعة اللحـم، فقال: سبـحانك يا من سخَّرت الأعداء يرزق بعضهم بعضًا.

الطمع: ونقض القناعة الـطمع، والمؤمن منقطع الطمع عن الخلق غيـر ملتفت إلى ما في أيديهم ولا يمكنه ذلك إلا بأن يقنع بقـدر الضرورة من المطعم والملبس، وقد ورد النهي عن الحرص والطمع في المال.

بيان علاج الحرص والطمع: هذا الدواء مركب من ثلاثة أركان:

الصبر، والعلم، والعمل، ومجموع ذلك خمسة أمور:

الأول: الاقتصـاد في المعيشـة والرفق في الإنفاق: فمن أراد القناعة فـينبغي أن يسد عن نفسه أبواب الخروج ما أمكنه ويرد نفسه إلى ما لا بد منه فيقنع بأي طعام كان وقليل من الأدام وثوب واحد ويـوطن نفسه على ذلك وإن كان له عيـال فيرد كل واحد إلى هذا القدر.

الثاني: إذا تيـسر له في الحـال ما يكفيـه فلا يكون شـديد الاضطراب لأجل المستقبل ويعينه على ذلك قصـر الأمل واليقين بأن رزقه لا بد أن يأتيه، وليعلم أن الشيطان يعده الفقر وإذا انسد عنه باب كان ينتظر الرزق منه فلا ينبغي أن يضطرب قلبه.

الثالث: أن يعرف ما في القناعة من عز الاستغناء، وما في الحرص والطمع من

الذل، وليس في القناعة إلا الصبر عن المشتبهات والفضول مع ما يحصل له من ثواب الآخرة، ومن لم يؤثر عن نفسه وعن شهوته فهو ركيك العقل ناقص الإيمان.

الرابع: أن يكثر تفكره في تنعم اليهود والنصارى وأراذل الناس والحمقى منهم، ثم ينظر إلى أحوال الأنبياء والصالحين ويسمع أحاديثهم ويطالع أحوالهم ويخير عقله بين مشابهة أراذل العاملين أو صفوة الخلق عند الله تعالى، حتى يهون عليه الصبر على القليل والقناعة باليسير، وإنه إن تنعم بالأكل فالبهيمة أكثر أكلاً منه، وإن تنعم بالوطء فالعصفور أكثر سفادًا - نزوًا - منه.

الخامس: أن يفهم ما في جمع المال من الخطر وينظر إلى ثواب الفقر ويتم ذلك بأن ينظر أبدًا إلى من دونه في الدنيا وإلى من فوقه في الدين.

عماد الأمر: الصبر وقصر الأمل وأن يعلم أن غاية صبره في الدنيا أيام قلائل لتمتع دائم فيكون كالمريض الذي يصبر على مرارة الدواء لما يرجو من الشفاء كما ينبغي لمن فقد المال أن يستعمل القناعة ولمن وجده أن يستعمل السخاء والإيثار واصطناع المعروف فإن السخاء من أخلاق الأنبياء وهو أصل من أصول النجاة.

* * *

(٢٠) الورع

الورع خلق عظيم يتـخلق به الأوليـاء الصالحـون والعلمـاء العاملون والدعـاة المخلصون.

والورع: ترك الشبهات، والوقوف عند اليقينيات.

والورع يستلزم من المـتصف به البعـد عن الحرام أولاً، ثم اتقاء مـا بين الحلال والحرام مما يتردد فـي الصدر ويحيك في النفس ولا يطمئن إليـه القلب، ولا يجد العبد له انشراحًا وهرولة.

قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ الحلال بيِّن، وإنَّ الحرام بيِّن، وبينهما مـشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الـشبهات، فقد استبرأ لدينه وعـرضه، ومن وقع في الشبهات، وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإنَّ لكل ملك حمى، ألا وإنَّ حمى الله محـارمه، ألا وإنَّ في الجسد مضغـة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»**[(١)].

فضل الورع:

الورع دليل على قوة الإيمان وبرهان على صدق اليقين وشاهد على تقوى العبد وصلاحه، وحجة بينة على حسن معاملة العبد وكرم أخلاقه.

يقـول رسول الله ﷺ: **«فـضل العلم أحبّ إليَّ من فـضل العـبادة، وخـيـر دينكم الورع»**[(٢)].

ولذلك ورد عن النبي ﷺ أنه قال: **«لا يبلغ العبد أن يكـون من المتقين، حتى يدع ما لا بأس به حذرًا مما به بأس»**[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٥٢)، ومسلم رقم (١٥٩٩).

(٢) صحيح: أخرجه الحاكم والبزار والطبراني في «الأوسط» عن حذيفة.

(٣) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن. رقم (٢٤٥١).

وقال موسى بن أعين: المتقون تنزَّهوا عن أشياء من الحلال، مخافة أن يقعوا في الحرام، فسمَّاهم الله متقين.

ولِمَ لا يخافون من الوقوع في الحرام، والنبي ﷺ يقول: **«إنَّ رجالاً يتخوضون في مال الله بغير حق فلهم النار يوم القيامة»**[١].

ويعرف المرء عند ديناره:

الاهتمام الشديد بالعمل يضفي على العبد لونًا خاصًا لمعرفة الناس، والحكم عليهم بالصلاح من عدمه، فلم يعبأوا كثيراً بمظهر المرء ولا صورته، ولا علمه ولا هيبته، ولا تعبده، ولا قوته، فهذه الصور وغيرها يتيسر فيها الرياء، وإنما نظروا لأمر آخر لا يدوم الرياء فيه طويلاً، ألا وهو معرفة الشخص عن طريق خلقه ومعاملته، وصدق من قال:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة[٢] وإن خالها تخفى على الناس تُعلَمِ

فقد أثنى رجل على رجل خيراً عند عمر رضي الله عنه فقال له الفاروق: «أأنت جاره القريب الذي يعرف دخوله وخروجه؟ قال: لا.

فقال: أصاحبته في السفر الذي يعرف به حُسنُ الخلق؟

قال: لا، قال: أعاملته بالدينار والدرهم؟

قال: لا، قال: اذهب فإنك لا تعرفه، فإنما يعرف المرء بدرهمه وديناره»[٣].

فبالتورع عن المال الحرام وما فيه شبهة يعرف دين الرجل وتقواه:

لا يغرنك من المرء قميص رقَّعه
أو إزار فوق كعب الساق منه رفَّعه
أو جبين لاح فيه أثر قد قلّعه
ولدى الدرهم فانظر غيَّه أو ورعه

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٣١١٨).

(٢) خليقة: سجية وطبيعة.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق».

وقد فطن السابقون الصالحون لهذا الأمر، فكانوا يعرضون على أهل الورع والصَّلاح الزواج من بناتهم.

هذا أحد الصالحين واسمهُ ثابت بن إبراهيم يسير ذات يوم في طريق ما إذ سقطت تفاحة من بستان فأخذها وأكل نصفها، وتذكر أنها ليست من حقه، فدخل على البستاني وقال له: أكلت نصف تفاحة فسامحني فيما أكلت وخذ النصف الآخر، فقال البستاني: أنا لا أملك المسامحة، فالبستان ليس ملكي، وإنما هو ملك سيدي، قال: وأين سيدك حتى أذهب إليه وأستسمحه؟ فقال له: بينك وبينه مسيرة يوم وليلة، فقال: لأذهبن إليه وأستسمحه.

كان الطريق بعيداً لأن النبي ﷺ قال: «**كل جسم نبت من سُحت فالنار أولى به**»[1].

وذهب إلى صاحب البستان، وطرق بابه وفتح له الرجل الباب، وبعد أن سلم عليه قال: سامحني فيما أكلت من التفاحة، وهذا نصفها فنظر إليه صاحب البستان، وقال: لا أسامحك إلا بشرط واحد، فقال: وما هو؟ قال: أن تتزوج ابنتي ففرح، ولكنه ذكر إليه أوصافها، فقال: وهي عمياء بكماء صمَّاء عرجاء، فقال ثابت: قبلت خطبتها وسأتاجر فيها مع ربي.

ثمَّ أتى أبوها بشاهدين فشهدا على العقد. وإذا بصاحب البستان يدخل ابنته الحجرة المعدَّة للزواج، ودخل عليها ثابت، وقال: سألقي عليها السلام، وأنا أعلم أنها صماء لترد عليّ الملائكة، فألقى عليها السلام، فردّت عليه ووقفت ووضعت يدها في يده، فقال: ماذا حدث؟ ردَّت السلام إذاً ليست بكماء، وسمعت السلام إذاً ليست صماء، وقامت واقفة إذاً ليست مقعدة، ومدَّت يدها إذاً ليست عمياء، فقال لها: إنَّ أباك قد أخبرني أنكِ صماء بكماء مقعدة عمياء، ولم أر ما أخبرني به، فقالت: إنّ أبي أخبرك أني عمياء وأنا عمياء عن الحرام؛ لأن عيني لا تنظر إلى ما حرم الله، وصماء عن كل ما لا يُرضي الله، وبكماء لأن لساني لا يتحرك

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٤٢٢) من حديث جابر، وصححه الذهبي، وله طريق أخرى عند ابن حبان رقم (٥٥٦٧)، والطبراني في «الكبير» رقم (٣٦١) (صـ ١٩)، ولفظه: «**لا يدخل الجنة لحم نبت من سحت، النار أولى به**».

إلا بذكر الله، ومقعدة لأن قدميَّ لم تحملاني إلى ما يغضب الله.

ونظر ثابت إلى وجهها فكأنه القمر ليلة التمام، ودخل بها وأنجبا مولودًا ملأ طباق الأرض علمًا، إنه الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان بن ثابت.

لهذا كله فإن النبي ﷺ دعانا في باب الأخلاق والمعاملات خاصة إلى الأخذ بالأحوط والورع واجتناب ما فيه شك أو شبهة.

عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: حفظت من رسول الله ﷺ: **«دع ما يريبُك إلى ما لا يريبك»**[(١)]، أي: اترك ما تشك فيه، وخذ ما لا تشك فيه.

فإذا ما تردد المؤمن في حكم شرعي- سيما في باب المعاملات - أخذ بالأحوط والأورع.

فعن وابصة بن معبد رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ فقال: **«جئت تسأل عن البر؟»** قلت: نعم. فقال: **«استفت قلبك. البر ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك»**[(٢)].

وعن النوَّاس بن سمعان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«البر حسن الخُلق، والإثم ما حاك في النفس، وكرهت أن يطلع عليه الناس»**[(٣)].

وهذا نبينا ﷺ كان أورع الناس وأزهدهم.

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ وجد تمرة في الطريق فقال: **«لولا أني أخاف أن تكون من الصدقة لأكلتها»**[(٤)].

الورع في اختيار الكلمات:

ولا يقف الورع عند الورع في الأموال بل يدخل أيضًا في اختيار الكلمات

---

(١) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه أحمد والدارمي بإسناد حسن.

(٣) أخرجه مسلم، وحاك: أي: تردد فيه.

(٤) أخرجه البخاري رقم (٢٤٣١)، ومسلم رقم (١٠٧١).

والألفـاظ عند محـادثة الخلق، والجمـيل الجليل جل وعـلا يعلمنا هذا اللون من الورع فيقول: ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩١، ٩٢]، فانظر كـيف رد على هذا الكفر الأكـبر والجرم الأعـظم بهذا الأدب الأجل والورع الأكمل، ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ﴾.

ومرة ثانية يؤدبنا سبحانه بهذا الأدب فيقول: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

فانظر كيف أمر عباده أن يختـاروا الكلمات الحسنى عند التحدث مع الآخرين، ولم يأمرهم بانتقـاء الكلمات الحسنة، وذلك لأن الشيطان ينزغ بين العـباد ويحول الكلمات الحسنة إلى قـبيحة بحمل العبـد على كلمة تحتمل وجهين فـيظن بقائلها سوءًا، أما الكلمات الحسنى، فإن الشيطان يعجـز أن يضيف إليها ما يفسد بها بين الخلق؛ لأنها في أعلى درجات الحسن.

ورع الصديق رضي الله عنه:

وبمثل هذا أخذ الصديقون والصالحون.

عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قـال: «كـان لأبي بكر الصـديق رضي الله عنه رجل يَغِل عليه[1]، فأتاه ليلة بطعـام فتناول منه لقـمة، فقـال له المملوك: مالك تسألني كل ليلة ولم تسألني الليلة؟ قـال: حملني على ذلك الجوع، من أين جئت بهذا؟ قال: مـررت بقوم في الجاهلية فـرقيت لهم، فوعدوني فلمـا أن كان اليوم مررت بهم، فإذا عرس لهم فأعطوني، قال: إن كدت أن تهلكني، فأدخل يده في حلقه، فجعل يتقيأ وجـعلت لا تخرج، فقيل له: إنَّ هذه لا تخرج إلا بالماء فدعا بطست من ماء فجعل يشرب ويتقيأ حتى رمى بها، فقيل له يرحمك الله. كل هذا من أجل هذه اللقمة، قال: لو لم تخرج إلا مع نفسي لأخرجتها، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كل جسد ينبت من سـحت فالنار أولى به**»، فخشيت أن ينبت شيء من جسدي من هذه القمة»[2].

---

(١) أي: يجمع له المال لأنه عبد مكاتب.

(٢) أخرجه البخاري مختصرًا رقم (٣٨٤٢)، وأحمد في« الزهد».

ومرة أخرى يأتيه ابن النعيمان بطعام حصل عليه عن طريق كهانة الجاهلية فاستقاءه الصديق الوَرِع، ولندع ابن النعيمان يقص لنا ما حدث.

فعن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن ابن نعيمان وكان من أصحاب النبي ﷺ وكان ذا هيبة وضيئة، فأتاه قوم، فقالوا: أعندك في المرأة لا تعلق شيء[1]؟ قال: نعم، قالوا: ما هو؟ قال: يا أيتها الرحم العقوق، صه لداها[2] وفوق، وتحرم من العروق[3]، يا ليتها في الرحم العقوق، لعلها تعلق أو تفيق[4]، فأهدي له غنمًا وسمنًا، فجاء ببعضه إلى أبي بكر، فأكل منه فلما فرغ قام أبو بكر فاستقاء ثم قال: يأتينا أحدكم بالشيء لا يخبرنا من أين هو؟[5].

أي ورع هذا؟ إنه ورع الصديق.

ورع الفاروق:

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه مثل أعلى في الورع، حدث أنه كان فرض للمهاجرين الأوَّلين أربعة آلاف، وفرض لابنه ثلاثة آلاف وخمسمائة، فقيل له: هو من المهاجرين فلِمَ نقصته؟، فقال: إنما هاجر به أبوه، يقول: ليس هو كمن هاجر بنفسه[6].

ورع أبي السبطين:

وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه كان إمامًا في الورع.

عن الشعبي قال: خرج علي بن أبي طالب رضي الله عنه يومًا بالكوفة، فوقف على باب فاستسقى ماء، فخرجت إليه جارية بإبريق ومنديل، فقال لها: يا جارية، لمن هذه الدار؟ قالت: لفلان القسطال. فقال: سمعت رسول الله ﷺ

---

(١) لا تعلق شيء: أي: لا يستقر في بطنها حمل.

(٢) صه: كلمة زجر بمعنى: اسكت.

(٣) العروق: جمع (عرق) وهي النتاج الكثير.

(٤) تعلق: تحمل، وتفيق، أي: تصح وتسلم من السقم.

(٥) أخرجه أحمد في «الزهد»، والبغوي، وقال ابن كثير: إسناده جيد حسن. وكذا في المنتخب (٤/ ٣٦٠).

(٦) أخرجه البخاري رقم (٣٩١٢).

يقول: **«لا تشرب من بئر قسطال، ولا تستظلنَّ في ظل عشار»**[١].

ومن هذا الإناء شرب المبارك والد الإمام العَلَم عبد الله بن المبارك فبارك الله في ولده.

فقـد كان المبارك رقيـقًا لخوارزمي من التـجار، وكان يعمل في بسـتان لمولاه، وأقام فيـه زمانًا، ثمَّ إنَّ مولاه جاءه يومًـا ما، وقال له: أريد رمانًا حلـوًا، فمضى إلى بعض الشجـر وأحضر رمانًا فـكسره فوجده حـامضًا فحَـرَد عليه[٢]، وقال: أطلب الحلو فتحضر لي الحامض! هات حلوًا. فمضى وأحضر من شجرة أخرى، فلما كسرها وجدها أيضًا حامضًا، فـاشتد حرده عليه، وفعل ذلك مرة ثالثة وذاقه فوجده أيضًا حامضًا، فقال له بعد ذلك: أنت ما تعرف الحلو من الحامض؟ فقال: لا، فقال: وكيف ذلك؟ فـقال: لأني ما أكلت منه شيئًا حتى أعـرفه، فقال: ولِمَ لم تأكل؟ فـقـال: لأنك مـا أذنت لي بالأكـل منه، فـعـجب من ذلك صـاحب البستان، وكشف عن ذلك فوجده حقًّا، فعظم في عينه، وزاد قدره عنده، وكان له بنت خطبت كثيـرًا، فقال له: من ترى نزوج هذه البنت؟ فقـال: أهل الجاهلية كانوا يتزوجون للحسب، واليهود للمال، والنصارى للجمال، وهذه الأمة للدين، فأعجبه عقله، فزوجه إياها، فأنجبت له الإمام عبد الله.

الورع المدهش:

ومن أعجب ما ذكر في مواقف أهل الورع ما ورد:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«اشترى رجل من رجل عقارًا[٣]، فوجـد الرجل الذي اشترى العـقار في عـقاره جرّة فـيها ذهب، فـقال له الذي اشتـرى العـقار: خذ ذهـبك مني، إنما اشتـريت منك الأرض، ولم أبتَع [٤]منك الذهب، وقال الذي له الأرض: إنما بعتك الأرض وما فيها، فتـحاكما إلى رجل فقال الذي تحاكما**

(١) أخرجه ابن عساكر: كذا في «الكنز» (٢/ ١٦٥) وقال: لم أر في رجاله مَنْ تُكُلِّم فيه.

(٢) حَرَد: أي: غضب.

(٣) العقار: الأرض.

(٤) لم أبتع: لم أشتر.

إليه: ألكما ولد[(١)]؟ قال أحدهما: لي غلام، وقال الآخر: لي جارية، قال: أنكحوا الغلام الجارية، وأنفقوا على أنفسهما منه وتصدَّقا»[(٢)].

أي ورع هذا.

يجد جرة ذهب تساوي آلاف الآلاف في عقاره ولا يأخذها لنفسه ويردها على البائع، ويردها البائع عليه فلا يقبلها.

لولا عجائب صنع الله ما كان هذا في لحم ولا عصب

* * *

(١) ألكما ولد: المراد: الجنس، وليس المراد ولدًا واحدًا بل أولاد.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء رقم (٣٤٧٢)، ومسلم: كتاب الأقضية رقم (١٧٢١)، وأحمد (٢/٣١٦).

(٢١) الأدب

الأدب حسن الخلق بدون إفراط ولا تفريط ولا غلو ولا جفاء وأنواعه ثلاثة:

أ - أدب مع الله.

ب - وأدب مع رسوله ﷺ.

جـ - وأدب مع خلقه.

والأدب مع الله ثلاثة أنواع:

أحدها: صيانة معاملته أن يشوبها بنقيصة.

والثاني: صيانة قلبه أن يلتفت إلى غيره.

والثالث: صيانة إرادته أن تتعلق بما يمقتك عليه.

قال أبو علي الدقاق: «مَن صاحب الملوك بغير أدب، أسلمهُ الجهل إلى القتل».

وقال: «ترك الأدب يوجب الطرد، فمن أساء الأدب على البساط رُدَّ إلى الباب، ومن أساء الأدب على الباب رُدَّ إلى سياسة الدواب».

وقال يحيى بن معاذ الرازي: «من تأدب بأدب الله، صار من أهل محبة الله».

وقال أيضًا: «إذا ترك العارف أدبه مع معروفه، فقد هلك مع الهالكين».

وقال أبو علي الدقاق: «رأيت من أراد أن يمد يده في الصلاة إلى أنفه، فقبض على يده».

وقال ابن عطاء: «الأدب: الوقوف مع المستحسنات، فقيل له: وما معناه؟ فقال: أن تعامله سبحانه بالأدب سرًا وعلنًا، ثم أنشد:

إذا نطقت جاءت بكل ملاحة وإن سكتَت جاءت بكل مليح

وقال سهل التستري: «من قهر نفسه بالأدب، فهو يعبد الله بالإخلاص».

وعند الصحابة رضي الله عنهم الأدب:

وكان الصحابة رضي الله عنهم على أدب صلى الله على مَن أقام لواءه.

وهذه بعض ألوانه: قال عمر رضي الله عنه: «أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا -يعني بلالاً -»(١). وقال يحيى بن سعد: «ذكر عمر فضل أبي بكر، فجعل يصف مناقبه... ثمَّ قال: وهذا سيدنا بلال حسنة من حسناته»(٢).

وهذا عمر رضي الله عنه مرة أخرى يعلمنا الأدب مع الأمراء ولو كان أصغر منا سنًّا، فقد ورد أنه لم يلق أسامة رضي الله عنه قط إلا قال: «السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله، تُوفِّي رسول الله ﷺ وأنت عليَّ أمير»(٣).

أدب العباس رضي الله عنه:

وهذا العباس بن عبد المطلب - عم النبي ﷺ - يعطينا درسًا في الكياسة والفطنة وحضور البديهة والأدب مع النبي ﷺ.

فعن أبي رزين قال: «قيل للعباس: أنت أكبر أو النبي ﷺ؟

قال: هو أكبر وأنا ولدت قبله»(٤).

أدب علي رضي الله عنه:

وهذا عليّ رضي الله عنه يقول عنه صهيب مولى العباس قال: «رأيت عليًّا يُقبِّل يد العباس ورجله، ويقول: يا عم، ارض عني»(٥).

أدب ابن عباس رضي الله عنهما:

عن أبي سلمة: «أن ابن عباس قام إلى زيد بن ثابت فأخذ بركابه، فقال: تنحَّ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب - باب (مناقب بلال) رقم (٣٧٥٤).

(٢) طبقات ابن سعد (٤/ ٢٠)، والسير (٢/ ٩٦).

(٣) طبقات ابن سعد (٦/ ١٢٤).

(٤) قال الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٢٧٠): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(٥) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» رقم (٩٧٦) وقال الذهبي في «السير» (٢/ ٩٤): إسناده حسن، وصهيب لا أعرفه.

يا ابن عم رسول الله! فقال: إنا هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا وكبرائنا»(١).

أدب عمران بن حصين رضي الله عنهما:

وأدب من نوع الحياء يلقنه لنا عمران رضي الله عنه فيقول: «ما مسست ذكري بيميني منذ بايعت رسول الله ﷺ»(٢).

أدب ابن عمر رضي الله عنهما:

«وأدب من نوع التواضع يقدمه لنا ابن عمر رضي الله عنهما فيقول عنه تلميذه مجاهد: ربما أخذ ابن عمر لي بالرِّكاب»(٣).

وهذا هو أبو هريرة البار بأمه:

كان أبو هريرة مثلاً سامقًا للبر بأمه حتى أنه لم يحج إلا بعد موتها لصحبتها طوال حياتها.

ذات مرة يشتد الألم به من الجوع، فيخرج من بيته إلى المسجد، ولا يخرجه إلا الجوع، فيجد نفرًا من أصحاب رسول الله ﷺ فيقولون: يا أبا هريرة، ما أخرجك هذه الساعة؟ فيقول: ما أخرجني إلا الجوع، فيقول أبو هريرة: فقمنا، فدخلنا على رسول الله ﷺ فقال: **«ما جاء بكم هذه الساعة؟»**، فقلنا: يا رسول الله جاء بنا الجوع، قال: فدعا رسول الله ﷺ بطبق فيه تمر، فأعطى كل رجل منا تمرتين، فقال: **«كلوا هاتين التمرتين، واشربوا عليهما من الماء، فإنهما ستجزيانكم يومكم هذا»**. قال أبو هريرة: فأكلت تمرة وخبَّأت الأخرى، فقال رسول الله ﷺ: **«يا أبا هريرة: لِمَ رفعت هذه التمرة؟»** فقلت: رفعتها لأمي. فقال: **«كلها، فإنا سنعطيك لها تمرتين»**، فأكلتها فأعطاني لها تمرتين(٤).

---

(١) أخرجه ابن سعد (٢/ ٣٦٠)، والحاكم (٣/ ٤٢٣) وصححه وأقره الذهبي، وأخرجه الطبراني رقم (٤٧٤٦)، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٣٤٥) وقال: رجاله رجال الصحيح. وأورده الحافظ في «الإصابة» (٤/ ٤٢، ٤٣) وصححه.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٤٣٩)، وابن سعد (٤/ ٢٨٧)، والحاكم (٣/ ٤٧٢) وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) «السير» (٤/ ٤٥٢).

(٤) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٤/ ٣٢٨، ٣٢٩)، وابن عساكر (١٩/ ١١١)، وذكره الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٥٩٢، ٥٩٣) وقال المحقق: رجاله ثقات.

عن أبي مرة: أن أبا هريرة كان يستخلفه مروان، وكان يكون بـ «ذي الحليفة» فكانت أمه في بيت، وهو في آخر، قال: فإذا أراد أن يخرج وقف على بابها، فقال: السلام عليك يا أُمَّتاه ورحمة الله وبركاته، فتقول: وعليك يا بُني ورحمة الله وبركاته، فيقول: رحمكِ الله كما ربيتيني صغيرًا، فتقول: رحمك الله كما بررتني كبيرًا، ثمَّ إن أراد أن يدخل صنع مثله.

ولازم أبو هريرة أمه، ولم يحج حتى ماتت لصحبتها.

وعبد الله بن عمر وإكرام صديق الأب:

ومن الأدب مع الوالدين والبر بهما: إكرام صديقهما.

عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان إذا خرج إلى مكة كان له حمار يتروّح عليه إذا ملَّ ركوب الراحلة وعمامة يشد بها رأسه، فبينما هو يومًا على ذلك الحمار، إذ مر به أعرابي، فقال: ألست فلان ابن فلان؟ قال: بلى، فأعطاه الحمار، فقال: اركب هذا، وخذ العمامة، وقال: اشدد بها رأسك، فقال له بعض أصحابه: غفر الله لك! أعطيت هذا الأعرابي حمارًا كنت تروح عليه، وعمامة كنت تشد بها رأسك؟ فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ من أبر البر صلة الرجل أهل ود أبيه بعد أن تولَّى**»(١).

وقد مر بنا في توقير العلماء والصالحين:

- الأدب مع العلماء.
- والأدب مع الصالحين.
- والأدب مع كبار السن.
- والأدب مع حملة القرآن.

فالإسلام كله مبني على الأدب في عقائده وشرائعه وأخلاقه.

* * *

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٥٥٢) كتاب البر والصلة، وأبو داود رقم (٥١٤٣)، والترمذي (ح١٩٠٣).

(٢٢) الزهد

لن نقف هنا عند الزهد كما هو المشهور عنه في أن المقصود به التواضع في اللباس والتقشف في العيش وترك زينة الحياة الدنيا.

إنما نحتاج لأن نرتفع بالزهد إلى معنى أعلى ومقصد أسنى، فالزهد الحقيقي زهد القلوب، بأن تكون الدنيا في اليد وليست في القلب، ولذا قيل: الزاهد عمر ابن عبد العزيز رحمه الله، وقيل قبل هذا عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وذلك لأن الدنيا عرضت على كل واحد منهما فانصرف عنها، ونظر إلى زينة الحياة الأخرى، فكانت له نفس توَّاقة، تاقت إلى الخلافة فبلغتها، ثمَّ اشتاقت إلى الجنة فركنت إليها، فكانت الجنة شغلهم الشاغل وهمهم الأكبر ومبلغ علمهم ومنتهى آمالهم.

كما في الدعاء النبوي: «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا».

زهد عثمان رضي الله عنه:

قيمة الدنيا عند أصحاب النبي ﷺ تساوي لا شيء.

في هذا المعنى نقرأ عن السخي الجواد عثمان رضي الله عنه.

عن عبد الملك بن شدَّاد قال: «رأيت عثمان بن عفان رضي الله عنه يوم الجمعة على المنبر، عليه إزار عدني غليظ ثمنه أربعة دراهم أو خمسة دراهم، وريطة كوفية ممشوقة(١)»(٢).

وعن الحسن البصري وقد سئل عن القائلين في المسجد فقال: «رأيت عثمان بن عفان رضي الله عنه يقيل في المسجد، وهو يومئذ خليفة، قال: ويقوم وأثر الحصى بجنبه، قال: فيقال: هذا أمير المؤمنين هذا أميرُ المؤمنين»(٣).

---

(١) كوفية ممشوقة: ملاءة مصبوغة من الكوفة.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (ج١) (صـ ٦٠).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ١١٦).

وأعجب من هذا أنه رضي الله عنه كان يطعم الناس الطعام الجيد الشهي ويأكل هو الخل والزيت ويتعب معدته.

فعن شرحبيل بن مسلم: «أن عثمان رضي الله عنه كان يطعم الناس طعام الإمارة ويدخل بيته فيأكل الخل والزيت».

* * *

* **جبل الزهد:**

دخل الصحابي الجليل سعيد بن عامر رضي الله عنه على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا عمر، أوصيك أن تخشى الله في الناس، ولا تخش الناس في الله، وألا يخالف قولك فعلك، فإن خير القول ما صدَّقه الفعل.

يا عمر، أقم وجهك لمن ولاك الله أمره من بعيد المسلمين وقريبهم، وأحِب لهم ما تُحب لنفسك وأهل بيتك، واكره لهم ما تكره لنفسك وأهل بيتك، وخُض الغَمرات إلى الحق، ولا تخف في الله لومة لائم.

فقال عمر: ومن يستطيع ذلك يا سعيد؟ فقال: يستطيعه رجل مثلك ممَّن ولاهم الله أمر أمة محمد ﷺ، وليس بينه وبين الله أحد. عند ذلك دعا عمر بن الخطاب سعيداً إلى مساعدته، وقال: يا سعيد إنا مولُّوك على أهل حمص، فقال: يا عمر نشدتك الله[1] ألا تفتنِّي. فغضب عمر وقال: ويحكم.. وضعتم هذا الأمر في عنقي ثمَّ تخليتم عني!! والله لا أدعك، ثمَّ ولاه على حمص، وقال: ألا نفرض لك رزقًا؟ قال: وما أفعل به يا أمير المؤمنين؟! فإنَّ عطائي من بيت المال يزيد عن حاجتي، ثمَّ مضى إلى حمص.

وما هو إلا قليل حتى وفد على أمير المؤمنين بعض من يثق بهم من أهل حمص فقال لهم: اكتبوا لي أسماء فقرائكم حتى أَسُد حاجتهم. فرفعوا كتابًا فإذا فيه: فلان وفلان، وسعيد بن عامر. فقال: ومَن سعيد بن عامر؟! فقالوا: أميرنا. قال: أميركم فقير. قالوا: نعم، ووالله إنه لتمر عليه الأيام الطوال ولا يوقد في بيته نار.

(١) نشدتك الله: أستحلفك بالله.

فبكى عمر حتى بللت دموعه لحيته، ثمَّ عمد إلى ألف دينار فجعلها في صُرَّة، وقال: اقرءوا عليه السلام مني، وقولوا له: بعث إليك أمير المؤمنين بهذا المال؛ لتستعين به على قضاء حاجاتك.

جاء الوفد لسعيد بالصرَّة فنظر إليها فإذا هي دنانير، فجعل يُبعدها عنه وهو يقول: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، كأنما نزلت به نازلة أو حلَّ بساحته خَطْبٌ، فهبَّت زوجته مذعورة، وقالت: ما شأنك يا سعيد؟!.. أمات أمير المؤمنين؟! قال: بل أعظم من ذلك. قالت: أأصيب المسلمون في وقعة؟! قال: بل أعظم من ذلك. قالت: وما أعظم من ذلك؟! قال: دخلت عليَّ الدُّنيا لتُفسد آخرتي، وحلَّت الفتنة في بيتي. قالت: تخلَّص منها. وهي لا تدري من أمر الدنانير شيئًا. قال: أوَ تُعينيني على ذلك؟ قالت: نعم. فأخذ الدنانير فجعلها في صُرر ثمَّ وزَّعها على فقراء المسلمين.

* * *

* وقصة أخرى:

بطلنا السابق يعزُّ علينا أن نسطر عنه قصة واحدة، لذا فإننا نلتقط هذا الموقف العجيب من مواقفه البديعة.

في ذات يوم جاء أهل حمص إلى أمير المؤمنين عمر يشكون إليه واليهم سعيد ابن عامر، وذكروا لسيدنا عمر رضي الله عنه أربع شكاوى. قال عمر: فجمعت بينه وبينهم، ودعوت الله ألا يُخيِّب ظني فيه، فقد كنت عظيم الثقة به، فلما أصبحوا عندي هم وأميرهم، قلت: ما تشكون من أميركم؟ قالوا: لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار. فقلت: وما تقول في ذلك يا سعيد؟ فسكت قليلاً ثم قال: والله إني كنت أكره أن أقول ذلك، أما وإنه لابد منه فإنه ليس لأهلي خادم. فأقوم في كل صباح، فأعجن لهم عجينهم، ثمَّ أتريث قليلاً حتى يختمر، ثم أخبزه لهم، ثم أتوضأ وأخرج للناس، قال عمر: فقلت لهم: وما تشكون منه أيضًا؟ قالوا: إنه لا يُجيب أحدًا بليل. قلت: وما تقول في ذلك يا سعيد؟ قال: إني والله كنتُ أكره أن أعلن هذا أيضًا، فإني قد جعلت النهار لهم، والليل لله عزَّ

وجل. قلت: وما تشـكون منه أيضًا؟ قالوا: إنه لا يخـرج إلينا يومًا في الشـهر. قلت: وما هذا يا سعيد؟ قال: ليس لي خادم يا أمير المؤمنين، وليس لي ثياب غير التي عليَّ، فأنا أغسلها في الشهـر مرة، وأنتظرها حتى تجف، ثمَّ أخرج إليهم في آخر النهار، ثم قلت: وما تشكون منه أيضًا؟ قالوا: تصيبه من حين إلى آخر غشية فيغيب عمَّن في مجلسه. فقلت: وما هذا يا سعيد؟! فقال: شهدت مصرع خبيب ابن عدي وأنا مشرك، ورأيت قريشًا تُقَطِّع جسده، وهي تقول له: أتحب أن يكون محمد مكانك؟ فيقول: والله ما أحب أن أكون آمنًا في أهلي وولدي، وأنَّ محمداً تشوكه شوكة، وإني والله ما ذكرت ذلك اليوم وكيف أني تركت نصرته إلا ظننت أنَّ الله لا يغفر لي، وأصابتني تلك الغشية.

عند ذلك قال عمر: الحمد لله الذي لم يُخيِّب ظني به، ثمَّ بعث له بألف دينار ليستعين بها على حاجته، فلمـا رأتها زوجته، قالت له: الحمد لله الذي أغنانا عن خدمتك، اشتر لنا مـؤنة، واستأجر لنا خادمًا. فقال لها: وهل لك فـيما هو خير من ذلك؟ قالـت: وما ذاك؟! قال: ندفـعها إلـى مَن يأتينا بها، ونحن أحـوج ما نكون إليهـا. قالت: ومـا ذاك؟ قال: نقرضـها الله قـرضًا حسنًا. قـالت: نعم، وجُزيت خيراً. فما غادر مجلسه الذي هو فيه حتى جعل الدنانير في صُرر، وقال لواحد من أهله: انطلق إلى أرملة فلان، وإلى أيتام فلان، وإلى مساكين آل فلان، وإلى معوزي[١] آل فلان[٢].

وهذا سـيِّد من سـادات الزهد: روي أنَّ أعرابـيًّا سأل أهل البـصرة من سـيدكم؟ قالوا: الحـسن- أي الحسن البصري. قـال: بمَ سَادكم؟ قالوا: احـتاج الناس إلى علمه، واستغنى هو عن دينارهم. قال: ما أحسن هذا!

* * *

---

(١) معوزي: محتاجي.

(٢) انظر «صفة الصفوة» (١/ ٢١٤- ٢١٦) ترجمة رقم (٨٣)، و«حلية الأولياء» (١/ ٢٤٤)، و«تاريخ الإسلام» (٢/ ٣٥)، و«الإصابة» (٢/ ٤٨) ترجمة (٣٢٧٠).

*** والآن نعيش مع الزاهد في الدنيا:**

أمضى عمير بن سعد عـامًا كاملاً في ولايته على حمص بالشام ولم تصل إلى عمر أية أخـبار عنه طوال هذه المدة، ولم يرسل عميـر الخراج إليه، ولا تصل عنه أية أنباء!، فقال عمر لكاتبه: اكتب إلى عمير فإني أخاف أن يكون خاننا، وأرسل إليه يستـدعيه. وذات يوم شهدت شوارع المديـنة رجلاً أشعث أغبر تغشـاه وعثاء السفر، يكاد يقتلع قدميـه من الأرض اقتلاعًا من طول ما لاقى من عناء وبذل من جهد، وعلى كتـفه اليمنى جراب وقصعة، وعلى كـتفه اليسرى قربة صغيـرة فيها ماء، وإنه ليتـوكأ على عصا لا يؤودها حمل الضـامر الوهنان. ودلف إلى مجلس عمر في خطوات وئيدة، وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، ويرد عمر السلام، ثم يسأله وقد آلمه ما رآه عليه من جهد وإعياء: ما شأنك يا عمير؟! قال: شأني ما ترى، ألست تراني صـحيح البـدن ظاهر الدم معي الدنيـا أجرها بقـرنيهـا؟! قال عمر: وما هذا الذي مـعك؟ قال عمير: معي جرابي أحمل فـيه زادي، وقصعتي آكل فيها وإداوتي[1] أحمل فيها وضوئي وشرابي، وعصاي أتوكأ عليها، وأجاهد بهـا عـدوًّا إن عـرض لي، فوالله مـا الدنيا إلا تبع لمتـاعي!!. قال عمـر: أجئت ماشيًا؟! قال: نعم، قال عمر: أولم تجد من يتبرع لك بدابة تركبها؟ قال: إنهم لم يفعلوا، وإني لم أسـألهم!. قال عمر: فـماذا عملت فـيما عهـدنا إليك به؟ قال عمـير: أتيتُ البلد الذي بعـثتني إليـه، فجمـعت صلحاء أهله، ووليـتهم جـباية الأموال حتى إذا جمعوها وضعتـها في مواضعها، ولو بقي لك منها شيء لأتيتك به. قال عمـر: فما جئتنا بشيء؟ قال: لا، قـال عمر وهو منبهر سعـيد: جددوا لعمير عهدًا[2]. قال عمير: تلك أيام قد خلت، لا عملت لك ولا لأحد بعدك. ثم استأذن، فأذن له، فرجع إلى منزله وبينه وبين المدينة أميال.

بعد أن انصـرف عمير بعث عـمر رجلاً يقال له: الحـارث، وأعطاه مائة دينار وقال: انطلق إلى عـمير حتى تنزل بـه كأنك ضيف، فإن رأيت أثر شيء فـأقبل.

---

(١) الإداوة: إناء من جلد يحمل فيه الماء.

(٢) جددوا له الولاية على حمص مرة أخرى.

وإن رأيت حالاً شديدًا فادفع إليه هذه المائة دينار. فانطلق الحارث، فإذا هو بعمير جالس يفلي قميصه إلى جنب الحائط، فقال له عمير: انزل رحمك الله. فنزل ثم سأله، فقال: من أين جئت؟ قال: من المدينة. فقال: صالحين. قال: أليس يقيم الحدود؟ قال: بلى ضرب ابنًا له على فاحشة فمات من ضربه. فقال عمير: اللهم أعن عمر فإني لا أعلمه إلا شديدًا حبه لك.

نزل الحارث به ثلاثة أيام وليس لهم إلا قرصة من شعير كانوا يخصونه بها[١] ويطوون[٢] حتى أتاهم الجهد. فقال له عمير: إنك قد أجعتنا فإن رأيت أن تتحول عنا فافعل، فأخرج الدنانير فدفعها إليه، فقال: بعث أمير المؤمنين إليك هذه فاستعن بها. فصاح وقال: لا حاجة لي فيها فردها. فقالت له امرأته: إن احتجت إليها وإلا فضعها في مواضعها. فقال عمير: والله ما لي شيء أجعلها فيه. فشقت المرأة أسفل درعها فأعطته خرقة فجعلها فيها، ثم خرج فقسمها بين أبناء الشهداء والفقراء ثم رجع الحارث إلى عمر فقال له عمر: ما رأيت؟ قال: يا أمير المؤمنين رأيت حالاً شديدًا. قال: فما صنع بالدنانير؟ قال: لا أدري، فكتب عمر إلى عمير: إذا جاءك كتابي هذا فلا تضعه من يدك حتى تُقْبِل، فأقبل إلى عمر فدخل عليه، فقال له عمر: ما صنعت بالدنانير؟ قال: صنعتُ ما صنعتُ وما سؤالك عنها؟ قال: أقسم عليك لتُخبرني ما صنعت بها. قال: قدمتها لنفسي[٣]. قال: رحمك الله، فأمر له بوسق من طعام وثوبين، فقال: أما الطعام فلا حاجة لي فيه، قد تركتُ في المنزل صاعين من شعير، إلى أن آكُل ذلك قد جاء الله بالرزق ورفض عمير أن يأخذ الطعام، وأما الثوبان فآخذهما وقال: إن أم فلان عارية، فأخذهما ورجع إلى منزله[٤].

* * *

(١) أي: الضيف.

(٢) لا يأكلون هم.

(٣) تصدقت بها.

(٤) انظر «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٥٦٠- ٥٦٢)، و«تاريخ الإسلام» (٢/ ٢٤١، ٢٤٢) وفي إسناده عبد الملك بن هارون بن عنترة عن أبيه وهما ضعيفان.

*** وزير زاهد:**

وزير بدون مرتب: عن عبد الله بن السعدي رضي الله عنه أنه قدم على عمر ابن الخطاب رضي الله عنه في خلافته، فقال له عمر: ألم أحدث أنك تلي من أعمال الناس أعمالاً؟ فإذا أعطيت العُمالة[1] كرهتها، فقلت: بلى، قال عمر: فما تريد إلى ذلك؟ قلت: إنَّ لي أفراسًا وأعبدًا وأنا بخير، وأريد أن تكون عمالتي صدقة على المسلمين، قال عمر: فلا تفعل. فإني قد كنت أردت الذي أردت، وكان النبي ﷺ يعطيني العطاء، فأقول: أعطه أفقر إليه مني، حتى أعطاني مرة، فقلت: أعطه أفقر إليه مني، فقال النبي ﷺ: **«خذه فتموله[2] أو تصدَّق به، فما جاءك من هذا المال وأنت غير مُشْرِف ولا سائل فخذه، وما لا فلا تتبعه نفسك»**[3].

وعند ابن جرير عنه قال: استعملني عمر رضي الله عنه على الصدقة، فلما أديتها إليه أعطاني عمالتي، فقلت: إنما عملت لله وأجرتي على الله، قال: خذ ما أعطيتك، فإني عملت على عهد رسول الله ﷺ فأعطاني، فقلت مثل قولك، فقال رسول الله ﷺ: **«إذا أعطيتك شيئًا من غير أن تسألني فكل وتصدَّق»**[4].

* * *

زهد سلمان رضي الله عنه:

وهذا تلميذ تخرَّج في مدرسة الزاهد عليّ رضي الله عنهما إنه أبو عبد الله سلمان الفارسي.

عن سلمان أنه تزوج امرأة من كِندة، فبنى بها في بيتها، فلما كان ليلة البناء مشى معه أصحابه حتى أتى بيت امرأته، فلما بلغ البيت، قال: ارجعوا آجركم الله، ولم يُدخلهم عليها كما فعل السفهاء، فلما نظر إلى البيت، والبيت مُنجَّد[5]

---

(١) العمالة: أجرة العمل.

(٢) فتموله: أي: ادخره لنفسك تنتفع به عند الحاجة.

(٣) أخرجه البخاري رقم (٧١٦٣)، ومسلم رقم (١٠٤٥).

(٤) «كنز العمال» (٣/ ٣٢٥).

(٥) مُنجَّد: مزيَّن.

قال: أمحموم[١] بيتكم، أم تحولت الكعبة في كِندة؟ قالوا: ما بيتنا بمحموم، ولا تحولت الكعبة في كِندة، فلم يدخل البيت حتى نُزِع كل ستر في البيت غير ستر الباب.

فلما دخل رأى متاعًا كثيرًا، فقال: لِمَن هذا المتاع؟ قالوا: متاعك ومتاع امرأتك. قال: ما بهذا أوصاني خليلي ﷺ. أوصاني خليلي ﷺ أن لا يكون متاعي من الدنيا إلا كزاد الراكب، ورأى خدمًا، فقال: لِمَن هذا الخدم؟ فقالوا: خدمك وخدم امرأتك، فقال: ما بهذا أوصاني خليلي! أوصاني خليلي ﷺ أن لا أمسك إلا ما أنكِح أو أُنْكِح[٢]. فإن فعلت فبغين[٣] كان عليَّ مثل أوزارهن من غير أن ينتقص من أوزارهن شيء، ثمَّ قال للنسوة اللاتي عند امرأته: هل أنتن مخرجات عني مُخلّيات بيني وبين امرأتي؟. قلن: نعم، فخرجن فذهب إلى الباب حتى أجافه، وأرخى الستر، ثم جاء حتى جلس عند امرأته، فمسح بناصيتها ودعا بالبركة، فقال لها: هل أنت مُطيعتي في شيء آمرك به؟ قالت: جلست مجلس من يُطاع. قال: فإنَّ خليلي ﷺ أوصاني إذا اجتمعت إلى أهلي أن أجتمع على طاعة الله عز وجل، فقام وقامت إلى المسجد، فصليا ما بدا لهما، ثمَّ خرجا فقضى منها ما يقضي الرجل من امرأته. فلما أصبح غدا عليه أصحابه، فقالوا: كيف وجدت أهلك؟ فأعرض عنهم، ثمَّ أعادوا فأعرض عنهم، ثم قال: إنما جعل الله تعالى الستور والخدور والأبواب لتورِّي[٤] ما فيها، حسب امرئ منكم أن يسأل عما ظهر له، فأما ما غاب عنه فلا يسألن عن ذلك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«المتحدث عن ذلك كالحمارين يتسافدان[٥] في الطريق»**[٦].

(١) شبَّه سلمان رضي الله عنه البيت بما فيه من متاع كثير بالمحموم الذي توضع عليه اللحف.

(٢) أي: الإماء اللواتي في ملكه.

(٣) بغين: زنين.

(٤) لتستر.

(٥) يُجامعان.

(٦) أخرجه الطبراني وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٨٥، ١٨٦) واللفظ له، وقال الهيثمي (٤/ ٢٩١): فيه الحجاج بن فرُّوخ وهو ضعيف.

وخال معاوية رضي الله عنهما زاهد:

عن أبي وائل قال: جاء معاوية رضي الله عنه إلى أبي هاشم بن عتبة رضي الله عنه وهو مريض يعوده، فوجده يبكي، فقال: يا خال، ما يبكيك؟ أوجع يشئزك[١] أم حرص على الدنيا؟ قال: كلا، ولكن رسول الله ﷺ عهد إلينا عهداً لم نأخذ به، قال: وما ذاك؟ قال: سمعته يقول: إنما يكفي من جمع المال خادم ومركب في سبيل الله، وأجدني اليوم قد جمعت[٢].

وفي رواية: فلما مات حُصِر ما خَلَف فبلغ ثلاثين درهمًا، وحسبت فيه القصعة التي كان يعجن فيها، وفيها يأكل[٣].

فنحن - بحق- أحوج ما نكون إلى زهد القلوب كما في الحديث: **«ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس»**.

* * *

---

(١) يُشئزك: يقلقك ويزعجك.

(٢) حسن: أخرجه الترمذي (ح ٣٢٢٧) والنسائي (٦/ ٢١٨، ٢١٩)، وابن ماجه (ح ٤١٠٣) وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (ح ٢٣٨٦).

(٣) أخرجه البغوي وابن السكن كما في «الإصابة» (٤/ ٢٠١).

(٢٣) الاستقامة

الاستقامة هي السداد في الأقوال والأعمال، أو هي الجهاد في الله حق جهاده، وهي بذلك أعلى مراتب العبودية، وأرفع درجات الإيمان تضارع التقوى، وتحاكي الإخلاص، ومن ثَمَّ أمر الله جل ثناؤه بها خير خلقه محمداً ﷺ وصحابته رضي الله عنهم فقال: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢].

وقال: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [الشورى: ١٥].

وقد أوصى الله سبحانه المسلمين أجمعين بالاستقامة على منهاج الدين فعلاً وتركًا، قال عز من قائل: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦].

ولما كانت الاستقامة جامعة لخصال الدين، محيطة بشعب الإيمان، ومفاتيح الصراط المستقيم، أوصى النبي ﷺ من أراد منه وصية لا تدع شاردة ولا واردة من الدين إلا أتت عليه، أوصاه بالاستقامة، فعن أبي عمرو وقيل أبي عمرة سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدًا غيرك، قال: «قل آمنت بالله ثم استقم»، أخرجه مسلم.

ولأهمية الاستقامة وعظم أمرها لم تغب عن المسلم في جميع أحواله، فهو كل يوم يدعو ربه سبع عشرة مرة- على الأقل- فيقول: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف، ومعناه الاستقامة على الشرع والمتابعة للكتاب والسنة والاستجابة لله والرسول ﷺ وكل معاني الصراط المستقيم تدور في فلك هذا المدلول. إنه طريق الحق الذي قال تعالى عنه: ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾[الفاتحة: ٧].

فهو إذن صراط أهل الاستقامة السالكين لطريق الكرامة، وهذه الآية تلخص لنا قسم القصص في القرآن بل في الكون كله، فالقصص إما قصص خير، وإما

قصص شر، وقصص الخير صراط الذين أنعمت عليهم، وهنا يأتي سؤال يقول: من الذين أنعم الله عليهم؟ وسور القرآن التالية لسورة الفاتحة تشرح هذه السورة وتجلي معانيها، وتوضح خفاياها فأجابت على هذا الاستفسار الذي طرح علينا الآن، فقال الله سبحانه: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، والأخيار الأبرار في هذا العالم يمثلهم الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون.

وأصول الصراط المستقيم الذي هو سبيل أهل الاستقامة مأمور بها في الشرائع السماوية جميعًا، قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣].

وقد فسر النبي ﷺ معنى الصراط المستقيم في الآيات السابقة جامعًا بين القول والعمل عن طريق الرسم ليثبت المعنى في عقول أصحابه، فرسم خطًّا مستقيمًا وقال: «هذا صراط الله»، ورسم خطوطًا متعرجة وقال: «هذه السبل».

ولأن هذه المعاني السابقة تمثل أسس الشرائع السماوية، أشير إليه بالمعنى مع التفصيل في سورة الإسراء من قوله: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ إلى قوله: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾، وهذه الوصايا العشر وردت أيضًا في سورة النساء المدنية في قوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

وهذا الصراط المستقيم يقعد عليه إبليس وحزبه لإغواء أهل الاستقامة وصرفهم عن طريق الكرامة إلى سبيل الندامة، قال تعالى على لسان عدو أهل الاستقامة الأول إبليس: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦].

قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقها كلها، فقعد له بطريق

الإسلام، فـقال له: أتسـلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء آبائك؟ فعـصاه ابن آدم فـأسلم، فقعـد له بطريق الهجرة، فقـال: أتهاجر وتذر أرضك وسمـاءك؟ فعصاه ابن آدم فـهاجر، فقـعد له بطريق الجـهاد، فـقال: أتجاهد في سبيـل الله فتقـتل فتنكح المرأة، ويقـسم المال؟ فعصاه ابن آدم فـجاهد، فمن فعل ذلك - أي عصى الشيطان فأسلم فهاجر فجاهد - كـان حـقًّـا على الله أن يدخله الجنـة، وإن مات كـان حـقًّـا على الله أن يدخله الجنة، وإن وقصته دابته كان حقًّا على الله أن يدخله الجنة». رواه أحمد بسند صحيح.

وهذه المعاني الســابقة للاستـقامة نظمـها رسول الله ﷺ في قـصر من الأزهار حلق به سور كبير وعـليه الحراس والجنود فقال: «ضرب الله مثـلاً صراطًا مستقـيمًا، وعلى جنبي الصراط سـوران فيهمـا أبواب مفتـحة، وعلى الأبواب ستور مـرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعًا ولا تعوجوا، وداع يدعو من فوق الصـراط فإذا أراد الإنسان أن يفـتح شيئًـا من تلك الأبواب، قال: ويحك لا تفتـحه، فإنك إن تفتحه تلجه فالصراط: الإسلام، والسوران: حدود الله، والأبواب المفتحة: محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصـراط: كتـاب الله، والداعي من فوق الصـراط: واعظ الله في قلب كل مسلم». أخرجه أحمد والترمذي والنسائي، وقال ابن كثير في التفسير (١/ ٢٧): وهذا إسناد حسن صحيح.

وأنت ترى أن النبي ﷺ في رواية هذا الحديث استـعمل طريقة نادرة في عرض أحاديثه حيث حكى ما يشبه [الفزورة]، ثم حل عقدها وفك قيودها، وما ذلك إلا لأن هذا الحديث يحتاج إلى علم وفهم، وفقه وحفظ، ورواية ودراية.

وطريق الاستـقامة الـصراط المستـقيم الذي لا اعوجـاج فيه يقـابله طريق أهل الندامة الذين عبر الله جل ثناؤه عنهم بقوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾.

المغضوب عليهم: كل من عـرف الحق وأعرض عنه وأولى الخلق بهذا الوصف أعداء الله اليهود؛ لذا فـسر القرآن الكريم المغضوب عليهم بهـذا المعنى، فقال عن اليهود: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠]، وفي سورة المائدة المدنية يـقول سبـحانه: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ

﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠]، والضالون كل من جهل الحق فاتبع الباطل، ومن ثَمَّ أخبر الله جل ثناؤه عن ضلال أهل الكتاب فقال: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

أركان الاستقامة: أيها الناس جمع النبي ﷺ أركان الاستقامة في كلمة واحدة فقال: «**لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولن يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه**»، رواه أحمد بسند حسن، يستنبط من هذه الكلمة الجامعة أن للاستقامة ثلاثة أركان- وكلها متصلة-: استقامة في الاعتقاد، واستقامة القلب، واستقامة اللسان.

ولما كان الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، فإن أركان الاستقامة تبدأ من أسفل إلى أعلى، استقامة اللسان. ثم استقامة القلب، ثم استقامة الاعتقاد؛ فإن صلاح اللسان صلاح للقلب، وصلاح القلب قوة في الاعتقاد وصدق في اليقين، واستقامة اللسان تعتمد على سلامته من آفات اللسان كالغيبة والنميمة والكذب واليمين الغموس والفحش... إلخ، قال ﷺ: «**إذا أصبح ابن آدم، فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان تقول: اتق الله فينا فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا**»، رواه الترمذي بسند حسن.

ألا ترى إلى خطورة جملة: «**تكفر اللسان**»، كأنه كافر خارج عن الدين، وفي هذا من ردع اللسان عن أمراضه ما فيه.

واستقامة القلب تنبني على طهارته من النفاق والرياء والكبر والغرور والحقد والحسد والجزع والغل والتعلق بالدنيا وحب الجاه.

واستقامة الاعتقاد تقوم على عدم اعتقاد الأثر في المخلوق واعتقاد أن المؤثر في الكون هو الله تعالى وحده، فلا خوف إلا منه ولا نذر ولا ذبح ولا صلاة ولا زكاة ولا صيام ولا حج إلا له، ولا استعانة ولا استغاثة ولا استعاذة إلا به.

والاستقامة بهذه المعاني الجامعة لا يؤديها حق الأداء إلا المخلصون السابقون إلى الفردوس الأعلى، ومن ثَمَّ أشار القرآن الكريم إلى أنه لا بد من تقصير في

الاستقامة المأمور بها فيجبر ذلك الاستغفار المقتضي للتوبة والرجوع إلى الاستقامة، قال جل ذكره: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦].

وقد أخبر النبي ﷺ أن الناس لن يستطيعوا الاستقامة حق الاستقامة، كما أخرجه أحمد وابن ماجه عن ثوبان عن النبي ﷺ قال: «**استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن**».

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**سددوا وقاربوا**»، فالسداد هو حقيقة الاستقامة، فالواجب على المسلم المقصر في أعمال الاستقامة أن يبادر إلى التوبة.

جزاء أهل الاستقامة:

أهل الاستقامة لا يأسون على ما فاتهم ولا يفرحون بما آتاهم، ولا يحزنون على فقد مال أو ولد، ولا يصيبهم همٌّ ولا غمٌّ ولا أمراض نفسية أو عصبية، وإن أصاب أجسادهم بعض الابتلاءات، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣، ١٤].

فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون في الدنيا؛ لأنهم خدام الروح ورعاة النفوس، وسالكو طريق الحق يثبتون عند الموت بالقول الثابت، وتتلقاهم الملائكة بالروح والريحان والرضا والرضوان.

قال عز من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

كأني بملك الموت يناديك: يا ولي الله أبشر بجنة الله، أبشر بروح وريحان ورب راض غير غضبان، فلتهنأ ولتصبر قليلاً حتى تقترب منك الجنة الكبرى: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف: ١٤].

الوسائل المساعدة على الاستقامة:

وفي الختام: أود أن أشير إلى بعض الوسائل المعاونة على الاستقامة على سبيل أهل الاستقامة:

* من هذه الوسائل: الأسرة الصالحة المريحة التي تعد الأبطال، وتبني الرجال، وتربي الأطفال، والتي لا تتنازل عن واجبها لإعلام مدمر أو ثقافة مفسدة.

* ومنها: المدرسة التي يقوم دورها على التربية والتعليم والنظرية والتطبيق والقول والعمل والقدوة الصالحة والمراقبة الدقيقة، والمعاهد الأزهرية تصلح بعض الجوانب، وهي أحق من غيرها من دور العلم بهذه المعاني.

* ومنها: الصديق الصادق والجليس الصالح، وهذه عملة نادرة في هذه الأزمان، فإن وجدت لك أخًا في الله فعض عليه بالنواجذ.

ولا جرم أن على المسلم أن يلتمس مجالس العلماء العاملين والدعاة المخلصين والمربين الصادقين.

* ومنها: التعلق بالآخرة والتغافل عن متاع الدنيا، يتحقق هذا بالإكثار من زيارة القبور، وعيادة المرضى، والقراءة المتأنية في تصانيف الزهد والوعظ والرقائق.

* ومنها: شغل الوقت بالقراءة والعمل والنشاط الدعوي والخيري وكثرة التعبد، أو الاشتراك في تدريبات رياضية أو نحو ذلك.

* * *

(٢٤) طهارة القلب

تمام الفلاح في سلامة القلب وصدق اللسان وطمأنينة النفس واستقامة السجايا.

والمؤمن سخي النفس، سليم الصدر، طاهر القلب من أمراضه.

وأمراض القلب كثيرة منها: النفاق، والكِبر، والجزع، والحرص، والطمع، والرياء، والحقد، والحسد، والغرور، والعجب بالعمل، وحب الجاه والسلطان، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، والتعلق بالدنيا، ونسيان الآخرة.

ومن أهم ما يُسلِّم المؤمن منه صدره:

الحقد: ومرد الحقد إلى غضب تراكم في الصدر فلم يقطع صاحبه أسبابه- كسؤال أخيه عن الحامل له لِمَ فعل ليريح نفسه ويذهب الغل من صدره، ولم يشف غليله بإيذاء المحقود والاعتداء عليه ليمتع النفس الأمارة بالسوء، والمؤمن لا يكون من الصنف الثاني، بل يسأل عن السبب فيقطعه أو يلتمس العذر، فلا يجتمع في قلب مؤمن: إيمان وحقد، كما يقول رسول الله ﷺ: «**لا يجتمع في جوف عبد غبار في سبيل الله وفيح جهنم، ولا يجتمع في جوف عبد الإيمان والحسد**»[1].

ومن صفات المؤمنين سلامة صدورهم من الحقد والحسد والغل والبغي والبغضاء والشحناء والضغينة.

قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ [الحشر: ١٠].

وتكتمل هذه الصورة في الآخرة فلا يبقى في القلب مثقال ذرة من حقد أو غل. قال جل وعلا: ﴿**وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ**﴾ [الحجر: ٤٧].

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه والبيهقي، وانظر «صحيح الجامع» رقم (٦١١٦).

وقيل: يـا رسول الله، أي الناس أفـضل؟ قال: «**كل مـخمـوم القلب، صـدوق اللسان**»، قالوا: يا رسول الله صدوق اللسان نعرفـه فما مخموم القلب؟ قال: «**هو التقي النقي لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد**»[١] .

فالمؤمن ليس بحقود ولا حسود ولا مـتكبر، يبيت ليلته ويصبح نهارًا وليس في قلبه حقد لأحد ولا حسد.

عن أنس بن مالك قـال: كنا جلوسًا عند النبي ﷺ فـقال: «**يطلع الآن عليكم رجل من أهل الجنة**»، فطلع رَجُل من الأنصار، تنطف لحيـته من وضوئه، قد علق نعليه بيـده الشمال، فلمـا كان الغدُ قال النبـي ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجُل مثل المرة الأولى، فلما كـان اليوم الثالث قال النبي مثل مقـالته أيضًا، فطلع ذلك الرجل على مثال حـاله الأولى، فلما قام النبي ﷺ تبعه عبـدُ الله بن عمرو- تبع الرجُلَ، فقال: إني لاحيت[٢] أبي، فأقسمتُ ألا أدخل عليه ثلاثًا، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلت! قال: نعم. قـال أنس: فكان عبدُ الله يُحدِّثُ أنه بات معـه تلك الثلاث الليالي، فلـم يره يقوم من الليل شيـئًا، غيـر أنه إذا تعارَّ- تقلب في فراشـه - ذكر الله عز وجل حتى ينهض لصـلاة الفجر، قـال عبدُ الله: غيـر أني لم أسمعـه يقولُ إلا خيرًا. فلمـا مضت الليالي الـثلاث وكدتُ أحتـقر عملَهُ، قلتُ: يا عبدَ الله لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجرة، ولكني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول لكَ- ثلاث مرات-: «**يطلعُ عليكم الآن رجُل من أهل الجنة**»، فطلعت أنت الثلاثَ المرات، فأردتُ أن آوي إليك. فأنظرُ مـا عملُك فأقتدي بك، فلم أركَ عملت كبيرَ عمَل! فما الذي بلغ بكَ ما قالَ رسول الله ﷺ؟ قال: ما هو إلا ما رأيت، قال عبـدُ الله: فلما وليتُ دعاني، فقال: ما هـو إلا ما رأيت، غير أني لا أجدُ في نفسي لأحد من المسلمين غشًّا ولا أحسد أحدًا على خير أعطاهُ الله إياه. فقال عبدُ الله: هذه التي بلغت بِكَ»[٣] .

---

(١) أخرجه ابن ماجه بإسناد صحيح كـما قال المنذري (٤/ ٣٣)، وانظر «صحيح سنن ابن ماجه» رقم (٣٣٩٧).

(٢) لاحيت: أغضبت.

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ١٦٦) بإسناد على شرط البخاري ومسلم كما قال المنذري (٤/ ٣٢).

*** صفاء القلوب:**

العين حق، وقد يقع شرها من صالح بدون قصد إن نسي أن يذكر الله تعالى، لكن سليم الصدر إن حدث منه ذلك لا يشق عليه أن يعلن أنه المقارف لهذا الفعل دون أن يجد في نفسه غضاضة لإيضاح ذلك، وهنا يجد المصاب حلاً لما دهاه فينجو بصدق أخيه وطهارة قلبه وسخاوة نفسه.

عن أبي أمامة بن سهل قال: رأى عامر بن ربيعة سهل بن حُنيف فقال: والله ما رأيت كاليوم ولا جلد مُخبَّأة!(١) فلبط(٢) بسَهل. فأتي رسول الله ﷺ فقيل: يا رسول الله، هل لك في سهل؟ والله ما يرفع رأسه! قال: **«هل تتهمون به أحدًا؟»** قالوا: نتهم عامر بن ربيعة، فدعاه، فتغيَّظ عليه(٣) وقال: **«علام يقتل أحدكم أخاه! ألا برَّكت(٤) اغتسل له»**، فغسل وجهه، ويديه، ومرفقيه، وركبتيه، وأطراف رجليه، وداخِلة إزاره(٥) في قدح، ثمَّ صب عليه. فراح سهل مع الناس ما به بأس(٦).

ولنظافة القلوب ونقاء النفوس كمال الإيمان وبزوالهما يزول الإيمان، ولا يتم للقلوب صفاؤها إلا بالإصلاح بين الناس، ولا يحصل للنفوس نقاؤها إلا باجتناب الخصام والحقد والحسد وهجر المسلمين.

يقول رسول الله ﷺ: **«ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟»** قالوا: بلى، قال: **«إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هو الحالقة، لا أقول: تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين»**(٧).

---

(١) المُخبأة: الجارية التي في خدرها لم تتزوج بعد؛ لأن صيانتها أبلغ ممن قد تزوجت.

(٢) لُبِط: صُرِع.

(٣) تغيَّظ عليه: شدد عليه.

(٤) قال: اللهم بارك، ما شاء الله.

(٥) داخلة الإزار: طرفه الداخلي الذي يلي الجسد، ويلي الجانب الأيمن من الرجل إذا ائتزر.

(٦) أخرجه مالك في «الموطأ» (٢/ ٩٣٨، ٩٣٩)، وأحمد (٣/ ٤٨٦، ٤٨٧)، وابن ماجه رقم (٣٥٠٩) في الطب وصححه ابن حبان (١٤٢٤).

(٧) حسن: أخرجه أحمد بإسناد حسن (١/ ١٦٥) وقال الأرناؤوط: حسن لغيره.

ويقول: «دبَّ إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء، والبغضاء هي الحالقة، أما إني لا أقول: تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين»[(١)] .

من أجل ذلك فإن الشيطان عجز عن أن يحول المسلمين عن التوحيد في جزيرة العرب، فأبقى عمله على إشعال نار الفتن بينهم، يقول صلوات الله وسلامه عليه: «إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم»[(٢)] .

ومن أجل ذلك منع الإسلام التقاطع والتدابر والتحاسد والتنافس على الدنيا، وهجر الإخوان، والتخاصم بين المسلمين. قال ﷺ: «لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخوانًا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث»[(٣)] .

وقال: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، فمن هجر فوق ثلاث فمات دخل النار»[(٤)] .

وطول الهجر يساوي القتل، فإن قتل القلب أعظم من قتل البدن، يقول ﷺ: «من هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه»[(٥)] .

وهذا الهجر بين الأخوين يمنع صلاة العبد أن ترفع إلى السماء، يقول النبي ﷺ: «ثلاثة لا ترفع صلاتهم عن رءوسهم إلا شبرًا: رجل أمَّ قومًا وهم له كارهون، وامرأة باتت وزوجها ساخط عليها، وأخوان متصارمان[(٦)]»[(٧)] .

وأعمال الأسبوع التي يقوم بها المتصارمان لا تبلغ الملأ الأعلى، يقول ﷺ: «تعرض الأعمال في كل إثنين وخميس، فيغفر الله لكل امرئ لا يشرك بالله شيئًا، إلا امرأً

---

(١) حسن: أخرجه أحمد بإسناد حسن (١/ ١٦٥)، والبزار والبيهقي بإسناد جيد كما قال المنذري.

(٢) أخرجه مسلم رقم (٢٨١٢).

(٣) أخرجه البخاري رقم (٦٠٦٥)، ومسلم رقم (٢٥٥٩).

(٤) أخرجه أبو داود رقم (٤٩١٤) قال النووي: بإسناد على شرط البخاري ومسلم.

(٥) أخرجه أبو داود رقم (٤٩١٥) قال النووي: بإسناد صحيح.

(٦) أي: متقاطعان.

(٧) أخرجه ابن ماجه.

كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقول: أنظروا هذين حتى يصطلحا»[١] .

وأعمال أهل الحـقد والغل السنوية تؤخر عن القبول حـتى تذهب الشحناء من قلوب المتقاطعين، يقول رسولنا ﷺ: «**إن الله تعالى ليطلع في ليلة النصف من شعبان فيغفر لجميع خلقه إلا لمشرك أو مشاحن»**[٢] .

ثمار الحقـد: ويا ليت أن الحقد يقف عند إضمار الغضب والكراهية والغِل في الصدر دون أثر خارجي يصل إلى المحقود عليه، بل إن الحقد يثمر ثمانية أمور:

الأول: الحسد وهو أن يحملك الحقد على أن تتمنى زوال النعمة عن أخيك.

الثاني: أن تزيد على إضمار الحسد في الباطن فتشمت بما أصابه من البلاء.

الثالث: أن تهجره وتصارمه وتنقطع عنه، وإن طلبك وأقبل عليك.

الرابع: أن تعرض عنه استصغاراً له.

الخامس: أن تتكلم بما لا يحل من كذب وغيبة.

السادس: أن تحاكيه استهزاء به وسخرية منه.

السابع: إيذاؤه بالضرب وما يؤلم بدنه.

الثامن: أن تمنعه حـقه من قـضاء دين أو صلة رحم أو رد مظلمـة، وكل ذلك حرام.

وأقل درجات الحـقد أن تحتـرز من الآفات الثمـانية المذكورة ولا تخـرج بسبب الحقد إلى ما تعصي الله به، ولكن تستـثقله في الباطن، ولا تنه قلبك عن بغضه، حـتى تمتنع عمـا كنت تطوع به من البشـاشة والرفق والعناية والـقيـام بحاجـاته والمجالسـة معـه على ذكر الله تعـالى، والمعاونة على المنفـعة له، أو بتـرك الدعاء والثناء عليـه أو التحريض عـلى برّه ومواساته. فـهذا كله مما ينقـص درجتك في الدين ويحول بينك وبين فضل عظيم وثواب جزيل وإن كان لا يعرضك لعقاب الله.

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٥٦٥).

(٢) أخرجه ابن مـاجه، وابن حبان وصـححه ابن حبـان، وحسنه الألباني في «صحـيح الجامع» رقم (١٨١٩)، و«الصحيحة» رقم (١١٤٤)، (١٦٥١).

ولما حلف أبو بكر رضي الله عنه أن لا ينفق على مسْطح وكان قـريبه؛ لكونه تكلم في واقعة الإفـك نزل قوله تعالى: ﴿وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢] فقال أبو بكر: نعم نحب ذلك، وعاد إلى الإنفاق عليه.

والأولى أن يبقى على ما كـان عليه، فإن أمكنه أن يزيد في الإحسـان مجاهدة للنفس وإرغامًا للشيطان فذلك مقام الصديقين وهو من فضائل أعمال المقربين(١).

كيـفية دفع الحـقد: والحقـد لا يصل إلى القلب إلا بوقوع أفعال من المحـقود عليه تؤدي إلى زرع الغل في الصدر وشحنه بما كان خاليًا منه.

لذا حرَّم الإسـلام كل ما من شأنه أن يوغر الصـدر، فنهى عن أذية المسلم في عرضه أو مـاله، وأوجب طلب العفو، وعرض الاعتـذار، ورد المال، يقول النبي ﷺ: «**من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضـه أو من شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كـان له عمـل صالح أخـذ منه بقدر مـظلمتـه، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه، فحُمل عليه**»(٢).

وحَـرَّم الإسلام صـيانة للـقلب من الحقـد والحسد والغل كـذلك: الكذب، والغيـبة، والنمـيمة، والسب، والشـتم، واللعن، وسوء الظن، والاسـتطالة في أعراض المسلمين، وتتبع العـورات، والغدر، والقذف، والسخرية، والاسـتهزاء، وشهـادة الزور، والمن بالعطية، والتنابز بالألقـاب؛ لأن هذه الموبقات تولد الحـقد وتزرع الضغينة والبغضاء.

وفي المقابـل أوجب الإسلام على المسلم قـبول الاعتـذار وحث على احتـمال الأذى، ودفع السيئـة بالحسنة، والصبر على المـكاره. قال جل وعلا: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

ومما وصف به أولي الألباب: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢].

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ١٩٣).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٦٥٣٤).

ولو أن العبد شغل نفسه بالآخرة، وفرَّغ قلبه لربه لأراح نفسه وطيَّب خاطره، ونقَّى صدره، وزكَّى نفسه، وجعل همومه همًّا واحدًا هو هم أخراه.

وبذلك نكون قد جففنا منابع الحقد ونقضنا غزله وقطعنا حباله، وكانت القلوب كما أراد لها ربها من الطهارة والنظافة والسلامة.

البغض في الله: هذا الحقد الذي نهى عنه الإسلام وعظَّم إثمه إنما هو الغضب للنفس لكن هناك غضب آخر ينشأ منه البغض ويكون لله، إنه بغض الكافرين والمنافقين، وبغض معصية العاصين، وهذا البغض في الله من أسس الاعتقاد الواجب؛ لأن حب الله لا يتم إلا به، والمؤمن لا يصح إيمانه إلا به، إذ كيف يحب من أبغض خالقه؟!

جاء عن المنافقين أنهم: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

لهذه الآية قصة وسبب نزول: يرويهما جابر بن عبد الله رضي الله عنهما فيقول: «كنا غزاة فكسع[١] رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فقال رسول الله ﷺ: «**ما بال دعوى الجاهلية؟**» قالوا: يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال: «**دعوها فإنها منتنة**»، فسمعها عبد الله بن أُبيٍّ، فقال: قد فعلوها، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، قال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق، قال ﷺ: «**دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه**»[٢]، ولما وصل قول عبد الله بن أُبيٍّ المنافق إلى ولده الصحابي الجليل عبد الله بن عبد الله بن أُبي بن سلول رضي الله عنه غضب غضبًا مُرًّا، وأراد أن يقتل والده إذا أراد النبي ﷺ، قال محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمرو بن قتادة: أن عبد الله بن عبد الله بن أُبيٍّ لَمَّا بلغه ما كان من أبيه أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أُبيٍّ فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرني به،

(١) كسع: ضرب.

(٢) رواه البخاري: كتاب التفسير رقم (٤٩٠٧)، ومسلم: كتاب البر رقم (٢٥٨٤).

فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقـد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالديه مني، إني أخشى أن تأمر به غـيري فيقتله، فلا تدعني نفسـي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أُبي يمشي في الناس فأقتله، فأقتل مـؤمنًا بكافر، فأدخل النار، فقال رسول الله ﷺ: «**بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا**»[١].

أرأيت ولاءً لله ولرسـوله ﷺ مثل هذا الولاء، ولم يقف الأمـر على هذا، بل كان لعبد الله الولد الصالح، مع والده المنافق موقف آخر.

فقد روى عكرمة وغيـره: «أنَّ الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبد الله ابن عبـد الله بن أُبيٍّ على باب المدينة، واستل سيـفه، فجـعل الناس يمرون عليه، فلما جـاء أبوه عبد الله بن أبي قـال له ابنه: وراءك، فقال: مـا لك ويلك؟ قال: والله لا تجوز[٢] من هاهنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ، وكان إنما يسـير ساقة[٣] فشكى إليه عـبد الله بن أُبيّ ابنه. فقال الابن: والله يا رسـول الله لا يدخلها حتى تأذن له، فـأذن له رسول الله ﷺ، فـقـال: أمَّا إذ أذن لك رسـول الله ﷺ فجـز الآن»[٤]. هكذا غضب هذا الشاب التـقي لله، وأبغض عدو الله وإن كان والده. وأحب حبيب الحق محمدًا ﷺ حبًّا جمًّا، فكان أحب إليه من والده وولده ونفسه والناس أجمعين.

* * *

---

(١) «سيرة ابن هشام» (٢/ ١٩٢)، والتفسير لابن كثير عند الآية (٨) من سورة المنافقون.

(٢) تجوز: تمر.

(٣) كان ﷺ لا يدع أحدًا يمشي خلفه.

(٤) تفسير ابن كثير عند الآية (٧٨) من سورة المنافقون.

(٢٥) جمال الظاهر

حسن المظهر وجمال المنظر سمة من سمات المؤمن لا تفارقه، وخلق من أخلاق المسلم لا يغادره، إذ إنه جزء من شطر الإيمان كما في الحديث: «**الطهور شطر الإيمان**»(١) . وظاهر المرء يخبر عن علمه وحكمته وصلاحه وقدره.

إن الأناقة من غير سرف، والتجمل في غير صناعة وتزويق، وإحسان الشكل بعد إحسان الموضوع من تعاليم الإسلام الذي يُنْشد لبنيه علو المنزلة وجمال الهيئة.

ومن ثمَّ فإن الله تعالى أمر عباده المؤمنين أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد، فقال: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف: ٣١، ٣٢]. ويدخل في هذا المعنى المجامع العامة، ومجالس الناس، ومواضع التقائهم.

وجمال المظهر لا يعني الكبر، فالكبر إنما ينبع من الباطن، ويتربع في القلب.

قال رسول الله ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنًا، قال: «**إنَّ الله جميل يحب الجمال، الكبر: بطر الحق وغمط الناس**(٢)»(٣) . والله تعالى جميل يحب الجمال، ونظيف يحب النظافة.

وجمال الظاهر يتجلى في:

(أ) جمال الثياب: فقد أمر الله تعالى به فقال: ﴿**وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ**﴾ [المدثر: ٤]. وذلك بأن يلبس المؤمن ثوبًا ساترًا نظيفًا حسنًا نقيًّا متناسق الألوان، متآلف التركيب والترتيب، خاليًا من القاذورات والنجاسات، والروائح الكريهة، والألوان

---

(١) أخرجه مسلم كما تقدم.

(٢) بطر الحق: دفعه ورده على قائله، وغمط الناس: احتقارهم.

(٣) أخرجه مسلم رقم (٩١).

المستنكرة، لذا حبَّذ الإسلام لباس البياض لما فيه من ضوء وجمال. يقول النبي ﷺ: **«البسوا من ثيابكم البياض، فإنها من خير ثيابكم، وكفِّنوا فيها موتاكم»**(١).

وتجمُّل الظاهر عنوان الرجل وعلامة حكمته. قيل لحكيم: ما مالك؟ فقال: التجمل في الظاهر، والقصد في الباطن، واليأس مما في أيدي الناس.

وصدق القائل:

حسِّن ثيابك ما استطعت فإنها ... زين الرجال بها تُعزُّ وتُكْرَمُ
ودع التخشن في الثياب تواضعًا ... فالله يعلم ما تُكِن وتكتمُ
فرثيث ثوبك لا يزيدك رفعة ... عند الإله وأنت عبد مُجْرِمُ
وجديد ثوبك لا يضرك بعد أن ... تخشى الإله وتتقي ما يَحْرمُ

وإن ترك المرء غالي الثياب ورضي بالحسن رخيص السعر، تواضعًا فهو أولى، يقول الرسول ﷺ: **«من ترك اللباس تواضعًا لله، وهو يقدر عليه، دعاه الله على رءوس الخلائق حتى يُخيِّره من أي حلل الإيمان شاء يلبسها»**(٢).

ويحب المتطهرين والمتنظفين، يقول ﷺ: **«إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجواد، فتنظفوا...»**(٣).

وقال: **«إن الله يحب أن يُرى أثر نعمته على عبده»**(٤).

عن البراء رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ مربوعًا، ولقد رأيته في حلة حمراء ما رأيت شيئًا قط أحسن منه»(٥).

---

(١) أخرجه أبو داود رقم (٣٨٧٨)، والترمذي (٩٩٤) وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٨١)، وقال: حديث حسن. وانظر «صحيح الجامع» رقم (٦١٤٥)، و«السلسلة الصحيحة» رقم (٧١٨).

(٣) أخرجه الترمذي رقم (٢٧٩٩)، وابن حبان في «المجروحين» (١/ ٢٧٩) وقال الترمذي: حديث غريب. وحسنه السيوطي، وللحديث شواهد؛ فرواه الدولابي في «الكنى» (٢/ ١٣٧) بلفظ: **«إن الله نظيف يحب النظافة، جواد يحب الجود، كريم يحب الكرم، طيب يحب الطيب»**، وأخرجه الخرائطي مرسلاً؛ لذا حسنه السيوطي والمناوي (٢/ ٢٣١).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٨١٩) وقال: حديث حسن. وانظر «صحيح الجامع» رقم (١٨٨٧).

(٥) أخرجه البخاري رقم (٥٨٤٨).

وقد كان السلف الصالح أجمل الناس ثيابًا وأشد الناس تعاهدًا لمظهرهم، وفي قلوبهم من التواضع والزهد والتوكل، ما يصعب مدحه.

عن عبد الملك بن عبد الحميد الميموني قال: «ما أعلم أني رأيت أحدًا أنظف ثوبًا ولا أشد تعاهدًا لنفسه في شاربه وشعر رأسه وشعر بدنه، ولا أنقى ثوبًا وأشد بياضًا من أحمد بن حنبل»(١).

(ب) طيب الرائحة: فالمؤمن طيب الرائحة لا تقع العين منه على القبيح، ولا يشم منه إلا أطيب ريح. يقول النبي ﷺ: «**حُبب إليَّ من دنياكم: النساء والطِّيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة**»(٢).

ونهى عن رد الريحان لغير عذر، فقال: «**من عُرِض عليه ريحان فلا يرده، فإنه خفيف المحمل، طيب الريحان**»(٣).

وكان ﷺ إذا مرَّ من شارع عُلم أنه مر منه؛ لبقاء أثر طيبه في الطريق. «وكان ﷺ لا يرد الطيب»(٤).

وفي المقابل نهى الشرع المؤمن أن يأكل أو يضع على جسده رائحة كريهة، ثم يخرج بها في مجامع الناس ودور العبادة والأماكن العامة ونحوها.

يقول النبي ﷺ: «**من أكل ثومًا أو بصلاً، فليعتزلنا أو فليعتزل مسجدنا**»(٥).

وقال: «**من أكل من هذه الشجرة - يعني الثوم - فلا يقربنا، ولا يصلين معنا**»(٦).

وقال: «**من أكل البصل والثوم والكراث، فلا يقربن مسجدنا، فإنَّ الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم**»(٧).

---

(١) «صفة الصفوة» (٢/ ٣٤٠).

(٢) أخرجه النسائي (٧/ ٦١)، وأحمد (٣/ ١٢٨) وصححه الحاكم (٢/ ١٦٠) ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه مسلم رقم (٢٢٥٣).

(٤) أخرجه البخاري رقم (٢٥٨٢).

(٥) أخرجه البخاري رقم (٨٥٤)، ومسلم رقم (٥٦٤).

(٦) أخرجه البخاري رقم (٨٥٦)، ومسلم رقم (٥٦٢).

(٧) أخرجه مسلم رقم (٥٦٤).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنـه أنه خطب يوم الجمعة فقـال في خطبته: «ثم إنكم أيها الناس تأكلون شجـرتين ما أراهما إلا خبيثين: البـصل والثوم، لقد رأيت رسول الله ﷺ إذا وجد ريحـهما من الرجل في المسجد أمـر به فأخرج إلى البقيع، فمن أكلهما فليمتهما طبخًا»(١) .

ومن حسن المـظهر: اجتناب السـجائر والتـدخين، فالتـدخين كما قـيل: يُنتِّن الفاه، ويخـرِّب المخباه، لا أوله بسم الله، ولا آخره الحـمد لله. وفيه أيضًـا: قتل النفس وإلقـاؤها إلى التهلكة تدرجًـا، وفيه من الأضـرار والأخطاء والعيـوب ما يستلزم تحريمه.

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٦، ٢٧]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

وصدق القائل:

كم في الـدخـان مـعـايـب ومكاره ... دلت نـتـائجـهـا على إنـكاره
عـمـت بليـتـه البـرية كلـهـا ... حـتى غدا الجـمـهـور تحت حصـاره
فـإن انـتـهـيت ومـا أظنك تنتـهي ... ورغـبت عنـه نجـوت من أضـراره
كم من نـقـود يا فـتـى ومـلابس ... أتلفـتـهـا بشـرائـه وشِـراره
وكـذا الـهـوام إذا رآه بقـربه ... ترك المكان وحَـادَ عـن أوكـاره
والنحـل لم تأكله حـال سلوكـهـا ... أبـدًا ولـم تـنـزل عـلـى أزهـاره
وامنع نسـاءك مـا استـطعت مبـالغًـا ... في زجـرهن وقل لهـن حـذاره

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٥٦٧).

عار على ذات القناع تلوكه وتشوب شهدة ريقها بعكاره
فترى الثنايا اللؤلؤية أصبحت مقلوحة بسواده وصفاره
والمضغ مذموم وقبيح طعمه مادامت الأطرون من أنصاره

(ج) بياض الأسنان: ومن النظافة نظافة الأسنان ببقائها بيضاء منيرة خالية من بقايا الطعام؛ لتكون قوية سليمة، وهذا لأن إهمالها يؤدي إلى إصابة الإنسان بأمراض متعددة في اللثة والفم، والأسنان نفسها، لذا فقد رغبنا الإسلام في الاهتمام بالسواك وقد وردت عشرات الأحاديث في فضل السواك. قال رسول الله ﷺ: **«أكثرت عليكم في السواك»**(١).

وقال: **«السواك مطهرة للفم، مرضاة للرب»**(٢).

وقال: **«لولا أن أشق على أمتي- أو على الناس- لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة»**(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كنا نُعدُّ لرسول الله ﷺ سواكه وطهوره فيبعثه الله ما شاء الله أن يبعثه من الليل فيتسوكَ ويتوضأ ويصلي»(٤).

وعن شريح بن هانئ قال: قلت لعائشة رضي الله عنها بأي شيء كان يبدأ النبي ﷺ إذا دخل بيته؟ قالت: «بالسواك»(٥).

والسواك مستحب على كل حال، لكنه يزداد استحبابًا في أوقات تغير رائحة الفم.

(د) خصال الفطرة: ومما رعاه الشرع تحسين الهيئة وتنظيف البدن سواء أكان ظاهرًا أمام الناس أم مستورًا عن أعينهم، فحضَّ على أداء خصال الفطرة التي فُطِرَ الناس عليها.

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٨٨٨).
(٢) أخرجه النسائي رقم (٥)، وابن خزيمة رقم (١٣٥) بإسناد صحيح كما قال النووي.
(٣) أخرجه البخاري رقم (٨٨٧)، ومسلم رقم (٢٥٢).
(٤) أخرجه مسلم رقم (٧٤٦).
(٥) أخرجه مسلم رقم (٢٥٣).

قال رسول الله ﷺ: «**عشر من الفطرة: قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء، وقص الأظفار، وغسل البراجم**[(١)] **، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء**[(٢)]». قال الراوي: ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة[(٣)] .

١- تقصير الشارب، وقد حضَّنا النبي ﷺ عليه حتى قال: «**من لم يأخذ من شاربه فليس منا**»[(٤)] .

٢- إعفاء اللحية وتنظيفها وتسريحها.

٣- السواك.

٤- المضمضة .

٥- الاستنشاق.

٦- تقليم الأظفار؛ لأنها تجمع القاذورات.

٧- غسل البراجم.

٨- نتف الإبط

٩- حلق العانة.

١٠- الاستنجاء [انتقاص الماء].

ولم يكتف الشرع الحنيف بالحث على القيام بهذه الخصال، بل وقَّت لما يُؤَخَّر منها كنتف الإبط. وقَّته لئلا يرغب عنها وتترك حتى تفحش.

عن أنس قال: «**وقَّت النبي ﷺ في قص الشارب وتقليم الأظفار، ألا نترك أكثر من أربعين يومًا وليلة**»[(٥)] .

١١- الختان.

---

(١) البراجم: الموضع الذي بين العضوين.

(٢) انتقاص الماء: أي: الاستنجاء.

(٣) أخرجه مسلم رقم (٢٦١).

(٤) أخرجه الترمذي رقم (٢٧٦٢)، والنسائي (٨/ ١٢٩، ١٣٠) كتاب الزينة، وأحمد (٤/ ٣٦٦، ٣٦٨) وسنده صحيح.

(٥) أخرجه مسلم رقم (٢٥٨) كتاب الطهارة.

(هـ) الوضوء:

وقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالوضوء قبل الصلاة لاستمرار البدن نظيفًا مما علق به من أتربة ودهون: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ [المائدة: ٦].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟**» قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: «**فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا**»(١).

فالوضوء جمال وزينة ونظافة وتكفير للخطايا. يقول رسول الله ﷺ: «**ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟**» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط**»(٢).

ودوام العبد على الوضوء ومسارعته إلى التطهر من الحدث عند وقوعه من أفضل القربات.

قال رسول الله ﷺ لبلال: «**يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام، فإني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة**»، قال: ما عملت عملاً أرجى عندي من أني لم أتطهر طهورًا في ساعة من ليل أو نهار ما كتب لي أن أصلي، وفي رواية: ما أحدثت إلا توضأت، وما توضأت إلا صليت بهذا الوضوء ركعتين(٣).

(و) الغسل:

ودعا الإسلام أتباعه أن يغتسلوا كثيرًا، فإن لم يغتسل المسلم كل يوم مرة فعلى الأقل أن يغتسل كل سبعة أيام مرة، وذلك قبل الجمعة. يقول رسول الله ﷺ:

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٥٢٨)، ومسلم رقم (٦٦٧).

(٢) أخرجه مسلم رقم (٢٥١).

(٣) أخرجه البخاري رقم (١١٤٩)، ومسلم رقم (٢٤٥٨).

«غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم»(١) .

ويقول لمن جاء إلى المسجد ليؤدي الجمعة: **«إذا جاء أحدكم إلى الجمعة فليغتسل»**(٢) .

وحض النبي ﷺ على الغُسْل كل جمعة، فجعله من موجبات مغفرة الذنوب وتكفير الخطايا، فقال: **«لا يغتسل رجلٍ يوم الجمعة، ويتطهر ما استطاع من طهر، ويدَّهن من دهنه، أو يمس من طيب أهله، ثمَّ يخرج فلا يفرق بين اثنين، ثم يصلي ما كتب له، ثم ينصت إذا تكلم الإمام، إلا غفر له ما بين الجمعة والجمعة الأخرى»**(٣) .

وأما الجُنُب والمحتلم والحائض والنفساء ففرض عليهم الغُسل مما أصابهم.

(ز) نظافة النعل:

وتصل النظافة والأناقة والزينة مداها، فلا تترك أي شيء في ظاهر المرء دون جمال، فللقدمين حق في الزينة والجمال، وذلك يتحقق بارتداء نعل نظيف جميل يتناسق لونه مع لون الثياب، ومن هنا فقد ورد النهي عن المشي في نعل واحدة، قال رسول الله ﷺ : **«لا يمش أحدكم في نعل واحدة، لينعلهما جميعًا أو ليخلعهما جميعًا»**(٤) .

ونهى رسول الله ﷺ أن يمشي المرء في نعلين مقطوعتين أو مقطوعة إحداهما: **«إذا انقطع شسع نعل أحدكم، فلا يمش في الأخرى حتى يصلحهما»**(٥)، ودعا إلى الاهتمام بالانتعال والحرص عليه، فقال: **«أكثروا من هذه النعال، فإن الرجل لا يزال راكبًا ما انتعل»**(٦) .

(ح) إكرام الشعر:

ومما يُندب تحسينه وتزيينه شعر الرأس، فإنه زينة الرجال والنساء، وفي حق

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٨٧٩)، ومسلم رقم (٨٤٦).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٨٧٧)، ومسلم رقم (٨٤٤).

(٣) أخرجه البخاري رقم (٨٨٣).

(٤) أخرجه البخاري رقم (٢٨٥٥)، ومسلم رقم (٢٠٩٧).

(٥) أخرجه مسلم رقم (٢٠٩٨).

(٦) أخرجه مسلم.

النساء ألزم وأوجب. قال رسول الله ﷺ: **«من كان له شعر فليكرمه»**[١].

وأتى رسول الله ﷺ رجل ثائر الرأس[٢] فأشار إليه رسول الله ﷺ كأنه يأمره بإصلاح شعره، ففعل، ثم رجع، فقال ﷺ: **«أليس هذا خيرًا من أن يأتي أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان»**[٣].

ولأهمية ترتيب شعر الرأس وتزيينه، «نهى رسول الله ﷺ عن القزع»[٤]، وهو حلق بعض الرأس دون بعض. ورأى صبيًّا قد حُلق بعض شعر رأسه وتُرك بعضه، فنهاهم عن ذلك وقال: **«احلقوه كله أو اتركوه كله»**[٥].

ومما أمر به الإسلام لنظافة المرء ونضارة وجهه وسلامة جسده من الأمراض والأسقام العناية بالناحية الصحية وإعطاء الجسد حقه من الراحة والنوم والغذاء والنظافة.

يقول رسولنا ﷺ: **«تداووا عباد الله، فإن الله تعالى لم يضع داءً إلا وضع له دواءً، غير داء واحد الهرم»**[٦].

جمال الأموات:

وجمال الظاهر لا يخص الأحياء، بل ينتقل إلى الأموات، قال رسول الله ﷺ: **«إذا كفن أحدكم أخاه فليُحسن كفنه»**[٧]، بأن يكون نظيفًا نقيًّا ساترًا كثيفًا مُطيبًا أو مُبخرًا. وتزيين صورة الإنسان وتحسين منظره لا يعني تغيير خلقته أو العبث بأعضائه، فالله تعالى خلق خلقه فأحسن صورهم، وركبهم في أجمل صنعة؛ لذا «لعن رسول الله ﷺ الواصلة والمستوصلة[٨]، والواشمة

---

(١) حسن: أخرجه أبو داود وابن وهب والطحاوي، وانظر «الصحيحة» رقم (٥٠٠).
(٢) ثائر الرأس: أي: شعث غير مدهون ولا مُرجَّل.
(٣) أخرجه مالك وورد من وجه متصل.
(٤) أخرجه البخاري رقم (٥٩٢١)، ومسلم رقم (٢١٢٠).
(٥) أخرجه أبو داود رقم (٤١٩٥) بإسناد على شرط البخاري ومسلم كما قال النووي.
(٦) أخرجه أحمد وأهل السنن وابن حبان والحاكم، وانظر «صحيح الجامع» رقم (٢٩٣٠).
(٧) أخرجه مسلم رقم (٩٤٣).
(٨) الواصلة: التي تصل شعرها أو شعر غيرها بشعر آخر، والمستوصلة: التي تطلب ذلك.

والمستوشمة(١) »(٢) .

(ط) ومن الجمال: تجميل البيت وتنظيفه وإحسان ترتيبه:

قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظِّفوا أفنيتكم، ولا تشبَّهُوا باليهود»(٣) .

فتنظيف البيت وتجميله وتوسعته تبعث على السرور والراحة والطمأنينة.

يقول رسول الله ﷺ: «ثلاثة من السعادة وثلاثة من الشقاء، فمن السعادة: المرأة الصالحة تراها فتعجبك، وتغيب عنها فتأمنها على نفسها ومالك، والدابة تكون وطيئة، فتُلحقك بأصحابك، والدار تكون واسعة كثيرة المرافق، ومن الشقاء: المرأة تراها فتسؤوك وتحمِل لسانها عليك، وإن غبت عنها لم تأمنها على نفسها ومالك، والدابة تكون قطوفًا، فإن ضربتها أتعبتك، وإن تركتها لم تلحقك بأصحابك، والدار تكون ضيقة قليلة المرافق»(٤) .

وقال: «ثلاث خصال من سعادة المرء المسلم في الدنيا: الجار الصالح، والمسكن الواسع، والمركب الهنيء»(٥) .

(ي) تنظيف المساجد:

ومما يتعين تنظيفه وتجميله وتطييبه وإبعاد القاذورات والنجاسات والروائح الكريهة عنه: المساجد كلها، يقول ﷺ: «إنَّ هذه المساجد لا تصلح لشيء من القذر والبول والخلاء، إنما هي لقراءة القرآن، وذكر الله، والصلاة»(٦) .

(ك) جَمال الشارع:

ونظافة وجمال الشارع وخلوه من الأذى من أهم الأمور التي يلزم على

---

(١) الواشمة: التي تُحمِّر أو تُخضِّر خديها أو خَدَّيْ غيرها، والمستوشمة: التي تطلب من تفعل لها ذلك.

(٢) أخرجه البخاري رقم (٣٤٦٨)، ومسلم رقم (٢١٢٧).

(٣) حديث حسن سبق تخريجه.

(٤) أخرجه الحاكم بإسناد حسن كما في «صحيح الجامع» رقم (٣٠٥٦).

(٥) أخرجه أحمد والطبراني والحاكم، وانظر «الصحيحة» رقم (٢٨٢).

(٦) أخرجه مسلم وأحمد.

المسلمين أداؤها، وعدم التهاون في المحافظة عليها، يقول ﷺ: **«عُرِضت عليَّ أعمال أمتي حسنها وسيئها، فوجدت في محاسن أعمالها الأذى يُماط عن الطريق، ووجدت في مساوئ أعمالها النخامة تكون في المسجد لا تدفن»**[١] .

فالحرص على نظافة مجتمعات الناس وأماكن جلوسهم وتعبدهم وراحتهم. لذا أمرنا ﷺ بذلك فقال: **«اعزل الأذى عن طريق المسلمين»**[٢] .

وأخيراً، فإن هذا الخلق كائن بين خلقين مذمومين:

أحدهما: القذارة والقبح والدمامة.

والآخر: الوسوسة في النظافة والطهارة والمبالغة في التجميل، والعناية الزائدة بالتزين والتزويق حتى تضيع الأوقات، وتُنسى القضايا الكبرى.

* * *

(١) أخرجه مسلم رقم (٥٥٣).
(٢) أخرجه مسلم .

(٢٦) أدب الحديث

من خُلُق المؤمن اختيار الكلمات المناسبة في الوقت المناسب بالقدر المناسب بالكيفية المناسبة. فكما أن المؤمن طيب رائحة الفم، فإنه لا يخرج من فمه إلا طيبًا، ولا يتفوه إلا بكلام طيب، ولا يتكلم إلا بما فيه خير خالص ونفع متحقق. وقدر كل إنسان بلسانه وقلبه.

كما قيل: المرء بأصغريه قلبه ولسانه.

وقيل: عقل المرء مخبوء تحت لسانه.

فللكلمة خطورة ما بعدها خطورة. فالعبد يتكلم بالكلمة ما يتبين أنها خير أم شر فترديه إلى المهالك، وتجره إلى المصائب، وتسوقه إلى النار. قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها إلى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب**»[(١)].

وقال: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم**»[(٢)].

وقال لمعاذ: «**ألا أخبرك بملاك هذا كله؟**»[(٣)]، قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه، وقال: «**كفَّ عليك هذا**»، قلت: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: «**ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم؟**»[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٦٤٧٧)، ومسلم رقم (٢٩٨٨).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٦٤٧٨).

(٣) أي: ما ذكره من أعمال تقرب معاذًا رضي الله عنه من الجنة وتباعده من النار.

(٤) أخرجه الترمذي رقم (٢٦١٦)، وابن ماجه رقم (٣٩٧٣) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. وانظر «تخريج إرواء الغليل» للألباني رقم (٤١٣).

ونجاة العبد تكمن في حفظ لسانه عن الزلات وانتقائه الكلمات، يقول عقبة بن عامر رضي الله عنه، قلت: يا رسول الله ما النجاة؟ قال: «**أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابكِ على خطيئتك**»[(١)].

ويقول النبي ﷺ: «**من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة**»[(٢)].

قال الثوري: لو رميت رجلاً بسهم كان أحب إليَّ من أن أرميه بلساني، لأن رمي اللسان لا يكاد يخطئ.

وقال الشاعر:

احفظ لسانك أيها الإنسان   لا يلدغنك إنه ثعبان

كم في المقابر من قتيل لسانه   كانت تهاب لقاءه الشجعان

وأخذ الفضل طرف لسانه بأصبعه، ثمَّ قال: ترى هذا فيه كل عجب، يخرج منه الخير والشر، وهو لحم ليس فيه عظم فاحفظه.

وصدق الحكيم القائل: لسانك حصانك، إن صنته صانك، وإن أهنته أهانك.

فوجب أن نعقل اللسان إلا عن حق يعلنه أو باطل يدحضه.

*** آداب الكلام:**

للكلام آداب فمنها ما يكون قبله، ومنها ما يكون أثناءه، ومنها ما يكون بعده.

أولاً: فأما آداب ما قبل الكلام:

١- فمنها: أن يسأل نفسه لماذا أتكلم؟ وفيم أتكلم؟ ومتى أتكلم؟ وكيف أتكلم؟ فلا يتكلم إلا إذا وجد داعيًا للكلام، فإن لم يكن فائدة من حديثه فعليه بالصمت.

٢- ومنها: أن يأتي به في وقته ويتوخى به إصابة هدفه، ويقدره حق قدره، ويضعه في موضعه، فليس كل ما يعلم يقال، وليس كل ما يقال حضر أهله،

---

(١) أخرجه الترمذي رقم (٢٤٠٦) وقال: حديث حسن.

(٢) أخرجه البخاري رقم (٦٤٧٤)

وليس كل ما حضر أهله حضر أوانه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: خمس لهن أحسن من الدُّهم الموقفة[١]:

أ- لا تتكلم فيما لا يعنيك، فإنه فضل ولا آمن عليك الوزر.

ب- ولا تتكلم فيما يعنيك حتى تجد له مـوضعًا، فإنه رب متكلم في أمر يعنيه قد وضعه في غير موضعه فعيب!

جـ- ولا تمار حليمًا ولا سفيهًا، فإنَّ الحليم يقليك، وإن السفيه يؤذيك.

د- واذكـر أخاك إذا تغـيب عنك، بما تحب أن يذكـرك به، وأعفـه مما تحب أن يعفيك منه!!

هـ- واعمل عمل رجل يرى أنه مُجازى بالإحسان، مأخوذ بالإجرام[٢].

ثانيًا: آداب أثناء الكلام:

فإذا مـا بدأ المرء حديثه أو أقـبل عليه، فعليـه أن يحرص على قـدر ما يبلغ به حاجته، أو يقيم حجته، مراعيًا الآداب التالية:

١- الإنصات لحديث غيره والحذر من مقاطعته، والتشويش على حديثه إلا إذا كان في كلام المتحدث منكر، واستأذن منه ليبين خطأه دون تجريح.

٢- ترك السؤال عمَّا يضر ولا يفيد، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ**﴾ [المائدة: ١٠١]. وذلك كحـال من يسأل عن أسـماء أهل الكهف، وأسـماء المبهمين في القرآن.

٣- إقبال المتكلم بحديثه على الجلساء أجمعين، وتوزيع نظراته على الحاضرين دون تخصيص لأحد.

٤- حـسن الأدب في الكلام والمحـادثة، والمجاملـة في التخـاطب واجـتناب

(١) الدهم الموقفة: الإبل.

(٢) ذكره ابن أبي الدنيا.

الخـشونة في الحـديث والفظاظة في القـول، قال تعـالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:٨٣] أي: قولوا لهم قولاً طيبًا لينًا.

٥- التمـهل بالكلام أثناء الحديث ومجـانبة السرعـة فيه دون مصلحـة. تقول عائشة رضي الله عنهـا: «ما كان النبي ﷺ يسرد الحديث كـسردكم هذا، يحدث حديثًا لو عدَّه العاد لأحصاه»[١] .

٦- أن يكلم كل إنسـان بما يليق به، فلا يحـدث العالم كـالجاهل ولا المتـعلم كالأمي ولا الصـالح كالطالح، بل يخص أهل العلم والصـلاح والسن والسلطان بمزيد أدب وكبير احترام وعظيم تقدير.

٧- كـثرة الصـمت وقلة الكلام: فإن كـان الكلام خيـرًا تحدث، وإلا أمـسك لسـانك عنه، يقـول ﷺ: **«من كـان يؤمن بالله واليـوم الآخـر فليـقل خـيـرًا، أو ليصمت»**[٢].

وعن أسلم أن عـمر رضي الله عنه اطلع عـلى أبي بكر رضي الله عنه وهو يمد لسانه، فقـال: ما تصنع يا خليفة رسـول الله ﷺ؟ فقال: إنَّ هذا أوردني الموارد، إنَّ رسول الله ﷺ قال: **«ليس شيء من الجسد إلا يشكو ذَرب[٣] اللسان»**[٤] .

وعن خالد بن نمير قال: «كان عمَّار بن ياسر رضي الله عنهما طويل الصمت، طويل الحزن والكآبة، وكان عامة كلامه عائذًا بالله من فتنته»[٥] .

وعن أبي إدريس الخولانـي قال: «دخلت مسـجد دمشق، فـإذا أنا برجل برَّاق الثنايا، طويل الـصمت، وإذا النـاس معـه إذا اخـتلفـوا في شيء أسندوه إليـه، وصدروا عن رأيه[٦] ، فسألت عنه، فقيل: معاذ بن جبل رضي الله عنه»[٧] .

(١) أخرجه الشيخان.

(٢) أخرجه البخاري رقم (٦٠١٨)، ومسلم رقم (٤٧).

(٣) ذَرْب اللسان: حدته.

(٤) أخرجه أبو يعلى (ح ٥) وهو في «صحيح الجامع» (ح ٥٣٩٦).

(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٤٢).

(٦) صدروا عن رأيه: لم يتعدوا رأيه إلى رأي غيره.

(٧) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٦٩).

ولا يفهمنَّ أحد أن المقصود بكثرة الصمت الامتناع عن الكلام مطلقًا أو صوم ساعة أو يوم عن الكلام، فإن هذا لا يحل، قال رسول الله ﷺ: **«لا يُتْمَ بعد احتلام، ولا صمات يوم إلى الليل»**(١) .

٨- ألا يستمع للغيبة وأن ينكر على قائلها، فإن عجز أو لم يقبل منه، فارق ذلك المجلس إن أمكنه، قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ**﴾ [المؤمنون: ٣].

وقال النبي ﷺ: **«من ردَّ عن عرض أخيه بالغيب ردَّ الله عن وجهه النار يوم القيامة»**(٢) .

وأثناء غزوة تبوك قال النبي ﷺ: **«ما فعل كعب بن مالك؟»**، فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه برداه، والنظر في عِطفيه، فقال له معاذ بن جبل رضي الله عنه: بئس ما قلت. والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرًا، فسكت رسول الله ﷺ(٣) .

٩- ألا يحدث بكل ما سمع إلا إذا كان خيرًا يقول رسول الله ﷺ: **«كفى بالمرء إثمًا أن يحدِّث بكل ما سمع»**(٤) . فلا ينقل خبرًا قبل التأكد منه، ولا يحدِّث إلا بيقين.

١٠- أن يبتعد عن كثرة الكلام وطول الحديث، وليأخذ بالإيجاز والاختصار ما لم يكن في الإطناب مصلحة، يقول النبي ﷺ: **«إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنة من فقهه، فأطيلوا الصلاة، وأقصروا الخطبة»**(٥) .

١١- أن ينتقي أطايب الكلام كما يُنتقى أطايب الثمر، قال تعالى: ﴿**وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ**﴾ [الإسراء: ٥٣]، فلم يطلب الحق من عباده أن يقولوا الكلام الحسن، بل أمرهم أن ينطقوا باللفظ الأحسن الأجمل؛ لأن

---

(١) أخرجه أبو داود رقم (٢٨٧٣) بإسناد حسن كما قال النووي في «رياض الصالحين» (صـ ٤٤٧)، وانظر «الإرواء» (١٢٤٤).

(٢) أخرجه الترمذي رقم (١٩٣١) وقال: حديث حسن.

(٣) أخرجه البخاري رقم (٤٦٧٧)، ومسلم رقم (٢٧٦٩).

(٤) أخرجه مسلم رقم (٥) بلفظ: «كفى بالمرء كذبًا...».

(٥) أخرجه مسلم رقم (٨٦٩).

الشيطان ينزغ بين بني آدم، فيحمل الكلام الحسن على محمل سيئ بخلاف الكلام الأحسن فإن الشيطان يعجز أن يحوله إلى سيئ.

١٢- أن يقول قولاً سديدًا غير مخل ولا ممل، طيب اللفظ، طيب الوقت، طيب الصوت، طيب القدر، طيب الفهم، يجلب نفعًا أو يدفع ضررًا، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠].

وهذا هو الكلام الطيب الذي أخبرنا الله جل وعلا به فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥]، وفيه يقول رسول الله ﷺ: «والكلمة الطيبة صدقة»(١).

١٣- مخاطبة الناس على قدر عقولهم. يقول النبي ﷺ: «حدِّثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟!»(٢).

١٤- تكرار الكلمات أو العبارات المهمة حتى تفهم وتحفظ فإن كانت واضحة فلا داعي للإعادة، فعن أنس رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثًا حتى تفهم عنه، وإذا أتى على قوم فسلم عليهم سلَّم عليهم ثلاثًا»(٣).

١٥- وضوح الكلمات وبيان العبارات وخروج الألفاظ من مخارجها غير معقد ولا غريب. تقول عائشة رضي الله عنها: «كان كلام رسول الله ﷺ كلامًا فصلاً يفهمه كل من يسمعه»(٤).

١٦- عدم رفع الصوت إلا لضرورة، وليقدر ارتفاع صوته حسب عدد المستمعين لكلامه، والأصل خفض الصوت كما قال تعالى: ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩]، ومنها: إعطاء فرصة للمشاركة

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٢٩٨٩)، ومسلم رقم (١٠٠٩).

(٢) أخرجه البخاري.

(٣) أخرجه البخاري رقم (٩٥).

(٤) أخرجه أبو داود رقم (٤٨٣٩)، وانظر «الصحيحة» رقم (٢٠٩٧).

وإبداء الرأي أو المحاورة والمناقشة ما لم يكن مجلس علم لا يحسن فيه المحاورة إلا إذا احتاج طالب علم لفهم مسألة أو طرح سؤال، فليس للأستاذ أن يحول بينه وبين ذلك.

وقد كان رسول الله ﷺ يشرك المستمعين له في حديثه ويرد على أسئلتهم ويفقه جاهلهم ويصحح أخطاءهم . ولنستمع إليه وهو يقول لهم: «**أتدرون من المفلس؟**» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، قال: «**إن المفلس...**»(١) .

١٧- ألا يضحك في موضع البكاء، ولا يبكي في وقت الضحك، ولا يبدو منه الحزن في حالة السرور، ولا يظهر منه الفرح في موقف الحزن.

١٨- البعد عن التكلف والتنطع والفظاظة أثناء الكلام.

١٩- إن كان سائلاً ألا يسأل إلا إذا وجد من المتحدث إذنًا أو قبولاً للسؤال والاستفسار.

٢٠- إذا سُئل غيره فلا يجيب إلا إذا أذن له المسئول.

٢١- التبسط مع المستمعين بذكر طرفة أو فكاهة أو نكتة لطيفة أو يمازح بالحق.

* * *

*** أمراض اللسان:**

٢٢- أن يبتعد أثناء حديثه عن آفات اللسان، كما أن للقلب أمراضًا فللسان أمراض منها:

١- **الكلام فيما لا يعنيك:** فمن حُسْن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه.

٢- **فضول الكلام:** وهو يتناول الخوض فيما لا يعني والزيادة فيما يعني على قدر الحاجة.

٣- **الخوض في الباطل:** وهو الكلام في المعاصي، كحكاية أحوال النساء ومجالس الخمر.

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٥٨١).

٤- **المراء**: وهو كل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه، إما في اللفظ، وإما في المعنى، وإما في قصد المتكلم، فكل كلام سمعته فإن كان حقًا فصدِّق به، وإن كان باطلاً أو كذبًا ولم يكن متعلقًا بأمور الدين فاسكت عنه.

٥- **الجدال**: هو عبارة عن قصد إفحام الغير وتعجيزه وتنقيصه بالقدح في كلامه، أما الجدال للوصول للحق فهذا جائز وهو عكس الأول، وهو من أساليب الدعوة إلى الله سبحانه.

٦- **الخصومة**: وهي وراء الجدال والمراء، وهي: لجاج في الكلام ليستوفى به مال أو حق مقصود، وفي الحديث: «**إن أبغضَ الرجالِ إلى الله الألدُّ الخَصِم**»، رواه البخاري، هذا في الخصام في الباطل، أما صاحب الحق فيجوز له ذلك.

٧- **التقعر في الكلام**: بالتشدق وتكلف السجع والفصاحة.

٨- **الفحش وبذاءة اللسان**: وهو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة كألفاظ الجماع القبيحة.

٩- **السب**: وهو درجات، فمنه ما هو كفر: كسب الله والرسول والدين والقرآن أو بعضه، ومنه ما هو من أكبر الكبائر: كالمتسبب في سب والديه، قال ﷺ: «**إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه**». قيل: وكيف يلعن الرجل والديه، قال: «**يسبُّ الرجلُ أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه**»، رواه البخاري. ومنه ما هو كبائر: كسب الأشخاص غير الوالدين. ومنه ما هو صغيرة: كسب الجمادات والحيوانات.

١٠- **اللعن**: وهو درجات، فمنه ما هو كفر: كلعن الله ورسله وكتبه ودينه، أو بعض ذلك، ومنه ما هو من أكبر الكبائر. . . إلخ كما مر في السب.

١١- **الغناء**: وهو حرام إلا في الزواج غناء النساء للنساء، وغناء الأطفال في العيد بكلام مباح، وكذا الأناشيد الإسلامية وما لا يخدش الحياء أو يثير الغرائز.

١٢- **الشعر**: منه ما هو حرام، ومنه ما هو حلال فحسنه حسن، وقبيحه قبيح.

١٣- **السخرية والاستهزاء**: قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ**﴾ [الحجرات: ١١].

١٤- **التنابز بالألقاب**: وهو التداعي بالألقاب التي يسوء الشخص سماعها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ [الحجرات: ١٢].

١٥- **إفشاء السر**: وهو حرام إذا كان فيه إضرار، ولؤم إن لم يكن فيه إضرار.

١٦- **الوعد الكاذب**: قال ﷺ: «**آيةُ المنافقِ ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وَعَدَ أخلف، وإذا اؤتمن خانَ**». أخرجاه.

١٧- **الكذب**: وهو درجات:

أ- **منه ما هو كفر**: وهو الكذب على الله ورسوله في تحريم الحلال وتحليل الحرام.

ب- **منه ما هو من أكبر الكبائر**: وهو الكذب على رسول الله ﷺ متعمدًا.

جـ- **منه ما هو كبيرة**: كالكذب لأخذ ما ليس بحقه، أو إنكار ما فعله.

د- **ومنه ما هو صغيرة**: ككذب الوالدين على ولدهما لسماع كلاهما، كما في الحديث أن امرأة قالت لابنها تعال وأعطيك، فقال لها رسول الله ﷺ: «**لو لم تفعلي لكُتبتْ عليك كُذيبة**»(١).

هـ- **كذب مباح**: وهو في ثلاثة مواضع: في الحرب، والصلح بين الناس، وحديث المرأة وزوجها والزوج وزوجته في الحب، كما تجوز المعاريض للضرورة والحاجة، والمعاريض كلام يحتمل وجهين.

١٨- **الغيبة**: وهي ذكرك أخاك بما يكره إن كان فيه، فإن لم يكن فيه فهو بهتان، قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢].

وقد تجوز الغيبة في أمور:

التظلم: كأن يقول للقاضي: ظلمني فلان، والفاسق المجاهر بفسقه، والمبتدع، والحاكم الجائر، وتحذير المسلمين من الشر، وذلك كجرح المجروحين من الرواة والشهود والمصنفين، أو إذا رأيت من يشتري شيئًا معيبًا أو نحوه تذكره للمشتري نصيحة له.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود.

التعريف: فإذا عرف بلقب ذكر به إن اضطررت إلى ذلك ولا تجوز تنقصًا[١] .

١٩- النميـمة: وهي نقل كلام الناس بقصـد الإضرار، وهي من الكبائر، روى البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يدخل الجنةَ نمامٌ**»، ويجب إذا نقل إليه نمام عن أخيه شيئًا:

أ- ألا يصدقه .

ب- وأن يبغض فعل النمام.

جـ- أن ينصحه.

د- ألا يظن بأخيه سوءًا.

هـ- أن لا يتجسس لمعرفة ما قاله النمام.

و- أن لا يرضى لنفسه ما نهى النمام عنه فلا يحكي نميمته.

٢٠- **كلام ذي اللسانين**: وهو الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجـه، وقد ورد في الحديث الصـحيح عن رسول الله ﷺ: «**إن من أشرّ الناسِ عند اللهِ يوم القـيامة ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه**».

٢١- المدح: وهو الثناء على الإنسـان بما هو فيـه، فإن كـان الإنسان لا مـحالة مادحًا فليقل: أحـسبه صالحًا وحسيـبه الله ولا أزكي على الله أحدًا. أما الإطراء: وهو الزيادة في المدح بما ليس فيه فهو حرام.

٢٢- **الغفلة عن دقائق الخطأ**: كمن يقول: توكلت على الله وعليك، لولا الكلب لسـرقنا اللص. . . إلخ، وإنما يقـول: توكلت عـلى الله ثم عليك، ولولا أن الله سخر لنا الـكلب. وكل لفظ فيه تشريك المخلوق بالخـالق لا نستعمل مـعه حرف الواو، وإنما نستعمل ثم، مثل: استعنت بالله ثم بك.

٢٣- القذف: وهو رمي آخر أو أخرى بالزنى، كأن تقول: يا زان، أو يا زانية، أو يا ابن الزانية، أو يا قحبة (وهي عندنـا أحبة)، أو تقول للشاب: يا علق، أو يا

---

(١) «رفع الريبة» للشوكاني، و«صحيح مسلم بشرح النووي».

خول، أو تقول: يا منكوح، وهذه كبيـرة من الكبائر، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤].

٢٤- **الانتساب**: إلى غير أبيه، بأن ينسب نفسـه لغير والده وهو ملعون مطرود من رحمة الله إلا أن يتوب؛ لأنه لم يشكر من أنعم عليه ونسب النعمة إلى غيره.

٢٥- **شهادة الزور**: قال الله تعالى: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠] وهي من أكبر الكبائر كما رواه البخاري ومسلم عن أبي بكرة.

٢٦- **سؤال العوام عـن صفات الله**: وهو البحث في ذات الله وكـيفيتهـا فهذا لا يجوز ويؤدي إلى الكفر[١].

٢٧- **المنان**: هو الذي يثني على نفسه بالعطية، كأن يقـول للفقير: أعطيتك كذا وكذا، وهذا حرام ومن الكبـائر، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وفي الصحيحين: **«ثلاثة لا ينظر اللهُ إليهم يوم القـيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم»**، منهم: **«المنان»**.

٢٨- **التكذيب بالقدر**: والمقصود عدم الرضا وإظهار الجزع.

٢٩- **النياحة**: النائحة هي التي تنوح على فقيدها، وقد برئ رسول الله ﷺ من الصالـقة[٢]: وهي النائحـة، والنيـاحة: رفع الصـوت بالندب، والندب تعـديد النائحة بصوتها محاسن الميت، كأن تقول: واسبعاه واجملاه، ليس لنا غيرك.

٣٠- **الحلف**: وهو لا يكون إلا بالله بأسمـائه أو صفاته، ومن حلف بغـير الله فقد أشرك كالحلف بالنبي والكعبة، وقولهم: وحياتك. ومن أكبر الكبائر: اليمين الغمـوس: أي الذي يغمس صاحبـه في النار، وقال ﷺ: **«الكبائـر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، واليـمين الغموس»**. أخرجه البخاري في صـحيحه، وعن أبي ذر عن النبي ﷺ قال: **«ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القـيامة ولا يزكيـهم ولهم عذاب أليم»**، فقرأ بها رسول الله ﷺ ثلاث مرات، فقال أبو ذر: خابوا وخسروا يا رسول الله،

---

(١) «إحياء علوم الدين»، و«الكبائر»، و«مختصر منهاج القاصدين».

(٢) أخرجه الشيخان.

من هم؟ قال: «المسبل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب»(١) . من حلف فقال: والنبي والكعبة، فليقل: لا إله إلا الله.

٣١- **اليمين الكاذبة عمداً** المعروفة باليمين الغموس.

٣٢- عدم الستر على المسلم وفضحه.

٣٣- **البهتان والافتراء**: فلقد نظر عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يومًا إلى الكعبة فقال: ما أعظمك وأعظم حرمتك، والمؤمن أعظمُ حرمة منك.

٣٤- **النفاق العملي لا الاعتقادي**: وهو أن يشابه عمل المسلم عمل المنافقين من غير استحلال له، وما في ظاهره من نفاق ليس في باطنه، إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فَجَر، وإذا وعد أخلف.

ولما حضرت عبد الله بن عمر رضي الله عنهما الوفاة قال: إنه كان خطب إليَّ ابنتي رجل من قريش، وقد كان مني شبهُ الوعد، فوالله لا ألقى الله بثُلثِ النفاق، أشهدكم أني قد زوجته ابنتي.

٣٥- **أن يتحلى أو يتشبع بما لم يُعْطَ**: قال تعالى: ﴿**لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [آل عمران: ١٨٨].

وفي حديث أسماء رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ : «**المتشبِّع بما لم يُعطَ كلابس ثَوبي زُور**»(٢) .

والتشبع بما لم يُعط في أمور الآخرة أشد ذنبًا وأكثر إثمًا، كالإفتاء بغير علم، ليظهر أنه عالم وأنَّ علمه غزير.

٣٦- أن يخطب على خطبة أخيه حتى يذر.

٣٧- البيعُ على بيع أخيه.

٣٨- طلب الولاية سيما إن وجد من هو أهل لها فنِعمَ المرضعة وبئست الفاطمة.

---

(١) رواه مسلم وأحمد وأهل السنن.

(٢) متفق عليه.

٣٩- التعيير والتوبيخ.

٤٠- الدعاء على النفس والأولاد والأموال.

٤١- الخيانة في النصيحة.

٤٢- احتقار المسلمين.

٤٣- التألي على الله تعالى وقول العبد: هذا من أهل الجنة وهذا من أهل النار. دون دليل صحيح.

٤٤- الفخر في الأنساب.

٤٥- أن يدعى المرءُ إلى غير أبيه، أو ينتمي إلى غير مواليه.

٤٦- الاستغفار للمشركين والكفار.

٤٧- الفجور عند الخصام.

٤٨- القول: إني بريء من الإسلام أو يحرم عليَّ ديني أو إن فعلت كذا فأنا بريء من الدين. يقول النبي ﷺ: **«من قال: إني بريء من الإسلام، فإن كان كاذبًا فهو كما قال، وإن كان صادقًا لم يعد إلى الإسلام سالمًا»**[1].

٤٩- الهزل بالنكاح والطلاق والرجعة والعِتق.

٥٠- سب الأموات.

٥١- القول: تعال أُقامِرك.

٥٢- القيل والقال.

٥٣- البؤس والتَّباؤس.

٥٤- مخاطبة المنافق بسيد ونحوه إذا علم يقينًا أنه منافق.

٥٥- التزكّية بأن يمدح نفسه، قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢].

٥٦- العودة في الصدقة.

---

(١) أخرجه النسائي وابن ماجه والحاكم وصححه، وانظر «الإرواء» رقم (٢٥٧٦).

٥٧- لفظة: «لو» عند المصيبة على وجه الاعتراض على ما قدره الله، أو الجزع مما وقع. يقول ﷺ: «**ولا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدَّر الله وما شاء فعل**»(١).

٥٨- الحلف في البيع.

٥٩- التحدث بتلعب الشيطان به في المنام، قال ﷺ: «**لا يحدِّثن أحدكَم بتلعب الشيطان به في منامه**»(٢).

٦٠- قول: تَعِسَ الشيطانُ، وإنما يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

٦١- التحلم كاذبًا.

٦٢- النذر في معصية الله.

٦٣- قول: خبثت نفسي.

٦٤- تسمية العنب كَرْمًا.

٦٥- التكلم والإمام يخطب الجمعة.

٦٦- نشد الضالة والبيعُ في المسجد.

٦٧- قول: شاهنشاه للسلطان.

٦٨- دعاء غير الله.

٦٩- الاستسقاء بالأنواء - أي بالنجوم.

٧٠- كفر النعمة، وهو من الكفر الأصغر.

٧١- سؤال الكهان والعرافين.

٧٢- الاستعاذة بغير الله.

٧٣- قول: ما شاء الله وشاء فلان.

٧٤- الحلف بغير الله.

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

٧٥- إنكار اسم من أسماء الله تعالى أو نعت ثبت بالإجماع اتصافه تعالى به.

٧٦- إنكار القدر.

٧٧- القول بالبدع[١] .

٧٨- الخوض في علم الكلام وصفات الله على طريقة المتكلمين.

ورحم الله الجُنيد حيث قال: «إنكارُ العيب حيث يستحيلُ العيبُ: عيب».

وطريقة أهل السنة في الإثبات والنفي في الأسمـاء والصفات هي طريقة الذين جاءوا بكمال الأدب مع الله عز وجل.

٧٩- الخوض في القدر- لغير المتخصصين من الأصوليين- .

٨٠- الحلف في البيع وإن كان صادقًا.

٨١- قول: اللهم اغفر لي إن شئت.

٨٢- الطعن في الأنساب.

٨٣- الخوض فيما شجر من فتن بين الصحابة رضي الله عنهم.

٨٤- التهنئة بقولهم: (بالرفاء والبنين) فإنها من تهاني الجاهلية، وليقل: «بارك الله لكما وبارك عليكما وجمع بينكما في خير».

٨٥- الحذر من الكلمات والعبارات والأمثال التي تخالف العقيدة.

- من علمني حرفًا صرت له عبدًا.

- أنا عبد المأمور.

- تور الله في برسيمه.

- ربنا افتكره.

- حاجة تقصر العمر .

- أبكي على الزمان اللي عمل القصير شمعدان.

---

(١) انظر «حصاد الألسن» لحسين العوايشة ط- دار ابن عفان.

- الرزق يحب الفهلوة .
- الرزاء أو الرِّحيم .
- خمسة في عينك، وخمسة وخميسة، وامسك الخشب.
- اللي يعتقد في حجر ينفعه.
- إذا دخلت بلد تعبد العجل فحِش له.
- الباب المردود يرد القضا المستعجل .
- إذا تعطلت الأمور فعليكم بأصحاب القبور.
- زرع شيطاني أو طالع شيطاني أو نبات شيطاني.
- أنا اصطبحت بوش مين - وشه يقطع الخميرة من البيت .
- مولد وصاحبه غايب.
- اسم النبي حارسه وصاينه.
- دستور يا أسيادنا- يعني الجن.
- يدي الحلق للي بلا ودان.
- رزق الهبل على المجانين.
- بعبدك - يقولها لمحبوبته.

وغير ذلك من الأمثال الشعبية المرفوضة التي قد تخالف الاعتقاد الصحيح.

ثالثًا: آداب بعد الكلام:

وبعد انتهاء الحديث ينبغي على المتحدث أداء ما يلي:

١- العمل بما قال، وتـنفيذ ما دعا إليـه وفعل ما رغب فيـه، ولا يخالف قوله فعله، قــال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ② كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢،٣]، وقال أيضًا: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

٢- ألا ينقل الكلام السيء أو ما فـيه خطأ في شخص إليـه؛ لئلا يكون الناقل نمامًا.

٣- ألاَّ يُفْشي سرًّا ولا ينقل خبرًا لم يأذن صاحبه بإذاعـته فقلوب الأحرار قبور الأسرار.

٤- صدق الوعد والوفـاء بالعهد الذي قطعه أمـام الناس، ولا يَعد ثم يخلف، أو يعاهد ثمَّ يغدر.

بهـذه الآداب يضمن الإسـلام للمؤمن أن لا يؤذي بـلسانه، بل تكون كلمـاته أشعة نور تنير الظلمات وتهدي الحيارى وتؤلف بين القلوب وتجمع بين الأفئدة.

* * *

(٢٧) طلاقة الوجه

المؤمن طلق الوجه، مستبشر الأسارير، مشرق الجبين، لا تتركه الابتسامة، ولا تغادره الكلمة الطيبة، ليس عبوسًا ولا قطوبًا، ولا كلحًا ولا غضوبًا.

لأن الوجه ينبئ عمّا بالباطن من حب وبغض، ورضًا وسخط، ورحمة وقسوة، وشدة ولين، وقوة نفس وضعف شخصية. قال سيد الخلق ﷺ: «**كل معروف صدقة، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق، وأن تفرغ من دلوك في إناء أخيك**»(١).

وقال رسول الله ﷺ: «**لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق**»(٢).

والنبي ﷺ سيد ضحكه التبسم، يغلب عليه في ظهوره أمام الناس، ويسبقه في أقواله وأحواله، يقول عبد الله بن الحارث بن حزم: «ما رأيت أحدًا أكثر تبسمًا من رسول الله ﷺ»(٣). وكان ﷺ إذا رُئي استنار وجهه.

وذلك لأن البشاشة وطلاقة الوجه تبعثان على الحب والود والإخاء، وتدفعان إلى الرحمة والرفق واللين والحلم والعفو والإحسان.

يقول سفيان بن عيينة: «البشاشة مصيدة المودة، والبر شيء هين: وجه طليق وكلام ليِّن»(٤).

وابتسامة الشفتين وطلاقة الوجه تدخلان السرور على قلب المؤمن، وتشرحان صدره، وتذهبان روعه، وتريحان باله، وتصرفان وساوس نفسه نحو أخيه.

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي وقال: حديث حسن صحيح. وانظر «صحيح الجامع» رقم (٤٥٥٧).

(٢) أخرجه مسلم رقم (٢٦٢٦).

(٣) أخرجه الترمذي: كتاب المناقب- باب (في بشاشة النبي ﷺ)، وحسنه، وأخرجه أحمد (٤/ ٩٠).

(٤) «فيض القدير» للمناوي (٣/ ٢٢٦).

قال رسـول الله ﷺ: «من لقي أخـاه المسلم بما يُحـبُّ ليسـره بذلك سـرَّه الله- عـز وجل- يوم القيامة»(١) .

طلاقة الوجه بين الإفراط والتفريط:

وطلاقة الوجه لا تعني المبـالغة في الضحك حتى يظهر مـا بداخل الفم كسقف الفم أو الأضراس، أو الضـحك بعلة وبغير علة، ولا تعني الاسـترسال بذلك مع كل أحد بحيث يذهب الهيبة، فـإن الوقار والسكينة من خلق عباد الرحمن، يقول تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وعن عائشـة رضي الله عنها قالت: «مـا رأيت رسول الله ﷺ مُسْـتجمـعًا قط ضاحكًا حتى ترى منه لَهَواته(٢) ، إنما كان يبتسم»(٣) .

وإنما تعني أن تلقى أخاك ووجـهك إليه طلق، وتكلمه ووجـهك إليك منبسط كما قال ﷺ: «لا تحقرن من المعـروف شيئًا، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي، ولو أن تكلم أخاك ووجهك منبسط، وإياك وإسبال الإزار فإنه من المخيلة، ولا يحبها الله، وإن امرؤ شـتمك بما يعلـم فيك فلا تشـتمـه بما تعلم فيـه، فإنَّ أجـره لك ووباله على من قاله»(٤) .

* * *

(١) قال في «الترغيب» (٣/ ٣٤٦): رواه الطبراني في «الصغـير» بإسناد حسن، وأبو الشيخ في كتاب «الثواب».

(٢) اللهوات: جمع (لهاة) وهي اللحمة التي في أقصى سقف الفم.

(٣) أخرجه البخاري رقم (٤٨٢٨)، ومسلم رقم (٨٩٩).

(٤) أخرجه أبو داود، والترمذي وقال: حديث حسن صحيح. وصححه ابن حبان رقم (٥٢٢)، وكذا صححه الأرناؤوط.

(٢٨) الرفق

هذا الخلق يعني: سمـاحة المعاملة ولطف المعـاشرة والشفقـة بالآخرين، وترك التشدد والعنف، والتيسير في كل أمر، واجتناب التعنت والمشقة.

وهذا الخُلق العظيم يحبه الله العظيم، ويـحب من تخلَّق به، لذا نعت نفسه به ووصف به أنبيـاءه- عليهم السلام- يقول حـبيبنا محـمد ﷺ: **«إنَّ الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله»**[١].

وقال ﷺ: **«إنَّ الله رفيـق يحب الرفق، ويعطي على الرفق مـا لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه»**[٢].

وقال ﷺ: **«إنَّ الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه»**[٣].

ومن يحرم الرفق لا خير فيه كـما يقول- عليه السلام-: **«من يُحْرم الرفق يحرم الخير كله»**[٤].

والنبي ﷺ نفســه بُعث بالرفق وأرسل بالتيـسير ولم يبـعث للمشـقة والعنت، يقول ﷺ: **«إن الله أرسلني مُبلغًا ولم يرسلني مُتعنتًا»**[٥].

ويقول: **«إنَّ الله إذا أحب أهل بيت أدخل عليهم الرفق»**[٦].

لذا حضنا رسولنا ﷺ على اليسر في الأمر كله، ونهانا عن التعسير والتنفير.

قال رسول الله ﷺ: **«يسِّروا ولا تعسروا، وبشِّروا ولا تنفروا»**[٧].

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٦٢٥٦)، ومسلم رقم (٢١٦٥).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٦٩٢٧)، ومسلم رقم (٢١٦٥).

(٣) أخرجه مسلم رقم (٢٥٩٤).

(٤) أخرجه مسلم رقم (٢٥٩٢).

(٥) أخرجه مسلم والترمذي وأحمد.

(٦) صحيح: أخرجه ابن أبي الدنيا في «ذم الغضب» والضياء، وانظر «صحيح الجامع» رقم (١٧٠٤).

(٧) أخرجه البخاري رقم (٦٩)، ومسلم رقم (١٧٣٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بال أعـرابي في المسجد، فقـام الناس إليه ليقعوا فيه، فقال النبي ﷺ: «**دعوه وأريقوا على بوله سجْلاً**[١] **من ماء، أو ذنوبًا من ماء، فإنما بعثتم ميسِّرين ولم تبعثوا معسرين**»[٢] .

وكان هذا حالـه ﷺ في شئونه كلها، تقـول عائشة رضي الله عنها: «ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين قط إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفـسه في شيء قط إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم لله تعالى»[٣] .

ولا يقتصر التيسير على المعاملة، بل يدخل في أداء العبادات، فعن أبي مسعود البدري رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فـقال: إني لأتأخر عن صلاة الصبح من أجـل فلان مما يطيل بنا، فـما رأيت النبي ﷺ غضب فـي موعظة قط أشد ممـا غضب يومـئذ، فـقال: «**يا أيهـا الناس: إن منكم منفـرين، فـأيكم أمَّ الناس فليوجز، فإنَّ من ورائه الكِبير والصغير وذا الحاجة**»[٤] .

ومن اتبع طريق التـشدد والتنطع هلك، يـقول ﷺ: «**هلك المتنطِّعـون**»، قالـها ثلاثًا[٥] . وهم المتـشددون في غـير مـوضع التشـديد، المتِعمـقون في البـحث والاستقصاء فيما لا يصح التعمق فيه.

والحق أن ضرر هذين الصنفين كبير على معتقدات المسلمين وعباداتهم.

- فالفريق الأول شكك الناس في عقائدهم، وفتح باب التكفير والتفسيق.

- والفريق الثاني أبـطل روح التعبد ولذة المناجاة وشـغل العباد بالآراء الفقـهية والمباحث الأصولية وحملهم على التعصب للفقهاء أو نبذ اجتهادات الأئمة.

وانتقل هذا الوباء إلى القلوب فأفسدها وزرع فيها الشحناء والبغضاء والغل.

---

(١) السَّجْل (بفتح السين وسكون الجيم): الدلو الممتلئة ماءً، كذلك: الذَّنوب.

(٢) أخرجه البخاري رقم (٢٢٠).

(٣) أخرجه البخاري رقم (٣٥٦٠)، ومسلم رقم (٢٣٢٧).

(٤) أخرجه البخاري رقم (٣٢٢٤)، ومسلم رقم (٢١٠٧).

(٥) أخرجه مسلم رقم (٢٦٧٠).

ومن ثَمَّ فإنك تدخل المسجد فترى فيه أحزابًا وجماعات وطوائف وطرقًا ينكر بعضهم على بعض، ويسيئ بعضهم لبعض، ويشغل فريق منهم عقله ووقته بالرد على الفريق المخالف.

مظاهر الرفق: وللرفق مظاهر كثيرة تبدو في حركات المؤمن وسكناته أثناء معاملته مع الإنسان والحيوان.

ومن هذه المظاهر:

١ - الرفق بالنفس في أداء العبادات:

ودين الإسلام يسير في أحكامه، رفيق في شرائعه، وفيٌّ في عقائده، فالمتبع له حقيق بأن يوغل فيه برفق، ويقدم على تطبيق أوامره بحكمة وفطنة، فينشط في طاعة تارة، ويفتر عن نوافل تارة دون معصية، ويشق على نفسه مرة، ويخفف عليها مرة أخرى.

يقول النبي ﷺ: «**إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة[1] والروحة[2] وشيء من الدُّلجة[3]**».

وفي رواية: «**سددوا وقاربوا واغدوا وروحوا، وشيء من الدلجة، القصد القصد تبلغوا**»[4].

وعن أنس قال: دخل النبي ﷺ المسجد، فإذا حبل ممدود بين الساريتين، فقال: «**ما هذا الحبل؟**» قالوا: هذا حبل لزينب، فإذا فترت تعلقت به، فقال النبي ﷺ: «**حلُّوه، ليصلِّ أحدكم نشاطه، فإذا فتَر فليرقد**»[5].

٢ - الرفق مع الخلق كافة:

والمؤمن هيِّن لين رفيق مُيسر مطواع قريب سهل ليس بفظ ولا غليظ ولا جاف

---

(١) الغدوة: سير أول النهار.

(٢) الروحة: سير آخر النهار.

(٣) الدُّلجة: سير آخر الليل.

(٤) أخرجه البخاري رقم (٣٩).

(٥) أخرجه البخاري رقم (١١٥٠)، ومسلم رقم (٧٨٤).

ولا مشدد ولا معسر ولا متنطع. يقبل الأعذار ويعفو عن الزلات، ويتجاوز عن السيئات، ويقيل العثرات، ويقضي الحاجات.

يقول رسول الله ﷺ: «**المؤمنون هينون لينون، كالجمل الأنِف، إن قيد انقاد، وإذا أنيخ على صخرة استناخ**»[١].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبركم بمن تحرم عليه النار؟ تحرم على كل قريب هيِّن لين سهل**»[٢].

وهذه الصورة العالية من الرفق يؤديها المؤمن مع الإنسان والحيوان، مع المسلم والكافر، والغني والفقير، والصغير والكبير، والذكر والأنثى، والحر والعبد، والعالم والجاهل، والأبيض والأسود.

٣- الرفق بالعصاة:

- ومن رفق المؤمن: التلطف مع العاصي، وفتح أبواب التوبة والرجاء أمامه، وستره، وعدم إعانة الشيطان عليه، واجتناب توبيخه. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ أتي برجل قد شرب خمرًا، فقال: «**اضربوه**».

قال أبو هريرة: فمنا الضارب بيده، والضارب بنعله، والضارب بثوبه، فلما انصرف قال بعض القوم: أخزاك الله، قال: «**لا تقولوا هكذا، لا تعينوا عليه الشيطان**»[٣].

عن أبي قلابة أن أبا الدرداء رضي الله عنه مرَّ على رجل قد أصاب ذنبًا، فكانوا يسبونه، فقال: «أرأيتم لو وجدتموه في قليب[٤] ألم تكونوا مستخرجيه؟ قالوا: بلى، قال: فلا تسبوا أخاكم، واحمدوا الله الذي عافاكم. قالوا: أفلا تبغضه؟ قال: إنما أبغض عمله، فإذا تركه فهو أخي»[٥]. فهو يبغض الذنب لا

---

(١) أخرجه ابن المبارك عن مكحول مرسلاً، وابن وهب عن ابن عمر، وانظر «الصحيحة» رقم (٩٣٦).

(٢) أخرجه الترمذي رقم (٢٤٨٨)، وقال: حديث حسن. وانظر «السلسلة الصحيحة» رقم (٩٣٨).

(٣) أخرجه البخاري رقم (٦٧٧٧).

(٤) القليب: بئر عميق واسع جف ماؤه.

(٥) أخرجه ابن عساكر كما في «الكنز» (٢/ ١٧٤)، وأخرجه أبو نعيم (١/ ٢٢٥).

المذنب والمعصية لا العاصي.

وهذا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول: «إذا رأيتم أخاكم قارف ذنبًا، فلا تكونوا أعوانًا للشيطان عليه، تقولوا: اللهم اخزه، اللهم العنه، ولكن سلوا الله العافية، فإنَّا أصحاب محمد ﷺ كنَّا لا نقول في أحد شيئًا حتى نعلم علام يموت؟ فإن خُتم له بخير علمنا أن قد أصاب خيرًا، وإن خُتم له بشر خفنا عليه»(١).

٤- الرفق بالمدعوين: ومن الرفق بالمدعوين ما فعله النبي ﷺ بثمامة بن أثال الحنفي - زعيم آمن عن طريق الرفق - كان من جملة من كاتبهم النبي ﷺ ثمامة بن أثال الحنفي، فما كان من ثمامة إلا أنه أراد قتل النبي ﷺ والقضاء على دعوته، وذهب لينفذ ما أملاه عليه شيطانه، إلا أنَّ عمه أثناه عن عزمه.

وبعد مدة من الزمان أراد ثمامة العمرة، وفي الطريق إلى مكة التقطته سرية من سرايا المسلمين، فأسرته، وربطته في المسجد النبوي، ولما جاء النبي ﷺ إلى المسجد رأى ثمامة فقال لأصحابه: **«أتدرون من أخذتم؟»**، فقالوا: لا يا رسول الله. فقال: **«هذا ثمامة بن أثال الحنفي، فأحسنوا أساره»**، ثم رجع عليه الصلاة والسلام إلى أهله، وقال: **«اجمعوا ما كان عندكم من طعام وابعثوا به إلى ثمامة بن أثال»**، ثم أمر بناقته أن تُحلب له في الغدو والرواح، وأن يُقدَّم إليه لبنها، وبعد أن تم كل هذا، أقبل ﷺ على ثمامة، وقال: **«ما عندك يا ثمامة؟»**. فقال: عندي يا محمد خير... فإن تقتل تقتل ذا دم، وإن تُنعم، تُنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال، فسل تُعط منه ما شئت، فتركه ﷺ على حاله يومين، ثم جاءه فقال عارضًا عليه الإسلام: **«ما عندك يا ثمامة؟»**، قال: ليس عندي إلا ما قلت لك من قبل، فإن تنعم تُنعم على شاكر، وإن تقتل تَقْتُل ذا دم، وإن كنت تُريد المال، فسل تعط منه ما شئت. فتركه عليه الصلاة والسلام، ثم جاءه في اليوم التالي، فقال: **«ما عندك يا ثمامة؟»**، فقال: عندي ما قلت لك، إن تُنعم تُنعم على شاكر، وإن تقتل تقتل ذا دم، وإن كنت تريد المال أعطيتك منه ما تشاء، فالتفت رسول الله

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٠٥).

ﷺ إلى أصحابه وقال: «**أطلقوا ثمامة**»، فأطلقوه.

غادر ثمامة المسـجد، ومضى حتى إذا بلغ أطراف المدينة قريبًـا من البقيع وجد ماءً فتطهر ثمَّ عاد إلى المسجد، وقـال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. ثمَّ اتجه إلى رسول الله ﷺ وقال: يا محـمد، والله ما كان على ظهر الأرض وجه أبغض إليَّ من وجهك، وقد أصبح وجهك أحبَّ الوجوه كلها إليَّ. ووالله مـا كان دين أبـغض إليَّ من دينك، فـأصبح دينـك أحب الدين كله إليَّ. ووالله ما كـان بلد أبغض إليَّ من بلدك، فأصبح بلدك أحب البـلاد كلها إليَّ... ثم أردف قائلاً: لقد كنت أصبت في أصحابك دمًـا، فما الذي توجبه عليَّ. فقال عليه الصلاة والسلام: «**لا تثريب عليك يا ثمامة، فـإنَّ الإسلام يجبُّ ما قبله**»، ففرح ثمـامة وقـال: والله لأصيبنَّ مـن المشركين أضـعاف مـا أصـبت من أصحـابك، ولأضعنَّ نفسي وسـيفي ومن معي في نصرتك ونصـرة دينك، ثم قال: يا رسول الله، إنَّ خيلك أخـذتني وأنا أريد أداء العمـرة، فماذا ترى أن أفـعل، فقـال عليه الصلاة والسلام: «**امضِ لقـضاء عـمرتك، ولكن على شـرعة الله ورسـوله**»، وعلَّمه أحكام العمرة.

وانطلق ثمامة ملبيًا: «لبيك اللهم لبيك...» يرفعُ بها صوته، وسمعت قريش صوت التلبية، فأقبلت على صاحب الصـوت، وهمَّ فتى من فتيان قريش أن يرميه بسهم، ولكنَّ قريشًا منعته، وقالوا: ويحك أتعلم من هذا؟ إنه ثمامة بن أثال ملك اليمـامة، واللهِ إن أصبتـموه بسوء قطع قومـه عنا المِيرة[1]، وأماتونا جـوعًا، ثم أقبلوا على ثمامـة وقالوا: ما بك يا ثمامة، أصـبوت وتركت دينك ودين آبائك؟! فقال: ما صـبوت ولكني اتبعت خير دين- اتبعت دين مـحمد، ثم أردف يقول: أقسم بربِّ هذا البيت، إنه لا يصل إليكم بعد عودتي إلى اليمـامة حبة من قمحها أو شيء من خيراتها حتى تتبعـوا محمداً عن آخركم. ورجع ثمامة رضي الله عنه إلى قومه، وقطع الميـرة على قريش حتى انتشر الجوع، واشتـد الكرب، فانطلقوا إلى النبي ﷺ وكتبوا له يطلبون أن يطلب من صـاحبه أن يطلق لهم ميرتهم فكتب

---

(١) الميرة: المؤنة.

له ورجعت إليهم الميرة[١] وهكذا أثمر الرفق هذا النجاح الهائل في الدعوة إلى الله.

٥- رفق الحكام بالرعية:

ومن ألوان الرفق رفق الحكام بالرعـية بقضاء حـاجاتهم وأداء مصـالحهم، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بينا عمـر رضوان الله عليه يعس بالمدينة، إذ مرَّ برحبة من رحـابها، فإذا هو ببيت من شعر، لم يكن بالأمس، فـدنا منه، فسمع أنين امرأة، ورأى رجلاً قاعدًا، فدنا منه فـسلَّم عليه، ثم قال: من الرجل؟ فقال: رجل من أهل البادية، جـئت إلى أمير المؤمنين أُصـيب من فضله. فقـال: ما هذا الصوت الذي أسمـعه في البيت؟ فقال: انطلق رحمك الله لحـاجتك، قال: عليَّ ذلك، ما هو؟ قال: امـرأة تُمخَّض[٢] . قال: هل عندها أحـد؟ قال: لا. قال: فانطلق حتى أتـى منزله، فقال لامرأته أم كلثوم بنت علـي رضي الله عنهما: هل لك في أجرٍ سـاقه الله إليك؟ قالت: وما هـو؟ قال: امرأة غريبـة تُمخض، ليس عندها أحد. قالت: نعم، إن شئت. قال: فـخذي معك ما يُصلح المرأة لولادتها من الخِرَق والدُّهن، وجئـيني بِبُرْمة[٣] وشحم وحـبوب، قال: فجاءت بـه، فقال لها: انطلقي. وحمل البُـرمة، ومشت خلفه، حتى انتهى إلى البـيت، فقال لها: ادخُلي إلى المرأة. وجـاء حتى قعـد إلى الرجل، فقـال له: أوقدِ لي نارًا. فـأوقد تحت البُرمة حـتى أنضجها، وولدت المرأة. فـقالت امرأته: يا أميـر المؤمنين، بشِّر صاحبَك بغلام. فلمَّا سمع بأمير المؤمنين كأنه هابه، فجعل يتنحى عنه، فقال له: مكانك كما أنت. فَحَمَل البُرمة فوضعها على الباب، ثم قال: أشْبِعيها. ففعلتْ، ثم أخرجت البُرمة فوضعتها على الباب، فقام عمر رضي الله عنه فأخذها فوضعها بين يدي الرجل، فقال: كُل ويحكَ، فإنك قد سـهرت من الليل، ففعل، ثم قال لامرأته: اخرجي. وقال للرجل: إذا كان غدًا، فأتنا نأمر لك بما يُصلحك. ففعل الرجل فأجازه وأعطاه[٤] .

---

(١) انظر «الاستيعاب» (١/ ٢٠٣)، و«أسد الغابة» (١/ ٢٤٦)، و«الإصابة» (١/ ٢٠٣) رقم (٩٦١).

(٢) أي: في المخاض.

(٣) قِدر من الحجارة.

(٤) «مناقب عمر بن الخطاب» (صـ ٨٤، ٨٥).

هكذا رفق الأمير الفاروق برعيته، فمنحه الله خلق الرفق، وحق فيه وفيمن اقتدى به من الأمراء المقسطين دعاء الرسول ﷺ: **«اللهم مَن ولي من أمر أمتي شيئًا فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئًا فرفق بهم فارفق به»**[١] .

وهؤلاء الأمراء الرفقاء هم خيار الأئمة كما قال ﷺ: **«خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ويصلون عليكم**[٢]**، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم»**، قال عوف بن مالك: قلنا: يا رسول الله، أفلا ننابذهم؟[٣] قال: **«لا ما أقاموا فيكم الصلاة، لا ما أقاموا فيكم الصلاة»**[٤].

وهؤلاء الخلفاء الرفقاء هم أهل الجنة كما في حديثه ﷺ: **«أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مُقسط مُوفَّق، ورجل رحيم القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف مُتعفِّف ذو عيال»**[٥] .

* * *

*** الفاروق الرفيق بالرعية:**

ومرة أخرى نأخذ مثالاً من رفق عمر وعدله، فإنَّ رفقه بحر لا ينضب. عن زيد بن وهب قال: «خرج عمر رضي الله عنه ويداه في أذنه وهو يقول: يالبيكاه! يا لبيكاه! قال الناس: ما له؟ قال: جاء بريد من بعض أمرائه أن نهرًا حال بينهم وبين العبور، ولم يجدوا سفنًا، فقال أميرهم: اطلبوا لنا رجلاً يعلم غور النهر، فأتي بشيخ، فقال: إني أخاف البَرد، وذلك في البَرد، فأكرهه فأدخله، فلم يُلْبِثه البرد، فجعل ينادي: يا عمراه، يا عمراه! فغرق، فكتب إليه، فأقبل، فمكث أيامًا مُعْرِضًا عنه، وكان إذا وَجَد على أحد منهم فعل به ذلك. ثمَّ قال: ما فعل

(١) أخرجه مسلم رقم (١٨٢٨).
(٢) تصلون: تدعون.
(٣) ننابذهم: نقاتلهم ونخلعهم.
(٤) أخرجه مسلم رقم (١٨٥٥).
(٥) أخرجه مسلم رقم (٢٨٦٥).

الرجل الذي قتلته؟ قال: يا أمير المؤمنين، ما تعمدت قتله، لم نجد شيئًا يعبر فيه، وأردنا أن نعلم غور الماء، ففتحنا كذا وكذا[(١)] ، وأصبنا كذا وكذا، فقال عمر: لرجل مسلم أحب إليَّ من كل شيء جئت به، لولا أن تكون سُنة لضربت عنقك، اذهب فأعط أهله ديته، واخرج فلا أراك»[(٢)]. أي رجل كان عمر؟ يخاف كل هذا الخوف، ويحزن كل هذا الحزن على خطأ غير مقصود وقع من غيره، ولكنَّ قلبه الرحيم وفؤاده الرقيق يلين لكل خطب ومصاب.

٦- **الرفق بالفقراء:** ومن الرفق بالفقراء دفع شر التجار الطامعين عن أقوات الناس، وإرخاص الأسعار لهم، والأخذ على يد المحتكرين. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حدث في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن أصاب الناس قحطٌ، فلما اشتد بهم الأمر ذهبوا إلى الخليفة، وقالوا له: يا خليفة رسول الله، إن السماء لم تمطر والأرض لم تنبت، وقد توقع الناس الهلاك. فماذا نصنع؟ فقال لهم: انصرفوا واصبروا، فإني أرجو ألا تمسوا حتى يفرج الله عنكم، فلما كان آخر النهار، وردت الأنباء بأن عيرًا لعثمان بن عفان قد قدمت من الشام، وتصبح بالمدينة. فلما جاءت، خرج الناس يتلقونها، فإذا هي ألف بعير موسوقة برًّا وزيتًا وزبيبًا، فأناخت بباب عثمان، فلما جعل أحمالها في داره، جاءه التجار، فقال لهم: ماذا تريدون؟ فقالوا: إنك لتعلم ما نريد. بعنا من هذا الذي وصل إليك، فإنك تعلم حاجة الناس إليه، فقال عثمان: حبًّا وكرامة، كم تربحونني على شرائي؟ قالوا: الدرهم درهمين، قال: أعطيت زيادة على هذا، فقالوا: أربعة، قال: أعطيت أكثر. قالوا: نربحك خمسة. قال: أعطيت أكثر، فقالوا: ما في المدينة تجار غيرنا، وما سبقنا أحد إليك، فمن الذي أعطاك أكثر مما أعطينا؟ قال: إن الله أعطاني بكل درهم عشرة. فهل عندكم زيادة؟ قالوا: لا، قال: فإني أشهد الله، أني جعلت ما حملت هذه العير صدقة لله على المساكين وفقراء المسلمين، ثم أخذ يفرق بضاعته، فما بقي من فقراء المدينة أحد إلا أخذ ما يكفيه وأهله.

---

(١) فتحوا بعض البلاد.

(٢) أخرجه البيهقي في سننه (٨/ ٣٢٣)، و«كنز العمال» (٧/ ٢٩٩).

٧- **الرفق بالعجائز:** دأب أبو بكر على أن يكون أول الصحابة في كل عمل صالح وخُلُق كريم وأدب كبير، ولا يجارى في هذا التخصص ولا يُبارى.

عن أبي صالح الغفاري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يتعاهد عجوزاً كبيرة عمياء في حواشي المدينة من الليل، فيستسقي لها، ويقوم بأمرها، وكان إذا جاءها وجد غيره قد سبقه إليها، فأصلح ما أرادت، فجاءها غير مرة فلا يسبق إليها، فرصَدَه عمر، فإذا هو أبو بكر الصديق رضي الله عنهما، الذي يأتيها وهو خليفة، فقال عمر: أنت لعمري![1] أنت أستاذ السباق، أنت بطل المسارعة إلى الطاعات، ما سبقت إلى فضل إلا رأيتك أسبق.

* * *

أبو بكر الرقيق الرفيق:

٨- **ومن الرفق الإحساس بالآخرين ورعاية الضعفاء والمحتاجين وإعانة المبتلين ولو بداء عشق وغرام:** مر أبو بكر الصديق رضي الله عنه في خلافته بطريق من طرق المدينة، فإذا جارية تطحن برحاها وتقول:

وهويته من قبل قطع تمائمي ... متمايسًا مثل القضيب الناعم
وكأن نور البدر سنة وجهه ... ينمي ويصعد في ذؤابة هاشم

فدقَّ عليها الباب فخرجت إليه، فقال: ويلكِ أحرةٌ أنت أم مملوكة؟ فقالت: بل مملوكة يا خليفة رسول الله، قال: فمن هويتِ؟ فبكت ثم قالت: بحق الله عليك إلا انصرفت عني. قال: لا أريم أو تعلِميني. فقالت:

وأنا التي لعب الغرام بقلبها ... فبكت لحب محمد بن القاسم

فجاء أبو بكر إلى المسجد وبعث إلى مولاها فاشتراها منه، وبعث إلى محمد ابن القاسم بن جعفر بن أبي طالب وقال: هؤلاء فِتن الرجال، وكم مات بهن من كريم، وعَطب[2] عليهن من سليم.

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي كما في «منتخب الكنز» (٤/ ٣٤٧).

(٢) عطب: هلك.

رسولنا ﷺ إمام الرفقاء بالقلوب: وقد تعلم الصديق رضي الله عنه هذا من إمام الرفقاء بالقلوب محمد ﷺ الذي لما علم بحب مغيث لزوجته بريرة رضي الله عنها وبغض بريرة له أخذته الرقة والشفقة على مغيث رضي الله عنه فكان يقول لأصحابه: «**ألا تعجبون من حب مغيث لبريرة، وبغض بريرة لمغيث؟**» ثم جاءها، فقال لها: «**لو راجعته**»، قالت: يا رسول الله تأمرني؟ قال: «**إنما أشفع**»، قالت: لا حاجة لي فيه[١].

وجاءت عثمان بن عفان جارية تستعدي على رجل من الأنصار، فقال لها عثمان: ما قصتك؟ فقالت: يا أمير المؤمنين كلفت بابن أخيه، فما أنفك أراعيه؟ فقال له عثمان: إما أن تهبها لابن أخيك أو أعطيك ثمنها من مالي؟ فقال: أشهدك يا أمير المؤمنين أنها له.

وأُتي علي بن أبي طالب رضي الله عنه بغلام من العرب وُجد في دار قوم بالليل فقال له: «ما قصتك؟ فقال: لست بسارق، ولكني أصدقك:

تعلقت في دار الرباحي خَودة ... يدلُّ لها من حسنها الشمس والقمر
لها من بنات الروح حسن ومنصب ... إذا افتخرت بالحسن صدقها الفخرُ
فلما طرقت الدار من حب مهجة ... أتيت وفيها من توقدها جمرُ
تبادر أهل الدار لي ثمَّ صيَّحوا ... هو اللص محتوم له القتل والأسرُ

فلما سمع عليٌّ شعره رقَّ له وقال للمهلب بن رباح: اسمح له بها ونعوِّضك منها. فقال: يا أمير المؤمنين سله مَن هو لنعرف نسبه؟ فقال: النهاس بن عيينة العجلي. فقال: خذها فهي لك».

فسجية الرفق شيمة حسنة وفضيلة عالية تيسر العسير، وتوسِّع الضيق، وتخفف الثقيل، وتسهل الصعب، وتفتح المنغلق، وتلين الشديد، وتريح القلب والبدن. فعلى المؤمن أن يكون له منها نصيب الأسد والقدح المعَلى.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٥٢٨٣).

(٢٩) التودد (الألفة) (الإخاء)

التودد خلق يقوم على الحب والمواساة، والألفة والتحبب والإخاء والتأدب، وحسن المعاشرة وكرم المجاورة. واصطناع المعروف إلى أهله وإلى غير أهله، وكف الأذى عن الناس. والودود هو المتحبب بالخير الكثير الإحسان، ومنه اسم الله الودود.

فرأس الحكمة بعد الدين التودد إلى الناس، واصطناع المعروف إلى كل بر وفاجر، ودفع الأذى عن الخلق، ومصاحبة البشر بالعطف واللطف، وهذا خلق المؤمن الصادق الذي لا يؤذي مؤمنًا ولا يُجاهل جاهلاً، ولا يرد السيئة بالسيئة.

ويعمل بقوله ﷺ: «**إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا ولا تجسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا كما أمركم، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ههنا**- ويشير إلى صدره- **بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه وعرضه وماله، إنَّ الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**».

وفي رواية: «**لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تناجشوا، وكونوا عباد الله إخوانًا**»(١).

وقوله: «**المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يُسْلِمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرَّج عن مسلم كربة فرَّج الله عنه بها كربة من كُرب يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة**»(٢).

المؤمن هيِّن ليِّن رفيق مطواع مُيَسِّر متودِّد ليس بفظ ولا غليظ، ولا معسر ولا مشدد ولا متنطع، يحب الخير للناس، ويفتح قلبه لعباد الله، يتحبب إلى الخلق،

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٦٠٦٤)، ومسلم رقم (٢٥٦٣).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٢٤٤٢)، ومسلم رقم (٢٥٨٠).

ويتحببون إليه. يقول ﷺ: «**المؤمن يألف ويؤلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف، وخير الناس أنفعهم للناس**»(١).

أشكال التودد: وللتودد أمور ومواقف وأفعال، تثبته وتقويه وتُحققه، وتوصل إلى غايته:

١- الانبساط للخلق وتجنب الوحشة بينه وبينهم، وبذل المعروف، ووسعهم بحسن الخلق، والتكرم عليهم بالسماحة والجود مع خفض الجناح ولين الجانب.

٢- ومنها: طيب الكلام، وإطعام الطعام، كما يقول عليه صلوات الله وسلامه: «**يا أيها الناس: أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام**»(٢).

٣- ومنها إدخال السرور على المؤمن: فمن أفضل الأعمال بعد الفرائض: إدخال السرور على أخٍ مسلم، كأن تكسو عورته، أو تكشف عنه كربة، أو تطرد عنه جوعًا، أو تقضي عنه دينًا، يقول رسول الله ﷺ: «**من أفضل العمل إدخال السرور على المؤمن، تقضي عنه دينًا، تقضي له حاجة، تُنَفِّس له كربة**»(٣).

فمن أدخل على مسلم أو بيت من المسلمين سرورًا سرَّه الله جل ذكره يوم القيامة كما ورد عنه ﷺ: «**من لقي أخاه المسلم بما يُحب ليسره بذلك سرَّه الله عز وجل يوم القيامة**»(٤).

٤- ومنها: السعي للإصلاح بين الناس: يقول جل وعلا: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ**﴾ [الأنفال: ١]. وهذا رسول الله ﷺ بلغه أن بني عمرو بن عوف كان بينهم شر، فخرج... يُصلح بينهم في أُناس معه...(٥).

---

(١) أخرج أحمد أوله ووسطه، وأخرجه بطوله الدارقطني في «الأفراد»، والضياء والطبراني وابن وهب عن جابر، وانظر «الصحيحة» رقم (٤٢٦).

(٢) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. وانظر «السلسلة الصحيحة» رقم (٥٦٩).

(٣) أخرجه ابن وهب، والحديث في «صحيح الجامع» رقم (٥٨٩٧).

(٤) أخرجه الطبراني في «الصغير» بإسناد حسن كما قال المنذري في «الترغيب» (٣/ ٣٤٦).

(٥) أخرجه البخاري رقم (٢٦٩٠)، ومسلم رقم (٤٢١).

٥- ومنها أن المؤمن يحب الخير للناس أجمعين. فلا يؤذي أخاه، ولا يقطع طريقًا، ولا يُضيق منزلاً ينزل فيه الناس لراحتهم أو طعامهم لأنه يخاف مما ورد في الحديث النبوي: «**من ضيق منزلاً أو قطع طريقًا أو آذى مؤمنًا فلا جهاد له**»[1].

٦- ومنها: دفع الغش والضرر عن المسلمين قدر الإمكان: قيل: «إن أبا عبد الله الخياط كان يجلس في حانوته، وكان له حريف[2] مجوسي يعامله في الخياطة، فكان إذا خاط له شيئًا حمل إليه المجوسي دراهم زائفة، فكان أبو عبد الله يأخذها منه، ولا يخبره بذلك، ولا يردها إليه، فحدث يومًا أن أبا عبد الله ترك الحانوت وقام لبعض حاجته، فأتى المجوسي فلم يجده، فدفع إلى غلامه الأجرة، وأخذ ما قد خيط له، وكانت الأجرة درهمًا زائفًا، فلما نظر إليه الغلام عرف أنه زائف فردَّه إليه. فلما عاد أبو عبد الله أخبره الغلام بما حدث. فقال أبو عبد الله: بئس ما فعلت، إنَّ هذا المجوسي يعاملني بهذه المعاملة منذ سنة، وأنا أصبر عليه، وآخذ الدراهم منه، وألقيها في البئر، لئلا يغش بها مسلمًا آخر»[3].

٧- ومنها: الاهتمام بأمور المسلمين، والإحساس بقضاياهم، والتألم لآلامهم، ومعرفة أخبارهم. قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، يألم المؤمن لأهل الإيمان، كما يألم الجسد لما في الرأس**»[4].

ويقول ﷺ: «**المؤمنون كرجل واحد، إن اشتكى رأسه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر**»[5].

٨- ومنها : إفشاء السلام: فإن إفشاء السلام يولد المحبة، ويُدخل الجنة، وما أجمل قوله ﷺ: «**لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أو لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم**»[6]. وهذا الإفشاء يتعلق بأهل

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود، وانظر «صحيح الجامع» رقم (٦٣٧٨).

(٢) فلان حَرِيفي: أي: معاملي.

(٣) «روح الإسلام» لمحمد عطية الإبراشي (صـ ١٠٠).

(٤) أخرجه أحمد عن سهل بن سعد بسند حسن.

(٥) أخرجه أحمد ومسلم.

(٦) أخرجه مسلم رقم (٥٤).

بيت المسلم وأقاربه من باب أولى كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور: ٦١].

٩- ومنها: السعي في مصالح الناس وقضاء حاجاتهم، وكشف كرباتهم، وقضاء ديونهم. يقول سيد الخلق ﷺ: «من حفر ماءاً لم تشرب منه كبد حَرى من جن ولا إنس ولا طائر إلا آجره الله يوم القيامة»[1].

وقضى ابن شبرمة حاجة لبعض إخوانه كبيرة فجاء بهدية فقال: ما هذا، قال: لما أسديته إليَّ، فقال: خذ مالك عافاك الله، إذا سألت أخاك حاجة فلم يُجهد نفسه في قضائها فتوضأ للصلاة وكبِّر عليه أربع تكبيرات، وعُدّه في الموتى.

وروي أن مسروقًا أدان دينًا ثقيلاً، وكان على أخيه في الله خيثمة دين، فذهب مسروق فقضى دين خيثمة وهو لا يعلم، وذهب خيثمة فقضى دين مسروق وهو لا يعلم.

١٠- ومما يصفي لك ود أخيك: تسلم عليه إذا لقيته، وتوسع له في المجلس، وتدعوه بأحب أسمائه إليه، وتقبل عليه إذا تحدث.

* * *

* إرسال السلام:

ومما يجلب الحب والإخاء بين المسلمين، إرسال السلام، كأن يقول: أبلغوا أخي السلام، أو أقرئه السلام. عن البختري قال: «جاء الأشعث بن قيس، وجرير بن عبد الله البجلي إلى سلمان الفارسي رضي الله عنه فدخلا عليه في حصن في ناحية المدائن، فأتياه فسلما عليه وحيياه، ثم قالا: لعله ليس الذي نريد، قال لهما: أنا صاحبكما الذي تريدان، إني قد رأيت رسول الله ﷺ وجالسته، فإنما صاحبه من دخل معه الجنة، فما حاجتكما؟ قالا: جئناك من عند أخ لك بالشام، فقال: من هو؟ قالا: أبو الدرداء، قال: فأين هديته التي أرسل بها معكما؟ قالا: ما أرسل معنا هدية. قال: اتقيا الله، وأديا الأمانة، ما جاءني

---

(١) حسن: أخرجه البخاري في «تاريخه»، وابن خزيمة في «صحيحه».

أحد من عنده إلا جاء معه بهدية، قالا: لا يرفع علينا هذا، إنَّ لنا أموالاً فاحتكم فيها[(١)] ، قال: ما أريد أموالكما، ولكني أريد الهدية التي بعث بها معكما، قالا: والله ما بعث معنا بشيء إلا أن قال: إنَّ فيكم رجلاً كان رسول الله ﷺ إذا خلا به لم يبلغ به أحدًا غيره، فإذا أتيتماه فأقرئاه مني السلام، قال: فأي هدية كنت أريد منكما غير هذه، وأي هدية أفضل من السلام تحية من عند الله مباركة طيبة»[(٢)] .

ومع السلام يندب المصافحة عند اللقاء لأنها تَحُتُّ الذنوب، وتُذهب الأحقاد، وتؤلف بين القلوب. يقول النبي ﷺ: **«ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يفترقا»**[(٣)].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله، الرجل منا يلقى أخاه أو صديقه أينحني له؟ قال: **«لا»**، قال: فليتزمه ويقبله؟ قال: **«لا»** قال: فيأخذه بيده ويصافحه؟ قال: **«نعم»**[(٤)] .

١٠- ومنها: أن لا يحتجب عن إخوانه ولا يحجبهم عن نفسه.

لا تتركني بباب الدار مطروحًا ... فالحر ليس عن الإخوان يحتجبُ
هبني أتيت بلا معنى ولا سبب ... ألست أنت إلى معروفك السببُ

* * *

قل من يحجبني أيها ... الحاجب عني
هذا منك فإن عُدت ... الباب فمني

١١- ومنها: إعانة رفقاء السفر وخدمتهم والقيام بشئونهم، فعن أبي سعيد قال: بينما نحن في سفر إذ جاء رجل على راحلة له فجعل يصرف بصره يمينًا وشمالاً فقال ﷺ: **«من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له**

---

(١) احتكم فيها: خذ منها ما شئت.

(٢) أخرجه الطبراني (٦/ ٢١٩)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٤٠): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير يحيى بن إبراهيم المسعودي وهو ثقة. وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٠١).

(٣) أخرجه أبو داود (٥٢١٢) بإسناد صحيح، وانظر «الصحيحة» (٥٢٥).

(٤) أخرجه الترمذي رقم (٢٧٢٨) وقال: حديث حسن.

فضل زاد فليَعُد به على مَن لا زاد له»[١]، فذكر من أصناف المال ما ذكره، حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل.

وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يشترط على مَن يريد أن يصحبه في السفر، أن يكون عبد الله هو الذي ينفق عليه، وأن يكون خادمًا ومؤذنًا[٢].

وقال مجاهد: صحبت ابن عمر وأنا أريد أن أخدمه، فكان هو الذي يخدمني[٣].

١٣- ومنها: الفرح بحسن حال المسلمين: فالمسلم يود أن يكون المسلمون أجمعون في خير حال. عن ابن بريدة الأسلمي قال: «شتم رجل ابن عباس رضي الله عنهما فقال ابن عباس: إنك لتشتمني، وإنَّ فيَّ ثلاث خصال: إني لآتي على الآية في كتاب الله، فلوددت أن جميع الناس يعلمون منها ما أعلم منها، وإني لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يعدل في حكمه، فأفرح به، ولعلي لا أقاضي إليه أبدًا، وإني لأسمع بالغيث قد أصاب البلد من بلاد المسلمين فأفرح وما لي به من سائمة»[٤].

١٤- ومنها زيارة الإخوان: ومما يبعث على الحب والإخاء زيارة الإخوة سيما عند المرض، يقول ﷺ: **«من عاد مريضًا أو زار أخًا له في الله، ناداه مناد بأن طبت وطاب ممشاك، وتبوأت من الجنة منزلاً»**[٥].

١٥- ومنها: عيادة المرضى: جاء في الحديث عنه ﷺ: **«إن المسلم إذا عاد أخاه المسلم لم يزل في خرفة الجنة»**، قيل: يا رسول الله، وما خرفة الجنة؟ قال: **«جناها»**[٦].

---

(١) أخرجه مسلم رقم (١٧٢٨).

(٢) الشعراني في «تنبيه المغترين» (صـ ٨٩).

(٣) «مكارم الأخلاق» لابن أبي الدنيا (صـ ٧٨).

(٤) أخرجه الطبراني (١٠/٢٩٦) وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح. وأخرجه البيهقي كما في «الإصابة» (٢/٣٢٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/٣٢٢).

(٥) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن. وانظر «صحيح الجامع» رقم (٦٣٨٧).

(٦) أخرجه مسلم رقم (٢٥٦٨).

* **المشي في حاجة المسلم:**

١٦- ومن التودد: المشي في حاجة المسلم لقضائها، وكأنه صاحبها. عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان معتكفًا في مسجد رسول الله ﷺ، فأتاه رجل فسلَّم عليه، ثمَّ جلس، فقال له ابن عباس: يا فلان، أراك مكتئبًا حزينًا، قال: نعم. يا ابن عم رسول الله ﷺ، لفلان عليَّ حق ولاء، وحرمة صاحب هذا القبر ما أقدر عليه. قال ابن عباس: أفلا أكلمه فيك؟ فقال: إن أحببت قال: فانتعل ابن عباس ثمَّ خرج من المسجد، فقال له الرجل: أنسيت ما كنت فيه؟ قال: لا، ولكني سمعت صاحب هذا القبر ﷺ والعهد به قريب، فدمعت عيناه وهو يقول: **«من مشى في حاجة أخيه وبلَّغ فيها كان خيرًا له من اعتكاف عشر سنين، ومن اعتكف يومًا ابتغاء وجه الله تعالى جعل الله بينه وبين النار ثلاثة خنادق، أبعد مما بين الخافقين**[١]**»**[٢].

١٧- ومنها: عدم تضييع المسلم، وذلك بالحفاظ عليه من الأعداء، والقتال من أجل حمايته وإخراجه من الأسر. عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه سئل إذا حاصرتم المدينة كيف تصنعون؟ قال: نبعث الرجل إلى المدينة ونصنع له هنة[٣] من جلود قال: أرأيت إن رمي بحجر؟ قال: إذًا يقتل؟ قال: فلا تفعلوا، فوالذي نفسي بيده، ما يسرني أن تفتتحوا مدينة فيها أربعة آلاف مقاتل بتضييع رجل مسلم[٤].

١٨- ومنها: استنقاذ المسلم من أيدي الكفار. عن عمر رضي الله عنه قال: «لأن أستنقذ رجلاً من المسلمين من أيدي الكفار، أحب إليَّ من جزيرة العرب»[٥].

---

(١) الخافقين: قيل: إنهما المشرق والمغرب، وقيل: هما طرفا السماء والأرض.

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب رقم (٣٩٦٥)، والحاكم وقال: صحيح الإسناد. وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٩٢): رواه الطبراني في الأوسط وإسناده جيد.

(٣) هنة: قطعًا متفرقة.

(٤) أخرجه البيهقي (٩/ ٤٢) كما في «الكنز» (٣/ ١٦٥).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة كما في «كنز العمال» (٢/ ٣١٢).

وسمع الحجاج بامرأة مسلم أسيرة في بلاد الهند تصرخ وتنادي واحجاجاه، فدفع سبعة آلاف درهم وأخرجها من الأسر.

١٩- ومنها: استرضاء المسلم وتطييب خاطره، فالمسلم الودود يسترضي إخوانه. عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «كنت جالسًا عند النبي ﷺ إذ أقبل أبو بكر رضي الله عنه آخذًا بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبتيه، فقال النبي ﷺ: **«أما صاحبكم فقد غامر**[١] **فسلم»**، فقال: إني كان بيني وبين ابن الخطاب شيء، فأسرعت إليه ثمَّ ندمت، فسألته أن يغفر لي، فأبى عليَّ، فأقبلت إليك، فقال: يغفر الله لك يا أبا بكر- ثلاثًا- ثم إن عمر ندم فأتى منزل أبي بكر فقال: أثَمَّ أبو بكر؟ قالوا: لا، فأتى إلى النبي ﷺ فجعل وجه النبي ﷺ يتمعَّر[٢] حتى أشفق أبو بكر فجثا على ركبتيه، فقال: يا رسول الله، والله أنا كنت أظلم مرتين، فقال رسول الله ﷺ: **«إن الله أرسلني إليكم فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟»** مرتين، فما أوذي بعدها[٣].

ندرك من هذا المشهد: شدة خوف أبي بكر ومسارعته إلى الاعتراف بالذنب والتوبة منه، والندم على التقصير في حق أخيه عمر رضي الله عنهما.

٢٠- ومنها: عدم إغضاب المسلم: فمن الحقوق المهمة التي كان يرعاها السلف الكرام مع إخوانهم وفيما بينهم: عدم إغضاب أحدهم. فعن عائذ بن عمرو أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال رضي الله عنهم في نفر، فقالوا: «والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها. قال: فقال أبو بكر رضي الله عنه: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟ فأتى النبي ﷺ فأخبره فقال: **«يا أبا بكر لعلك أغضبتهم؟ لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك»**، فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخوتاه أغضبتكم؟ قالوا: لا، يغفر الله لك يا أخي»[٤].

---

(١) غامر: أي: خاصم.

(٢) يتمعَّر: يتغير.

(٣) أخرجه البخاري رقم (٣٦٦١).

(٤) أخرجه مسلم رقم (٢٥٠٤)، وقال الإمام النووي: وهذا الإتيان لأبي سفيان كان وهو كافر في الهدنة بعد صلح الحديبية، وقولهم: لا، يغفر الله لك يا أخي، فقد نقل عن القاضي عياض أنه=

٢١- ومن التودد: عدم الرجوع في الهدية: فإذا أهدى المسلم لأخيه هدية فلا يحل أن يرجع فيها. يقول النبي ﷺ: «**الذي يرجع في هبته كالكلب يرجع في قيئه**»(١).

* * *

الذل من الأعداء فداءً لإخوانه في الله:

٢٢- ومن التودد أن يذل المرء نفسه فداءً لإخوانه في الله. عن أبي رافع قال: «وجَّه عمر بن الخطاب رضي الله عنه جيشًا إلى الروم، وفيهم رجل يقال له: عبد الله بن حذافة من أصحاب رسول الله ﷺ، فأسره الروم، فذهبوا به إلى ملكهم، فقالوا له: إنَّ هذا من أصحاب محمد، فقال له الطاغية: هل لك أن تَنصَّر وأشركك في ملكي وسلطاني؟ فقال له عبد الله: لو أعطيتني ما تملك وجميع ما ملكته العرب على أن أرجع عن دين محمد ﷺ طرفة عين ما فعلت، قال: إذًا أقتلك. قال: أنت وذاك، فأمر به فصلب، وقال للرماة: ارموه قريبًا من يديه، قريبًا من رجليه، وهو يعرض عليه وهو يأبى، ثم أمر به فأنزل، ثمَّ دعا بقدر فصبَّ فيها حتى احترقت، ثم دعا بأسيرين من المسلمين، فأمر بأحدهما فألقي فيها وهو يعرض عليه النصرانية وهو يأبى، ثمَّ أمر به أن يلقى فيها، فلما ذهب به بكى، فقيل له: إنه قد بكى، فظن أنه جزع، فقال: ردوه، فعرض عليه النصرانية، فأبى، فقال: ما أبكاك إذًا؟ قال: أبكاني أني قلت في نفسي: تلقى الساعة في هذه القدر فتذهب، فكنت أشتهي أن يكون بعدد كل شعرة في جسدي نفس تلقى في الله، قال له الطاغية: هل لك أن تقبِّل رأسي وأخلي عنك؟ قال له عبد الله: وعن جميع أسارى المسلمين؟. قال: وعن جميع أسارى المسلمين. قال عبد الله: فقلت في نفسي: عدو من أعداء الله، أقبل رأسه يخلي عني وعن أسارى المسلمين، لا أبالي، فدنا منه فقبَّل رأسه، فدفع إليه الأسارى، فقدم بهم

= قال: قد روي عن أبي بكر أنه نهى عن مثل هذه الصيغة، وقال: قل: عافاك الله رحمك الله لا تزد، أي: لا تقل قبل الدعاء: لا، فتصير صورته صورة نفي الدعاء، وقال بعضهم: قل: لا، ويغفر لك الله.

(١) أخرجه البخاري رقم (٢٥٨٩).

على عمر رضي الله عنه، فأخبر عمر بخبره، فقال عمر: حق على كل مسلم أن يقبِّل رأس عبد الله بن حذافة، وأنا أبدأ، فقام عمر فقبَّل رأسه»(١).

٢٣- ومنها: أن يكون صادق الوعد وفيًّا بالعهد الذي قطعه على نفسه، ولا يخلف وعده فيغضب إخوانه. يقول الثوري: لا تعد أخاك موعدًا فتخلفه، فتستبدل المودة بغضًا. ولله درُّ القائل:

يا واعد الوعد الذي أخلفا ... ما الخلف من سيرة أهل الوفا
ما كان ما أظهرت من وُدِّنا ... إلا سراجًا لاح ثمَّ انطفا(٢)

٢٤- ومن التودد: إعطاء الطريق حقه، فيرد الجالس السلام، ويغض البصر، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويكف الأذى. قال رسول الله ﷺ: **«لقد رأيت رجلاً يتقلب في الجنة، في شجرة قطعها من ظهر الطريق، كانت تؤذي الناس»**(٣).

وعن معاوية بن قرة قال: كنت مع معقل المزني رضي الله عنه فأماط أذى عن الطريق، فرأيت شيئًا فبادرته، فقال: ما حملك على ما صنعت يا ابن أخي؟ قال: رأيتك تصنع شيئًا فصنعته، قال: أحسنت يا ابن أخي، سمعت النبي ﷺ يقول: **«من أماط أذى عن طريق المسلمين كُتب له حسنة، ومن تقبِّلت منه حسنة دخل الجنة»**(٤).

ومن باب أولى فإنه يجب على المؤمن أن يحذر أن يتغوط في طريق الناس أو ظلهم أو مجامعهم، أو مواضع أكلهم وراحتهم، يقول النبي ﷺ: **«اتقوا اللاعنين»** قالوا: وما اللاعنان؟ قال: **«الذي يتخلى في طريق الناس أو ظلهم»**(٥).

* * *

---

(١) أخرجه البيهقي وابن عساكر كذا في «كنز العمال» (٧/ ٦٢)، وقال في «الإصابة» (٢/ ٤٩٧): وأخرج ابن عساكر لهذه القصة شاهدًا من حديث ابن عباس رضي الله عنهما موصولاً.

(٢) «آداب الصحبة» لأبي عبد الرحمن السلمي (صـ٥٤). ن- دار الصحابة طنطا.

(٣) أخرجه مسلم عن أبي هريرة.

(٤) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» رقم (٥٩٣)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» رقم (٢٣٠٥).

(٥) أخرجه مسلم رقم (٢٦٩).

* **حقوق الآخرين:**

٢٥- ومما يبعث على التودد، ويزرع الألفة، وينجب المحبة، إعطاء كل ذي حقٍّ حقه، فإن أقل الود أن يعطى المسلم حقه الواجب، والحقوق التي أوجبها الشرع على المسلم نحو المخلوقات.

حقوق المسلم على المسلم، وحقوق الآباء على الأبناء، وحقوق الأبناء على الآباء، وحقوق الزوجة على زوجها، وحقوق الزوج على زوجته، وحقوق غير المسلم، وحقوق الجار، وحقوق الحيوان، وحقوق المسكين، وغيرها.

حقوق المسلم على المسلم: وحقوق المسلم على أخيه المسلم كثيرة أجملنا كثيراً منها في عرض أخلاق المؤمن لكننا نذكرها هنا ببعض تفصيل:

يقول صاحب الخلق العظيم ﷺ: **«حق المسلم على المسلم ست: أن تسلم عليه إذا لقيته، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتبعه»**[١] .

هذا الحديث النبوي ذكر ست حقوق من حقوق المسلم على أخيه هي:

١- إلقاء السلام عليه عند اللقاء، ورد السلام أحق من إلقائه.

٢- إجابة دعوته إلى الطعام.

٣- نصحه بإخلاص إذا طلب النصيحة.

٤- تشميته بقول: يرحمك الله، إذا عطس فحمد الله.

٥- عيادته إذا مرض.

٦- اتباع جنازته إذا مات.

وهناك حقوق أخرى غير ما سبق:

٧- وتحفظه بظهر الغيب إذا غاب عنك.

٨- وتحب له ما تحب لنفسك وتكره له ما تكره لنفسك.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري رقم (١٢٣٩)، ومسلم رقم (٢٠٦٦).

كما قال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»(١) .

وجاء في الحديث: «**مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»(٢) .

٩- تسلمه من أذى لسانك ويدك: يقول الرسول ﷺ: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**»(٣) .

وانظر إلى ما رآه رسول الله ﷺ حيث يقول: «**لقد رأيت رجلاً يتقلب في الجنة في شجرة قطعها عن ظهر الطريق كانت تؤذي المسلمين**»(٤) .

١٠- أن يتواضع لكل مسلم ولا يتكبر عليه ولا يسخر منه كما ثبت في الحديث الصحيح: «**إن الله تعالى أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد**»(٥) .

١١- لا يسمع بلاغات الناس بعضهم على بعض، ولا يبلغ بعضهم ما يسمع من بعض إن كان على وجه الإضرار، يقول النبي ﷺ: «**لا يدخل الجنة قتات**»(٦)، أي: نمام.

١٢- أن لا يزيد في الهجر لمن يعرفه على ثلاثة أيام مهما غضب عليه، قال رسول الله ﷺ: «**لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام**»(٧) .

١٣- أن يقبل معذرة من اعتذر وطلب العفو والصفح، قال سيد الخلق ﷺ: «**من أقال مسلمًا عثرته أقاله الله يوم القيامة**»(٨) .

١٤- ومنها: ألا يظهر الشماتة بأخيه، كما في الحديث: «**لا تظهر الشماتة بأخيك، فيعافيك الله ويبتليك**»(٩)

(١ - ٥) أحاديث صحيحة تقدم تخريجها.

(٦) أخرجه البخاري رقم (٦٠٥٦)، ومسلم رقم (١٠٥).

(٧) أخرجه البخاري رقم (٦٠٧٧)، ومسلم رقم (٢٥٦٠).

(٨) حسن.

(٩) رواه الترمذي.

١٥- أن يتقي مواضع التهم؛ صيانة لقلوب المسلمين. فقد جاء في الحديث الثابت أن صفية أم المؤمنين رضي الله عنها جاءت إلى النبي ﷺ لتزوره وهو معتكف، فرجع معها ليوصلها، فمر بهما صحابيان من الأنصار فأسرعا، فقال: **«على رسلكما، إنها صفية زوجي»**، فقالا: وهل نشك فيك يا رسول الله؟ قال: **«إنَّ الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق فخشيت أن يقذف في قلوبكما شيئًا»** وفي رواية: **«شرًّا»**(١).

١٦- أن يشفع لكل من له حاجة من المسلمين ويسعى في قضاء حاجته. ففي قصة بريرة وزوجها، قال لها النبي ﷺ: «لو راجعته؟»، قالت: يا رسول الله تأمرني؟ قال: «إنما أشفع» قالت: لا حاجة لي فيه(٢)، وكان النبي ﷺ إذا أتاه طالب حاجة أقبل على جلسائه فقال: **«اشفعوا تؤجروا وليقض الله على لسان نبيه ما شاء»**(٣).

١٧- أن يصون عرض أخيه المسلم ونفسه وماله عن ظلم غيره، ويدفع عنه بالغيب عملاً بقول النبي ﷺ: **«من رد عن عرض أخيه، كان له حجابًا من النار»**(٤).

١٨- ستر عيبه وعدم تتبع عثرته والتماس الأعذار له: يقول صلوات الله وسلامه عليه: **«يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو كان في جوف بيته»**(٥).

فمن ستر عورة مسلم ستر الله عورته. يقول الصادق المصدوق ﷺ: **«من ستر على مسلم ستره الله تعالى في الدنيا والآخرة»**(٦).

وقال: **«لا يستر عبد عبدًا إلا ستره الله يوم القيامة»**(٧).

---

(١) أخرجه الشيخان.

(٢) أخرجه البخاري رقم (٥٢٨٣).

(٣) أخرجه البخاري رقم (٦٠٢٧)، ومسلم رقم (٢٦٢٧).

(٤) صحيح: أخرجه البيهقي عن أبي الدرداء، وانظر «صحيح الجامع» رقم (٦٢٦٣).

(٥) صحيح: أخرجه أحمد وأهل السنن، وانظر «صحيح الجامع» رقم (٧٩٨٤).

(٦) أخرجه الشيخان. (٧) أخرجه مسلم.

١٩- من حق المسلم عدم ترويعه أو تخويفه بأي لون من ألوان الترويع ولو كان الترويع على وجه اللعب. قال رسول الله ﷺ: **«لا يشير أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزع في يده، فيقع في حفرة من النار»**(١).

وقال ﷺ: **«من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه حتى ينتهي، وإن كان أخاه لأبيه وأمه»**(٢).

٢٠- ومنها: إبرار القسم، فإذا أقسم عليه أخوه بر قسمه، وأطاع حلفه. يقول الحبيب ﷺ: **«من حلف لكم بالله فصدقوه»**(٣).

٢١- ومنها: اجتناب غشه أو ظلمه أو أخذ ماله أو سرقة متاعه، وإذا كان هذا مع غير المسلم ومع الحيوان حرام، فإنه مع المسلم أشد إثمًا وأعظم جرمًا.

يقول الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه: **«من أكل برجل مسلم أكلة، فإن الله يطعمه مثلها في جهنم، ومن اكتسى برجل مسلم ثوبًا، فإنَّ الله يكسوه مثله من جهنم، ومن قام برجل مسلم مقام سمعة ورياء، فإنَّ الله يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة»**(٤).

٢٢- ومنها: الوفاء بالعهد وصدق الوعد.

٢٣- ومنها: الاستئذان إذا جاء إلى بيت أخيه.

فقد أمرنا الله تعالى بذلك فقال: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾** [النور: ٢٧].

وقال النبي ﷺ: **«الاستئذان ثلاث، فإن أُذِنَ لك وإلا فارجع»**(٥).

٢٤- ومنها: أن يكون مع كافة الخلق مستبشرًا طَلِق الوجه رفيقًا باذلاً للمعروف.

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٢٠٧٢)، ومسلم رقم (٢٦١٧).

(٢) أخرجه مسلم رقم (٢٦١٦).

(٣) صحيح.

(٤) صحيح: أخرجه أحمد وأبو داود والحاكم، وانظر «صحيح الجامع» رقم (٦٠٨٣).

(٥) أخرجه البخاري رقم (٦٢٤٥)، ومسلم رقم (٢١٥٣).

يقول رسول الله ﷺ: **«لا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق»**(١).

٢٥- ومنها: عدم الخطبة على خطبة أخيه، كما جاء في الحديث النبوي: **«المؤمن أخو المؤمن، فلا يحل لمؤمن أن يبتاع على بيع أخيه، ولا يخطب على خطبة أخيه حتى يذر»**(٢).

٢٦- ومنها: ألا يتناجى اثنان وهو ثالثهما: كما في الحديث النبوي الصحيح: **«إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس، من أجل أن ذلك يحزنه»**(٣).

٢٧- ومنها: الإصلاح بين المسلمين: وقد أمر الله تعالى عباده بهذا فقال: **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾** [الحجرات: ١٠].

وقال: **﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾** [الأنفال: ١].

٢٨- ومنها: توقير المشايخ (كبار السن) والعلماء والصالحين والأمراء العاملون والزعماء المقسطون.

٢٩- ومنها: أن يزيد في توقير من تدل هيئته على علو منزلته وارتفاع قدره.

٣٠- ومن حق المسلم حفظه في أهله وماله إذا غاب.

يقول رسول الله ﷺ: **«المؤمن مرآة المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن، يكف عليه ضيعته، ويحوطه من ورائه»**(٤).

٣١- ومنها: نصر المظلوم، كما قال النبي ﷺ: **«انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»**، قالوا: يا رسول الله، ننصره مظلومًا، فكيف ننصره ظالمًا؟ قال: **«تدفعه عن الظلم،**

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٦٢٦).

(٢) أخرجه مسلم رقم (١٤١٤).

(٣) أخرجه البخاري رقم (٦٢٩٠)، ومسلم رقم (٢١٨٤).

(٤) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» وأبو داود في سننه عن أبي هريرة.

فإن ذلك نصره»[١] .

٣٢- ومنها: الشفاعة لقضاء حاجة مسلم دون أخذ مقابل أو هدية، قال رسول الله ﷺ: «من شفع شفاعة لأحد فأهدى له هدية عليها فقبلها، فقد أتى بابًا عظيمًا من أبواب الكبائر»[٢] .

٣٣- ومنها: ألا يقيم أحدًا من مجلسه ثمَّ يجلس فيه إلا إذا أفسح له، ففي الحديث النبوي أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقيمن أحدكم رجلاً من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن توسَّعوا وتفسَّحوا»[٣] .

وكذلك يحذر التفريق بين اثنين في مجلس إلا بإذنهما . يقول سيد الأولين والآخرين ﷺ: «لا يحل لرجل أن يفرِّق بين اثنين إلا بإذنهما».

وفي رواية: «لا يجلس بين اثنين إلا بإذنهما»[٤] .

٣٤- ومنها: عدم منع فضل الماء والكلأ عن أخيه المسلم. يقول الحبيب محمد ﷺ: «من منع فضل ماء أو كلأ منعه الله فضله يوم القيامة»[٥] .

* * *

* حقوق الآباء والأرحام:

ويجب على المسلم أن يكون واصلاً لأرحامه، وأحق الأرحام بالصلة: الوالدان، فقد أمر الحق جل شأنه بهذا فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

---

(١) أخرجه الشيخان.

(٢) حسن: أخرجه أبو داود، وانظر «صحيح الجامع» رقم (٦٣١٦).

(٣) أخرجه البخاري رقم (٦٢٧٠)، ومسلم رقم (٢١٧٧).

(٤) أخرجه أبو داود رقم (٢٧٥٣)، والترمذي رقم (٢٧٥٢) وحسنه.

(٥) أخرجه أحمد عن ابن عمرو رضي الله عنهما، وانظر «صحيح الجامع» رقم (٦٥٦٠).

وبر الوالدين وصلة الأرحـام تدخلان الجنة وتباعـدان من النار. عن أبي أيوب الأنصـاري رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ جـاءه رجل فقـال: يا رسـول الله! أخبرني بـعمل يدخلني الجنة، ويباعدني من النار؟ فـقال النبي ﷺ: **«تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم»**(١) .

ومن أراد حب الله تعالى فليبرَّ والديه وليصل أرحامـه. قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: سألت النبي ﷺ: أيُّ العـمل أحب إلى الله تعالى؟ قال: **«الصلاة على وقتها»**، قلت: ثمَّ أي؟ قال: **«بر الوالدين»**، قلت: ثم أي؟ قال: **«الجهاد في سبيل الله»**(٢) .

والأجر الكبير والثواب العظيم في بـر الوالدين وصلة الأرحام، فقد أقبل رجل إلى النبي ﷺ فقـال: أبايعك على الهجرة والجـهاد أبتغي الأجـر من الله تعالى، فقال: **«هل من والديك أحد حيّ؟»** قال: نعم، بل كلاهما، قال: **«فتبتغي الأجر من الله تعالى؟»** قال: نعم، قال: **«فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما»**(٣) .

وصلة الرحـم سبب رئيسي في الصلة بين العبد وربه. يقول الله جل وعلا: **«أنا الرحمن، وهذه الـرحم شققت لهـا اسمًا من اسـمي، فمن وصلهـا وصلته، ومن قطعـها بتته»**(٤) .

وصلة الرحم معلقة بالعرش تقول: **«من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله»**(٥) .

وصلة الرحـم سبب عظيم في زيادة الرزق والبركة في العمر، يقول النبي ﷺ: **«من سره أن يمد له في عمره، ويوسع له في رزقه، فليتق الله ويصل رحمه»**(٦) .

وقال: **«من سره أن ينسأ له في أثره، ويوسع عليه في رزقه، فليصل رحمه»**(٧) ، وقد

(١) أخرجه البخاري رقم (١٣٦٩)، ومسلم رقم (١٣).
(٢) أخرجه البخاري رقم (٥٢٧)، ومسلم رقم (٨٥).
(٣) أخرجه البخاري رقم (٣٠٠٤)، ومسلم رقم (٢٥٤٩).
(٤) متفق عليه.
(٥) أخرجه البخاري رقم (٥٩٩٠)، ومسلم رقم (٢٥٥٥).
(٦) أخرجه بزيادة: «فليتق الله»، أحمد والحاكم بإسناد جيد.
(٧) متفق عليه.

قيل في معنى: «**ينسأ له في أثره**»، أي: يؤخر له في أجله وعـمره. وصلة الرحم دليل عظيم على صلاح العبد وتقواه.

قيل لـرسول الله ﷺ: أي الناس أفـضل؟ قال: «**أتقاهم لله وأوصلهم لرحـمه، وآمرهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر**»[١].

وصلة الرحم واجبـة ولو كانت الرحم كافرة: عن أسـماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، قالت: قـدمت عليَّ أمي، فقلت: يا رسول الله، إنَّ أمي قدمت عليَّ وهي مشركة، أفأصلها؟ قال: «**نعم**»[٢].

ويجب طاعة الأبوين وأداء أوامرهما ولو كـان فيه طلاق الزوجة طالما بُني على أدلة حقيقـية تستوجب أو تستحب الفراق بين ولدهمـا وزوجته، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رجلاً أتاه فقـال: إن لي امرأة وإن أمي تأمرني بطلاقهـا، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الوالد أوسط أبواب الجنة، فإن شئت فأضِع ذلك الباب أو احفظه**»[٣].

فإن كان أبوه تقيًّا عالمًا فليطع أمره في طلاق زوجـه؛ لأنه لا يظلم أحدًا، كما روى ابن عمر رضـي الله عنهما، قال: كانـت تحتي امرأة، وكنت أحبـها، وكان عمـر يكرهها، فقـال لي: طلقها، فـأبيت، فأتى عمـر رضي الله عنه رسول الله ﷺ، فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ: «**طلِّقها**»[٤].

وإن كـانت الزوجة صـالحـة، فليزد فـي بر والديه بالهـدايا، وكثـرة الزيارة، واللجوء إلى الله أن يؤلف بينهم، ولا يطلق زوجته.

وأفضل الصـدقة مـا كانت على ذي رحم، ولو كـان قاطعًا مـضمـرًا للعداوة بباطنه. قال ﷺ: «**الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم صدقة وصلة**»[٥].

---

(١) أخرجه أحمد والطبراني بإسناد حسن كما قال العراقي.

(٢) أخرجه البخاري.

(٣) أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح. وانظر «صحيح الجامع» رقم (٧١٤٥).

(٤) أخرجه الترمذي رقم (١١٨٩)، وقال: حسن صحيح. وأخرجه أبو داود رقم (٥١٣٨).

(٥) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن.

ولما أراد أبو طلحة أن يتصدق بحائط كان له يعجبه عملاً بقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، قال: يا رسول الله، هو في سبيل الله وللفقراء والمساكين، فقال ﷺ: «**وجب أجرك على الله قسمه في أقاربك**»، فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه(١).

وعن أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها أنها أعتقت وليدة ولم تستأذن النبي ﷺ فلما كان يومها الذي يدور عليها فيه، قالت: أشعرت يا رسول الله! أني أعتقت وليدتي؟ قال: «**أوَ فعلت؟**» قلت: نعم، قال: «**أما إنك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك**»(٢).

وسأل رجل رسول الله ﷺ عن الصدقات أيها أفضل؟ قال: «**على ذي الرحم الكاشح**»(٣). أي: القاطع المضمر العداوة.

وهذه الصلة تكون للأقرب فالأقرب، فكلما كان المرء أشد قرابة كانت الصلة في حقه أوجب وأكثر وأعظم، قال رسول الله ﷺ: «**برَّ أمك وأباك وأختك وأخاك وأدناك ثم أدناك**»(٤). وللخالة مكان كبير في الصلة والبر، كما قال النبي ﷺ: «**الخالة بمنزلة الأم**»(٥).

وصلة الرحم واجبة وإن قصروا في حق الواصل، وأساءوا إليه وقطعوه.

يقول عليه الصلاة والسلام: «**ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمُهُ وصلها**»(٦).

وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إنَّ لي قرابة أصلهم ويقطعونني، وأحسن إليهم ويسيئون إليَّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليَّ، فقال: «**لئن كنت كما قلت،**

---

(١) أخرجه البخاري رقم (١٤٦١)، ومسلم رقم (٩٩٨).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٢٥٩٢)، ومسلم رقم (٩٩٩).

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير»، وابن خزيمة والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، قال المنذري: رجاله رجال الصحيح.

(٤) أخرجه النسائي، ورواه البخاري رقم (٥٩٧١) بلفظ آخر.

(٥) أخرجه الترمذي رقم (١٩٠٤) وقال: حسن صحيح.

(٦) أخرجه البخاري رقم (٥٩٩١).

فكأنما تُسِفُّهم المل[١]، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك»[٢].

وقطع الرحم مفتاح من مفاتيح النار، يقول ﷺ: «رغم أنف، ثم رغم أنف، ثم رغم أنف من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كلاهما، فلم يدخل الجنة»[٣].

يقول ﷺ: «لا يدخل الجنة قاطع»[٤] أي: قاطع رحم.

وقطع الرحم يوجب لعنة الله وغضبه وانتقامه، قال جل ذكره: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

ويقول رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذاك» ثم قال رسول الله ﷺ: اقرءوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣][٥].

ألوان البر: وللبر أشكال كثيرة يجمعها:

١- عدم أذيتهم بأي لون من ألوان الإيذاء باللسان أو بالجوارح أو بالقلب.

٢- الزيارة والصلة والسؤال وإرسال السلام، وتعزيتهم إن أصابهم مكروه وعيادة مرضاهم واتباع جنائزهم والتحبب إليهم بالهدايا والصلات.

٣- ولا يخرج في جهاد النوافل إلا بإذن والديه.

---

(١) المَلّ: الرماد الحار، أي: كأنما تطعمهم الرماد الحار، وهو تشبيه لما يلحقهم.

(٢) أخرجه البخاري رقم (٥٩٩١).

(٣) أخرجه مسلم رقم (٢٥٥١).

(٤) أخرجه البخاري رقم (٥٩٨٤)، ومسلم رقم (٢٥٥٦).

(٥) أخرجه البخاري رقم (٥٩٨٧)، ومسلم رقم (٢٥٥٤).

٤- الإنفاق على معسرهم ومساعدة محتاجهم وإعانة ضعيفهم.

٥- طاعتهم في غير معصية الله.

٦- إجابة ندائهم ولو كان فيه فسخ لصلاة النافلة.

٧- بر أصدقاء الأب والأم والأقارب والزوجة بعد موته. يقول عليه الصلاة والسلام: «**إن أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه**»(١).

٨- الاستغفار لهم بعد موتهم والتصدق عليهم وإنفاذ وصاياهم وقضاء ديونهم.

حق الجار:

ومن التودد: إكرام الجار والإحسان إليه واحتمال الأذى منه وكف الأذى عنه، يقول أكرم الخلق ﷺ: «**ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيُورثه**»(٢).

وجملة حق الجار: أن يبدأه بالسلام، ولا يطيل معه الكلام، ولا يكثر عن حاله السؤال، ويعوده في المرض، ويعزيه في المصيبة، ويقوم معه في العزاء، ويهنئه في الفرح، ويُظهر الشركة في السرور معه، ويصفح عن زلاته، ولا يتطلع من بيته إلى عوراته، ولا يضايقه بوضع القاذورات أو المهملات فوق بيته أو أمام بابه.

ولا يتبعه النظر فيما يحمله إلى داره، ويستر ما ينكشف له من عوراته، وينعشه من صرعته إذا نابته نائبة، ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته، ولا يسمع عليه كلامًا، ويغض بصره عن حرمته، ويتلطف بولده في كلمته، ويرشده إلى ما يجهله من أمر دينه ودنياه، هذا إلى جملة الحقوق التي ذكرناها لعامة المسلمين(٣).

حقوق الزوجين:

ومن التودد: المعاشرة بين الزوجين بالمعروف، والمعاملة بالإحسان، وكف الأذى، ودوام الخير، واستمرار العطاء دون توقف، والزوجة التي تريد الجنة

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٥٥٢).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٦٠١٤)، ومسلم رقم (٢٦٢٤).

(٣) «الإحياء» (٢/ ٢٣٣) بتصرف.

مطالبة بذلك، يقول النبي ﷺ: «**ألا أخبركم بنسائكم في الجنة: الودود، الولود، العؤود**[١] **التي إذا ظُلِمت قالت: هذه يدي في يدك، لن أذوق غمضًا حتى ترضى**»[٢] .

والزوج من باب أولى مأمور بذلك، يقول الرسول ﷺ عندما سئل ما حق زوجة أحدنا عليه: «**أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تُقبح، ولا تهجر إلا في البيت**»[٣] .

* * *

(١) أي: عوّادة بالخير.

(٢) حسن: أخرجه الطبراني والروياني، وانظر «صحيح الجامع».

(٣) حديث حسن: أخرجه أبو داود، وانظر«صحيح أبي داود» رقم (٢١٤٢).

(٣٠) التماس الأعذار

لا أحد يعلم الغيب فيطلع على خفايا النفوس ويدرك حقيقة الأمور التي تغيب عنه، ولم ينكشف لمخلوق الأسرار حتى يتيقن منها كما هي في صورتها الحقيقية؛ لذا تعيَّن على كل منَّا ألا يصدر حكمًا أو يقول قولاً في أمر غائب حتى يعلم به ويُثْبِته.

وقد قيل: التمس لأخيك ولو سبعين عذرًا، فإن لم تجد له عذرًا فابحث له عن عذر. قال عبد الله بن منازل: المؤمن يطلب عذر إخوانه، والمنافق يتبع عثراتهم، وإذا كان المؤمن قد التمس عذرًا أو أعذارًا لمن ظاهره التقصير، فمن باب أولى عليه أن يقبل اعتذار من اعتذر إليه. يقول رسول الله ﷺ: **«من أقال عثرة مسلم أقال الله عثرته»**[(١)] .

وصدق القائل:

قيل لي قد أساء إليك فلان ... ومقام الفتى على الذل عارُ
قلت: قد جاءنا فأحدث عذرًا ... دِيةُ الذنب الاعتذارُ

* * *

اقبل معاذير من يأتيك معتذرًا ... إنْ برَّ عندك فيما قال أو فَجرا
فقد أطاعك من أرضاك ظاهره ... وقد أجلك من يعصيك مستترا

فالمؤمن يقبل الاعتذار، ويلتمس الأعذار، ويُقيل العَثَرة، ويقبل المعذرة، ويعفو عن المسيء. وقد ورد أنه ﷺ قال: **«من اعتذر إلى أخيه المسلم، فلم يقبل منه كان عليه مثل خطيئة صاحب مكس[(٢)]»**[(٣)] .

---

(١) حديث حسن: تقدم.

(٢) المكَّاس: الذي يأخذ أموال الناس ظلمًا، وكذا جامع الضرائب ظلمًا.

(٣) قال المنذري (٤/ ٣): رواه أبو داود في المراسيل، وابن ماجه بإسنادين جيدين.

وقال ﷺ: «من أقال مسلمًا أقال الله تعالى عثرته»(١).

وقد يكون عند العبد من الدلائل والقرائن في وجـهه وثيابه وحركاته ما يُرجِّح التمـاس العذر له. ثمَّ إن الإنسان على وجـه العموم لا يَسْلم له فـعل أو قول من خطأ، أو نسيان، أو إكـراه من غيره؛ من أجل ذلك فقـد تجاوز الله تعالى عن أي عمل تلحقه هذه الأعذار.

يقول النبي ﷺ: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»(٢).

ويقول ﷺ: «إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»(٣).

ومن نسي في عبادته ففعل ما ينقضها فلا إثم عليه، يقول النبي ﷺ: «إذا نسي أحدكم، فأكل أو شرب، فليتم صومه، فإنما أطعمه الله وسقاه»(٤).

الله جل شأنه يلتمس الأعذار:

والله تعالى علام الغـيوب المطلع على السرائر يعلمنا التماس الأعـذار كما فعل مع هذا العبدِ المسرف على نفسه.

يقول النبي ﷺ: «إن رجـلاً حضـره الموت لما أيس من الحيـاة، أوصى أهله إذا مت فاجـمعـوا لي حطبًا كـثيـرًا، ثمَّ أوروا نارًا، حتى إذا أكلت لحـمي وخلصت إلى عظمي، فخـذوها فاطحنوها، فـذروني في يوم حار أو راحٍ، فجـمعه الله، فـقال: لِمَ فـعلت؟ قال: خشيتك فـغُفِرَ له»، وفي رواية: «ثم أذروا نصفه فـي البر ونصفه في البَـحر، فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبنه عذابًا لا يعذبنه أحدًا من العالمين»(٥).

وهذا رجل آخر يعرض عليه رب العالمين أن يذكر عذرًا لما فعل من ذنوب وآثام فيقر العبد أنه لا عذر له فيما صنع، بل اقترف المعاصي مُصرًّا مقرًّا متعمدًا، يقول

---

(١) أخرجه أبو داود وابن ماجه والحاكم وابن حبان، وانظر «صحيح الجامع» رقم (٦٠٧١).

(٢) أخرجه الطبراني وصححه الألباني في «الإرواء» رقم (٨٢) بلفظ «وُضِع».

(٣) أخرجه ابن ماجه وأحمد والطبراني والحاكم وابن حبان، وانظر «صحيح الجامع» رقم (١٧٣١).

(٤) أخرجه البخاري رقم (١٩٩٣)، ومسلم رقم (١١٥٥).

(٥) أخرجه البـخاري: كتاب الأنبيـاء، وكتاب الرقاق، وكتاب الخـوف، وكتاب التوحيـد، وأخرجه مسلم: كتاب التوبة.

النبي ﷺ: «**إنَّ الله يستخلص رجلاً من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مثل مد البصر، ثمَّ يقول: أتنكر من هذا شيئًا؟ أظلمك كتبتي الحافظون؛ فيقول: لا يارب، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يارب، فيقول: بلى، إنَّ لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم عليك اليوم، فيُخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، فيقول: احضر وزنك، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيُقال: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء**»(١) .

ورسولنا محمد ﷺ يلتمس الأعذار في أشد مسائل الاعتقاد خطورة، وذلك كما حدث مع حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه عندما أرسل رسالة إلى أهل مكة قبل الفتح يخبرهم ببعض ما يفعله معهم النبي ﷺ.

فعن عليّ رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال: «**انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإنَّ بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها**»، فانطلقنا تعادي بنا خيلنا(٢) حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، قلنا: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب، قلنا: لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب، قال: فأخرجت الكتاب من عِقاصها، فأخذنا الكتاب، فأتينا به رسول الله ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**يا حاطب ما هذا؟**» قال: لا تعجل عليَّ، إني كنت امرأً مُلصقًا في قريش ولم أكن من أنفَسِهم، وكان مَن معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يدًا يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفرًا، ولا ارتدادًا عن ديني ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «**إنه صدقكم**»، فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: «**إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله اطلع إلى أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»(٣) .

---

(١) حسن: أخرجه الترمذي وحسنه.

(٢) أي: تسرع من العدو.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد رقم (٣٠٠٧)، وكتاب التفسير رقم (٤٨٩٠).

وهذا سليمان عليه السلام يلتمس العذر للهدهد عندما لم يجده مع الطير وتغيب عنه موعد حضوره المحدد له، فإن جاءه بعذر مقبول وإلا عذبه أو ذبحه، يقول الله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦) قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النمل: ٢٠-٢٧].

والأعذار التي تكتنف العبد وتلتصق به من نفسه أو غيره كثيرة ومتشعبة الجوانب.

- ففي جانب الاعتقاد قد يقول المسلم ما ظاهره الشرك أو الكفر وهو يأبى الكفر ويرفض الشرك فوجب علينا أن ننتظر ونلتمس العذر حتى نتبين أمره، ومن الأعذار التي نلتمسها هنا: الجهل: كما مرَّ معنا في حديث الرجل الذي قال لأولاده: «**لئن قدر الله عليَّ ليعذبني عذابًا ما عذبه أحدًا من العالمين**»، فهذا ظاهره الكفر، لكنَّ العذر قُبل منه لجهله.

٢- التأويل: كمن يسجد عند قبر ولي، فإن قيل له: هذا كفر، قال: أنا لا أسجد سجود عبادة، وإنما أسجد سجود تحية!! ومثل هذا كثير.

٣- الشبهة، وذلك كثير في الأفكار الضالة التي تدين بها الفرق الإسلامية.

٤- الخطأ: كهذا الرجل الذي نطق بالكفر من شدة الفرح، يقول النبي ﷺ: «**لله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة، فاضطجع في ظلها، وقد أيس منها، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٦٣٠٩)، ومسلم رقم (٢٧٤٧).

٥- الإكراه: كما حدث لعمار رضي الله عنه، يقول تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦].

وفي جانب العبادة: قد يفقد المسلم أخاه المسلم في المسجد لعذر عام، كالمطر الشديد، أو عذر خاص كالمرض أو قضاء الحاجة.

أعذار التخلف عن الجماعة: وقد أجاز الشرع التخلف عن شهود صلاة الجماعة في المسجد لوجود واحد من الأعذار الآتية:

١، ٢- المطر والوحل الذي يشق معه الخروج إلى المسجد، يقول جابر: خرجنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فمطرنا، فقال: «**لِيُصلِّ من شاء منكم في رحله**»(١).

٣- البرد الشديد الذي يخرج عن الحد الذي اعتاده الناس يقول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، إن رسول الله ﷺ كان يأمر المؤذن إذا كانت ليلة ذات برد ومطر، يقول: «**صلوا في الرحال**»(٢).

٤- المرض الذي يشق معه الإتيان إلى المسجد، فإن النبي ﷺ لما مرض قال: «**مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس**»(٣).

٥- حضور الطعام لمن هو جائع، يقول ﷺ: «**إذا وضع عشاء أحدكم وأقيمت الصلاة فابدءوا بالعشاء ولا يُعجِّل حتى يفرغ منه**».

٦- مدافعة البول والغائط؛ لقوله ﷺ: «**لا صلاة بحضرة طعام، ولا وهو يدافعه الأخبثان**»(٤).

٧- العلة كالعمى والسمن الذي تصعب معه الحركة.

٨- الخوف على نفسه من عدو أو ظالم أو لص أو نحوه.

٩- ومن أكل ثومًا أو بصلاً أو ظهرت منه رائحة كريهة فلا يجوز له أن يصلي

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٦٩٨).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٦٦٦)، ومسلم رقم (٦٩٧).

(٣) أخرجه البخاري رقم (٦٦٤)، ومسلم.

(٤) أخرجه مسلم رقم (٥٦٠).

مع الجماعة، فإن تعمد ذلك ليتخلف عن الجماعة أثِمَ.

- **وفي إيتاء الزكاة:** قد يجد المرء مال الزكاة لكنه محتاج إليه لحاجته الضرورية من مسكن أو زواج.. فلا تجب عليه الزكاة.

ومنها الدين، فقد يبدو على الرجل الغنى لكنَّ عليه من الدين ما يمنعه من أداء الزكاة.

أعذار الإفطار في نهار رمضان:

وقد يرى المرء مفطرًا في نهار رمضان، فيعجل بالإنكار عليه دون أن يعلم أعذاره، نحو:

١- عدم القدرة على الصيام لضعف أو عجز.

٢- الحيض.

٣- النفاس.

٤- الحمل والرضاعة إن شق على الأم.

٥- كبر السن.

٦- السفر، فمن شق عليه الصيام في السفر فله أن يفطر.

٧- المرض الذي يشق معه الصوم أو يزيد المرض أو يؤخر البرء.

٨- أرباب الأعمال الشاقة الذين لا يمكنهم الصيام.

ولعدم الحج أعذار:

وللحج أعذار تؤدي إلى التخلف عن القيام به منها:

١- عدم القدرة المادية.

٢- الخوف على النفس.

٣- عدم أمن الطريق.

٤- المرض.

ثم بعد هذا وذاك فالحج- على الأرجح- واجب على التراخي وإن كان يندب تعجيله.

وفي أداء العبادات عامة على العبد المؤمن أن يعذر أخاه في التقيُّد بمذهب فقهي معين أو الأخذ بالأرجح من الآراء الفقهية.

وما أجمل قول القائل: فلنتفق جميعًا فيما اتفقنا عليه، وليعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه. والإنسان - أي إنسان كان- يجبر على أشياء لا يطيق لها دفعًا، ولا يستطيع لها منعًا. وذلك كالوساوس التي يلقيها الشيطان في خاطر الإنسان، وقد تشكك المسلم في عقيدته، ولا يمكن له صرفها ابتداءً لهذا فقد عفا العفو سبحانه عن هذه الواردات، وتجاوز عن مؤاخذة العبد بها، يقول النبي ﷺ: «**إنَّ الله تعالى تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به**»[١] .

وابن آدم منذ الولادة يلاحقه نقص في الإدراك والتمييز يستمر معه إلى البلوغ إن كان مستيقظًا ويلازمه حال النوم إلى نهاية عمره، وهذا مما رحم الرحمن سبحانه عبده من المحاسبة عليه. يقول سيد الخلق عليه الصلاة والسلام: «**رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يَشِب، وعن المعتوه حتى يعقل**»[٢] .

فجدير بكل مؤمن أن ينظر إلى هذه الأحوال الكائنة قبل أن يرى رأيًا أو يُصْدِر حكمًا على فرد أو جماعة أو رأي، وهذا يُيسِّر له التماس الأعذار وقبول الاعتذار والعفو عن الزلات.

* * *

(١) أخرجه الشيخان وأهل السنن الأربعة.

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم وابن خزيمة وابن حبان والدارقطني بإسناد صحيح.

(٣١) مصاحبة الصالحين

الإنسان مفطور على الأنس بالناس ومخالطتهم، وهذه الفطرة تنمو أحيانًا بين شخص وبعض أشخاص فيزداد لهم ميلاً ورغبة في مجالستهم ومصاحبتهم.

يقول رسول الله ﷺ: «**الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**[١] ، **والأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف**»[٢] .

والمؤمن إلف مألوف هين لين، لا يعتزل الناس ولا يعيش بعيدًا عنهم إلا إذا كان في مخالطتهم فتنة أو وقوع في مُحرَّم أو ترك لواجب.

يقول رسولنا وحبيبنا ﷺ: «**المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم**»[٣] .

ومن المخالطة والمجالسة تخرج الصداقة.

الكلب يتأثر بالأصدقاء: وللصداقة أو الصحبة أثر في كل كائن ومخلوق، ولو كان هذا المخلوق حيوانًا لا يعقل، ألا ترى أن كلب أهل الكهف عندما رافق الفتيان المؤمنين والشباب الصالحين تربى على أيديهم فتعود أن لا يدخل حجراتهم أو يهجم عليهم في خلواتهم كما قال الحق جل جلاله عن أهل الكهف: ﴿**وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ**﴾ [الكهف: ١٨]. وقد أثمرت مرافقة المتقين هنا ثمرة جليلة، فإن الكلب عندما أحب الشباب الأطهار ورافقهم أكرمه الله فذكره معهم في أفضل كتبه.

ومصاحبة الصالحين دواء للقلب، ونجاح في الدنيا، وفوز في الآخرة.

---

(١) فَقِهوا: أي: فهموا الطريق المستقيم.

(٢) أخرجه مسلم رقم (٢٦٣٨).

(٣) أخرجه أحمد والبخاري في «الأدب» والترمذي وابن ماجه عن ابن عمر، والحديث مذكور في «صحيح الجامع» رقم (٦٦٥١).

ولله در القائل:

دواء قلبك خمس عند قسوته فدُمْ عليها تَفُز بالخير والظَّفر
إخلاء بطن، وقرآن تدبره كذا تضرعُ باكٍ ساعة السَّحَر[١]
كذا قيامك جنح الليل أوسطه وأن تجالس أهلَ الخير والخِبَرِ

ومصادقة الكافرين والفاسقين توجب الخسارة في الدنيا والعداوة والعذاب في الآخرة، قال تعالى: ﴿**الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ**﴾ [الزخرف: ٦٧]، فالصاحبان اللذان تصاحبا على المعاصي أو الكفر يخرجان من قبرهما يلعن أحدهما الآخر، ويسب كلاهما صديقه.

وإنما يعرف دين الرجل وخلقه وصلاحه بصديقه، فالمرء على منهاج صاحبه. يقول الصادق المصدوق ﷺ: «**الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل**»[٢].

وصدق الشاعر:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارِن مُقْتَدِي

ولا ريب أن المجالسة عامل رئيسي في صناعة الناس وتحويل أفكارهم، وتغيير أخلاقهم، وتطوير عاداتهم. يقول رسول الله ﷺ: «**إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء، كحامل المسك، ونافخ الكير، فحامل المسك، إما أن يُحْذِيك**[٣]**، وإمَّا أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير إما أن يَحْرِق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحًا مُنْتِنة**»[٤].

وأكثر من هذا، فإنها تحمل الإنسان على عداوة رسوله ﷺ وأبيه من أجل صديقه، بل وتدفعه إلى الكفر وترك الإيمان. انظر: كان عقبة بن أبي معيط وأُبي ابن خلف متصافيين، حسنًا ما بينهما، فكان عقبة قد جلس إلى رسول الله ﷺ

(١) السَّحَر: السدس الأخير من الليل.
(٢) أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن. وانظر «صحيح الجامع» رقم (٣٥٤٥).
(٣) يُحْذيك: أي: يُعطيك.
(٤) أخرجه البخاري رقم (٥٥٣٤)، ومسلم رقم (٢٦٢٨).

وسمع منه فبلغ ذلك أبيًّا، فأتى عقبة فقال له: ألم يبلغني أنك جالست محمدًا وسمعت منه! وجهي من وجهك حرام أن أكلمك- واستغلظ من اليمين- إن أنت جلست إليه وسمعت منه، أو لم تأته فتتفل في وجهه، ففعل ذلك عقبة- لعنه الله- فأنزل الله تعالى فيهما: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩](١).

لهذا أمرنا صاحب الخُلق العظيم ﷺ بمصاحبة المؤمن ومصادقة الصالح، ونهانا عن مصادقة الفاسق فقال: «**لا تصاحب إلا مؤمنًا ولا يأكل طعامك إلا تقي**»(٢).

ولله درُّ القائل:

لا تصحبْ أخا الجهل ... وإياكَ وإياهُ
فكم من جاهل أردى ... حليمًا حين آخاهُ
يُقاس المرءُ بالمرءِ ... إذا ما المرء ماشاهُ
وللشيء من الشيءِ ... مقاييس وأشباهُ
وللقلب من القلب ... دليلٌ حين يلقاهُ

وقد حدثنا القرآن الكريم عن الصديق الذي كاد أن يردي صاحبه إلى النار، ولولا نعمة الله لأصبح الصديق الصالح معه في جهنم، يقول تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١) أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ [الصافات: ٥٠-٦٢].

---

(١) أخرجه ابن إسحاق كما في «سيرة ابن هشام» (١/ ٣٦١)، وابن جرير في تفسيره عن ابن عباس، وانظر «أسباب النزول» للسيوطي (صـ ٢٠٦).

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي بإسناد لا بأس به، وانظر«صحيح الجامع» رقم (٧٣٤١).

وقد قيل: إنَّ هذا الصديق الكافر هو المذكور في سورة الكهف والذي قال: ﴿لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٤-٣٦].

شروط من تختاره صاحبًا: ولعظم خطر الصديق ولكبر أثره على خليله، فإنه ينبغي فيمن تختاره صاحبًا لك خمس خصال: أن يكون عاقلاً، حسن الخلق، غير فاسق، ولا مبتدع، ولا حريص على الدنيا.

١- أما العقل فهو رأس المال وهو الأصل فلا خير في صحبة الأحمق، فإلى الوحشة والقطيعة ترجع عاقبتها وإن طالت. كيف والأحمق قد يضرك وهو يريد أن ينفعك وإعانتك من حيث لا يدري؟ قال الشاعر:

إني لآمَنُ من عدو عاقل وأخاف خلاً يعتريه جنونُ
فالعقل فنٌّ واحد وطريقه أدري فأرصد والجنون فنونُ

ولذلك قيل: مقاطعة الأحمق قربان إلى الله. وقال الثوري: النظر إلى وجه الأحمق خطيئة مكتوبة.

ونعني بالعاقل الذي يفهم الأمور على ما هي عليه، إما بنفسه وإما إذا فُهِّم.

٢- وأما حُسْن الخلق فلابد منه إذ رُبَّ عاقل يفهم الأشياء على ما هي عليه، ولكن إذا غلبه غضب أو شهوة أو بخل أو جبن أطاع هواه وخالف ما هو المعلوم عنده لعجزه عن قهر صفاته وتقويم أخلاقه، فلا خير في صحبته.

٣- وأما الفاسق المُصر على الفسق فلا فائدة في صحبته؛ لأن من يخاف الله لا يصر على كبيرة، ومن لا يخاف الله لا تُؤمن غائلته[1] . ولا يوثق بصداقته، بل يتغير بتغير الأغراض.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١٦]،

(١) الغائلة: الداهية.

وقال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥]. وفي مفهوم ذلك زجر عن الفاسق.

٤- وأما المبتدع ففي صحبته خطر سراية البدعة وتعدي شؤمها إليه، فالمبتدع مستحق للهجر والمقاطعة، فكيف تؤثر صحبته؟ وقد قال عمر رضي الله عنه في الحث على طلب التدين في الصديق فيما رواه سعيد بن المسيب قال: عليك بإخوان الصدق تعيش في أكنافهم فإنهم زينة في الرخاء وعُدَّة في البلاء، وضع أمر أخيك على أحسنه حتى يجيئك ما يغلبك منه، واعتزل عدوك، واحذر صديقك إلا الأمين من القوم ولا أمين إلا من خشي الله فلا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره، ولا تطلعه على سرك، واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى.

٥- وأما حسن الخلق فقد جمعه علقمة العطاردي في وصيته لابنه حين حضرته الوفاة، قال: «يا بني إذا عرضت لك إلى صحبة الرجال حاجة فاصحب من إذا خدمته صانك، وإن صحبته زانك، وإن قعدت بك مؤنة مانك، اصحب من إذا مددت يدك بخير مدها، وإن رأى منك حسنة عدَّها، وإن رأى سيئة سدَّها، اصحب مَن إذا سألته أعطاك وإن سكت ابتداك، وإن نزلت بك نازلة واساك، اصحب من إذا قلت صدَّق قولك، وإن حاولتما أمرًا أمرك، وإن تنازعتما آثرك»، فكأنه جمع بهذا جميع حقوق الصحبة وشرط أن يكون قائمًا بجميعها.

قال ابن أكثم: قال المأمون فأين هذا؟ فقيل له: أتدري لِمَ أوصاهُ بذلك؟ قال: لا، قال: لأنه أراد أن لا يصحب أحدًا. وقال بعض الأدباء: لا تصحب من الناس إلا من يكتم سرك، ويستر عيبك، فيكون معك في النوائب، ويؤثرك بالرغائب، وينشر حسنتك، ويطوي سيئتك، فإن لم تجده فلا تصحب إلا نفسك.

وقال علي رضي الله عنه:

إنَّ أخاك الحق من كان معك ... ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا رَيْب زمان صدعك ... شتت فيه شمله ليجمعك

وقال بعض العلماء: لا تصحب إلا أحد رجلين: رجل تتعلم منه شيئًا في أمر دينك فينفعك، أو رجل تعلمه شيئًا في أمر دينه فيقبل منك، والثالث فاهرب منه، وقال بعضهم: الناس أربعة: فواحد حلو كله فلا يشبع منه، وآخر مرٌّ كله فلا يؤكل منه، وآخر فيه حموضة فخذ من هذا قبل أن يأخذ منك، وآخر فيه ملوحة فخذ منه وقت الحاجة فقط.

وقال جعفر الصادق رضي الله عنه: لا تصحب خمسة: الكذاب، فإنك منه على غرور، وهو مثل السراب يقرب منك البعيد، ويبعد منك القريب. والأحمق فإنك لست منه على شيء يريد أن ينفعك فيضرك. والبخيل فإنه يقطع بك أحوج ما تكون إليه، والجبان فإنه يُسلِّمك ويفر عند الشدة. والفاسق فإنه يبيعك بأكلة أو أقل منها، فقيل: وما أقل منها؟ قال: الطمع فيها، ثمَّ لا ينالها.

فالصديق الجدير بالصحبة يُعرف، بأنه يداوم لإخوانه على حسن العشرة، وإن وقعت بينهم وحشة، أو نفرة، ولا يترك كرم العهد، ولا يفشي الأسرار التي يعلمها في أيام إخوته منه.

يقول الصديق الصادق:

نصل الصديق إذا أراد وصالنا ... ونَصُدُّ عنه صدوده أحيانا
إن صد عني كل أكرِم مُعرضي ... ووجدت عنه مذهبًا ومكانا
لا مغشيًا بعد القطيعة سِرَّه ... بل كأنما من ذلك ما استرعانا
إنَّ الكريم إن انقطع ودُّه ... كتم القبيح وأظهر الإحسانا

* * *

للخِل فوز بخلتين ... مني نَقْدًا بغير دينِ
لأنني في الوصال أصفو ... عن كل ريب له ورَيْنِ
وإنني لا أزال أحنو ... حنو هينٍ عليه لينِ
وبعد هذا أو ذاك سرٌّ ... كالصفو من خالص اللجينِ[1]

(١) اللُّجَيْن: الفضة.

ومحض وُدٍّ بغير مذق وصدق عقد بغير مينِ[1]
فإن دنا بالوصال مني أسكنته في سواد عينِ
وإن جفاني وصدَّ عني حفظت ما بينه وبيني
ولم أشِب[2] وهو لي مشوب ما رأيت من أمره شينِ[3]

وقال بعض الحكماء: لا تصحب من يتغير عليك عند أربع: عند غضبه ورضاه، وعند طمعه وهواه. قال أبو سعيد الثوري: إذا أردت أن تؤاخي رجلاً فأغضبه، ثمَّ دسَّ عليه من يسأله عنك وعن أسرارك، فإن قال خيراً وكتم سرك فاصحبه.

وقيل لأبي يزيد البسطامي: من تصحب من الناس؟ قال: من يعلم منك ما يعلم الله ثمَّ يستر عليك كما يستر الله.

وقال الجُنيد: لأن يصحبني فاسق حسن الخُلُق خير من أن يصحبني قارئ سيء الخلق. وقيل لبعضهم: من نصحب؟ قال: من يرفع عنك ثقل التكلف، وتسقط بينك وبينه مؤنة التحفظ.

٥- وأما الحريص على الدنيا فصحبته سم قاتل؛ لأن الطباع مجبولة على التشبه والاقتداء، بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري صاحبه، فمجالسة الحريص على الدنيا تحرك الحرص ومجالسة الزاهد تُزهِّد في الدنيا، فلذلك تكره صحبة طلاب الدنيا ويستحب مصاحبة الراغبين في الآخرة، قال سيدنا عليّ رضي الله عنه: «أحيوا الطاعات بمجالسة من يستحيا منه». وقال أحمد بن حنبل رحمه الله: «ما أوقعني في بلية إلا صحبة من لا أحتشمه». وقال لقمان لولده: «يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتك، فإن القلوب لتحيا بالحكمة كما تحيا الأرض الميتة بوابل المطر»[4].

(١) أي: بغير ثمن أو جزاء.
(٢) لم أشب: أراد: لم أفضح.
(٣) «آداب الصحبة» لأبي عبد الرحمن السلمي (صـ ١٠٠).
(٤) «الإحياء» (١٨٦/٢، ١٨٧، ١٨٩) بتصرف.

* **الحب في الله :**

وقد أضفى الإسلام على الصداقة لونًا جميلاً من الاتصال بالله، فدعا المتصاحبين على الحق وللحق وفي الحق متحابين في الله، لترتبط الصحبة برباط وثيق عال يسري بينهما حتى يلتقيا يوم القيامة تحت ظل عرش من تحابا فيه، يقول ﷺ: **«إنَّ الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون في جلالي اليوم أظلهم بظلي يوم لا ظل إلا ظلي»**(١).

ويقول النبي ﷺ: **«سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه»**(٢).

والمتحابون في الله عز وجل تجب لهم محبة الله، وليس أعظم من درجة يوجب الله بها للعبد محبته الذي لا يجب عليه شيء، وذلك كما يقول الحق جل وعلا: **«وجبت محبتي للمتحابين فيَّ، والمتجالسين فيَّ، والمتزاورين فيَّ، والمتباذلين فيَّ»**(٣).

ومادام هذا الحب قائمًا على مرضاة الله ومحبته والقرب منه، فإن الله جل شأنه يجازي أشد المتحابين حبًا لأخيه بحبه له أكثر من صاحبه، فالأجر على قدر العمل، يقول رسول الله ﷺ: **«ما تحاب اثنان في الله إلا كان أحبهما إلى الله أشدهما حبًا لصاحبه»**(٤).

والحب في الله يُقَرِّب البعيد، ويُقدِّم المتأخر، ويقرن بين المتفاوتين في الدرجات، ويجمع بين المتباعدين في المقامات.

عن أنس أن أعرابيًا قال لرسول الله ﷺ: متى الساعة؟ قال رسول الله ﷺ: **«ما أعددت لها؟»** قال: حب الله ورسوله، قال: **«أنت مع من أحببت»**.

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٥٦٦).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٦٦٠)، ومسلم رقم (١٠٣١).

(٣) أخرجه مالك في «الموطأ» بإسناد صحيح، وانظر «صحيح الجامع» رقم (٤٣٣١).

(٤) أخرجه ابن حبان والحاكم عن أنس وقال: صحيح الإسناد.

وفي رواية: ما أعددت لها كثير صوم، ولا صلاة، ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله[(١)].

وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف تقول في رجل أحب قومًا ولم يلحق بهم؟ فقال رسول الله ﷺ: **«المرء مع من أحب»**[(٢)].

ولهذه المنزلة فإن الأنبياء والشهداء يغبطونهم كما في الحديث: **«إن من عباد الله ناسًا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله»**، قالوا: يا رسول الله: خبرنا من هم؟ قال: **«هم أناس تحابوا في الله على غير أرحام بينهم يتعاطونها، فوالله إنَّ وجوههم لنور، وإنهم لعلى نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس»**، وقرأ: **﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾** [يونس: ٦٢][(٣)].

كما يقول الله جل شأنه في الحديث القدسي: **«المتحابون في جلالي، لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء»**[(٤)].

والمتحابون في الله تجب لهم الجنة بحبهم لإخوانهم في الله. قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ رجلاً زار أخًا له في قرية أخرى فأرصد[(٥)] الله تعالى على مدرجته[(٦)] ملكًا، فلما أتى عليه، قال: أين تريد؟ قال: أريد أخًا لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تَرُبُّها[(٧)] عليه؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله تعالى، قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه»**[(٨)].

والحب في الله نور القلوب وغذاء الأرواح وطعام النفوس ودواء الصدور وشفاء

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٣٦٨٨)، ومسلم رقم (٢٦٣٩).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٦١٦٩)، ومسلم رقم (٢٦٤٠).

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود وأحمد.

(٤) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. وانظر «صحيح الجامع» رقم (٤٣١٢).

(٥) أرصد: أي: وكله بحفظه.

(٦) المَدْرجة: الطريق.

(٧) تَرُبُّها: تقوم بها.

(٨) أخرجه مسلم رقم (٢٥٦٧).

الأفئدة، وذلك لأنه يوصل إلى ذوق حلاوة الإيمان، كما يقول النبي العدنان ﷺ: **«من سرَّه أن يجد حلاوة الإيمان فليحب المرء لا يحبه إلا لله»**(١) .

وفي الحديث: **«ثلاث من كُن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار»**(٢) .

والمؤمنون يحبون إخوانهم الحب الصادق، بحيث يقدم أخاه على نفسه، ويفرح بفرحه ويحزن بحزنه. عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً كان عند النبي ﷺ فمر به رجل فقال: يا رسول الله، إني لأحب هذا، فقال له النبي ﷺ: **«أعلمته؟»** قال: لا، قال: **«فأعلمه»**، فلحقه فقال: إني أحبك في الله، قال: أحبك الذي أحببتني له(٣) .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «بينما أنا جالس عند النبي ﷺ إذ جاءه رجل، فسلَّم ثمَّ ولى عنه، فقلت: يا رسول الله إني أحبُّ هذا، قال: **«هل أعلمته؟»**، قلت: لا، قال: **«فأعلم ذاك أخاك»**، فأتيته فسلمت عليه، فأخذت بمنكبه وقلت: والله إني لأحبك في الله، وقال هو: وإني أحبك في الله، وقلت: لولا أن النبي ﷺ أمرني أن أُعْلمَك لم أفعل»(٤) .

فإذا بُنيت الصداقة على الحب في الله صلحت وأثمرت دنيا وأخرى؛ لأن الكريم جل وعلا يرزقهم ظل رحمته في الدنيا، وظل عرشه وكريم المنازل في الآخرة.

وإذا بُنيت الصداقة على حب الدنيا فسدت وأفسدت دنيا وأخرى؛ لأن أبناء الدنيا لا يفلحون.

---

(١) حسن: أخرجه أحمد والحاكم، والبزار وصححه الحاكم.

(٢) أخرجه الشيخان.

(٣) أخرجه أبو داود رقم (٥١٢٥)، وحسنه الألباني في «صحيح أبي داود» رقم (٤٢٧٤).

(٤) أخرجه الطبراني (١٢/ ٣٦٦)، وقال الهيثمي (١٠/ ٢٨٢): رواه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط» ورجالهما رجال الصحيح غير الأزرق بن علي، وحسان بن إبراهيم وكلاهما ثقة.

(٣٢) التنافس في الخير (النشاط)

ما سَبَق من سبق من الأولياء الصديقين والعلماء العاملين والدعاة المخلصين إلا بالتنافس في الخير، والمسارعة إلى الطاعات، والمسابقة إلى الخيرات، والنشاط في طاعة الله، والجد والإقدام في أسباب الفوز في الدار الآخرة. ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، فإن رأى المؤمن من هو أفضل منه في الصلاح والعلم غار على نفسه من النقصان في الإيمان وفقه الدين، فتنافس مع إخوانه وأخلاّئه طلبًا لهذه الدرجات العلى، ولم يرض بالدون والعجز والمهانة والذل، فالمنافسة في المراتب العالية والغبطة: بين خلقين ذميمين أحدهما الحسد والآخر: الرضا بالدُّون والمرتبة الدنيا.

وكان النبي ﷺ يُعلم أصحابه رضي الله عنهم هذا الخُلق، ففي حلقة من حلقات علمه، سأل أصحابه فقال: «**من منكم اليوم أصبح صائمًا؟**» قال أبو بكر: أنا، قال: «**فمن تبع منكم اليوم جنازة؟**» قال أبو بكر: أنا، قال: «**فمن أطعم اليوم منكم مسكينًا؟**» قال أبو بكر: أنا، قال: «**فمن عاد منكم اليوم مريضًا؟**» قال أبو بكر: أنا، قال: «**ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة**»(١).

فلما رأى عمر رضي الله عنه ذلك، تاقت نفسه إلى بلوغ أعلى المقامات في الآخرة، فنافس الصديق رضي الله عنه وسابقه في طاعة الله، يقول عمر رضوان الله عليه: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق، فوافق ذلك مالاً عندي. فقلت: اليوم أسبق أبا بكر، إن سبقته يومًا، فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: «**ما أبقيت لأهلك؟**» قلت: مثله. قال: وأتى أبو بكر رضي الله عنه بكل ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ: «**ما أبقيت لأهلك؟**» قال: أبقيت لهم الله ورسوله. قلت: والله لا أسبقه إلى شيء أبدًا»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل.

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب المناقب (٥/ ٦١٤) وقال: حديث حسن صحيح.

وكيف يُسْبق الصديق وهو الحريص على أن يدخل الجنة من أي أبوابها الثمانية شاء في أي وقت؟ وكيف يُسبق الصديق وهو الذي لم يدع بابًا من أبواب العلم والعمل الصالح إلا تفوق فيه على غيره؟

ففي إحدى جلسات النبي ﷺ مع أصحابه رضوان الله عليهم قال: «**من أنفق زوجين في سبيل الله نودي في باب الجنة، يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دُعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دُعي من باب الريان**»، فقال أبو بكر: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، هل يُدْعى أحد من تلك الأبواب كلها؟ فقال رسول الله ﷺ: «**نعم، وأرجو أن تكون أنت منهم**»(١).

لأجل هذا التنافس كان النبي ﷺ يستعيذ من العجز والكسل، فيقول: «**اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل والهرم، وعذاب القبر وفتنة الدجال**»(٢).

فالسباق السباق، والبدار البدار، والتبكير التبكير، والإسراع الإسراع.

يقول الحق جل وعلا: ﴿**وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [آل عمران: ١٣٣]، ويقول: ﴿**سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ**﴾ [الحديد: ٢١].

وفي شهر رمضان يأمر الله مناديًا ينادي على أهل الإيمان والصلاح بالمسارعة إلى أداء أسباب المغفرة، والمسابقة إلى اغتنام قربات هذا الشهر، ثبت في الحديث النبوي: «**رمضان شهر مبارك تفتح فيه أبواب الجنة، وتغلق فيه أبواب السعير، وتُصفَّد فيه الشياطين، ويُنادي مناد كل ليلة: يا باغي الخير هلُمَّ، ويا باغي الشر أقصر**»(٣).

ونرى الصالحين يسارعون إلى الطاعات، ويسابقون إلى العبادات، ولو كانوا أصحاب أعذار وذوي رُخص.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل الصحابة رقم (٣٦٦٦).
(٢) أخرجه مسلم (٤/ ٧٣).
(٣) أخرجه أحمد والنسائي وابن وهب، وانظر «صحيح الجامع» رقم (٣٥١٩).

يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «من سَرَّه أن يلقى الله غدًا مسلمًا - يعني يوم القيامة - فليحافظ على هؤلاء الصلوات الخمس حيث ينادى بهن، فإنَّ الله شرع لنبيكم سنن الهدى، وإنهن من سنن الهدى، ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلِّف في بيته لتركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق أو مريض، ولقد كان الرجل يؤتى به يُهَادَى بين رجلين حتى يقام في الصف، أو حتى يجيء إلى المسجد لأجل صلاة الجماعة»(١).

- ومن المسابقة إلى الخيرات الإقدام على الأعمال العظام، والهجوم بعلو همة على معالي الفضائل دون شك أو تراجع أو تأخر أو كسل أو عجز أو راحة أو ملل أو سأم أو ضيق أو نقصان.

وخوض الغمرات(*) إلى الحق: عن أنس: «أن رسول الله ﷺ أخذ سيفًا يوم أُحُد فقال: **«من يأخذ مني هذا؟»** فبسطوا أيديهم كلٌّ إنسان منهم يقول: أنا أنا، قال: **«فمن يأخذه بحقه؟»** فأحجم القوم(٢)، فقال أبو دجانة رضي الله عنه: أنا آخذه بحقه، فأخذه ففَلَقَ به(٣) هام المشركين(٤) »(٥).

والمسابق النشيط يقدم على أداء واجبه أيًّا كانت صعوبته ولا يلتفت لمثل هذه الشدائد الصلاب.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: **«لأعطين هذه الراية رجلاً يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه»**، قال عمر رضي الله عنه: ما أحببت الإمارة إلا يومئذٍ، فتساورت لها(٦) رجاء أن أُدْعَى لها، فدعا رسول الله

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد رقم (٦٥٤).

(*) الغمرات: الشدائد.

(٢) أحجم القوم: أي: توقفوا.

(٣) فَلَق به: أي: شق.

(٤) هام المشركين: أي: رءوسهم.

(٥) أخرجه مسلم رقم (٢٤٧٠).

(٦) تساورت: أي: وثبت متطلعًا.

ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه فأعطاها إياه، وقال: «**امش ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك**»، فسار عليّ شيئًا، ثم توقف ولم يلتفت، فصرخ يا رسول الله على ماذا أقاتل الناس؟ قال: «**قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله**»(١).

* * *

* المسارعة إلى النوافل:

والمتنافس في الخير لا يتغافل عن أداء النوافل وصغير العبادات وقليل الطاعات، فقد يكون الخير العظيم والأجر الكبير في كلمة واحدة أو عمل يسير، وإذا تجمع الخير الصغير صار كبيرًا كما قال ﷺ: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن لم تجد فبكلمة طيبة**»(٢).

وقال: «**لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طَلق**»(٣).

ويقول الرسول ﷺ: «**يا نساء المسلمات لا تحقرن جارة لجارتها ولو فِرْسن(٤) شاة**»(٥).

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «**على كل مسلم صدقة**»، قيل: أرأيت إن لم يجد؟ قال: «**يعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق**»، قيل: أرأيت إنْ لم يستطع؟ قال: «**يُعين ذا الحاجة الملهوف**»، قيل: أرأيت إنْ لم يستطع؟ قال: «**يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر**»، قال: أرأيت إنْ لم يفعل؟ قال: «**يُمْسِك عن الشر فإنها صدقة**»(٦).

وأبواب الخير كثيرة وطرق الحصول على الحسنات متعددة، عن أبي ذر أن ناسًا قالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور(٧) بالأجور، يصلون كما نصلي،

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٤٠٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة رقم (١٤١٧)، ومسلم: كتاب الزكاة رقم (١٠١٦).

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٢٦).

(٤) الفِرْسن: من البعير كالحافر من الدابة، وربما استعير في الشاة.

(٥) أخرجه البخاري رقم (٢٥٦٦)، ومسلم رقم (١٠٣٠).

(٦) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة رقم (١٠٠٨).

(٧) الدثور: الأموال، واحدها: دَثر.

ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم قال: «أوَليس قد جعل لكم ما تصدقون به، إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة»، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته، ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر، فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر»(١) .

وقال ﷺ: «إنه خلق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلاثمائة مفصل، فمن كبَّر الله، وحمد الله، وهلَّل الله، وسبَّح الله، واستغفر الله، وعزل حجراً عن طريق الناس أو شوكة أو عظمًا عن طريق الناس، أو أمر بمعروف، أو نهى عن منكر، عدد الستين والثلاثمائة، فإنه يُمسي يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار»(٢) .

وقال رسول الله ﷺ: «ليس من نفس ابن آدم إلا عليها صدقة في كل يوم طلعت فيه الشمس»، قيل: يا رسول الله، من أين لنا صدقة نتصدق بها؟ فقال: «إن أبواب الخير لكثيرة: التسبيح، والتحميد، والتكبير، والتهليل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتميط الأذى عن الطريق، وتُسمع الأصم، وتهدي الأعمى، وتدل المستدل على حاجته، وتسعى بشدة ساقيك مع اللهفان المستغيث، وتحمل بشدة ذراعيك مع الضعيف، فهذا كله صدقة منك على نفسك». «وتبسمك في وجه أخيك صدقة، وإماطتك الحجر والشوكة والعظم عن طريق الناس صدقة، وهديك الرجل في أرض الضالة صدقة»(٣) .

وفي الأوقات المباركة التي تضاعف فيها الحسنات، وتزداد فيها الخيرات، وتنزل فيها البركات كشهر رمضان وبخاصة العشر الأواخر منه، والعشرة الأوائل من شهر ذي الحجة، وشهر المحرم، سيما عاشوراء وتاسوعاء منه، يزداد المؤمن إيمانًا. يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود

---

(١) أخرجه مسلم: رقم (١٠٠٦).
(٢) أخرجه البخاري رقم (٢٩٨٩)، ومسلم رقم (١٠٠٩) .
(٣) أخرجه ابن حبان (ح ٣٣٧٧) وصححه الأرناؤوط.

ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة»[١] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر أحيا الليل، وأيقظ أهله، وشدَّ المئزر[٢] »[٣] .

وحقيق بالمؤمن أن يدوم في أيامه كافة على زيادة الإيمان، وتكثير الطاعات، يقول إبراهيم الحربي: «لقد صحبت أحمد بن حنبل عشرين سنة صيفًا وشتاءً، وحرًّا وبردًا، وليلاً ونهاراً، فما لقيته في يوم إلا وهو زائد عليه بالأمس»[٤] .

الطاعات التي يستحب فيها العجلة: وإذا كانت طاعة الله كافة يستحب فيها العجلة، فإنَّ هناك طاعات يندب فيها العجلة أكثر من غيرها، ومن هذه الطاعات:

١- التوبة من الذنب، فإن على من أذنب أن يعجل بالتوبة ولا ينتظر لحظة من الزمن.

٢- ومنها: الصلاة في وقتها الأول، يدرك العبد معها تكبيرة الإحرام، والسنة القبلية للصلاة. عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله ما أفضل الأعمال؟ قال: «**الصلاة على وقتها**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**بر الوالدين**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**حج مبرور**»[٥] .

وكان النبي ﷺ إذا أذَّن المؤذن لا يعرف أهله ولا يعرفونه.

٣- ومنها: الحج، وإن كان مفروضًا على التراخي عند بعض الفقهاء، كما قال النبي ﷺ: «**من أراد الحج فليُعجِّل، فإنه لا يدري ما يعرض له**».

---

(١) أخرجه البخاري رقم (١٩٠٢)، ومسلم رقم (٢٣٠٨) .

(٢) شد المئزر: كناية عن الاجتهاد في الطاعة.

(٣) أخرجه البخاري رقم (٢٠٢٤)، ومسلم رقم (١١٧٤) .

(٤) «مناقب الإمام أحمد بن حنبل» لابن الجوزي (صـ ١٤٠).

(٥) أخرجه البخاري وقد تقدم.

وفي رواية: «**من أراد الحج فليتعجل، فإنه قد يمرض المريض، وتضل الضالة، وتعرض الحاجة**»(١) .

٤- ومنها: طلب العلم وحفظ القرآن. فإنه كما قيل: التعليم في الصغر كالنقش على الحجر، والتعليم في الكبر كالنقش على الماء. والمرء إذا بلغ وشبَّ زادت همومه وكثرت أغراضه، وطلب العلم يستلزم قطع العلائق، فالعلم إن أعطيته كلك أعطاك بعضه، وإن أعطيته بعضك لم يعطك شيئًا.

والإنسان إذا تزوج وأنجب زادت أعباؤه وتعددت حاجياته، وهذا أدعى لترك العلم والإقبال على الدنيا؛ لذا قال رسول الله ﷺ: «**الولد مجبنة(٢) مبخلة مجهلة**»(٣) .

٥- ومنها: التعجيل بأداء حق الجنازة غُسْلاً وكفنًا وصلاة ودفنًا، يقول النبي ﷺ: «**أسرعوا بالجنازة، فإن تك صالحة فخير تقدمونها إليه، وإن تك غير ذلك فشر تضعونها عن أعناقكم**»(٤) .

٦- ومنها: إكرام الضيف عندما يقدم بما يجد عند أهله من طعام أو سقاء.

نقرأ هذا في الإكرام الفذ الذي قام به خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام مع ضيوفه من الملائكة وهو لا يعلم أنهم ملائكة يقول تعالى: ﴿**هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ**﴾ [الذاريات: ٢٤-٢٧].

فانظر: إلى القرآن المجيد وهو يستخدم الفاء في فعل إبراهيم عليه السلام مع ضيفه للدلالة على التعقيب والسرعة.

يقول حاتم الأصم: العجلة من الشيطان إلا في خمسة، فإنها من سنة رسول

---

(١) حسن: أخرجه أحمد وأبو داود والحاكم والبيهقي وابن ماجه، وانظر «صحيح الجامع» رقم (٦٠٠٤).

(٢) أي: يحض الأبوين على الجبن خشية على ولدهما.

(٣) أخرجه أبو داود وأبو يعلى بإسناد صحيح، وانظر«صحيح الجامع» رقم (٧١٦٠).

(٤) أخرجه الشيخان: البخاري رقم (١٣١٥)، ومسلم رقم (٩٤٤) .

الله ﷺ: إطعام الضيف، وتجهيز الميت، وتزويج البكر، وقضاء الدين، والتوبة من الذنب.

٧- ومنها: قضاء المظالم: وهذا هو عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه شُغِل يوم تولي الإمارة بتعيين الولاة والقضاة وغير ذلك، وتعب وأراد أن ينام، فجاءته مظلمة، فقال: أنام ثمَّ أقضيها بعد أن أستيقظ، فقال ولده عبد الملك: يا أبتاه، ماذا تصنع؟ قال: أنام ثمَّ أقوم فأقضي المظلمة، فقال: يا أبتاه، ومن الذي يضمن لك الحياة حتى تنام، ثم تقوم، فقضى المظلمة قبل أن ينام.

٨- ومنها: التعجيل برجوع المسافر من سفره إذا قضى حاجته أداءً لحق زوجه وراحة لنفسه. يقول رسول الله ﷺ: «**السفر قطعة من العذاب يمنع أحدكم طعامه وشرابه ونومه، فإذا قضى أحدكم نَهْمَته**[١] **من سفره فليُعجل إلى أهله**»[٢].

٩- ومنها: المسارعة إلى الشهادة في سبيل الله. عن جابر رضي الله عنه قال رجل للنبي ﷺ يوم أُحد: أرأيت إن قُتلت، فأين أنا؟ قال: «**في الجنة**»، فألقى تمرات كن في يده، ثمَّ قاتل حتى قُتِل[٣].

١٠- ومنها: تزويج البكر، ففي الحديث النبوي: «**ثلاثة لا تؤخرها إذا حضرت: الصلاة إذا أتت، والجنازة إذا حضرت، والأيم**[٤] **إذا وجدت كفؤًا**»[٥]. فإن خطب البكر أو الثيب كفؤ، فعلى الولي أن يعجل بالموافقة.

١١- ومنها: دفع الزكاة إذا حان وقتها، أو إرسال الصدقة إلى الفقراء إذا نوى الغني إخراجها. عن عقبة بن الحارث رضي الله عنه قال: صليت وراء النبي ﷺ بالمدينة العصر، فسلَّم ثمَّ قام مسرعًا فتخطى رقاب الناس إلى بعض حُجر نسائه، ففزع الناس من سرعته، فخرج عليهم، فرأى أنهم قد عجبوا من سرعته، قال:

---

(١) نهمته: أي: مقصوده.

(٢) أخرجه البخاري رقم (١٨٠٤)، ومسلم رقم (١٩٢٧).

(٣) أخرجه البخاري رقم (٤٠٤٦)، ومسلم رقم (١٨٩٩).

(٤) الأيم: التي لا زوج لها.

(٥) أخرجه الترمذي، وقال العراقي (١٨/٢): وسنده حسن.

«**ذكرت شيئًا من تِبر[١] عندنا، فكرهت أن يحبسني، فأمرت بقسمته**».

وفي رواية قال: «**كنت خَلَّفت في البيت تِبرًا من الصدقة فكرهت أن أُبيِّته**»[٢].

١٢- ومنها: التعجيل بكتابة الوصية الشرعية، فإنَّ الموت يأتي بغتة، والأجل غير معلوم. يقول سيد النبيين ﷺ: «**ما حق امرئ مسلم يبيت ليلتين له شيء يوصي فيه إلا ووصيته مكتوبة عنده**»[٣].

١٣- ومنها: سداد الدين: فمن وجد قضاءً لدينه فعليه أن يُعجِّل بالسداد، لما في بقاء الدين دون سداد من إثم كبير، ومنع للفوز بالنعيم، ففي الحديث: «**نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه**»[٤].

ويقول النبي ﷺ: «**القتل في سبيل الله يُكفِّر كل شيء إلا الدَّين**»[٥].

ومن المستحب هنا أن يذهب الغريم إلى غريمه لقضاء دينه، ولا ينتظر حتى يأتيه الدائن.

- والمؤمن مسارع إلى الخيرات ولو قامت القيامة بين يديه؛ لأنه نشيط في عبادة ربه لا يكل ولا يمل ولا يتكاسل ولا يتباطئ حتى يأتيه اليقين، يقول النبي ﷺ: «**إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم الساعة حتى يغرسها فليغرسها**»[٦].

وليس معنى التنافس في الخيرات والمسارعة إلى الطاعات الازدحام والصوت العالي ودفع العابدين وأذية المتقين والأنانية في التعبد كما نشاهده في المساجد والحج من بعض الناس.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه دفع مع النبي ﷺ يوم عرفة فسمع النبي

---

(١) التِّبر: قطع ذهب أو فضة.
(٢) أخرجه البخاري رقم (٨٥١).
(٣) أخرجه البخاري.
(٤) أخرجه الترمذي رقم (١٠٧٨، ١٠٧٩) وحسنه، وابن ماجه رقم (٢٤١٣)
(٥) أخرجه مسلم رقم (١٨٨٦).
(٦) أخرجه أحمد والبخاري في «الأدب»، وانظر «السلسلة الصحيحة» رقم (٩).

ﷺ وراءه زجرًا شديدًا وضـربًا وصوتًا للإبل، فأشار بسـوطه إليهم، وقال: «**أيها الناس عليكم بالسكينة، فإنَّ البرَّ ليس بالإيضاع**»[١] أي: الإسراع.

وإنما معنى المسـابقة إلى الخيرات الحرص على الطاعـة والاجتهاد فـيها وأداؤها على أكمل وجه وإقامتها بدون كسل أو عجز أو دناءة هِمّة.

والمؤمن النشيط يغتنم أوقاته ويحرص على القيام بـواجباته فالواجبات أكثر من الأوقات، ولا يُعمر معمرٌ يومًا من عمره إلا بهدم آخر من أجله.

من هنا فإن النشاط يستلزم تنظيم الوقت، وأداء كل عمل في ميعاده، دون كلل أو سأم أو كـسل. والتبكيـر إلى المهنة، والنوم في وقته المـناسب، وتحديد ميـعاد معلوم للطعام مع الحرص على تقليل وقت الأكل والنوم. يقول النبي عليه الصلاة والسلام: «**بادروا بالأعمال الصالحة فستكون فتن كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمنًا ويُمسي كافرًا، ويُمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا**»[٢] .

فما أسـرع الساعات في اليوم، وأسـرع الأيام في الشهر، وأسرع الـشهور في السنة، وأسرع السنين في العمر.

وإذا ظهرت الفتن ووقعت أشراط الساعـة حتى استحكمت فإن على المؤمن أن يزداد إيمانًا وقربًا من مولاه ومسارعة إلى الطاعات، وبعدًا عن المعاصي والذنوب. يقول الرسول ﷺ: «**بادروا بالأعـمال ستًّا: إمارة السُّفهـاء، وكثـرة الشُّرط**[٣] **وبيع الحكم**[٤]**، واسـتخفـافًا بالدم**[٥] **، وقطيعـة الرحم، ونشوًا**[٦] **يتخـذون القرآن مزامير، يقدمون أحدهم ليغنيهم بالقرآن وإن كان أقلهم فقهًا**»[٧] .

---

(١) أخرجه البخاري رقم (١٦٧١)، ومسلم رقم (١٢٨٢) .

(٢) أخرجه مسلم رقم (١١٨) .

(٣) كثرة الشرط: أي: الشرطة.

(٤) أي تولى المناصب الكبرى بالرشاوى.

(٥) أي: قتل الإنسان لأدنى سبب.

(٦) نشوًا: أي: ناشئة من النشئ وهو صغير السن.

(٧) أخرجه أحـمد والبخاري في «التـاريخ»، والطبراني، وانظر «السلسلة الصحـيحة» رقم (٩٧٩)، و«صحيح الجامع» رقم (١٨١٢).

وقد حدثت هذه العلامات وتمت في أكمل صورها.

وصفوة القول: إن المؤمن نشيط في عمله، سريع إلى مغفرة ربه، مسابق إلى الخيرات، حريص على الطاعة، لا يفوته كثير أو قليل من الحسنات، لا يعرف الهزل، ولا الكسل، جاد في أدائه، ماضٍ في عزمه، مهتم بأمره، مبالغ في تحقيقه.

علو همة الأطفال: والحرص على الحسنات والمسابقة في الفوز بالدرجات العليا في الآخرة والبركات الحسنى في الدنيا لم يكن دأب الرجال والنساء فقط، عند السلف، وإنما كان حال الأطفال أيضًا.

عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتي بشراب، فشرب منه وعن يمينه غلام[١]، وعن يساره الأشياخ، فقال للغلام: «**أتأذن لي أن أعطي هؤلاء؟**» فقال الغلام: لا والله يا رسول الله، لا أوثر بنصيبي منك أحدًا، فتَلَّهُ[٢] رسول الله ﷺ في يده[٣].

وأكثر علماء المسلمين قد أتموا حمل القرآن المجيد قبل البلوغ، ومنهم من كان يجمع مع استظهار القرآن قبل الاحتلام حفظ آلاف الأبيات من الشعر ومئات القصائد، والإلمام بفتاوى الصحابة رضي الله عنهم، وحفظ آلاف الأحاديث النبوية، بل ومئات الآلاف أحيانًا، ومنهم من كان يفتي في مسائل الطلاق دون البلوغ، ومنهم من كان يُعد نفسه للتصنيف، فلما بلغ شرع في التأليف، يقول البخاري: «لما طعنت في ثمان عشرة سنة جعلت أصنف قضايا الصحابة والتابعين وأقاويلهم، وصنف كتاب التاريخ إذ ذاك عند قبر رسول الله ﷺ في الليالي المقمرة، وقلَّ اسم في التاريخ إلا وله قصة إلا أني كرهت تطويل الكتاب»[٤] سبحانك، يا من خلقت هؤلاء!! البخاري يصنف كتاب التاريخ الكبير الذي يزيد

---

(١) هذا الغلام هو عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) تَلَّه: أي: وضعه.

(٣) أخرجه البخاري رقم (٢٤٥١)، ومسلم رقم (٢٠٣٠).

(٤) انظر «تاريخ بغداد» (٢/ ٧)، و«سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٤٠٠).

على عشر مجلدات في سن الثامنة عشرة!!

المحافظة على أعمال الطاعات: والمؤمن النشيط يحافظ على الطاعة التي يؤديها، ولا يتركها إلى أن يموت ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]، فالمؤمن لا ينقض غزله، ولا يهجر سعيه، ولا يدع واجبه؛ لأنه يرعى العبادة حق الرعاية، فيعمل بقول الله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾ [النحل: ٩٢]، وقد أوصى النبي ﷺ عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما فقال: «**يا عبد الله لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل**»[١] .

فإن نزل بالمسلم خَطْب أخَّرُه عن أداء النوافل التي يقوم بها قضاها إن كان لها قضاء، يقول النبي ﷺ: «**من نام عن حزبه من الليل، أو عن شيء منه، فقرأه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر، كُتب له كأنما قرأه من الليل**»[٢] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا فاتته الصلاة من الليل من وجع أو غيره، صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة»[٣] .

فالجدية، والنشاط، وعلو الهمة، لسان حال المؤمن.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري رقم (١١٥٢)، ومسلم رقم (١١٥٩) .

(٢) أخرجه مسلم رقم (٤٧٤) .

(٣) أخرجه مسلم رقم (٧٤٦) .

(٣٣) الحرص على الوقت

خلق الله الإنسان وحدَّد له عمرًا وأجلاً لا يزيد ولا ينقص، وهذا العمر إن انقضى بعضه أو كله فلا يمكن تعويضه، فهو أثمن شيء في هذه الحياة، ألا فليعمل العامل في أيام مهله قبل إرهاق أجله[(١)] ، وفي فراغه قبل أوان شغله، وفي مُتنفسه قبل أن يؤخذ بكظمه[(٢)] ، وليُمهد لنفسه وقدومه، وليتزود من دار ظعنه لدار إقامته.

إنَّ المسلم الحق يغالي بالوقت مغالاة شديدة؛ لأن الوقت عمره، فإذا سمح بضياعه، وترك العوادي تنهبه فهو ينتحر بهذا المسلك الطائش.

إن الإنسان ليسير حثيثًا إلى الله، وكل دورة للفلك تتمخض عن صباح جديد، ليست إلا مرحلة من مراحل الطريق الذي لا توقف فيه أبدًا. أفليس من العقل أن يدرك المرء هذه الحقيقة وأن يجعلها نصب عينيه وهو يستبين ما وراءه وما أمامه؟ من الخداع أن يحسب المرء نفسه واقفًا والزمن يسير! إنه خداع النظر حين يُخيل لراكب القطار أن الأشياء تجري وهو جالس، والواقع أن الزمن يسير بالإنسان نفسه إلى مصيره العتيد[(٣)] .

ومن أخَّر الله أجله إلى أن بلغ ستين سنة أو أكثر فقد منحه الله غاية الإعذار، فإن قصر فقد استوجب أليم العذاب، وشديد العقاب كما يقول النبي ﷺ: **«أعذر الله إلى امرئ أخَّر أجله حتى بلغ ستين سنة»**[(٤)] .

والمؤمن ينظر ببصيرة إلى تقلب الليل والنهار، فيعرف قيمة الوقت وخطورة الزمن، قال تعالى: **﴿إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ**

---

(١) أي: فليعجل المفرط عن تدارك ما فاته من العمل.

(٢) الكَظَم (بالتحريك): الحلق أو مخرج النفس كناية عن التضييق عند الموت.

(٣) «خُلُق المسلم» (صـ ٢٠٦).

(٤) أخرجه البخاري رقم (٦٤١٩).

لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦].

ومن حكم الحسن البصري: ما من يوم ينشق فجره إلا نادى منادٍ: يا ابن آدم أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد، فتزود مني بعمل صالح فإني لا أعود إلى يوم القيامة.

ومن القواعد التي أرساها المصلحون:

- الواجبات أكثر من الأوقات.

- الزمن لا يقف محايداً، فهو إما صديق ودود، أو عدو لدود.

ولله درُّ القائل:

أتلهـــــو وأيامنا تذهب ... ونلعـب والموت لا يلعـبُ
عجبت لذي لعب قد لهـا ... عجبت ومالي لا أعجبُ
أيلهـو ويلعب من نفسه ... تموت ومنزله يُخرَّبُ
نرى كل ما ساءنا دائمًا ... على كل ما سرنا يغلبُ
نرى الليل يطلبنا والنهار ... ولم ندرِ أيهما أطلبُ؟
أحاط الجديدان جمعًا بنا ... فليس لنا عنهما مهربُ
وكل له مدة تنقضي ... وكل له أثر يكتبُ

وصدق القائل: الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك.

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: إنَّ الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما.

وقال أبو بكر رضي الله عنه: اعلم أن لله عز وجل في النهار حقًا لا يقبله في الليل، واعلم أن لله عز وجل في الليل حقًا لا يقبله بالنهار، واعلم أنه لا تُقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة.

وأسعد الناس من شغل وقته بالتقوى والعمل الصالح فأعد عدته من الحياة الصغرى للحياة الكبرى، وصدق رسول الله ﷺ حين قال: «**خير الناس من طال عمره وحسن عمله**»(١).

---

(١) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن. وانظر «صحيح الجامع» رقم (٣٢٩٦).

وفي رواية: «**خير الناس من طال عمره وحسن عمله، وشر الناس من طال عمره وساء عمله**».

ذاكم الذي اغتنم وقته فحرص عليه غاية الحرص، وضنَّ به، فلا يمنحه إلا فيما ينفعه، كما قال أسعد الناس ﷺ: «**اغتنم خمسًا قبل خمس: حياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك**»[(١)].

وأشقى الناس من قضى وقته بعيدًا عن الله. إن كثيرًا من الناس يعتبر الوقت شيئًا لا قيمة له فيستهلكه في لهو أو لعب. ويجلسون الساعات في المقاهي والمراقص والملاعب والنوادي، حتى إن منهم من يمكث ساهرًا إلى ما قبل صلاة الفجر؛ ليشاهد مباراة أو يستمع لتمثيلية أو ليلعب الشطرنج أو الطاولة، أو ليتحدث مع صاحب له في أعراض الناس. ويقول قائلهم: تعال نقتل الوقت بشيء من التسلية.

وهؤلاء الذين خسروا أنفسهم في الحياة الدنيا، وفي الآخرة ﴿**أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ**﴾ [الزمر: ١٥]، وصدق رسول الله ﷺ حين قال فيهم: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ**»[(٢)].

ولما علم أرباب الهمم العالية قيمة الزمن وخطورة الوقت استغلوا كل لحظة من أعمارهم في عمل الخير أو الاستجمام من جهد استعدادًا لجهد آخر.

وممن بلغوا درجة القمة في الحرص على الوقت والمحافظة على الزمن الإمام أبو الوفاء بن عقيل الحنبلي الذي كان يقول: إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري، حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة أو مناظرة، وبصري عن مطالعة، أعملت فكري في حال راحتي، وأنا منطرح، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره، وإني لأجد من حرصي على العلم وأنا في الثمانين أشد ما كنت أجده وأنا ابن عشرين سنة.

---

(١) أخرجه الحاكم وابن وهب وأحمد في «الزهد»، وأبو نعيم، وانظر «صحيح الجامع» رقم (١٠٧٧).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٦٤١٢).

وأنا أقصِّر بغاية جهدي أوقات أكلي، حتى أختار سف الكعك وحسه بالماء على الخبز، لأجل ما بينهما من تفاوت المضغ، توافرًا على مطالعة، أو تسطير فائدة لم أدركها فيه، وإنَّ أجلَّ تحصيل عند العقلاء بإجماع العلماء هو الوقت، فهو غنيمة تُنْتَهز فيها الفُرص، فالتكاليف كثيرة.

وقد ألف كتابه الفنون الذي يبلغ ثمانمائة مجلدة. يقول الحافظ الذهبي: لم يُصنَّف في الدنيا أكبر من هذا الكتاب، حدثني من رأى منه المجلد الفلاني بعد الأربعمائة. قال ابن رجب: وقال بعضهم: هو ثمانمائة مجلدة.

فانظر رحمك الله إلى هذا الإمام العَلَم الذي قضى وقته بين التأليف والتفكير والتذكر والتذكير والتعلم والتعليم. وانظر إلى أي حد يثمر إعمال الخاطر وحفظ الوقت والنشاط في العلم والطاعة.. إنه ليثمر ثمرات لا تكاد توصف، يثمر ثمانمائة مجلدة. إلى جانب تصانيف عظيمة أخرى ألفها الإمام ابن عقيل، وإنها لتتم عشرين مؤلفًا، وحجم بعضها عشر مجلدات.

وهذا هو شيخ المفسرين والمؤرخين الإمام محمد بن جرير الطبري يصف تلميذه أبو بكر الشجري انتظام أوقاته وتقديره للزمن بقوله: «كان إذا أكل نام في الخيش- ثياب في نسجها رِقَّة، وخيوطها غلاظ، تتخذ من مشاقة الكتَّان، تُلبس في الحر عند النوم لبرودتها على الجسم، في قميص قصير الأكمام، مصبوغ بالصندل وماء الورد، ثمَّ يقوم فيصلي الظهر في بيته، ويكتب في تصنيفه إلى العصر، ثمَّ يخرج فيصلي العصر، ويجلس للناس يُقرئ ويُقْرأ عليه إلى المغرب، ثمَّ يجلس للفقه والدرس بين يديه إلى العشاء الآخرة، ثمَّ يدخل منزله، وقد قسم ليله ونهاره في مصلحة نفسه، ودينه، والخلق كما وفقه الله عز وجل»(١).

وقيل: إنه كتب بيده أكثر من ثلاثين ألف صحيفة، وما أثر عنه أنه أضاع دقيقة من حياته من غير الإفادة والاستفادة، روى المُعافى بن زكريا، عن بعض الثقات أنه كان بحضرة أبي جعفر الطبري رحمه الله قبل موته، وتوفي بعد ساعة أو أقل منها، فذكر له دعاءً عن جعفر الصادق، فاستدعى محبرة وصحيفة فكتبه.

---

(١) «قيمة الوقت عند المسلمين» عبد الفتاح أبو غدة (صـ ٢٠، ٢١).

إنَّ الإسلام نظم للمسلم أوقاته فلا تمر عليه لحظة إلا ويُطالب بعبادة أو يُدعى لفضيلة أو يؤمر بواجب، لذا تعيَّن عليه أن ينظم أوقاته، ويضع لها ترتيبًا محددًا لئلا ينسى عملاً أو علمًا يستحق الإتيان به، ولا يكون لهذا التنظيم فائدة تذكر إلا إذا باكر العبد لأداء عمله بعد صلاة الصبح حين ينزل الرزق الإلهي.

يقول صخر بن وَدَاعة رضي الله عنه، يقول رسول الله ﷺ: **«اللهم بارك لأمتي في بكورها»**، وكان إذا بعث سرية أو جيشًا بعثهم من أول النهار، وكان صخر تاجرًا، وكان يبعث تجارته أول النهار، فأثرى وكثر ماله(١).

كما أنه لا قيمة لتنظيم الأعمال إذا أكثر المسلم من النوم، وأطال زمان الأكل، واستغرق أوقاته في الراحة والتدلل.

فمن كثر أكله كثر شربه، ومن كثر شربه كثر نومه، ومن كثر نومه أفنى وقته، ومن أفنى وقته أضاع عمره، ومن أضاع عمره خسر الدنيا والآخرة.

ولم يكف الصحابة رضي الله عنهم تنظيم الأوقات، بل خافوا فناء الأوقات، فغدوا على رسول الله ﷺ يسألونه عن أحب الأعمال إلى الله تعالى ليؤدوها إن عجزوا عن أداء سائر الطاعات.

والوقت رأس مال الإنسان سيسأل عنه العبد يوم القيامة فيم أنفقه، وكيف أنفقه؟

يقول رسول الله ﷺ: **«لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيم أفناه؟ وعن شبابه فيما أبلاه؟ وعن مالهِ من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ وعن عمله ماذا عمل فيه»**(٢).

وهنا تظهر الحسرات والصرخات على ضياع الأوقات في المعاصي والموبقات. **﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾** [الزمر: ٥٦-٥٨].

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٣٤٥)، والترمذي (١٢١٢) وقال: حديث حسن.

(٢) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. وانظر «الصحيحة» رقم (٩٤٦).

الآن تقول النفس الأمارة بالسوء الغاشمة الظالمة: يا حسرتى على ما فرطت في طاعة الله، يا حسرتى على أوقات ضيعتها في الذنوب والآثام، يا حسرتى على ساعات قتلتها. . . والآن يطلب الرجعة إلى الدنيا ليغتنم وقته الذي أضاعه، وهذا التمني سيكرره مرات في عرصات القيامة، وبعد أن يدخل جهنم.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧-٢٩].

ومرة ثانية ينادون على ربهم طلبًا للرجعة لاغتنام الأوقات، يقول جلَّ شأنه: ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ فيجيبهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٤، ٤٥].

فينادون مرة ثالثة: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

فيصرخون مرة رابعة: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾ فيجيبهم مولانا: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١١، ١٢].

ومرة خامسة يطلبون الرجعة للغرض السابق، فيقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ فيقول لهم: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٦-١٠٨].

فالوقت هو الحياة، والحرص عليه واغتنامه سر الفوز بالدرجات العلى، وتضييعه وقتله سر الخسران في الدنيا والآخرة.

* * *

(٣٤) التعلم

أوجب الإسلام على المسلم والمسلمة تعلم ما تصح به العقيدة والعبادة والمعاملة، فقال ﷺ: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**».

وحضنا على الاهتمام بالعلم والتعلم والتعليم، كما جاء في الحديث النبوي: «**من سلك طريقًا يبتغي فيه علمًا سهَّل الله له طريقًا إلى الجنة، وإنَّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع، وإنَّ العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض، حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإنَّ العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورِّثوا ديناراً ولا درهمًا، وإنما ورَّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر**»(١).

أي نعم، وفي الحديث القدسي يقول النبي ﷺ: «**إن الله أوحى إليَّ: أنه من سلك مسلكًا في طلب العلم سهَّلت له طريقًا إلى الجنة، ومن سلبت كريمتيه عوضته منهما الجنة، وفضل في علم خير من فضل في عبادة، وخير دينكم الورع**»(٢).

ويكفي في فضل العالم المعلِّم أن الله جل وعلا قال فيه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨]، فهم أشد البشر خشيةً من الله، وقال رسول الله ﷺ: «**فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم**»، ثم قال: «**إنَّ الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جُحرها وحتى الحوت ليصلون على مُعلمي الناس الخير**»(٣).

وكان الصحابة رضي الله عنهم يرغبون غيرهم في العلم وبذل المُهَج من أجله، والتضحية بالأقوات والأموال في سبيله، وكذا من تبعهم بإحسان.

يقول معاذ بن جبل رضي الله عنه: «تعلموا العلم فإنَّ تعلمه لله تعالى خشية،

---

(١) أخرجه ابن وهب، والحديث صحيح كما في «صحيح الجامع» رقم (١٧٢٧).

(٢) أخرجه أبو داود رقم (٣٦٤١)، والترمذي رقم (٢٦٨٢) بإسناد صحيح.

(٣) صحيح: أخرجه الترمذي رقم (٢٦٨٥)، والدارمي (٢٨٩)، وحسنه الترمذي.

وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلم صدقة، وبذله لأهله قربة؛ لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار أهل الجنة، والأنس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والزين عند الأخلاء، يرفع الله به أقوامًا، ويجعلهم في الخير قادة وأئمة، تقتبس آثارهم، ويُقتدى بفعالهم، ويُنْتَهى إلى رأيهم، ترغب الملائكة في خِلَّتهم(١) ، وبأجنحتها تمسحهم، يستغفر لهم كل رطب ويابس، حتى الحيتان في البحر وهوامه، وسباع الطير وأنعامه؛ لأنَّ العلم حياة القلوب من الجهل، ومصباح الأبصار من الظُّلَم، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار والدرجة العليا في الدنيا والآخرة، والتفكر فيه يعدل بالصيام، ومدارسته بالقيام، به توصل الأرحام، ويُعرف الحلال من الحرام، وهو إمام العمل والعمل تابعه، يُلهمه السعداء، ويُحرمه الأشقياء»(٢) .

وحتى وهم على فراش الموت لا يريدون البقاء في هذه الحياة الدنيا إلا لمدارسة العلم والتنافس في الطاعات.

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه لما حضره الموت قال: «انظروا أصبحنا؟ فأُتي فقيل: لم تُصبح، فقال: انظروا أصبحنا؟ فأُتي فقيل له: لم تُصبح، حتى أُتي في بعض ذلك، فقيل: قد أصبحت، قال: أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار، مرحبًا بالموت مرحبًا، زائر مغب(٣) حبيب جاء على فاقة، اللهم إني قد كنت أخافك، فأنا اليوم أرجوك، اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجري الأنهار ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالرُّكب عند حِلق الذكر»(٤) .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «لولا ثلاث خِلال لأحببت أن لا أبقى

---

(١) أي: صحبتهم.

(٢) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١/ ٥٥) وقال: ذكر الحديث بحاله سواء موقوفًا. وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٣٩).

(٣) مغب: أي: غائب.

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٣٩)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١/ ٥١).

في الدنيا، فقيل: وما هن؟ فقال: لولا وضع وجهي للسجود لخالقي في اختلاف الليل والنهار يكون تقدمة لحياتي، وظمأ الهواجر، ومقاعدة أقوام ينتقون الكلام كما تُنتقى الفاكهة»(١) .

ومن الحرص على العلم: الرحلة في طلبه:

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: بلغني عن رجل حديث سمعه من رسول الله ﷺ فاشتريت بعيراً، ثمَّ شددت رحلي، فسرت إليه شهراً حتى قدمت الشام، فإذا عبد الله بن أنيس رضي الله عنه، فقلت للبواب، قل له: جابر على الباب، فقال: ابن عبد الله؟ قلت: نعم، فخرج يطأ ثوبه، فاعتنقني واعتنقته، فقلت: حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ في القصاص، فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمعه، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«يحشر الله الناس يوم القيامة - أو قال- : العباد عراة غرلاً بُهْمًا»**، قال: قلنا: وما بُهْمًا؟ قال: **«ليس معهم شيء، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعُد، كما يسمعه من قَرُب: أنا الديان، أنا المالك، لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار، وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أقضيه منه، ولا ينبغي لأحد من أهل النار عنده حق حتى أقضيه منه حتى اللطمة»**، قلنا: كيف هذا؟ وإنما نأتي عُراة غرلاً بُهْمًا، قال: **«الحسنات والسيئات»**(٢) .

وعن عبد الله بن بُريدة أن رجلاً من الصحابة رحل إلى فضالة بن عبيد رضي الله عنه وهو بمصر في حديث، فقدم عليه وهو يمد لناقة له، فقال: مرحبًا، قال: أما إني لم آتك زائرًا، ولكن سمعت أنا وأنت حديثًا من رسول الله ﷺ رجوت أن يكون عندك منه علم، قال: ما هو؟ قال: كذا وكذا(٣) .

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢١٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٩٥) والبخاري في «الأدب المفرد»، وأبو يعلى في مسنده كما قال الحافظ في «الفتح» (١/ ١٢٧)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١/ ٩٣)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٥٧٤) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه أبو داود رقم (٤١٦٠) وهو في «صحيح أبي داود» رقم (٣٥٠٦).

العلم مع التكسب:

والمؤمن يتعلم ويزداد علمًا وإن لم يكن متفرعًا له، فيجمع بين العلم والكسب، ولا يترك العلم من أجل الدنيا والحرص عليها. عن عمر رضي الله عنه قال: «كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد، وهي من عوالي المدينة، وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ ينزل يومًا وأنزل يومًا، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك، فنزل صاحبي الأنصاري يوم نوبته...»[(١)] .

وعن البراء رضي الله عنه قال: «ليس كلنا سمع حديث رسول الله ﷺ، كانت لنا ضَيْعة وأشغال، ولكنَّ الناس كانوا لا يكذبون يومئذٍ فيحدث الشاهد الغائب»[(٢)] .

الجمع بين الجهاد في سبيل الله والعلم:

وبلغ من حرص السابقين على التعلم أنهم كانوا إذا أرادوا غزوة قسموا الناس فريقين: فريقًا يذهب لقتال أعداء الله (وهم الكثرة) وفريقًا يجلس يتعلم الحديث النبوي، فإن عادوا من الغزوة أخذوا ما فاتهم من إخوانهم. عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: «كنا نغزوا وندع الرجل والرجلين لحديث رسول الله ﷺ، فنجيء من غزاتنا فيحدثونا بما حدث به رسول الله ﷺ فنحدث به، نقول: قال رسول الله ﷺ»[(٣)] .

ومما يدل على وله[(٤)] السابقين بالعلم قوة حفظهم وسرعة فهمهم. هذه الصحابية الحافظة التي تقول: «ما حفظت سورة (ق) إلا من في رسول الله ﷺ»[(٥)] . هذه أخت لعمرة بنت عبد الرحمن أكبر منها.

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٨٩)، وأخرجه مسلم مطولاً رقم (١٤٧٩) .

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٣)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ١٢٧) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة، وابن عساكر كما في «الكنز» (٥/ ٢٤٠).

(٤) أي: حب.

(٥) أخرجهما مسلم: كتاب الجمعة- باب (تخفيف الصلاة والخطبة).

وهذه أم هشام بنت حارثة بن النعمان تبلغ هذا المبلغ العجيب في الوعي والحفظ فتقول: «لقد كان تنورنا وتنور رسول الله ﷺ واحداً سنتين أو سنة وبعض سنة، وما أخذت ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ إلا عن لسان رسول الله ﷺ يقرؤها كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس»(١) . وإذا كان هذا حال الصحابيات اللاتي لا يرين النبي ﷺ رؤية تامة، ولا يجلسن بجواره لبعد المسافة بينهن وبينه ﷺ فكيف الحال بالصحابة من الذين يجلسون أمامه ويرونه رؤية كاملة؟

بداية التعلم:

من الخطأ الجسيم في العلم الإقبال على فن قبل البداية بأصل العلوم وأستاذ الفنون. وأصل العلوم: الإيمان بالله عز وجل، وأستاذ الفنون: القرآن الكريم. والإيمان بالله: المراد به علم الخشية الذي يقرب من الله والدار الآخرة، ويباعد بين المتعلم وبين الشيطان والتعلق بالدنيا.

دروس هذا الإيمان: شعبه التي تجمع بين إصلاح النفوس وإحياء القلوب وحفظ الألسنة. فما يفعله بعض طلاب العلم من النهم من الحديث النبوي حفظًا وفهمًا ومعرفة بالسنة وعلومها فقط مخالف لمنهج الصحابة رضي الله عنهم.

يقول جندب بن عبد الله رضي الله عنه: «كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حَزَاوِرة(٢) فتعلمنا الإيمان، ثمَّ تعلمنا القرآن فازددنا به إيمانًا»(٣) .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «لقد عشت برهة من دهري، وإنَّ أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة على محمد ﷺ فيتعلم حلالها وحرامها وما ينبغي أن يقف عنده منها، كما تعلمون أنتم القرآن، ثمَّ لقد رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته، ما يدري ما آمره ولا زاجره، وما ينبغي أن يقف عنده منه، وينثره نثر الدَّقل(٤) »(٥) .

---

(١) أخرجهما مسلم: كتاب الجمعة- باب (تخفيف الصلاة والخطبة).

(٢) حزاورة: جمع (حزور) وهو الغلام إذا اشتد وقوي.

(٣) أخرجه ابن ماجه رقم (٦١) وهو في «صحيح سنن ابن ماجه» رقم (٥٢).

(٤) الدقل: التمر الرديء.

(٥) أخرجه الطبراني في «الأوسط»، وقال الهيثمي (١/ ١٦٥): رجاله رجال الصحيح.

فلا ضير من الإقبال على تعلم أي من العلوم الشرعية طالما سُبِق بتعلم العقيدة والقرآن المجيد.

وللمعلم آداب منها: إذا سئل عما لا يعلم أن يقول: الله أعلم، أو لا أدري، أو لا أعلم، أو ينظرهم حتى يعلم الإجابة ثمَّ يخبرهم.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «مكثت سنتين أريد أن أسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن حديث ما منعني منه إلا هيبته، حتى تخلف في حج أو عمرة في الأراك الذي ببطن مر الظهران لحاجته، فلما جاء وخلوت به قلت: يا أمير المؤمنين، إني أريد أن أسألك عن حديث منذ سنتين ما يمنعني إلا هيبة لك، قال: فلا تفعل، إذا أردت أن تسأل فسلني، فإن كان منه عندي علم أخبرتك، وإلا قلت: لا أعلم، فسألت مَن يعلم، قلت: من المرأتان اللتان ذكرهما أنهما تظاهرتا على رسول الله ﷺ؟ قال: عائشة وحفصة رضي الله عنهما...»[١].

وعن عثمان بن عبد الله بن موهب قال: مرَّ جبير بن مطعم رضي الله عنه على ماء فسألوه عن فريضة فقال: لا علم لي، ولكن أرسلوا معي حتى أسأل لكم عنها، فأرسلوا معه، فأتى عمر رضي الله عنه فسأله فقال: مَن سرَّه أن يكون فقيهًا عالمًا فليفعل كما فعل جُبير بن مطعم، سُئل عما لا يعلم فقال: الله أعلم[٢].

ومنها ما ورد عن علي رضي الله عنه قال: «ألا أنبئكم بالفقيه حق الفقيه؟ مَن لم يُقنِّط الناس من رحمة الله، ولم يُرخِّص لهم في معاصي الله تعالى، ولم يُؤمنهم مكر الله، ولم يترك القرآن رغبة عنه إلى غيره، ولا خير في عبادة ليس فيها تفقه، ولا خير في فقه ليس فيه تفهُّم، ولا خير في قراءة ليس فيها تدبر»[٣].

وعن عمر رضي الله عنه قال: «تعلموا العلم وعلموه الناس، وتعلموا له الوقار والسكينة، وتواضعوا لمن تعلمتم منه ولمن علمتموه، ولا تكونوا جبابرة العلماء،

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في «جامع العلم» (١/ ١١٢) وأصله عند البخاري ومسلم.

(٢) أخرجه ابن سعد كما في «الكنز» (٥/ ٢٤١).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٧٧)، وابن الضريس، وابن عساكر كذا في «الكنز» (٥/ ٢٣١).

فلا يقوم علمكم بجهلكم»[١] .

آداب طالب العلم: ولطالب العلم آداب لابد أن يقوم بها نحو شيخه وأستاذه.

قال عليٌّ رضي الله عنه: «إنَّ من حق العالم أن لا تكثر عليه السؤال، ولا تُعنته في الجواب، وأن لا تُلح عليه إذا أعرض، ولا تأخذ بثوبه إذا كسَّل، ولا تشر إليه بيدك، وأن لا تغمزه بعينك، وأن لا تسأل في مجلسه، وأن لا تطلب زلته، وإن زلَّ تأنيت أوبته، وقبلت فيئته، وأن لا تقول: قال فلان خلاف قولك، وأن لا تُفشي له سرًا، وأن لا تغتاب عنده أحدًا، وأن تحفظه شاهدًا وغائبًا، وأن تعم القوم بالسلام، وأن تخصه بالتحية، وأن تجلس بين يديه، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته، وأن لا تمل من طول صحبته، إنما هو كالنخلة تنتظر متى يسقط عليك منها منفعة، وإن العالم بمنزلة الصائم المجاهد في سبيل الله، فإذا مات العالم انثلمت في الإسلام ثلمة لا تُسد إلى يوم القيامة، وطالب العلم يشيعه سبعون ألفًا من مقربي السماء»[٢] .

وكانت حياة السابقين تطبيقًا حرفيًا كاملاً تامًا للإسلام في أبهى صوره وأجل مشاهده. وما ذلك إلا لأنهم كانوا أسرع الناس إلى العمل بما يعلمون. عن عمر رضي الله عنه قال: «تعلموا كتاب الله تعرفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله»[٣].

وعن علي رضي الله عنه قال: «تعلموا العلم تعرفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله، فإنه سيأتي من بعدكم زمان يُنكر فيه الحق تسعة أعشاره، وإنه لا ينجو فيه إلا كل نومة منبت، إنما أولئك أئمة الهدى ومصابيح العلم، ليسوا بالعجل المذاييع[٤] البذر[٥] »[٦] .

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في «جامع العلم» (١/ ١٣٥)

(٢) أخرجه ابن عبد البر في «جامع العلم» ، والخطيب في «الجامع» مختصرًا، والأثر في «الكنز» (٥/ ٢٤٢)، و«المنتخب» (٥/ ٢٢٩).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة كما في «الكنز» (٥/ ٢٢٩).

(٤) المذاييع: الذين إذا سمعوا خبرًا أذاعوه.

(٥) البذر: جمع (بذور) وهو المكثار والمهذار في الكلام.

(٦) أخرجه أحمد في «الزهد» وأبو عبيد، والدينوري كما في «الكنز» (٥/ ٢٢٩).

وعنه قال: «يا حملة العلم، اعملوا بـه، فإنما العالم من علم ثمَّ عمل، ووافق علمه عمله، وسيكون أقوام يحملون القـرآن لا يجاوز تراقيهم، تخالف سريرتهم علانيتهم، ويخالف علمهم عملهم، يقعدون حِلقًـا فيباهي بعضهم بعضًا حتى إنَّ الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدعه، أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله عز وجل»(١) .

ولا تحـسبن الـعلم ينـفع وحـده مـا لم يتـوَّج ربه بخَـلاقِ

بحر العلوم: وقد بلغ من كان قبلنا شأوًا عاليًا في أبواب الثقافة الإسلامية. عن أبي صالح قال: «لقـد رأيت من ابن عباس رضي الله عنهما مجلسًـا لو أن جميع قريش فـخرت به لكان لهـا فخـرًا، لقد رأيت الناس اجـتمـعوا حتى ضـاق بهم الطريق، فمـا كان أحد يقـدر على أن يجيء ولا أن يذهب، قال: فـدخلت عليه فأخـبرته بمكانهـم على بابه، فقـال لي: ضع لي وضوءًا، قـال: فتوضـأ وجلس وقال: اخرج، وقل لهم: من كان يريد أن يسـأل عن القرآن وحروفه وما أراد منه فليدخل، قال: فخرجت فآذنتهم، فدخلوا حتى ملأوا البيت والحجرة، فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مـثل ما سألوا عنه أو أكثـر، ثم قال: إخوانكم، فخـرجوا، ثمَّ قال: اخـرج، فقل: من أراد أن يسـأل عن الحلال والحرام والفـقه فليدخل، فخـرجت فقلت لهم: قال: فدخلوا حـتى ملأوا البيت والحجـرة، فما سألوه عن شـيء إلا أخبرهم به وزادهم مـثله، ثمَّ قال: إخـوانكم فخـرجوا، ثمَّ قـال: اخرج، فـمن أراد أن يسأل عن الفـرائض ومـا أشبـهـهـا فليدخل، قـال: فخـرجت فآذنتهم فـدخلوا حتى ملأوا البيت والحـجرة، فمـا سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مـثله، ثمَّ قال: إخوانكم، فخرجوا، ثمَّ قـال: اخرج، فقل: من أراد أن يسأل عن العربية والشعـر والغريب من الكلام فليدخل، قال: فدخلوا حتى ملأوا البيت والحجرة، فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثله، قال أبو صالح: فلو أن قريشًا كلها فخرت بـذلك لكان فخرًا فما رأيت مثل هذا لأحد من الناس»(٢) .

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في «العلم» والدارقطني وابن عساكر كما في «الكنز» (٥/ ٢٣٣).

(٢) أخرج الحاكم نحوه (٣/ ٥٣٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٢٠) واللفظ له.

لو سمع النصارى تفسيره لأسلموا: عن أبي وائل قال: «حججت أنا وصاحب لي، وابن عباس على الحج، فجعل يقرأ سورة النور ويُفسِّرها فقال صاحبي: يا سبحان الله!! ماذا يخرج من رأس هذا الرجل؟ لو سمعت هذا الترك لأسلمت. وفي رواية أخرى: فجعلت أقول: ما رأيت ولا سمعت كلام رجل مثله، لو سمعته فارس والروم لأسلمت»[١].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «دخلت على عمر بن الخطاب رضي الله عنه يومًا فسألني عن مسألة كتب إليه بها يعلى بن أمية من اليمن وأجبته فيها، فقال عمر: أشهد أنك تنطق عن بيت نبوة»[٢].

نساء فقيهات عالمات:

ولم تكن المؤمنة أقل حظًّا من حب العلم والشغف به من الرجال، فقد حضرن واستمعن إلى العلم النبوي الذي هدي به الرجال، وأردن أن يخصهن النبي ﷺ بمحاضرة خاصة بهن يتعلمن فيها ما يخالفن فيه الرجال. قالت النساء للنبي ﷺ: «غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يومًا من نفسك، فوعدهنَّ يومًا لقيهن فيه، فوعظهن وأمرهنَّ»[٣].

وكان النبي ﷺ يخصهن بموعظة خاصة يوم العيد، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ: «خرج ومعه بلال.. فوعظهن وأمرهن بالصدقة، فجعلت المرأة تُلقي القُرْط والخاتم، وبلال يأخذ في طرف ثوبه»[٤].

وبرزت نساء الأنصار على غيرهن في الحرص على التفقه في الدين حتى قالت عائشة رضي الله عنها: «نِعم النساء نساء الأنصار، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين»[٥].

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٥٣٧) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) أخرجه ابن سعد (٤/ ١٨٤).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب العلم رقم (١/ ٢٣٦ فتح).

(٤) أخرجه البخاري: كتاب العلم رقم (١/ ٢٣٢ فتح).

(٥) أخرجه البخاري: كتاب العلم رقم (١/ ٢٧٦ فتح).

والعلم الذي مدحه الإسلام وأثنى على أهله، ودعا إلى الحرص عليه ليس علم الدين الإسلامي عقيدة وشريعة وأخلاقًا فقط، وإنما يدخل فيه العلوم العلمية كالطب والكيمياء والفيزياء والأحياء والهندسة، والعلوم التاريخية كالتاريخ والجغرافيا، والعلوم الإنسانية كعلم النفس وعلم المنطق وعلم الاجتماع وعلم التربية وعلم الاقتصاد وعلم السياسة وعلم الإعلام وعلم اللغات والترجمة... إلخ.

وكيف لا؟ وقد ندب الإسلام إلى تعلم اللغات، قال زيد بن ثابت رضي الله عنه: «أمرني رسول الله ﷺ فتعلمت له كتاب يهود بالسريانية، وقال: «**إني والله ما آمن يهودي على كتابي**»، قال زيد: فوالله ما مرَّ بي نصف شهر حتى تعلمته وجُدت فيه، فكنت أكتب له إليهم، وأقرأ لَه كتبهم إليه»[(١)] .

وبرز من بين علماء المسلمين علماء أفذاذ خدموا البشرية وعلموا العالم:

١- أبو بكر محمد بن زكريا الرازي (٨٦٥ - ٩٢٦هـ) وكان يعد دائرة معارف علمية، ومرجعًا في الطب والكيمياء والطبيعة والعلوم.

٢- أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا الطبيب والفيلسوف والمربي والعالم بالتحليل النفسي.

٣- أبو علي الحسن بن الهيثم (٣٥٤هـ - ٤٣٠هـ) العالم الطبيعي والمهندس الرياضي، ومؤسس علم الضوء.

٤- أبو نصر الفارابي صاحب كتاب إحصاء العلوم الذي يعد دائرة معارف عامة في النحو والمنطق والرياضيات والإلهيات والأخلاق والقانون.

٥- جابر بن حيان (١٠٠هـ - ١٦١هـ) أبو الكيمياء العربية، وله كتب متعددة في الكيمياء، وقد انتفع الأوروبيون بها في بحوثهم الكيميائية.

٦- أبو ريحان البيروني (٣٦٢ هـ - ٤٤٨هـ) المؤرخ الجغرافي الفلكي الرياضي، العالم بالطبيعة والفلك .

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي.

٧- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (١٥٩هـ - ٢٥٥هـ) الكاتب الفيلسوف، معلم العقل والأدب، ومؤسس فن البيان.

٨- ابن خلدون (٧٣٢هـ - ٨٠٨هـ) مؤسس علم الاجتماع، وواضع قواعد التحقيق التاريخي، صاحب كتاب العِبَر، والمقدمة.

٩- أبو عبد الله ياقوت الحموي (٥٧٥هـ - ٦٢٦هـ) الرَّحالة الأديب الجغرافي، صاحب: معجم البلدان، ومعجم الأدباء.

وكذا الخوارزمي، وابن بطوطة، وابن النفيس. وغيرهم ممَّن لا يقلون عن إخوانهم الفقهاء والمحدثين والمفسرين والأصوليين واللغويين، فالعبرة بحسن النية وسلامة الطوية ونفع الناس ودفع الضرر، فإن تحقق ذلك في علم من العلوم لزم تعلمه ولصاحبه الأجر إن صدقت عزيمته.

* * *

(٣٥) الإحساس

خلق عال ينبني على استشعار المرء بما يؤذي الناس أو يشق عليهم فيدفعه عنهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وشعوره بما يؤرقهم فلا يقدم عليه، ووضع نفسه موضعهم.

وأول ما يؤديه المتخلق بهذا الخلق استشعاره لقربه من الله أو تقصيره في جنبه حتى لا يتبلد حسه وينعدم شعوره فيقدم على المعاصي دون استحياء، يقول النبي ﷺ: «**من سرَّته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن**»[١] .

ولهذا الخُلُق العالي اتصال واسع بالتعامل مع خلق الله، فلا يكاد يحدث أمر تراه العين أو تسمع به الأذن أو تحسه الأيدي أو تشمه الأنف أو يذوقه الفم إلا ولهذا السلوك القيم أثر فيه.

وعندما نُبصر أحوال المسلمين نرى أن هذا الخلق قد غاب عن قطاعات كثيرة وفئات متعددة في واقع هذه الأمة. ألا ترى الذين ينصبون عرسًا ويصحبونه بالأصوات الشنيعة والكلمات البذيئة، ويستمر هذا الصخب أحيانًا إلى أذان الفجر، فكم آذى هؤلاء من مرضى وطلاب يذاكرون... ونائمين يرتاحون.

وتحزن عندما تركب وسيلة مواصلات، فتبصر رجلاً يخرج سيجارة فيدخن بها فيؤذي نفسه وغيره ولا يكترث بأحد.

مظاهر الإحساس مع الخلق:

وقد حرص ديننا الحنيف على غرس هذا الخلق في المعاملة مع الآخرين في القليل والكثير. ففي أثناء العطاس يقول صاحب الخُلق الأكمل ﷺ: «**إذا عطس أحدكم فليضع كفيه على وجهه، وليخفض صوته**»[٢] ، وذلك ليدفع التفل والصوت المزعج عن إخوانه، وخفض الصوت أثناء السلام، وتقدير ارتفاع الصوت فيه على

(١) صحيح: أخرجه الطبراني، وانظر «صحيح الجامع» رقم (٦٢٩٤).

(٢) أخرجه الحاكم وابن وهب بإسناد حسن كما في «صحيح الجامع» رقم (٦٨٥).

حسب عدد الناس وحالهم مندوب.

يقول المقداد رضي الله عنه: «كنا نرفع للنبي ﷺ نصيبه من اللبن فيجيء من الليل فيُسلم سلامًا لا يوقظ نائمًا ويُسْمِع اليقظان، فجاء النبي ﷺ فسلَّم كما يُسلم»(١).

- وزيارة المريض، فإنَّ المريض إذا لم يُزر ازداد نصبه، وطال مرضه، وخبثت نفسه.

ومما يراعى عند المريض إحساسًا بآلامه خفض الصوت وقلة الكلام وتخفيف الزيارة وإعطاؤه الرجاء في الشفاء والأمل في السلامة، وكثرة الدعاء له، والتنفيس له في الأجل، ووصله بالهدايا والهبات.

وعند الطعام يجب على المؤمن أن يستشعر في حركاته وسكناته وكلماته وأصواته أثناء الأكل بمَن معه من المُطعَمين، فلا يعيب طعامًا ولا يذمه، كما في الحديث النبوي: «ما عاب رسول الله ﷺ طعامًا قط، إن اشتهاه أكله، وإن كرهه تركه»(٢).

ولا تتحرك يده وتمتد في نواحي الصحفة والأطباق. عن عمر بن أبي سلمة رضي الله عنهما قال: كنت غلامًا في حجْر رسول الله ﷺ وكانت يدي تطيش في الصحفة، فقال لي رسول الله ﷺ: **«يا غلام سمِّ الله، وكل بيمينك، وكُل مما يليك»**(٣).

- وأن لا يتحدث بكلمة تمنع الآكلين من إشباع رغباتهم من الأكل كأن يتكلم عن الحدث أو النجاسات.

- أن لا تخرج منه رائحة كريهة عند الطعام، فإن غلبه الحدث فليستأذن دون أن يذكر ما دهاه.

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٠٥٥).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٥٤٠٩)، ومسلم رقم (٢٠٦٤).

(٣) أخرجه البخاري رقم (٥٣٧٦)، ومسلم رقم (٢٠٢٢).

- وأن يأكل مما يليه.

- وأن لا يُدْخل يده في أنفه أو عينه أو أذنه، أو يعبث بجسده أثناء الطعام.

- وأن لا يأكل بيديه الاثنين معًا.

- وأن لا يتبع نظراته صحفة غيره.

- وأن لا يرفع صوته بجشاء[١] الشبع (التكريع) فيؤذي غيره، كما في الحديث الحسن أن رجلاً تجشأ عند النبي ﷺ فقال: «**كُفَّ عنا جشاءك، فإنَّ أكثرهم شبعًا في الدنيا أطولهم جوعًا يوم القيامة**»[٢].

وفي آداب اللباس:

ينبغي على المؤمنة أن تلبس ثيابًا ساترًا فضفاضًا هادئًا، لا يصف ولا يشف، ولا يثير غريزة ولا يخطف بصرًا، فإن مخالفتها لذلك تحرك الشهوات الساكنة، وتهيج الغرائز الكامنة، وهي مطالبة أن تحس بآلام غيرها.

ولهذا الغرض النبيل حرم الإسلام على المسلم أن يلبس الحرير أو الديباج إلا إذا كان به حكة. يقول النبي ﷺ: «**لا تلبسوا الحرير أو الديباج، ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافهما، فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة**»[٣].

ومن أجل ذلك أيضًا حرم الإسلام على المسلم الأكل أو الشرب في آنية الذهب أو الفضة أو الماس ونحو ذلك، يقول رسول الله ﷺ: «**إنَّ الذي يأكل أو يشرب في إناء الذهب والفضة إنما يُجرجر في بطنه نار جهنم**»[٤].

وقال: «**من شرب في الفضة لم يشرب فيها في الآخرة**»[٥].

- وإنما شرع الاستئذان صيانة لأعراض الناس وسترًا لعوراتهم، يقول ﷺ:

---

(١) الجشاء: صوت يخرج من الخياشيم فيه بحة وغلظ.

(٢) أخرجه الترمذي وابن ماجه، وانظر «صحيح الجامع» رقم (٤٤٩١).

(٣) أخرجه البخاري رقم (٥٤٢٦)، ومسلم رقم (٢٠٦٧).

(٤) أخرجه مسلم رقم (٢٠٦٥).

(٥) أخرجه مسلم رقم (٢٠٦٦).

«**إنما جُعل الاستئذان من أجل البصر**»(١) . ورعاية لشعور المُستَأذن عليه فإنَّ على المستأذِن أن يذكر اسمه عند الاستئذان، يقول جابر رضي الله عنه: «أتيت النبي ﷺ فدققت الباب فقال: «من هذا؟» فقلت: أنا، فقال: «أنا، أنا» كأنه كرهها»(٢).

الإحساس بين الزوجين:

والإحساس بين الزوجين كائن منذ القدوم على أول محطة من محطات الزواج.

ففي الخطبة لا يتقدم الرجل على خطبة امرأة خطبها أخوه، قال النبي ﷺ: «**لا يبع بعضكم على بيع بعض، ولا يخطب على خطبة أخيه إلا أن يأذن له**»(٣) .

فإن تم رجوع الخاطب عن خطبته دون تقصير من المخطوبة فلا يليق به أن يأخذ الهدايا العينية وغيرها التي أهداها للمخطوبة؛ لئلا يجمع عليها نار الفسخ وأخذ الهدايا فيزيدها غمًّا.

- ومن استشعار الزوجين ببعضهما: التعاهد لوقت الطعام والمنام، فإن تنغيص الطعام مغضبة، وتنغيص المنام ملهبة، وأن لا تقع عين أحدهما على قبيح، ولا يشم منهما إلا أطيب ريح.

ولابد أنْ تدرك الزوجة ما يريح زوجها في نومه، فإن دعاها ولو بالتلميح لفراشه، فلتعجل إليه ولو كانت على تنور، أو كانت مريضة، يقول النبي ﷺ: «**إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت، فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح**»(٤).

وعلى الزوج أن يسعد زوجته بالمعاشرة بالمعروف والمعاملة بالإحسان، وكذا المرأة عليها أن تسر زوجها بما ينفعه ولو كان في ذلك ترك النوافل، قال النبي ﷺ: «**لا يحل للمرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه، ولا تأذن في بيته إلا بإذنه**»(٥)، والمرأة مأجورة على ترك صيام النفل إحساسًا بزوجها.

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٦٢٤١)

(٢) أخرجه البخاري رقم (٦٢٥٠)، ومسلم رقم (٢١٥٥) .

(٣) أخرجه البخاري رقم (٢١٣٩)، ومسلم رقم (١٤١٢) .

(٤) أخرجه البخاري رقم (٣٢٣٧)، ومسلم رقم (١٤٣٦) .

(٥) أخرجه البخاري رقم (٥١٩٥)، ومسلم رقم (١٠٢٦) .

ومن الإحساس بالجار: عدم إظهار الفاكهة واللحوم ولو بالرائحة أمام الجيران، خاصة إن كانوا فقراء، فإما أن يكرمهم وإما أن يدخلها سرًّا.

وعليه أن لا يؤرق منامه أو راحته بصوت عال، وأن يفرح لفرحه، ويظهر الحزن لما أصابه، ويقرضه إن طلب قرضًا، ويعوده إذا مرض، ويشيع جنازته إذا مات، ويكف أذاه عنه، ويكف ولده عن الإساءة لولد جاره، وينصر ولد جاره إن كان صاحب الحق.

الإحساس بالخادم والعامل:

وعلى المؤمن أن يستشعر بالخادم أو العامل ومن في معناهما، فلا يكلفه من العمل ما لا يطيق ولا يعذبه، ولا ينظر إليه بعين الكبر والازدراء، وأن يطعمه مما يأكل، ويلبسه مما يلبس، ويعفو عن زلته، ولا يكثر تعنيفه، يقول النبي ﷺ: «**إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه، فإن لم يجلسه معه، فليناوله لقمة أو لقمتين، أو أكلة أو أكلتين، فإنه وَلِيَ علاجه**»[١] .

ويقول صلوات الله وسلامه عليه: «**إخوانكم خَوَلَكم**[٢] **جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يديه فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم**»[٣] .

- واستشعار حق الآخرين أثناء الحديث يتطلب اجتناب الفحش والسب واللعن والكذب والبذاء والثرثرة والغيبة والتنابز بالألقاب والفخر بالأحساب والطعن في الأنساب، والنميمة، وشهادة الزور، والتفاصح على وجه الكبر.

ومن ذلك ألا يتناجى اثنان دون الثالث.

يقول المعصوم ﷺ: «**إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس، من أجل أن ذلك يُحْزِنه**»[٤] .

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٢٥٥٧)، ومسلم رقم (١٦٦٣) .

(٢) خَوَلَكم: أي: خدمكم وأحباؤكم.

(٣) أخرجه البخاري رقم (٣٠)، ومسلم رقم (١٦٦١) .

(٤) أخرجه البخاري رقم (٦٢٩٠)، ومسلم رقم (٢١٨٤) .

حاتم الأصم أستاذ في الإحساس:

وهذا حاتم الأصم يُلقب بالأصم لموقف نبيل له في الإحساس، فقد دخلت عليه امرأة لتسأله عن حكم شرعي، وبينما المرأة تسأله إذا بحدث يغلبها فضرطت، فاستحت وكفت عن السؤال، فقال لها: ارفعي صوتك، أريد أن أسمع سؤالك، وأعاد هذا مرارًا، فاطمأنت المرأة وهدأت، وظنت أن سمع حاتم ضعيف، فسألت سؤالها وأجابها، وانطلقت.

الإحساس بالصديق:

ومن أحق الناس باستشعار أحواله الصديق، فإنه خل الإنسان وقرينه. ذات يوم زار رجل صديقًا له، فدق عليه الباب يستأذنه فقال الصديق للزائر خيرًا، ما الذي دعاك إلى المجيء إليَّ في هذا الوقت من الليل؟ فقال: إنني مدين بأربعمائة درهم، وأريد أن أدفعها لأصحابها فوزن الصديق له أربعمائة درهم، وقدَّمها لصديقه بنفس راضية، فشكر الرجل لصديقه وودَّعه وهو خارج.

وعاد الصديق يبكي، فظنت امرأته أنه يبكي؛ لأنه أعان صديقه، وقالت له: لِمَ أعطيته إذا كان الإعطاء مُضايقًا ومؤلمًا لك. فأجابها: إنني لم أبكِ لأنني أعطيته، بل أبكي لأنني لم أشعر بحاجته، ولم أعرف حاله من قبل حتى احتاج واضطر إلى أن يفاتحني ويشرح لي ما في نفسه، وكان يجب أن ألحظ أمره، وأعرض عليه المساعدة بنفسي؛ كي لا يضطر إلى السؤال والخجل(١) .

استشعار الضيف بمُضيفه:

والضيف يستشعر حال مُضيفه، فإن رأى من حاله فقرًا وخصاصة لم يشبع ويمعن في الشبع عند الأكل وخفف في الزيارة، وإن أهدى له هدية تكافئ الإكرام كان خيرًا وأفضل. يقول النبي ﷺ: **«لا يحل لمسلم أن يُقيم عند أخيه حتى يؤثمه»**، قالوا: يا رسول الله، وكيف يؤثمه؟ قال: **«يقيم عنده ولا شيء يُقريه به(٢)»**(٣) .

---

(١) «روح الإسلام» (صـ ٣٣٠).

(٢) أي: يكرمه به.

(٣) أخرجه مسلم رقم (٤٧) .

لذلك عيَّن الشرع مدة محددة يكرم فيها الرجل ضيفه، وبعد هذه المدة لا يلزم المضيف أن يكرم ضيفه. قال النبي ﷺ: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته»**، قالوا: وما جائزته يا رسول الله؟ قال: **«يومه وليلته، والضيافة ثلاثة أيام، فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه»**(١).

الإحساس في العبادات:

وأثناء تأدية العبادات يخالط المسلم إخوانه، ويلاصق أهل دينه، فحتم عليه أن يكون ناظرًا لحال غيره ببصر وبصيرة، مراعيًا لما يحبه فيفعله، متذكرًا لما يكرهه فيدعه.

ومن ذلك أنه لا يدخل المسجد وبرائحة فيه ثوم أو بصل أو كراث، يقول ﷺ: **«من أكل البصل والثوم والكراث، فلا يقربن مسجدنا، فإنَّ الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم»**(٢).

فعلى المؤمن إذا قدم إلى المسجد لأداء فريضة أو نافلة أو استماع علم أن تكون رائحته طيبة. ولهذه العلة نهى الشرع عن البصاق في المسجد، يقول ﷺ: **«البصاق في المسجد خطيئة، وكفارتها دفنها»**(٣).

والرفق واللين والإحساس بالمجاور أثناء أداء الصلاة لازم. يقول الصادق المصدوق ﷺ: **«أقيموا الصفوف وحاذوا بين المناكب، وسدوا الخَلل، ولينوا بأيدي إخوانكم، ولا تذروا فرجات للشيطان، ومن وصل صفًّا وصله الله، ومن قطع صفًّا قطعه الله»**(٤).

- ومن الإحساس بالمصلين ألا يرفع المأموم صوته فيؤذي من يصلي معه أو يشكل عليهم صلاتهم، فقد كان النبي ﷺ معتكفًا فسمع صوتًا عاليًا من المصلين. فقال: **«ألا إن كلكم مناج ربه، فلا يؤذين بعضكم بعضًا، ولا يرفع بعضكم على بعض**

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٦٠١٨).

(٢) أخرجه مسلم رقم (٥٦٤).

(٣) أخرجه البخاري رقم (٤١٥).

(٤) أخرجه أبو داود رقم (٦٦٦)، والنسائي رقم (٨١٩) بإسناد صحيح كما قال النووي في «رياض الصالحين» (صـ ٢٩٠).

في القراءة»(١) . كما أنه على الإمام أن يدرك حال من يصلي خلفه، فإن كان أكثرهم ضعفاء أو مرضى أو كبار سن فليخفف، ولا يطيل صلاته، يقول رسول الله ﷺ: «**إذا صلى أحدكم للناس فليخفف، فإنَّ فيهم الضعيف والسقيم والكبير، وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطوِّل ما شاء**»، وفي رواية: «**وذا الحاجة**»(٢) .

ونُدرك قوة الإحساس في إمامته ﷺ للناس عندما يقول: «**إني لأقوم إلى الصلاة، وأريد أن أطوِّل فيها فأسمع بكاء الصبي، فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه**»(٣) . فلا يجدر بالإمام أن يدوم على حال واحدة في قراءته وإمامته، ولا يكترث بما نزل بمن وراءه.

- وكذلك خطيب الجمعة: وعلى الخطباء والوعاظ أن لا يطيلوا خطبهم ومواعظهم إطالة تشق على المستمعين وبخاصة أثناء الحر الشديد، وألا يواظبوا على الوعظ كل يوم. عن أبي وائل قال: «كان ابن مسعود رضي الله عنه يُذكرنا في كل خميس مرة، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن لوددت أنك ذكرتنا كل يوم، فقال: أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملَّكم وإني أتخولكم بالموعظة، كما كان رسول ﷺ يتخولنا(٤) بها مخافة السآمة علَينا»(٥) .

ولئلا يُظن بالمسلم أنه يكره إمام الصلاة أو لا يراه أهلاً للإمامة أو نحو ذلك، نهى النبي ﷺ عن خروج المصلي من المسجد بعد الأذان إلا لعذر، فعن أبي الشعثاء قال: «كنا قعوداً مع أبي هريرة رضي الله عنه في المسجد، فأذَّن المؤذن فقام رجل من المسجد يمشي، فأتبعه أبو هريرة بصره حتى خرج من المسجد فقال أبو هريرة: أما هذا فقد عصى أبا القاسم ﷺ»(٦) .

والإمام نفسه إن أحدث فليضع يده على أنفه وليستخلف أحد الناس وذلك

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد وأبو داود والحاكم، وانظر «صحيح الجامع» رقم (٢٦٣٩).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٧٠٣)، ومسلم رقم (٤٦٧) .

(٣) أخرجه البخاري رقم (٧٠٧).

(٤) يتخولنا: يتعهدنا.

(٥) أخرجه البخاري رقم (٦٨)، ومسلم رقم (٢٨٢١) .

(٦) أخرجه مسلم رقم (٦٥٥) .

منعًا لوقوعه في الحرج.

وحرصًا على تأدية أخيه الصلاة بخشوع يجب على المسلم ألا يمر بين يدي المصلي. عن عبد الله بن الحارث رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو يعلم المار بين يدي المصلي ماذا عليه من الإثم لكان أن يقف أربعين خيرًا له من أن يمر بين يديه**». قال الراوي: لا أدري قال: أربعين يومًا، أو أربعين شهرًا، أو أربعين سنة[1].

في الزكاة: والإحساس واجب أثناء إعطاء الزكاة، فعلى المزكي أن يقدمها للفقير دون منٍّ أو أذى، أو في صورة غير لائقة كاختيار الحقير والقبيح والخبيث من المال، قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [البقرة: ٢٦٢].

ويقول جل وعز: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ**﴾ [البقرة: ٢٦٧].

ومن إحساسه بالفقير أن يقدم صدقته سرًّا ما قدر على ذلك، ولا بأس أن يعطيها للمحتاج في صورة هدية أو أنه موصِّل أمانة.

وكذا في أداء الصيام: يستشعر المؤمن بالصائم فلا يعرض عليه من الطعام أو الشهوات ما يفسد صيامه، وتخص المسلمة هنا باجتناب الثياب المثيرة للغرائز؛ لئلا تدفع زوجها للإفطار في نهار رمضان.

وفي أثناء الحج: عليه أن يرفق بإخوانه ويعاملهم بلطف ويبتعد عن الفسوق والجدال.

الإحساس بالأموات: ولا يقتصر الإحساس على الأحياء بل يجب للأموات.

فعلى غاسل الميت: أن يختار لغسله ماءً يوافق حرارة الجو، ويحرك أعضاءه برفق، ويعامله كأنه حي، كما ورد في الحديث النبوي: «**كسر عظم الميت ككسره**

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٥١٠)، ومسلم رقم (٥٠٧).

حيًّا»(١) .

وأثناء زيارة قبره يحرم المشي بالأقدام على القبور، كما يحرم الجلوس على القبور، فإن هذا يؤذي صاحب القبر، يقول رسولنا ﷺ: «**لأن يجلس أحدكم على جمرة، فتحرق ثيابه، فتخلص إلى جلده خير له من أن يجلس على قبر**»(٢) .

واستشعارًا بحق الميت فإنه يحرم النياحة ولطم الخدود وشق الجيوب والكلام بدعوى الجاهلية؛ لأن ذلك يؤذي الميت.

الإحساس بالحيوان: والمؤمن مرهف الحس ولو مع الحيوان، فيطعمه إذا جاع ويسقيه إذا عطش ويريحه إذا تعب ويداويه إذا مرض. عن ابن الحنظلية رضي الله عنه قال: مرَّ رسول الله ﷺ ببعير قد لحق ظهره ببطنه فقال: «**اتقوا الله في هذه البهائم المُعجمة، فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة**»(٣) .

وكان الصحابة رضي الله عنهم أحرص الناس على صلاة النافلة والمواظبة عليها، ومع هذا كان إحساسهم المرهف يدفعهم إلى تأخير صلوات النوافل حتى يريحوا البعير ويحطوا عنه الرحال، قال أنس رضي الله عنه: «كنا إذا نزلنا منزلاً لا نُسبِّح(٤) حتى نَحُل الرحال»(٥) .

إذًا فهذا الخلق واسع التخصص فإنه يدخل في أبواب متعددة مع النفس والغير أقارب أو أباعد، ذكر أو أنثى، صغار أو كبار، أحباب أو أعداء، مسلمين أو غير مسلمين، بشر أو جن، أو حيوان، وذلك لأنه يمثل الرعاية المعنوية والإحساس المرهف بحقوق الآخرين وحاجياتهم.

* * *

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه وابن حبان والدارقطني والبيهقي وابن الجارود وأبو نعيم والخطيب، وانظر «صحيح الجامع» رقم (٤٤٧٨).

(٢) أخرجه مسلم رقم (٩٧١) .

(٣) أخرجه أبو داود رقم (٢٥٤٨)، وأحمد (١٧٢٨٢) بإسناد صحيح.

(٤) نسبح: نصلي النافلة.

(٥) أخرجه أبو داود بإسناد على شرط مسلم كما قال النووي.

(٣٦) الاتحاد

المؤمن يجمع ولا يُفرق، ويوحِّد ولا يُعدِّد، ويقرِّب ولا يُبعِّد، ويُيَسر ولا يُعسِّر، يمنع الاختلاف، ويرفض التنازع، ويترك التشديد، ويهجر الافتراق، وذلك لأن الاعتصام بحبل الله واجتماع الكلمة والبعد عن الفرقة والتنازع أساس التآلف ولب النصر وقلب العزة وعنوان القوة وطريق التقدم كما يقول الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٣-١٠٥].

ويقول الحق جل ثناؤه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٠-٣٢].

ويقول جل جلاله: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

فالافتراق والتنازع والتقاتل من أجل الدنيا عنوان الفشل وسر الهزيمة وسبب الخسران. يقول تعالى: ﴿وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

لذا شدد الإسلام الإنكار على من فرقوا دينهم وتنازعوا في اعتقادهم قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم

بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وفي المقابل أمر الشرع باجتماع الكلمة واتحاد الصف وجعل لذلك ثوابًا عظيمًا فملازم الجماعة يفوز بجنة واسعة كما اتسع قلبه لإخوانه. يقول النبي ﷺ: «من أحب منكم أن ينال بحبوحة الجنة(١) فليلزم الجماعة، فإنَّ الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد»(٢).

والله جل وعلا مع الجماعة يؤيدها ويجمعها ويقويها، يقول ﷺ: «يد الله على الجماعة، فإذا شذ الشاذ منهم اختطفته الشياطين كما يختطف الذئب الشاة من الغنم»(٣).

أول وصية نبوية: واجتماع الكلمة أول وصية نبوية أوصى بها النبي ﷺ أصحابه حيث قال: «إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن، وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، فكأنه أبطأ بهن، فأوحى الله إلى عيسى: إما أن يُبلِّغهن أو تُبَلِّغهن، فأتاه عيسى فقال له: إنك أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن، وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، فإما أن تبلغهن وإما أن أبلغهن، فقال له: يا روح الله، إني أخشى إن سبقتني أن أعذب أو يُخْسف بي، فجمع يحيى بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد فقعدوا على الشرفات فحمد الله وأثنى ثمَّ قال: إنَّ الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن، وأولهن: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، فإنَّ مثل مَن أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبدًا من خالص ماله بذهب أو وَرِق، ثم أسكنه دارًا، فقال: اعمل وارفع إليَّ، فجعل العبد يعمل ويرفع إلى غير سيدِه، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك، وإنَّ الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئًا. وأمركم بالصلاة، وإذا قمتم إلى الصلاة فلا تلتفوا فإنَّ الله عز وجل يُقْبل بوجهه على عبده ما لم يلتفت. وأمركم بالصيام، ومثل ذلك كمثل رجل معه صُرة مسك في عصابة كلهم يجد ريح المسك، وإنَّ خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك. وأمركم بالصدقة، ومثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يديه إلى عنقه، وقدموه ليضربوا عنقه، فقال لهم: هل لكم أن أفتدي نفسي منكم؟ فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فكَّ

---

(١) البحبوحة: وسط الدار.

(٢) أخرجه الترمذي رقم (٢١٦٥) كتاب الفتن وقال: حديث حسن صحيح. وانظر «السلسلة الصحيحة» رقم (٤٣٠).

(٣) أخرجه الحاكم (٢/٣١٨) وصححه ووافقه الذهبي.

نفسه. وأمركم بذكر الله كثيراً، ومثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعًا في أثره فأتى حصنًا حصينًا فأحرز نفسه فيه، وإنَّ العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله تعالى.

وأنا آمركم بخمس أمرني الله بهن: الجماعة، والسمع والطاعة، والهجرة، والجهاد في سبيل الله، فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يُراجع، ومن دعا بدعوة الجاهلية فهو من جثاء جهنم، وإن صام وزعم أنه مسلم، فادعوا بدعوة الله التي سماكم بها المسلمين المؤمنين عباد الله»(١).

فاجتماع القلوب ووحدة الصفوف قوة وعزة ونصر على شياطين الإنس والجن، كما يقول النبي ﷺ: «اثنان خير من واحد، وثلاثة خير من اثنين، وأربعة خير من ثلاثة، فعليكم بالجماعة، فإنَّ الله عز وجل لم يجمع أمتي إلا على الهدى»(٢).

ولا ريب أن صلاة الجماعة في المسجد والحضور إلى اجتماعات المسلمين لاستماع خطبة أو تعلم علم أو حفظ قرآن تؤدي هذا الغرض، بينما الاعتزال عن الناس وأداء الصلاة في البيوت وهجر المشاركة في الخيرات تؤدي إلى تلاعب الشيطان بالقلوب والنفوس، كما يقول سيد الخلق ﷺ: «ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان، فعليكم بالجماعة، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية»(٣).

وللحث على الوحدة بين المسلمين أمر الله تعالى بالإصلاح بين المتنازعين والمتقاتلين منهم حيث قال: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

وفي اجتماع الكلمة واتحاد الصف على الصراط المستقيم رضا الله جل ثناؤه.

---

(١) أخرجه أحمد والبخاري في «التاريخ» والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم والطيالسي وابن خزيمة بإسناد صحيح، وصححه ابن كثير.

(٢) أخرجه أحمد وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٣٤٣).

(٣) أخرجه أبو داود (٥٤٧)، والنسائي (٨٤٧) بإسناد حسن.

يقول الحبيب ﷺ: «**إن الله تعالى يرضى لكم ثلاثًا، ويكره لكم ثلاثًا، فيرضى لكم أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرَّقُوا، ويكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال**»(١) .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «خطَّ رسول الله ﷺ خطًّا بيده، ثم قال: «**هذا سبيل الله مستقيمًا**»، قال: ثمَّ خط عن يمينه وشماله، ثمَّ قال: «**هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه**»، ثم قرأ: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ**﴾ [الأنعام: ١٥٣]»(٢) .

لكل هذه الأهداف والأغراض والغايات اللازمة دعا الإسلام إلى صلاة الجماعة في المسجد، وحرَّم هجر بيوت الله، قال ﷺ: «**لقد هممت أن آمر بحطب فيحطب، ثمَّ آمر بالصلاة فيؤذن لها، ثمَّ آمر رجلاً فيؤم الناس، ثمَّ أخالف إلى رجال لا يشهدون الصلاة في الجماعة لأحرق عليهم بيوتهم**»(٣) .

وأجمع علماء الإسلام على حرمة وبطلان صلاة من صلى خلف الصف وحده تاركًا الصلاة وراء الإمام، بل وأبطل فريق من الفقهاء صلاة من يصلي مع الإمام وحده خلف الصفوف دون عذر.

ومنع الإسلام من إقامة جماعتين في مسجد واحد في وقت واحد في مكان واحد، كما كرَّه عقد جماعة في مسجد له إمام راتب قبل انعقاد الجماعة الأولى(٤).

وأمر بتسوية الصفوف وسد الفرج والمحاذاة بالأعناق والرُّكب والأقدام وعدم الاختلاف عند الصلاة، يقول النبي ﷺ: «**إن الله تعالى وملائكته يصلون على الذين يصلون الصفوف، ومن سدَّ فرجة رفعه الله بها درجة**»(٥) .

وقال صلوات الله وسلامه عليه: «**رصوا صفوفكم وقاربوا بينها وحاذوا بالأعناق،**

---

(١) أخرجه مسلم رقم (١٧١٥) .

(٢) حسن: عزاه الهيثمي في «المجمع» (٥/ ٢١٩) لأحمد والطبراني وقال: رجال أحمد ثقات.

(٣) أخرجه الشيخان: البخاري رقم (٦٤٤)، ومسلم رقم (٦٥١).

(٤) وبعض الفقهاء حرّم ذلك.

(٥) أخرجه أحمد وابن ماجه وابن حبان والحاكم.

فوالذي نفسي بيده إني لأرى الشياطين تدخل من خلل الصفوف كأنها الخذف»[(١)] .

وقال ﷺ: «استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم، ليليني منكم أولو الأحلام والنهى»[(٢)] .

ولهذه المعاني السابقة أيضًا كرِّه الفقهاء عقد جماعة ثانية في المسجد الذي له إمام راتب[(٣)] .

وأشد من هذا وذاك ترك صلاة الجمعة في المسجد، فإنها من كبائر الإثم، يقول رسول الله ﷺ: «لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات أو ليختمن الله على قلوبهم ثمّ ليكونن من الغافلين»[(٤)] .

ولوحدة الصف وجمع الكلمة دعا الإسلام المسلمين إلى اختيار أمير لأي جماعة تجتمع على شيء محسوس أو أمر معنوي خاصة في السفر. كما قال سيد الناس ﷺ: «إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم»[(٥)] .

ويقول النبي ﷺ: «الراكب شيطان، والراكبان شيطانان، والثلاثة ركب»[(٦)] ، وذلك لأن كثرة العدد تؤدي إلى الأمن والأمان والسلم والسلام والراحة والاطمئنان بخلاف الوحدة، ففيها كل آفة. كما ورد: «لو أن الناس يعلمون من الوحدة ما أعلم ما سار راكب بليل وحده»[(٧)] .

فالاتحاد قوة، والتفرق ضعف، والجماعة ألفة، والعزلة عذاب، والجماعة عزة والفرقة ذل، والوحدة رحمة، والتقاتل موجب للعقاب، والوحدة قوة دونها كل قوة، والتقاطع ضعف ما بعده ضعف.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي وابن حبان، وانظر «صحيح الجامع» رقم (٣٥٠٥).

(٢) أخرجه مسلم رقم (٤٣٢) .

(٣) ومنهم من حرم ذلك.

(٤) أخرجه مسلم رقم (٨٦٥).

(٥) أخرجه أبو داود بإسناد حسن كما قال النووي، والحديث في «صحيح أبي داود».

(٦) أخرجه أبو داود (٢٦٠٧)، والترمذي رقم (١٦٧٤)، وقال: حديث حسن.

(٧) أخرجه البخاري رقم (٢٩٩٨).

والاتحاد ضرورة ولو كان فيه الموافقة على إمامة فاسق للأمة درءًا للمفسدة وسدًا لذريعة التنازع. عن خالد بن سُمير قال: «قيل لابن عمر رضي الله عنهما: لو أقمت للناس أمرهم، فإنَّ الناس قد رضوا بك كلهم، فقال لهم: أرأيتم إن خالف رجل بالمشرق؟ قالوا: إن خالف رجل قتل، وما قتل رجل في صلاح الأمة؟ فقال: والله، ما أحب لو أنَّ أمة محمد ﷺ أخذت بقائمة رمح وأخذت بزجه فقتل رجل من المسلمين ولي الدنيا وما فيها»[١].

وعن نافع قال: قيل لابن عمر رضي الله عنهما زمن ابن الزبير رضي الله عنهما. والخوارج والخشبية[٢]: «أتصلي مع هؤلاء ومع هؤلاء، وبعضهم يقتل بعضًا؟ فقال: من قال: حي على الصلاة أجبته، ومَن قال: حي على الفلاح أجبته، ومن قال: حي على قتل أخيك المسلم وأخذ ماله قلت: لا»[٣].

وابن عمر رضي الله عنهما أخذ منهجه في ذلك من قول نبيه ﷺ: «**من رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر عليه، فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبرًا فيموت إلا مات ميتة جاهلية**»[٤].

واجتماع الكلمة وإن كان واجبًا في كافة الأحوال والأوقات إلا أنه يكون أشد وجوبًا وأكثر فرضية عند محاولة أعداء المسلمين الانقضاض على بلاد الإسلام.

لما تفاقم الخلاف وزاد الشقاق واشتعلت الحرب والتقى الفريقان، وبالرغم من هزيمة معاوية رضي الله عنه في أكثر الجولات التي وقعت يوم صفين، ورغم إحساس معاوية رضي الله عنه بالخطر المحيط به، فلم يخرج رضي الله عنه عن الحق العام للأمة، ولم يفرق شملها أو يشتت كلمتها، أو يتركها طعمة سهلة لحزب الشيطان.

فقد أراد ملك الروم أن يستغل فرصة الحرب المشتعلة بين معاوية وعلي رضي

---

(١) أخرجه ابن سعد (٤/ ١١١).

(٢) فرقة من فرق الخوارج.

(٣) أخرجه ابن سعد (٤/ ١١١)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٩٤).

(٤) أخرجه أحمد والشيخان.

الله عنهما، فأرسل إلى معاوية يقول له: بلغنا ما وقع من اعتداء عليك من صاحبك عليّ مع أنك أحق بالخلافة منه، فإنْ شئت بعثنا إليك أسطولاً من رجالي يعيدون الأمر إليك ويثبتون في الأمر أقدامك، ويكونون لك خير جنود وأصدق أنصار. ولم يتردد معاوية وكتب إليه: «مكانك» فوالله لو وطئت شبرًا واحدًا من أرض الإسلام لأبايعين عليًّا على حربك. ولما تدانى ملك الروم من بعض بلاد الإسلام كتب إليه معاوية: والله لئن لم تنته وترجع إلى بلادك يا لعين لأصطلحن أنا وابن عمي عليك، ولأخرجنك من جميع بلادك، ولأضيقن عليك الأرض بما رحبت، ومنذ ذلك الحين خاف وانكشف.

ولطالما كانت الفرقة والتنازع تعصبًا للآراء الأصولية والفقهية عاملاً من عوامل الهدم والضعف والذل والتقاتل، وسببًا رئيسيًّا في الاحتلال النصراني واليهودي لبلدان العالم الإسلامي قديمًا وحديثًا. وما تفعله أمريكا اليوم في أفغانستان والعراق دليل قاطع وبرهان ساطع على هذه الحقيقة التي لا تقبل الشك فإنها عندما سمعت وشاهدت المجازر التي تقع بين حركة طالبان الأفغانية والأحزاب المناوئة لها من الشيعة وغيرهم كان ذلك حافزًا ومشجعًا لها على غزو أفغانستان.

وكذلك فعلت في العراق حيث استطاعت تجميع قوى المعارضة في داخل العراق وخارجها، وأطمعتهم في البلاد، فخانوا بلادهم وقتلوا إخوانهم، ونصروا أعداء الله بغيًا وعدوًا وممالأة للأمريكيين، أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر. وإن القلب ليحترق عندما يشاهد على شاشات التلفاز وقنوات الإذاعة والأخبار العالمية صور الشعب العراقي يقتل بعضه بعضًا ويؤذي بعضه بعضًا. ولازال أعداء الإسلام يسيرون بطريقة «فرق تسد».

أما آن لنا أن نتحد ونتجمع ونترك الاختلافات الفرعية جانبًا.

إنك إذا دخلت مسجدًا من مساجد المسلمين حزن قلبك ودمعت عينك لهذه الفتن والضغائن والمعارك التي أثيرت من جراء التعصب للمذاهب الفقهية أو آراء الجماعات الإسلامية أو بدع المنتسبين للصوفية.

سمعت أن داعية فذًّا قد رأى الناس يختلفون في المسجد على الأذان، هل يقال

فيه: أشهد أن محمدًا. . .، أو أشهـد أن سيدنا محمدًا. . . وعظم الخطب، وكثر النزاع، فأفتاهم بأن لا يؤذنوا للصلاة؛ لأن الأذان سنة، واجتماع المسلمين فرض. والأمر من اليسر بمكان، فإن اختلاف الأمـة رحمة، واختلاف الرأي لا يفسد للود قضية، ولو أن هؤلاء الذين يختلفون في المساجد قد تأدبوا بآداب الاختلاف!

فمن آداب الاختلاف وقواعده:

أ- أن نتحد جميعًا فيما اتفقنا عليه وليعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه.

ب- عدم التعصب والتقليد الأعمى لمذهب من مذاهب الفقهاء.

جـ- عدم إلزام المخالفين في الرأي أو المذهب برأي الشخص ومذهبه.

د- اجتناب الإنكار على الآخـذين برأي فقيه، وإن كـان ضعيفًـا، والحذر من اتهامهم بالفسوق أو ببطلان عبادتهم.

هـ- السكوت عن المسائل التي تثـير الفتن والقلاقل بين طوائف المسلمين سـيما عند الوهن والانكسار.

و- التواضع للحق والاعتراف بالخطأ.

ز- لا يعرف الحق بالرجال، وإنما يعرف الرجال بالحق.

ح- إذا اجتهد المجتهد فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر.

* * *

(٣٧) النظام

الإسلام لا يعرف الهمجية والسيبان وخبط العشواء، وإنما يتبع النظام والهدى والترتيب والتنسيق في عباداته ومعاملاته وأخلاقه. والمنتمي إليه المؤمن بمنهاجه: منظم في أفكاره، ومنظم في أحواله، ومنظم في أوقاته، ومنظم في أعماله، ومنظم في ثيابه، ومنظم في حركاته وسكناته، قليلها وكثيرها، صغيرها وكبيرها.

وذلك ناموس الكون من حوله يسير بنظام معلوم لا يختلف ولا يتغير: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٧-٤٠].

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ١٩-٢١].

والمؤمن في سائر عباداته ومعاملاته مأمور بالنظام والترتيب والتنسيق، فالترتيب في غسل أعضاء الوضوء عند الفقهاء مندوب، وبعضهم يرى وجوبه. والموالاة بين أداء أفعال الوضوء مندوبة، ومن الفقهاء من حكم بفرضيتها.

وللأذان للصلاة أوقات معينة لا يجوز التقدم عنها، ولا التأخر، وله ألفاظ محددة لا يصح الزيادة فيها أو النقصان. والمؤمن يقيم الصلاة في أوقات معينة بكيفية معينة، بعدد معين من الركعات، يبتدأ فيها المصلي بتكبيرة الإحرام، وينتهي بالسلام مع الإمام، والنظام في الصلاة يظهر فيها من بدايتها أو قبل بدايتها إلى ختامها، فمنه ألا يتقدم أحد على الإمام الراتب إلا بإذنه، كما في الحديث الصحيح: «... ولا يؤمَّن الرجلُ الرجلَ في سلطانه إلا بإذنه»[١].

ومنه: أننا قبل الصلاة نصف الرجال، ثمَّ الصبيان، وبعدهم النساء.

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٦٧٣).

ومنه: إتمام الصف الأول، فالذي يليه، ولا يكون نقص إلا في الصف المؤخر. يقول ﷺ: **«أتموا الصف المقـدَّم، ثمَّ الذي يليـه، فمـا كان من نـقص فليكن في الصف المؤخر»**(١).

ومنه: تسوية الصفوف ووصلها، والمقاربة بينهـا، وإقامتها منتظمة، والحذر من قطعها ووجود الفرجات بينها. فعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: **«ألا تصفـون كما تصف الملائـكة عند ربها»**، فقلنا: يا رسول الله، وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ فقال: **«يتمون الصفوف الأُول، ويتراصون في الصف»**(٢).

ويقول ﷺ: **«سووا صفوفكم، فإنَّ تسوية الصف من تمام الصلاة»**(٣).

وفي رواية: **«فإن تسـوية الصفوف من إقامـة الصلاة»**. وقال النبي ﷺ: **«أقيـموا الصفوف وحاذوا بين المناكب، وسـدوا الخلل، ولينوا بأيدي إخوانكم، ولا تذروا فرجات للشيطان، ومن وصل صفًّا وصله الله، ومن قطع صفًّا قطعه الله»**(٤).

بل كان النبي ﷺ نفسه يقـوم بتسوية الصفوف ورصها. فعن النعـمان بن بشير رضي الله عنهمـا: أن رسول الله ﷺ كان يسوي صـفوفنا، حتى كأنما يُسـوِّي بها القداح، حتى رأى أنـا قد عقلنا عنه، ثمَّ خرج يومًـا فقام حتى كـاد يُكبِّر، فرأى رجلاً باديًا صدره من الصف فقال: **«عباد الله، لتـسوّن صفوفكم، أو ليـخالفن الله بين وجوهكم»**(٥).

والتسوية في الصفوف تشـمل أيضًا المحاذاة بين المناكب ومحاذاة الأعناق ولزق الأقدام ببعضها بلطف وكـأنهم رجل واحد، فعن أنس رضي الله عنه قال: «وكان أحدنا يلزق منكبه بمنكب صاحبه وقدمه بقدمه»(٦).

---

(١) أخرجه أبو داود بإسناد حسن، وانظر «صحيح أبي داود» رقم (٦٧١).
(٢) أخرجه مسلم رقم (٤٣٠).
(٣) أخرجه البخاري رقم (٧٢٣)، ومسلم رقم (٤٣٣).
(٤) أخرجه أبو داود بإسناد صحيح كما قال النووي في «رياض الصالحين» (صـ ٢٩٠).
(٥) أخرجه البخاري رقم (٧١٧)، ومسلم رقم (٤٣٦).
(٦) أخرجه البخاري رقم (٧٢٥)، ومسلم رقم (٤٢٥).

- وترتيب أركان الصلاة وأفعالها أثناء أدائها واجب[1].

- وعند التأمين في صلاة الجماعة يؤمِّن المأموم مع الإمام.

وصلاة النوافل لها أوقات تُنْدب فيها، ولها أوقات تكره فيها، ومنها ما هو راتب، ومنها ما هو غير راتب، فالراتب أو المحدَّد الوقت: ركعتان قبل الصبح، وركعتان أو أربع ركعات قبل الظهر، وركعتان أو أربع بعده، وركعتان أو أربع قبل العصر، وركعتان قبل المغرب، وركعتان بعده، وركعتان قبل العشاء، وركعتان بعده، ثم الوتر وقبله قيام الليل، وغير الراتب مثل صلاة الوتر، وقيام الليل، وصلاة الاستخارة... وهذه الصلوات من النفل المقيد، وهناك التطوع المطلق الذي لا وقت له.

وسبق الإمام يبطل الصلاة والتأخر عنه إلى أن تفوت بعض الأركان يبطل الصلاة عند بعض الفقهاء، يقول ﷺ: **«أما يخشى أحدكم إذا رفع رأسه قبل الإمام أن يجعل الله رأسه رأس حمار، أو يجعل الله صورته صورة حمار»**[2].

والمؤمن يخرج الزكاة بقدر معلوم في وقت معلوم لا يتعداه، لأناس أصحاب صفات معلومة، كل هذا إذا اجتمعت فيه شروط معلومة.

والمؤمن يصوم في شهر معلوم مبتدئًا بوقت معلوم، منتهيًا بزمان معلوم، ممتنعًا عن مفطرات معلومة، وذلك إذا وجدت فيه شروط معلومة.

والمؤمن يحج في زمان معين مبتدئًا بوقت معين، منتهيًا بزمان معين، بعيدًا عن محظورات معينة، مؤديًا لأركان وشروط مُرتبة ومعينة وذلك إذا كمل له شروط معينة.

وكذا للأضحية والعقيقة والأطعمة والنذور، وسائر أحكام الإسلام أوقات مخصوصة وشروط مخصوصة وكيفية مخصوصة.

---

(١) الدسوقي (١/ ٢٤١)، و«مغني المحتاج» (١/ ١٥٨)، و«كشف القناع» (١/ ٣٨٩)، و«الممتع» (٣/ ٤٢٦).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٦٩١)، ومسلم رقم (٤٢٧).

ولعبادة ذكر الله أوقات مخصوصة وكيفية معلومة، ومنها ما هو مطلق في زمانه، لكنه لا يخرج أيضًا عن كيفية معينة. فهذا الدين الكامل يؤدبنا على النظام في كل حركة وسكنة.

وفي أثناء المعارك الحربية يعلم الإسلام المنتمين إليه النظام والترتيب في كافة مواقع القتال، والحديث عن ذلك يطول ويطول، فإن لكل معركة من معارك الإسلام دروس في التنظيم العسكري، والنبي ﷺ نفسه كان يصف صفوف الجيش ويساويها، ويؤمر على الميمنة قائدًا، وعلى الميسرة أميرًا، وعلى القلب زعيمًا، ويبصرهم بمواقعهم، ويأمرهم بطاعة أمرائهم، ويضع كل عسكري في موضعه اللائق به، ويخصص رجالاً للمباحث العسكرية والشرطة الحربية... إلخ.

النظام في الطريق: وحفظ النظام في الشوارع والطرق لتيسير مرور المارة من مبادئ الإسلام. قال إياس بن سلمة: مرَّ عمر بن الخطاب في السوق ومعه الدِّرة (السوط)، فضربني بها ضربة، فأصاب طرف ثوبي، وقال: ابتعد عن الطريق، فلما كان في العام المقبل لقيني، فقال: يا إياس، أتريد الحج؟ فقلت: نعم، فأخذ بيدي، فذهب إلى منزله، فأعطاني ستمائة درهم، وقال: استعن بها على حجك، واعلم أنها بالضربة التي ضربتك. قلت: يا أمير المؤمنين، إني لا أذكرها، قال عمر: وأنا ما نسيتها. فانظر كيف جمع بين قمة العدل وغاية النظام.

وإننا لنضعف أمام عرض أنظمة الإسلام في كافة أبوابه، ويكفينا أن نشير إلى أن علماء الإسلام وضعوا منذ قرون عدَّة لكل مجموعة مسائل تنتظم أمرًا واحدًا اسم نظام، ولم يجدوا كلمة أبين ولا أوضح ولا أدل على المقصود في هذا المعنى من كلمة نظام.

- فأطلقوا على ما يتعلق بالأسرة: نظام الأسرة.
- وسمّوا ما يضم السياسة وإدارة شئون الدول: نظام الحكم.
- ونعتوا ما يتعلق بالعلاقة بين الناس: بنظام الأخلاق.

- وأطلقوا على ما ينظم الاقتصاد: نظام المال.
- ودعوا ما يرتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: نظام الحسبة.
- وسموا ما يتصل بالقصاص والحدود: نظام الجريمة والعقاب.
- وأطلقوا على ما يلصق بقتال الأعداء: نظام الجهاد أو الحرب.
- ونعتوا ما يحيط بأسئلة الناس عن دينهم: نظام الإفتاء.

فإذا نظرنا إلى واقع كثير من المسلمين اليوم تجلى لنا أنهم لا يبالون بالنظام ولا يكترثون بالترتيب.

انظر إلى إشارات المرور التي لا يلتفت إليها السائقون والتي تثمر عشرات الآلاف من المخالفات كل يوم، والتي تؤدي إلى تأخر الموظفين عن أعمالهم، وتعطيل الطلاب عن مدارسة دروسهم. وربما أدت إلى موت المرضى أو تأخر شفائهم.

انظر إلى وسائل المواصلات التي لا يعرف ميعاد قدوم أو موعد عودة أو خط سير. وتأمل صفوف الناس أمام المخابز أو قطع تذاكر المواصلات أو أمام الجمعيات ومصارف البنوك، سترى الضوضاء والهمجية والرشوة والقوة عنوان كثير من المسلمين.

والحق أن الحياة إذا سارت بلا نظام أضرت كثيرًا وأفنت جهدًا كبيرًا، وأفسدت أكثر من أن تصلح.

* * *

(٣٨) الأناة

اليقين سلاح المؤمن في اعتقاده وتخلقه، والتثبت من الخبر والأناة في إصدار الأحكام والتعامل مع الخلق ركيزة من ركائز الثبات على المبدأ.

والعجلة في أمور الدنيا تورث الندامة، والتأني- في غير المسارعة إلى الطاعة- تُثمر السلامة، وفيها الخير ومحبة الله تعالى.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لأشج عبد القيس: **«إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة»**[1].

فالحق جل وعلا يحب خصلة الأناة؛ لأن المتخلق بها يسلم من الزلل في حق الخلق.

فإن بلغ المؤمن عن أخيه خبراً فيه شر له أو ما يذم من أجله فليحسن به الظن، وليلتمس له العذر وليتأن في إصدار الرأي فيه حتى يأتيه النبأ اليقين، وليأخذ بالروية والهدى وليبتعد عن السيبان في كلامه، والحكم على الأشخاص دون تبصر وتفكر.

يقول الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ** ﴾ [الحجرات: ٦].

وقد أدب الله تعالى المؤمنين السابقين على هذا الخلق ورباهم عليه في حادثة الإفك التي افتراها الأفَّاكُون على الطاهرة المطهرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فقال: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا**

---

(١) أخرجه مسلم رقم (١٧).

وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١-١٦].

ويتأتى خلق الأناة أيضًا في انتظار توبة المخطئ واعتذار المسيء واعتراف الزال بزلته. وهذا الخلق كغيره من الأخلاق العالية فيه إفراط وتفريط، فخلق الأناة كائن بين العجلة والطيش من جانب، والسلبية واللامبالاة من جانب آخر.

* * *

(٣٩) الإخلاص

العمل الصالح يقوم على ركنين:

أولهما: الإخلاص. وثانيهما: متابعة النبي ﷺ.

فالإخلاص ما كان لله خالصًا لا رياء فيه ولا نفاق، ولا شائبة شرك، ولا ابتغاء دنيا، ولا إرادة مال أو جاه أو سلطان.

قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

وقال جل ذكره: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

ويقول رسول الله عليه صلوات الله وسلامه: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه**»[(١)].

والنية الخالصة تميِّز من أدوا عملاً واحدًا، فقد يؤدي المئات عملاً واحدًا، ولكل شخص منهم نية مختلفة عن الآخر، ولا يفوز إلا صادق النية. فقد سئل النبي ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياءً، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»[(٢)].

وبإخلاص النية ينال العبد الأجر وإن لم يؤد العمل. يقول جابر رضي الله عنه: كنا مع النبي ﷺ في غزاة فقال: «**إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم حبسهم العذر**»، وفي رواية: «**إلا شركوكم في الأجر**»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري رقم (١)، ومسلم رقم (١٩٠٧).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٣٨١٠)، ومسلم رقم (١٩٠٤).

(٣) أخرجه الشيخان.

وعن معن بن يزيد قال: كان أبو يزيد يخرج دنانير يتصدق بها فوضعها عند رجل في المسجد، فجئت فأخذتها فأتيته بها، فقال: والله ما إياك أردت، فخاصمته إلى رسول الله ﷺ فقال: **«لك ما نويت يا يزيد، ولك ما أخذت يا معن»**(١).

وكل عمل يعمله الإنسان في أمور الدين أو في أمور الدنيا يؤجر عليه، وينال ثوابًا طالما أراد به وجه الله تعالى، ولو كان يأتي شهوته من أكل أو شرب أو جماع لزوجته.

فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: جاءني رسول الله ﷺ يعودني عام حجة الوداع من وجع اشتدَّ بي، فقلت: يا رسول الله إني قد بلغ بي من الوجع ما ترى، وأنا ذو مال، ولا يرثني إلا ابنة لي، أفأتصدق بثلثي مالي؟! قال: «لا»، قلت: فالشطر يا رسول الله، قال: «لا»، قلت: فالثلث يا رسول الله؟ قال: **«الثلث، والثلث كثير أو كبير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس، وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أُجِرت عليها حتى ما تجعله في فِي**(٢) **امرأتك»**، قال: فقلت: يا رسول الله، أُخلَّف بعد أصحابي؟ قال: **«إنك إن تخلَّف فتعمل عملاً تبتغي به وجه الله إلا ازددت به درجة ورفعة...»**(٣).

* * *

* نيات عظيمة في الزواج [لماذا يتزوجون؟]:

والمخلصون يقصدون في المباحات أو الشهوات إلى معانٍ تغيب عن العامة، فمثلاً أهداف الصحابة رضي الله عنهم من النكاح لم تكن الجمال والمال والحسب والدين في ظاهر الكلمة، وإنما نظروا لمعان أخرى تجرها كلمة الدين، فكان منهم من يتزوج قاصدًا الصلة بالنبي ﷺ، وكان منهم من يتزوج ليزداد إيمانًا. وقد خطب عمر رضي الله عنه أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنهما

---

(١) أخرجه البخاري رقم (١٤٢٢).

(٢) أي: فم.

(٣) أخرجه البخاري رقم (١٢٩٥)، ومسلم رقم (١٦٢٨).

وهي صغيرة، فقيل له: ما تريد إليها؟ قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي**»(١).

وهذا صحابي يتزوج زوجة صاحبه، ليعلم كيف كان يقوم الليل؟ عن الحسن أن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه تزوج امرأة من نساء عمر بن الخطاب، فقال: «والله ما نكحتها حين نكحتها رغبة في مال ولا ولد، ولكن أحببت أن تخبرني عن ليل عمر، فسألها: كيف كانت صلاة عمر بالليل؟ قالت: كان يصلي العتمة، ثمَّ يأمر أن نضع عند رأسه توراً(٢) من ماء نغطيه ويتعار من الليل فيضع يده في الماء، فيمسح وجهه ويديه، ثمَّ يذكر ما شاء أن يذكر، ثم يتعار(٣) من الليل مراراً حتى يأتي على الساعة التي يقوم فيها لصلاته، فقال: من حدَّثك؟ فقال: حدثتني بنت عثمان بن أبي العاص، فقال: ثقة»(٤).

* * *

* إتقان العمل = الإخلاص:

ويشتهر نعت المرء بالإخلاص بين الناس فيما إذا كان الإنسان مؤديًا لعمله على أكمل وجه أو وفيًّا لمن أحسن إليه، كريمًا مع من تفضل عليه. فالعمال والصنَّاع والموظفون ومن في معناهم من أحق الناس بأداء هذا الخُلُق مراقبة لله تعالى ووفاءً لمن استعملهم. «**فإن الله يحب إذا عمل أحدنا عملاً أن يتقنه**». وأولى من هؤلاء وأحق بإخلاص العمل وأدائه على أكمل وجه: الأمراء، والأطباء، والعلماء، والمعلمون، والوعاظ، والقضاة، والمهندسون، . . . والزوجة لزوجها، والزوج لزوجته، والآباء لأولادهم، والأبناء لآبائهم، والأساتذة لتلاميذهم، والتلاميذ لأساتذتهم، فالإخلاص سر النجاح ودليل الفوز وبرهان النصر.

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ١٤٢)، وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي: منقطع (أي: بإسناد الحاكم). وأخرجه أحمد (٤/ ٣٢٢)، وقال الهيثمي (٩/ ١٧٣): رواه الطبراني في «الأوسط» و«الكبير» ورجالهما رجال الصحيح.

(٢) توراً: إناء.

(٣) يتعار: يستيقظ.

(٤) أخرجه الطبراني ورجاله ثقات كما قال في «المجمع» (٩/ ٧٣).

* المراقبة:

والإخلاص يعود إلى كمال مراقبة العبد لربه، وشهوده لعظمة مولاه، فإذا راقب المرء خالقه كان مخلصًا وصادقًا.

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل خلوت ولكن قل عليَّ رقيبُ
ولا تحسبنَّ الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفيه عنه يغيبُ
لهونا عن الأيام حتى تتابعت ذنوب على آثارهن ذُنوبُ
فيا ليت أن الله يغفر ما مضى ويأذن في توباتنا فنتوبُ
إذا ما مضى القرن الذي أنت فيهم وخُلِّفت في قَرْن فأنت غريبُ(١)

على هذا الأصل الإيماني الكبير تربت المسلمات منذ ظهورهن على ظهر البسيطة. عن أسلم قال: «بينا أنا مع عمر بن الخطاب وهو يعس بالمدينة، إذ أعياه السير، فاتكأ على جانب جدار في جوف الليل، فإذا امرأة تقول لابنتها: يا ابنتاه، قومي إلى ذلك اللبن فامذقيه بالماء، فقالت لها: يا أمتاه، أوعلمت بما كان من عزمة أمير المؤمنين اليوم؟ فقالت: وما كان من عزمته يا بنية؟ قالت: إنه أمر مناديه فنادى: أن لا يُشاب(٢) اللبن بالماء، فقالت لها: يا بنتاه، قومي إلى اللبن فامذقيه بالماء، فإنك بموضع لا يراك عمر ولا منادي عمر، فقالت الصبية لأمها: يا أمتاه، والله ما كنت لأطيعه في الملأ وأعصيه في الخلا، وعمر يسمع كل ذلك، فقال: يا أسلم علِّم الباب واعرف الموضع، ثمَّ مضى في عسسه، فلما أصبح قال: يا أسلم، امضِ إلى ذلك الموضع فانظر من القائلة، ومن المقول لها، وهل لهم من بعل؟ فأتيت الموضع فنظرت فإذا الجارية أيم لا بعل لها، وإذا تيك أمها، وإذا ليس لها رجل، فأتيت عمر بن الخطاب فأخبرته، فدعا عمر ولده فجمعهم، فقال: هل فيكم من يحتاج إلى امرأة أزوِّجه؟ ولو كان بأبيكم حركة إلى النساء ما سبقه أحد منكم إلى هذه الجارية، فقال عبد الله: لي زوجة، وقال عبد الرحمن:

---

(١) شعر للإمام أحمد كما في مناقب الإمام (صـ٢٦٥، ٢٦٦).
(٢) يُشاب: يُخلط.

لي زوجة، وقال عاصم: يا أبتاه، لا زوجة لي فزوِّجني، فبعث إلى الجارية فزوَّجها من عاصم، فولدت لعاصم بنتًا، وولدت البنت عمر بن عبد العزيز رحمه الله»(١).

وهذه ميمونة أخت إبراهيم بن أحمد الخوَّاص لأمه تضرب مثالاً فذًّا في المراقبة لمولاها. يقول أحمد بن سالم: دقَّ داق باب إبراهيم الخواص، فقالت له أخته: من تطلب؟ فقال: إبراهيم الخواص، فقالت: قد خرج. فقال: متى يرجع؟، فقالت: مَن روحه بيد غيره مَنْ يعلم متى يرجع؟!(٢). هكذا لا يغيب الله عن بالها.

والإخلاص في السر والعلانية ليس مع الأحياء من الإنس والجن والحيوان وغيرهم، بل هو متعين مع الأموات في الصلاة عليه والدعاء له والصدقة عنه. يقول رسول الله ﷺ: «**إذا صليتم على ميت فأخلصوا له الدعاء**»(٣).

* ويل للمنافقين والمرائين:

وقد شدَّد الإسلام النكير على المنافقين والمرائين وذوي الوجهين والذين لا يعملون بما يقولون؛ لأن هؤلاء أساس البلاء وأدلة الضلال ودعاة النار. يقول جل ذكره: ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٤٢) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَؤُلاءِ**﴾ [النساء: ١٤٢، ١٤٣].

ويقول: ﴿**فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ**﴾ [الماعون: ٤-٧].

وقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ**﴾ [الصف: ٢، ٣].

وفي الحديث النبوي: «... **وتجدون شر الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه**

---

(١) أخرجه ابن سعد، وانظر «سيرة عمر بن عبد العزيز» لابن الجوزي (صـ ١٠، ١١).

(٢) «صفة الصفوة» ترجمة رقم (٣٦٤).

(٣) أخرجه أبو داود، وابن ماجه، وابن حبان، والبيهقي بإسناد حسن، وانظر «صحيح الجامع» رقم (٦٦٩).

وهؤلاء بوجه»[(١)] .

والرياء: الرياء منه ما هو في الدين، وهو إما أن يكون من جهة البدن، أو الزي، أو بالقول، أو بالعمل كتطويل الصلاة بالأصحاب أو الزائرين وهو درجات.

أغلظها: ألا يريد بعمله العبادة بل الناس أو مطلب آخر.

والثاني: أن يقصد الثواب مع الرياء قصدًا ضعيفًا بحيث لو كان خاليًا لم يفعل الطاعات فهذا كالسابق.

والثالث: أن يكون قصد الثواب والرياء متساويين بحيث لو انفرد كلٌ واحد منهما عن الآخر لم يبعثه على العمل، فهذا قد أفسد مثل ما أصلح ولا يسلم من الإثم.

الرابع: أن يكون اطلاع الناس عليه مقويًا لنشاطه ولو لم يَطَّلع عليه أحد لم يترك العبادة فهذا يُثاب على قصده الصحيح ويعاقب على قصده الفاسد، وقريب من ذلك الرياء بأوصاف العبادة لا بأصلها، كالذي يطيل في الصلاة إذا رآه الناس، فهذا من الرياء المحظور؛ لأنه يتضمن تعظيم الخلق، ولكنه دون الرياء بأصول العبادات.

علاج الرياء: العلاج له مقامان هما:

أحدهما: في قلع عروقه وأصوله التي منها انشعابه.

الثاني: في دفع ما يخطر منه في الحال.

أما الأول: فإن أصل الرياء حب الجاه والمنزلة، وإذا فُصِّل رجع إلى ثلاثة أصول: وهي حب لذة الحمد والفرار من ألم الذم والطمع فيما في أيدي الناس، وقد لا يشتهي الإنسان الحمد، ولكنه يحذر من الذم كالجبان بين الشجعان، فإنه لا يثبت ولا يفر؛ لئلا يُذم، والعلاج أن يعلم الإنسان أن الرياء لذيذ في الحال ضار في المآل.

---

(١) أخرجه الشيخان: البخاري رقم (٣٤٩٣)، ومسلم رقم (٢٥٢٦).

(٤٠) الإيجابية (الرجولة)

مر بنا خلق الغيرة الذي ينبني على الغيرة على المحارم والزوج أن تمد إليها الحواس الغريبة والعلاقات المحرمة. ومعنا الآن خلق آخر يوسِّع دائرة هذا الخُلُق لتشمل الغيرة على حرمات الله كلها، والغضب لمخالفة أوامر الله جميعها. وهو يعيش بين أخلاق الغيرة والشجاعة والتضحية والقوة. ويعتمد على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله تعالى، والتضحية لدين الله متوخيًا في ذلك الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، ناظرًا لقوته وقوة غيره.

يقول الحق تعالى: ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [آل عمران: ١٠٤].

ويقول الرسول ﷺ: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»(١).

وعلى هذا فالمؤمن لا ينفك عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحال من الأحوال أو تحت ظرف من الظروف، فالإيجابي يتحرك للحق ويندفع نحوه وينتصر له ولأهله، ويذم الباطل وأهله دون أن يأمره آمر أو يكلِّفه مكلِّف.

وللمؤمن موقف ورأي في كافة الأمور التي تجري بين يديه بقبول أو رد، ورضا أو إنكار. لا تمر عليه الأحداث ولا تقع أمام عينيه أمور له فيها مشاركة دون إبداء رأي أو دفع مفسدة أو جلب مصلحة.

فالسلبية أو العزلة لا تعرف طريقها إلى المسلم؛ لأن السكوت آنئذٍ رضًا بالباطل وإقرار بالمنكر، ومن لم يتمعَّر وجهه ويغضب قلبه غضبًا لجناب الله فليس بمؤمن يقول النبي ﷺ: «**ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون**

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٤٩).

وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثمَّ إنها تخلف من بعدها خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»[1].

وقد عاب الحق جل ثناؤه على بني إسرائيل رضاهم بالمنكر وسكوتهم عن إنكاره، فقال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

ذاكم هو الرجل الحقيقي الذي جعله القرآن صفة لا جنسًا، يقول الله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

من هؤلاء الرجال صاحب يس المسمى بحبيب النجار الذي آمن بدعوة الرسل الثلاثة الذين قدموا إلى قريته ونادوا بواحدانية الله، والكفر بما يعبد من دونه فهمَّ بهم أهل القرية وأرادوا قتلهم، فغضب حبيب غضبًا شديدًا، ونهى قومه عن ذلك وأمرهم باتباع الرسل كما قال الله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٢١ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٢ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ۝٢٣ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٢٤ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ۝٢٥ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ۝٢٧ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ۝٢٨ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ [يس: ٢٠-٢٩].

فتأمل رجولية هذا المؤمن حيث إنه لم يكترث بأهل قريته أجمعين، فقطع المدينة كلها مبلغًا دعوة الرسل عليهم السلام، معلنًا ألوهية الله وحده، مضحيًا بنفسه في سبيل الله، محافظًا على حياة الرسل عليهم السلام، ولا ينسى الداعية

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٥٠).

الرقيق الغيور على حرمات الله المعظِّم لشرع الله أن يذكر قومه بعد أن قتلوه وأدخلوه الجنة، فتمنى أن يسلموا، ويعودوا إلى الله.

إيجابية المدافع عن موسى:

وعلى طريقة حبيب في الدفاع عن الأنبياء عليهم السلام، وإعلان قضية التوحيد سار رجل آخر حقيق بنعت رجل، إنه المدافع عن كليم الله موسى عليه السلام، وذلك لأنه خالف الطريق، فسلك طريقًا أقرب من طريق الجيش الفرعوني الذي أرسل للإمساك بموسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠]، وهذا الرجل قيل فيه: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ﴾ ولم يقل: ﴿مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾ للإشارة إلى الفذة التي استطاع بها أن يسبق جند فرعون.

الإيجابية العالية في مؤمن آل فرعون:

وأما مؤمن آل فرعون فذاك رجل من طراز فريد، يعد في كوكبة الدعاة الأفذاذ والرجال حق الرجولية، فاقرأ معي ما حدث منه في بلاط الفراعنة وزعيم الجبابرة، يقول القوي المتين سبحانه: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ

فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٢٨-٤٥].

فانظر إلى إيجابية مؤمن آل فرعون، وكيف تحرك للحق بمجرد أن أعلن فرعون أنه يريد قتل موسى عليه السلام قائلا: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

فتدرج المؤمن مع فرعون وملئه، مستخدمًا كافة الأساليب الدعوية، فلما أصروا على إجرامهم وعنادهم صارحهم بالإيمان ودعاهم إلى الإسلام، فهموا بقتله فنجاه الله منهم.

إيجابية الجن:

وصفة الإيجابية لا تقتصر على الإنس بل من الجن المؤمنين بالله من كان في قمم منازل الإيجابية، نلحظ منهم جن نصيبين الذين وفدوا على رسول الله ﷺ، فاستمعوا إليه وآمنوا به، ثمَّ أسرعوا إلى قومهم منذرين، ولنستمع إلى القرآن المجيد وهو يصور ما حدث.

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣٢].

والإيجابية التي قام بها مؤمنو الجن في هذا الموقف تتمثل في أمور منها:

- أنهم لما حضروا إلى رسول الله ﷺ استمعوا بآذان واعية.
- أنهم أنصتوا أثناء اللقاء.
- أنهم بمجرد انتهاء التلاوة النبوية للآيات القرآنية انطلقوا إلى قومهم مبلغين معلمين.

إيجابية الهدهد:

وفي عالم الطيور نرى مثلاً عاليًا من أمثلة الإيجابية قام به هدهد سليمان عليه السلام عندما وجد أهل سبأ بقيادة بلقيس يسجدون للشمس من دون الله فغضب الهدهد غضبة لربه، وانتفض إنكارًا للشرك، وهتف بتوحيد مولاه، كما قال رب العالمين عنه.

وعن سليمان: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٠-٢٦].

الذئب على طريق الهدهد:

وعلى طريق الهدهد سار الذئب في عصر النبوة، فدعا أعرابيًا لأن يذهب إلى النبي ﷺ ليستمع إلى حديثه. عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: عدا الذئب على شاة فأخذها فطلبه الراعي، فانتزعها منه، فأقعى الذئب على ذَنبه[1]، فقال: ألا تتقي الله؟ تنزع مني رزقًا ساقه الله إليَّ؟ فقال: يا عجبى ذئب يكلمني كلام الإنس، فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك؟ محمد ﷺ بمكة يخبر الناس بأنباء ما قد سبق، قال: فأقبل الراعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة فزواها

---

(١) ذنبه: أي: ذيله.

إلى زاوية من زواياها، ثم أتـى رسول الله ﷺ ، فـأخـبـره ، فأمـر رسـول الله فنودي: الصلاة جـامعة، ثم خرج فـقال للراعي: «أخبرهم»، فأخبـرهم، فقال رسول الله ﷺ : «صدق والذي نفس محمد بيده، لا تقـوم الساعة حتى يكلم السباع الإنس، ويكلم الـرجل عـذبة سـوطه، وشـراك نعـله، ويخـبـره فـخـذه بمـا أحـدثه أهله بعده»[١].

فعلى المؤمن من باب أولى أن يكون إيجابيًّا لا سلبيًّا.

* * *

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٣/ ٨٣، ٨٤)، وبعضه في الترمذي في الفتن (٤/ ٤٧٦)، ورواه البيهقي في «الدلائل» (٦/ ٤٢)، وقال: هذا إسناد صحيح.

(٤١) القوة

القوة قوتان: قوة حسية وقوة معنوية. فالقوة الحسية تقوم على صحة الجسد وقوته وسلامته من الأمراض. والقوة المعنوية تقوم على الثقة بالنفس والنفوذ وقوة الشخصية والثبات على المبدأ والعزيمة على الرشد، والصدع بالحق في وجه الظالمين، واليقين بموعود الله دون شك. وكلا القوتين متكاملتان مطلوبتان في ديننا. وأعظم القوتين وأهمهما: القوة الإيمانية.

جاء في الحديث النبوي: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا، ولكن قل: قدَّر الله وما شاء فعل، فإنَّ لو تفتح عمل الشيطان**»(١) .

وتعود هذه القوة إلى الاستعانة بالله والاعتماد عليه وأداء أمره واجتناب نهيه، وتفويض الأمر كله إليه، والخوف منه وحده.

وهذا الذي علمه النبي ﷺ لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما ولسائر أصحابه رضوان الله عليهم، يقول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: كنت خلف النبي ﷺ يومًا فقال: «**يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف**»، وفي رواية: «**احفظ الله تجده أمامك، تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأن ما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأنَّ مع العسر يسرًا**»(٢) .

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٦٦٤).

(٢) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. وانظر «صحيح الجامع» رقم (٦٩٥٧).

ومن يستعن بالله لا يُبـالي بسخط غيره رغبة في رضـاه. كما ورد في الحديث النبوي: «**من أرضى الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس، ومن أسخط الناس برضا الله كفاه الله مؤنة الناس**»(١) .

والرضـا عن الله والرضا به يثـمـر اعتـماد القلـب على الله، واستناده إليـه، وسكونه إليه، واليقين بأنه الحافظ المانع العـاصـم مما ينزل بالعبد ويقلقه، ذاكم هو التوكل.

سيدنا علي رضي الله عنه مثل عال في التوكل: وإلقاء أموره كلها إلى الله، وإنزالها به طلبًا واختيارًا لا كرهًا واضطرارًا. عن يحيى بن مُرة قال: «كان علي رضي الله عنه يخـرج بالليل إلى المسجـد يصلي تطوعًا، فـجئنا نحـرسه، فلمـا فرغ أتانا، فقال: ما يجلسكم؟ قلنا: نحرسك، فـقال: أمن أهل السماء تحرسون أم من أهل الأرض؟ قلنا: بل من أهـل الأرض، قال: إنـه لا يكون في الأرض شيء حـتى يُقـضى في السـمـاء، وليس من أحـد إلا وقـد وكل بـه ملكان يدفـعـان عنه، ويكلآنه(٢) حتى يجيء قـدره، فإذا جاء قدره خليـا بينه وبين قدره، وإنَّ عَليَّ من الله جُنَّة(٣) حصينـة فإذا جاء أجلي كشف، وإنه لا يجـد طعم الإيمان حتى يعلم أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه»(٤) .

وعن جعفر بن محمـد عن أبيه، قال: «عرض لعليٍّ رضي الله عنه رجلان في حكومة(٥) ، فجلس في أصل جدار، فقـال رجل: يا أمير المؤمنين، الجدار يقع، فقال علي: امضِ، كفى بالله حارسًا، فقضى بينهما وقام، ثمَّ سقط الجدار»(٦) .

فالتوكل قوة إيمان، وقوة يقين، لذا قيل عنه: إنه نصف الإيمان.

---

(١) أخـرجه التـرمذي وابن حـبان، وعـبـد بن حمـيد، وأبو نعـيم، وانظر «صـحيح الجـامع» رقم (٦٠١٠).

(٢) يكلآنه: يحرسانه.

(٣) جُنَّة: أي: وقاية.

(٤) أخرجه أبو داود في القدر، وابن عساكر.

(٥) حكومة: خصومة.

(٦) أخرجه أبو نعيم في الدلائل (صـ ٢١١).

ومن هنا فإن كثيرًا من الصديقين، كان يوصي إخوانه بلزوم التوكل على الله.

عن عبد الله بن سلام: «أن سلمان قال له: أي أخي: أيُّنا مات قبل صاحبه فليتراء له، قال عبد الله بن سلام: أو يكون ذلك؟ قال: نعم، إنَّ نَسَمة المؤمن مُخلاة تذهب في الأرض حيث شاءت، ونَسَمة الكافر في سجن، فمات سلمان، فقال عبد الله: فبينما أنا ذات يوم قائل(١) بنصف النهار على سرير لي فأغفيت إغفاءة، إذ جاء سلمان فقال: السلام عليك ورحمة الله. فقلت: السلام عليك ورحمة الله أبا عبد الله، كيف وجدت منزلك؟ قال: خيرًا، وعليك بالتوكل، فنعم الشيء التوكل، وعليك بالتوكل، فنعم الشيء التوكل، وعليك بالتوكل، فنعم الشيء التوكل»(٢)، فالمتوكل على الله لا يعلق قلبه بغير الله.

عن حذيفة المرعشي وكان قد خدم إبراهيم بن أدهم فقيل له: ما أعجب ما رأيت منه؟ قال: بقينا في طريق مكة أيامًا لم نجد طعامًا، ثم دخلنا الكوفة، فأوينا إلى مسجد خراب، فنظر إليَّ إبراهيم، وقال: يا حذيفة أرى بك الجوع. فقلت: هو ما رأى الشيخ، قال: عليّ بدواة وقرطاس فجئت به إليه، فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، أنت المقصود إليه بكل حال، والمشار إليه بكل معنى وكتب شعرًا:

أنا حامدٌ أنا شاكرٌ أنا ذاكرٌ ... أنا جائعٌ أنا ضائعٌ أنا عاري
هي ستةٌ وأنا الضمين لنصفها ... فكن الضمين لنصفها يا باري
مدحي لغيرك لهب نار خضتها ... فأجر عُبيدك من دخول النارِ

ثم دفع إليَّ الرقعة فقال: اخرج ولا تُعَلِّق قلبك بغير الله تعالى، وادفع الرقعة إلى أول من يلقاك، فخرجت فأول من لقيت كان رجلاً على بغلة فناولته الرقعة، فأخذها، فلما وقف عليها بكى، وقال: ما فعل صاحب هذه الرقعة؟...

* * *

(١) أي: نائم وقت القيلولة.

(٢) أخرجه ابن سعد (٤/ ٩٣).

*** أركان التوكل:**

للتوكل علـى الله تعالى قواعـد يقوم عليهـا. يقول مـحمد بن أبي عـمران: سمعت حاتمًا الأصم، وسألـه رجل على ما بنيت أمرك هذا في التوكل على الله؟ قال: على خصال أربع:

- علمت أن رزقي لا يأكله غيري فاطمأنت به نفسي.
- وعلمت أنَّ عملي لا يعمله غيري فأنا مشغول به.
- وعلمت أنَّ الموت يأتيني بغتة فأنا أبادِره.
- وعلمت أني لا أخلو من عين الله حيث كنت فأنا مستحٍ منه[١] .

فإذا اجتمعت هذه الخصال في عبـد رُزق التسليم والتفويض والرضا والمراقبة، ولم يعبأ بقوة أحد وقدره أمام قوة الله وقدره.

وضعف القوة البـدنية لا يقلل من قدر القوة الإيمانية إذا كـان المؤمن لم يقصر في إعطاء البدن حقه ومسـتحقه، فقد يكون الإنسان ضعـيف الجسد نحيف البدن قصير الجسم لكنه قوي اليقين كامل الإيمان.

انظر إلى سيدنا عـبد الله بن مسعود رضي الله عنه الـذي بلغ من قوته الإيمانية أن كان أول من جهر بالقرآن المجيد أمام مشركي قريش وآذوه في الله فصبر، فلما رأى الصحابة رضي الله عنهم ما أصابه، قالوا: قـد حذرناك، فقال: لو شئتم أن أعود لمثلها لفعلت.

وقد علم النبي ﷺ هذه المنزلة الرفيعة، فعندمـا كان عبد الله يجني سواكًا من الأراك ذات يوم، وكان دقـيق الساقين، جـعلت الريح تكفـوه، فضحـك القوم، فقال رسول الله ﷺ: «مم تضحكون؟» قالوا: يا نبي الله، من دقة ساقيه، فقال: **«والذي نفسي بيده، لهُما أثقل في الميزان من أحد»**[٢] .

---

(١) «صفة الصفوة» (٢/ ٧٩٣)، و«حلية الأولياء» (٨/ ٧٣)، و«سير أعلام النبلاء» (١١/ ٤٨٤).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد والترمذي.

فإن نزل بالعبد ما لا يملكه في بعض الأحيان فوض أمره إلى مالك الملوك، وتعلّق به وحده، ووثق به، واطمأن إلى نصره، وعلم أنه سينجيه مما وقع به.

كما قال الحق جل ذكره: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ [النساء: ٨١]. ويقول ابن عباس رضي الله عنهما: حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣][(١)].

ولما كان التوكل بهذه القوة الإيمانية، فإن الأولياء الذين يدخلون الجنة بلا حساب موصوفون بأنهم على ربهم يتوكلون[(٢)].

ثانيًا: القوة البدنية:

والقوة الثانية التي تكمِّل القوة الأولى هي القوة الجسدية كما قيل: العقل السليم في الجسم السليم. وبلغ من اهتمام الإسلام بهذه القوة أنه رخَّص في محرم صيانة للجسد ودواءً للمرض. فعن أنس رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ رخص للزبير وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما في لبس الحرير لحكة بهما»[(٣)].

وقد أمر الإسلام بتغطية الإناء بالليل صيانة من الوباء والحشرات، يقول النبي ﷺ: **«غطوا الإناء، وأوكئوا السقاء، فإن في السنة ليلة ينزل فيها وباء ولا يمر بإناء ليس عليه غطاء أو سقاء ليس عليه وكاء، إلا نزل فيه من ذلك الوباء»**[(٤)].

قال الليث: فالأعاجم يتقون ذلك في كانون الأول.

ونهى الإسلام عن الاستنجاء باليمين؛ لأنها المستخدمة في الطعام. عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كانت يد رسول الله ﷺ اليمنى لطهوره وطعامه، وكانت

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٤٥٦٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الطب، وكتاب الرقاق، ومسلم: كتاب الإيمان رقم (٣٧٤).

(٣) أخرجه البخاري رقم (٥٨٣٩)، ومسلم رقم (٢٠٧٦).

(٤) أخرجه مسلم، وانظر «منهاج المؤمن» للمؤلف (صـ ١٩٠- ١٩٣).

اليسرى لخلائه، وما كان من أذى»[١] .

ويقول الصادق المصدوق ﷺ: **«إذا بال أحدكم فلا يأخذن ذكره بيمينه، ولا يستنج بيمينه، ولا يتنفس في الإناء»**[٢] .

وأيضًا نهى عن التغوط في طريق الناس وظلهم وموارد الماء ونحوها، قال رسول الله ﷺ: **«اتقوا اللاعنين»**، قالوا: يا رسول الله، وما اللاعنان؟ قال: **«الذي يتخلى في طريق الناس أو في ظلهم»**[٣] .

فمعلوم أن الأوبئة والبكتريا والأمراض إنما تكمن في النجاسات والقاذورات.

وأشد من ذلك التبول والتغوط في الماء الراكد، فإنه مأوى الحيوان والإنسان أحيانًا من العطش، لذا فإن النبي ﷺ: «نهى عن البول في الماء الراكد»[٤] .

كما اهتم الإسلام بتقرير نظافة المسلم في بدنه ومسكنه وطريقه. وقد مر بنا أن المؤمن مدعو للمحافظة على خصال الفطرة من السواك والمضمضة والاستنشاق وحلق العانة ونتف الإبط وغسل البراجم والاستنجاء وتقصير الشارب وغيرها.

ومدعو للمحافظة على الوضوء كل لحظة، ومدعو للغسل كل أسبوع مرة بغير جنابة، ولا احتلام، ومأمور بانتعال نعل صالحة، ومدعو لاختيار الثياب الجميل المناسب لحال الجو، ومدعو للمحافظة على تنظيف الأسنان بالسواك، ومأمور بأن ينزع ما في الطعام والشراب من أذى، ومأمور بتنظيف الشعر وتجميله، ومحضوض على إماطة الأذى عن الطريق، وتنظيف الشوارع، ومطلوب منه تجميل البيوت والمساجد.

الغذاء الصحي:

وقد اعتنى الإسلام باختيار الأطعمة الصحية، وحرم أكل الضار ناهيك عن

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٣) بإسناد صحيح.

(٢) أخرجه البخاري رقم (٥٨٥٥) ومسلم رقم (٢٠٩٧).

(٣) أخرجه مسلم رقم (٢٦٩).

(٤) أخرجه مسلم رقم (٢٦٩).

المهلك. يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٢، ١٧٣].

ولأهمية الغذاء الصحي أمر الإسلام المرأة أن ترضع ولدها؛ لأن لبنها خير غذاء للطفل بإجماع الأطباء، يقول تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وكل غذاء أو سقاء أو دواء أو هواء ضار وفاسد يحرم على المسلم أن يتناوله، قال تعالى: ﴿وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]. ويدخل في هذا المعنى تحريم الخمر والمخدرات بسائر أنواعها، والتدخين بأشكاله كلها.

وللرعاية الصحية أمر الإسلام المرضى بالتداوي، ونهاهم عن ترك الأخذ بالأسباب في التداوي، يقول رسول الله ﷺ: **«ما أنزل الله داء إلا أنزل له الدواء»**(١).

وفي رواية: **«ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء»**(٢).

الوقاية خير من العلاج:

ولم ينتظر الإسلام مجيء الداء ليعالجه بل غلق الأبواب عليه قبل أن يقدم، والمعدة بيت الداء وأساس البلاء؛ لذا حث الإسلام على التقليل من الطعام، وأخذ منه قدر الكفاية، يقول ﷺ: **«ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًّا من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فاعلاً، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»**(٣).

فالمؤمنون لا يأكلون حتى يجوعوا وإذا أكلوا لم يشبعوا. وقد دعا الدين

---

(١) أخرجه البخاري، وابن ماجه عن ابن مسعود.

(٢) صحيح: أخرجه ابن ماجه، وانظر «صحيح الجامع» رقم (٥٥٥٩).

(٣) أخرجه الترمذي وقال: حسن. وانظر «صحيح الجامع» رقم (٥٦٧٤).

الحنيف أتباعه إلى الإكثار من الصيام طوال العام، وفرض عليهم صيام شهر واحد لترك الامتلاء من الطعام والشراب استدامة للصحة ودفعًا للأمراض. وأمرنا بعزل المرضى عن الأصحاء؛ خوف انتشار المرض وتفشيه، ففي الحديث النبوي الصحيح: «**وفر من المجذوم فرارك من الأسد**»[١].

والبعد عن المريض صاحب المرض المعدي لا يتعارض مع الإيمان بالقدر، وكذا عدم القدوم على بلد بها وباء، فإنَّ عمر رضي الله عنه لما قدم بلاد الشام وقد وقع بها وباء الطاعون، عزم على أصحابه بالعودة، وقال: إني مُصبح على ظهر، فأصبحوا عليه، فقال أبو عبيدة بن الجراح: أفرارًا من قدر الله؟ فقال عمر رضي الله عنه: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفِر من قدر الله إلى قدر الله. وروى له الحديث: «**إذا سمعتم بالطاعون بأرض، فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها، فلا تخرجوا منها**»[٢].

* * *

(١) أخرجه البخاري وأحمد.

(٢) أخرجه البخاري رقم (٣٤٧٣)، ومسلم رقم (٢٢١٨).

(٤٢) الثبات

الثبات أحد ثمرات اليقين ونتائج التوكل على الحق، إنه عزيمة على الأمر، وثبات على الرشد، ونفي للشكوك، وترك للتردد والتأرجح، كما قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وقال له: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الملك: ٢٩]، وقال له: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩].

فالثابت على اعتقاد ومبدأ وفكر لا يشك ولا يرتاب، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

وهذا الأمر شرط رئيسي من شروط لا إله إلا الله، محمد رسول الله، فمن قالها بلسانه تعين عليه أن يثبت عليها بلا تردد، ويوقن بها بلا شك. وبه نجاة وقوة وعزة هذه الأمة في عصرها الذهبي عصر السلف، وإنما يهلك ويذل ويضعف آخرها بضعفه أو انعدامه، يقول رسول الله ﷺ: «**نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد، ويهلك آخرها بالبخل والأمل**»(١) . والثبات على الأمر راجع إلى قوة اليقين وكمال التوكل.

ومتى وصل اليقين إلى القلب امتلأ نورًا وإشراقًا، وانتفى عنه كل ريب وشك وسخط وهم وغم، فامتلأ محبة لله، وخوفًا منه ورضى به، وشكرًا له، وتوكلاً عليه، وإنابة إليه، فأهل اليقين هم أهل الهدى والفلاح من بين العالمين.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٤، ٥]، وأهل اليقين هم المنتفعون بالآيات والبراهين، قال تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ

---

(١) حسن: أخرجه ابن أبي الدنيا عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وانظر «صحيح الجامع» رقم (٦٧٤٦).

لِلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠].

وإذا تزوج الصبر باليقين ولد بينهما حصول الإمامة في الدين، قال الله تعالى، وبقوله يهتدون: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

وهذا حال المرسلين والنبيين والصديقين الذين ثبتوا على مبادئهم ومعتقداتهم عشرات أو مئات السنوات لم يتغيروا ولم يبدّلوا. وللنبي محمد ﷺ في ذلك قدم السبق، فقد عرض عليه المشركون عروضًا مادية ومعنوية، واستخدموا معه كافة الوسائل والسبل الإرهابية ليثنوه عن عزمه أو ليحوّلوه عن منهاجه، فما وهن وما ضعف وما استكان.

والأصحاب رضي الله عنهم يوم الخندق، اجتمعت عليهم أحزاب الكفر من قريش وغطفان واليهود وأحاطوا بهم إحاطة القيد بالمعصم، وكادوا أن يفتكوا بهم بيد أنهم ثبتوا على أمرهم وما تراجعوا عن عقيدتهم وما تأخروا عن نصرة دينهم، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]. رغم الزلزلة الشديدة وزوغان الأبصار، وبلوغ القلوب الحناجر، وكرب الأنفاس، ولكنه الإيمان العميق الذي لا يتزلزل وإن تزلزلت الجبال، ولا يتتعتع وإن تتعتعت الشداد الصلاب.

ومن هذا اليقين السامق يقين الصدِّيق رضي الله عنه عند وفاة الرسول ﷺ، فقد أصاب أصحاب رسول الله ﷺ الذهول والدهشة، لكنَّ الصدِّيق وقف كالطود الشامخ، وأعاد الأمر إلى كرَّته الأولى وسيرته الحسنى.

مما سبق يتبين أنَّ الثابت في قوله وعمله قوي الإيمان، صحيح اليقين، جميل الأخلاق، والمتردد لا يؤمن عهده، ولا يسلم لقوله، ولا يُصدق وعده، ويقابل الثبات في جانب الإفراط التشدد في غير مواضع الشدة، والاستبداد بالرأي، فإنَّ من استبد برأيه هلك. والثبات على الرأي لا يعني ذم التراجع عن الرأي الخاطئ.

* * *

(٤٣) الحكمة والكياسة

المؤمن كيس فطن وليس كيس قطن، بهذا يُعرف المؤمن. فالمؤمن حكيم عاقل كيس تصدر أقواله وأفعاله عن كياسة وحكمة. والحكمة هي الإصابة في الاعتقاد والقول والعمل، ووضع كل شيء في موضعه بإحكام وإتقان(١). أو هي: فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي.

والحكمة حكمتان: علمية، وعملية.

- فالعلمية: الاطلاع على بواطن الأشياء، ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها، خلقًا وأمرًا، قدرًا وشرعًا.

- والعملية: وضع الشيء في موضعه.

درجات الحكمة: ودرجاتها ثلاث:

الأولى: أن تعطي كل شيء حقه ولا تعديه حدَّه، ولا تعجله عن وقته، ولا تؤخره عنه.

الثانية: أن تشهد نظر الله في وعده، وتعرف عدله في حكمه، وتلحظ برّه في منعه.

الثالثة: أن تبلغ في استدلالك البصيرة، وفي إرشادك الحقيقة.

ولا يكون المرء كيسًا حكيمًا إلا إذا جمع: العلم والحلم والأناة، فلا حكمة لجاهل، ولا طائش، ولا عجول.

فكل نظام في الوجود مرتبط بهذا الخُلق، وكل خلل في الوجود، وفي العبد فسببه: الإخلال بها، فأكمل الناس: أوفرهم منها نصيبًا، وأنقصهم عن الكمال: أقلهم منها ميراثًا(٢)، لهذا أثنى الله جل وعز على مَن رُزق هذه الصفة، فقال:

---

(١) للمزيد انظر «الحكمة في الدعوة إلى الله» لسعيد بن علي القحطاني.

(٢) «مدارج السالكين» (٢/٤٤٦- ٤٤٩) بتصرف.

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وأكمل الخلق في هذا: الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وأكملهم أولو العزم، وأكملهم محمد ﷺ، ولهذا امتن الله سبحانه وتعالى عليه، وعلى أمته بما آتاهم من الحكمة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]، وقال جل ذكره: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

وقد علم الله جل ثناؤه المسيح عيسى عليه السلام فقال: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٨].

والكيس يتصف بصفتين عظيمتين:

إحداهما: محاسبة نفسه على ما بدر منه.

والأخرى: الاستعداد للموت والعمل للآخرة، كما في الحديث الوارد: **«الكيس من دان[(١)] نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني»[(٢)]**.

وقد أثنى القرآن الكريم على أولي الألباب أصحاب العقول السليمة والحكمة العالية والفطنة الفذة، فنعتهم بأنهم أهل التذكر والتعقل والتدبر، فقال: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩]، وقال: ﴿هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [إبراهيم: ٥٢]. وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

ولما كانوا بهذا القدر من التفقه والتأمل أمرهم جل وعلا بتقواه فقال: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

ومن ثَمَّ كانوا أهلاً لهداية الله، وأحق الناس بجنته، كما قال جل جلاله:

---

(١) أي: حاسبها.

(٢) أخرجه الترمذي وقال: حسن. ووافقه النووي في «رياض الصالحين» (صـ ٣٢)، بينما ضعف الألباني سنده في «الضعيفة» رقم (٥٣١٩).

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨].

وخصَّ الله جل شأنه التعقل والتدبر لأمثال الله التي ضربها للناس بالعالمين بأحكامه فقال: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وذم الله تعالى من لا يستعمل عقله ولا يستخدم فهمه في الوصول إلى هداية الله، فقال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

فالكيس الحكيم متدبر لآيات الله، متأمل لأحكام الله ببصيرة، سائر على منهاج الله بهدى.

* * *

[أخلاق أخرى]

وهناك أخلاق إسلامـية أخرى داخلة في الأخلاق الحـميدة التي سبق شـرحها منها:

(٤٤) الرأفة

الرأفة التي أثنى الله تعالى بهـا على رسوله ﷺ، فقال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

والرأفة أشد من الرحـمة. لذا فإن الله جل وعلا نهى عن استـخدام الرأفة في إقامة الحد على الزاني، فقال: ﴿وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [النور: ٢].

وأمر باستعـمال الرحمة معهم في وقـت إقامة الحد وكيفيـته؛ لأن الرأفة تنفع المسرف على نفسه في جانب، وتضر غيره في جوانب أخرى، والرأفة مندوبة مع غير المقصر من الأطفال واليتامى والمساكين.

* * *

(٤٥) لين الجانب

لين الجانب: وهو خلق مـأخوذ من اللين والرفق والتواضع والرحـمة. ورحم الله الرحمن نبيه الرحيم محمداً ﷺ فوهبه هذا الخلق، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

* * *

(٤٦) خفض الجناح

خفض الجناح: وهو خلق مأخوذ من الرحمة والتواضع والعفو والتسامح، وقد أمر به الأبناء في معاملتهم للآباء، فقال تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾ [الإسراء: ٢٤]. وقد أمر الله نبيه محمداً أن يخفض جناحه للمؤمنين، فقال: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

* * *

(٤٧) اللين

اللين: وهذا الخُلق يشابه خلق الرفق، وتضاده الغلظة والفظاظة، لكن اللين أوسع دائرة من الرفق، فالرفق إنما يركز على الأخلاق الظاهرة، أما اللين فإنه يدخل في الفضائل اللائحة والباطنة، ومنه لين القلب.

* * *

(٤٨) ضبط النفس

ضبط النفس: وهذا الخُلق له علاقة وطيدة بالأناة والثبات والقوة، ونفوذ الشخصية والثقة.

* * *

(٤٩) التعاون

التعاون: وهو مشابه للاتحاد، عائد إلى خُلُق التودد.

* * *

(٥٠) الإحسان

مرتبة الإسلام العالية وقمته السامقة ودرجته النهائية، ولب الإيمان، وروحه وكماله، الذي يجمع جميع الأخلاق الزكية، والفضائل الحسنى، والمقامات الروحية الإيمانية.

وضابطه: مراقبة الله تعالى سرًّا وعلانية، قولاً وفعلاً واعتقادًا، كما في الحديث: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك...**»[1].

فالإحسان كمال الحضور مع الله عز وجل، ومراقبته الجامعة لخشيته، ومحبته ومعرفته، والإنابة إليه، والإخلاص له، ولجميع مقامات الإيمان كالصدق، والإنابة والخشية، والحكمة، والذكر، واليقين، والأنس بالله، والأدب، والفتوة، والمروءة، والتعظيم، والشكر، والرضا، والتوكل، والتفويض، والتسليم، والثقة بالله، والورع، والرجاء، والرغبة، والصبر، والتهذيب.

ذاكم الإحسان مع الله طاعةً ووفاءً وعبودية وذلاً، كما قيل لقارون: ﴿**وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ**﴾ [القصص: ٧٧].

ومن أحسن في عبادة ربه أحبه، كما قال: ﴿**لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [المائدة: ٩٣]. وأجزل له الثواب، وتقبل عمله أحسن قبول، يقول الله جل شأنه: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ**﴾ [الأحقاف: ١٦]، وقال: ﴿**لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾ [آل عمران: ١٧٢].

وله معية الله الخاصة في الدنيا والآخرة، كما قال جل ثناؤه: ﴿**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ**﴾ [النحل: ١٢٨].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان.

والإحسان في حق الخلق: سخاء، وكرم، وجود، وعطف، وشـفقة، ورحمة، ورعاية، وعناية، ووقاية، ومسح لدموع اليتامى والمحتاجين، وخير دائم تُقضى به رغبـات المساكين، وإتقان للصنعـة، وتحسين للحرفـة، وخبرة بالوظيـفة. وأحق الخلق بالإحسـان الوالدان، كما قـال ربنا تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

وفي الإحسان إلى المسكين والفقـير يقول الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البـقرة: ١٩٥]. وهذا الإحسان فوق إيتاء الزكاة وإخراج الواجب.

والإحـسان إلى المرأة يكون بإعطائـها حـقوقـها وزيادة ولا يكون مُـقتـرًا ولا شحـيحًا. وإذا حـدث نزاع بين الزوجين، فأدى إلى الفـراق، فليفارق أحـدهما صاحبـه بحسن أدب وجمال خُلُـق، وإعطاء حقوق، ولا ينسيـان بيتًا ضمـهما، وعلاقة جمعتـهما، قال تعالى: ﴿الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. ولا يفوته أن يجود عليـها بالمتعة إن كان من المحسنين، كـما قال رب العالمين: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦].

وفي الإحسان إلى اليتـيم يقول عز من قائل: ﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الإسراء: ٣٤]، وذلك يحصل بكفالته ورعـايته، والاجتهاد في إدخال السرور على قلبـه، وحفظ ماله حتى يصير قادرًا علـى تصريف شئونه بنفسـه، فإذا بلغ مبلغ الرجل يُدفع إلـيه ماله، كمـا قال الحق سبـحانه: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا﴾ [النساء: ٦].

والإحـسان فـي القول باختـيـار الكلام الذي ينبـغي في الوقت الذي ينبـغي بالطريقـة التي تنبغي، كـما قال الله تـعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣].

والإحسان في المجادلة بإعطاء الخصم حقه دون كذب أو خداع أو بهتان، قال تعالى: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

ودفع السيئة يكون بالإحسان، والإحسان هنا يقوم على رد السيئة بالحسنة، كما وصف الله أولي الألباب، فقال: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢]. كما ورد عن الحسن البصري أنه سُبَّ من رجل، فملأ طبقًا من التمر ودفعه إليه، وقال: بلغني أنك أهديت إليَّ حسناتك.

ويتعلق الإحسان بالحيوان: في إطعامه إذا جاع، وسقيه إذا عطش، ومداواته إذا مرض، وإراحته إذا تعب، وتحميله ما يطيق حمله، وتظليله من المطر والحر والبرد، وإعداد حظيرة لنومه وحاجته. وذبح ما يصح ذبحه منه برحمة ورعاية، فلا يذبحه إلا بسكين حادة، كما يقول النبي ﷺ: «**إنَّ الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحة، وليُحد أحدكم شفرته، وليُرِح ذبيحته**»(١) .

ولارتفاع درجة الإحسان فوق سائر الأخلاق الحميدة والمنازل الإيمانية والمقامات العلية، فإن الله جل وعز مدح به المقربين السابقين الخائفين، وأثابهم إحسانًا في النعيم جزاء إحسانهم في الطاعة والعبادة، فقال: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]. أي: هل جزاء من قال: لا إله إلا الله وعمل بمعانيها وشروطها ومقتضياتها إلا الجنة ورؤية الله. هل جزاء من راقب الله في أقواله وأفعاله وأحواله إلا رضوان الله ورحمته وثوابه. هل جزاء من أتقن العبادة وأحسن في طاعة ربه إلا الفوز بجنة عالية قطوفها دانية. أي نعم، ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

* * *

(١) أخرجه مسلم رقم (١٩٥٥).

(٥١) المروءة

«المروءة سجية جُبلت عليها النفوس الزكية، وشيم طُبعت عليها الهمم العلية، وضعفت عنها الطباع الدنية، فلم تُطق حمل أشراطها السنية».

«اعلم أن من شواهد الفضل ودلائل الكرم: المروءة التي هي حلية النفوس وزينة الهمم. فالمروءة: مراعاة الأحوال إلى أن تكون على أفضلها، حتى لا يظهر منها قبيح عن قصد، ولا يتوجه إليها ذمٌّ باستحقاق»[(١)] .

و(المروءة): فعولة من لفظ المرء كالفتوة من الفتى، والإنسانية من الإنسان، ولهذا كان حقيقتها: اتصاف النفس بصفات الإنسان التي فارق بها الحيوان البهيم، والشيطان الرجيم، فإن للنفس ثلاثة دواع متجاذبة: داع يدعوها إلى الاتصاف بأخلاق الشيطان من الكبر، والحسد، والعلو، والبغي، والشر، والأذى، والفساد، والغش.

وداع يدعوها إلى أخلاق الحيوان وهو داعي الشهوة.

وداع يدعوها إلى أخلاق الملك، من الإحسان، والنصح، والبر، والعلم، والطاعة.

وحقيقة المروءة: بُغض ذينْكِ الداعيين، وإجابة الداعي الثالث.

وقلة المروءة وعدمها: هو الاسترسال مع ذينك الداعيين، والتوجه لدعوتهما أين كانت.

فالإنسانية، والمروءة، والفتوة: كلها في عصيان الداعيين.

وإجابة الداعي الثالث كما قال بعض السلف: خلق الله الملائكة عقولاً بلا شهوة، وخلق البهائم شهوة بلا عقول، وخلق ابن آدم وركب فيه العقل

---

(١) «أدب الدنيا والدين» للماوردي (صـ ٣٩٢).

والشهـوة. فمن غلب عـقله شهـوته التحق بالملائكة، ومن غـلبت شهوته عـقله التحق بالبهائم. ولهذا قيل في حد المروءة: إنها غلبة العقل للشهوة. وقال الفقهاء في حدها: هي استعمال ما يُجمل العبد ويُزينه، وترك ما يُدنسه ويشينه.

وقيل: المروءة استـعمال كل خلق حسن، واجـتناب كل خُلق قبيح، وحقـيقة المروءة: تجنب الدنايا والرذائل، من الأقوال والأخلاق والأعمال.

فمروءة اللسان: حلاوته وطيبه ولينه، واجتناء الثمار منه بسهولة ويُسر.

ومروءة الخُلُق: سَعَتُه وبسطه للحبيب والبغيض.

ومروءة المال: الإصابة ببذله مواقعه المحمودة عقلاً وعرفًا وشرعًا.

ومروءة الجاه: بذله للمحتاج إليه.

ومروءة الإحسان: تعجيله وتيسيره وتوفـيره، وعدم رؤيته حال وقوعه ونسيانه بعد وقوعه، فهذه مروءة البذل.

أما مروءة الترك: فترك الخصام، والمعاتبة، والمطالبة ، والمماراة، والإغضاء عن عيب مـا يأخذه من حـقك. وترك الاستقـصاء في طلبه، والـتغافل عن عـثرات الناس، وإشعـارهم أنك لا تعلم منهم عثـرة، والتوقـير للكبيـر، وحفظ حُـرمة النظير، ورعاية أدب الصغير[١] .

وفي صحـيح مسلم، من حـديث أبي هريرة قال: قال رسـول الله ﷺ: قال النووي في «شرح صـحيح مسلم » (١٥/ ١٣٥): معناه: «إن أصـحاب المروءات ومكارم الأخلاق في الجاهلية إذا أسلموا وفقهوا، فهم خيار الناس».

وقال ﷺ: **«أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم، إلا الحدود»**[٢] . قال الشافعي: «وذوو الهيئـات الذين يُقالون عَثَراتهم: الذين ليـسوا يُعرفون بالشر، فـيزل أحدهم الزلة وهم أهل المروءات».

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٥١- ٣٥٣).

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود والطحاوي في «مشكل الآثار»، وأحـمد وأبو نعيم وابن عدي والبيهقي وصححه الألباني من حديث عائشة في «السلسلة الصحيحة» رقم (٦٣٨).

رُفع إلى عمر بن الخطاب رجل في جُرم، فأراد أن يُعاقبه، فأخبر أن له مروءة، فقال: «استوهبوه من صاحبه»، كذا في «بهجة المجالس» (٢/ ٦٤٣).

قالوا عن المروءة:

قال ربيعة بن أبي عبد الرحمن: «للسفر مروءة، وللحضر مروءة، فأما مروءة السفر: فبذل الزاد، وقلة الخلاف على الأصحاب، وكثرة المزاح في غير مساخط الله، وأما المروءة في الحضر: فالإدمان إلى المساجد، وتلاوة القرآن، وكثرة الإخوان في الله عز وجل»[١] .

وفي رواية أخرى عنه: «أما التي في السفر: فبذل الزاد، وحسن الخلق، ومداعبة الرفيق، وأما التي في الحضر: فتلاوة القرآن، ولزوم المساجد، وعفاف الفرج»[٢] .

لله درك من إمام!!

«كان أبو الليث الطرسوسي يُعزّى، فقيل له: ما شأنه؟ قالوا: فاتته صلاة الجماعة»[٣] .

«وعن نعيم بن حماد، قال: جاء ضمام بن إسماعيل إلى المسجد وقد صلى الناس وفاتته الصلاة، فجعل على نفسه ألا يخرج من المسجد حتى يلقى الله، قال: فجعله بيته حتى مات»[٤] .

وسُئل سفيان الثوري عن المروءة ما هي؟ قال: «الإنصاف من نفسك، والتفضل: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ [النحل: ٩٠] وهو الإنصاف، ﴿وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠] وهو التفضل، ولا يتم الأمر إلا بهما، ألا تراه لو أعطى شيئًا إلا أن يأخذ من صاحبه مثله وليس مع هذا مروءة»[٥] .

---

(١) «روضة العقلاء» لابن حبان (صـ ٢٣٢)، و«التمهيد» لابن عبد البر (٢٣/ ١٧٨).
(٢) «بهجة المجالس» لابن عبد البر (٢/ ٦٤٥).
(٣) «تاريخ واسط» (صـ ١٧٤) لبحشل.
(٤) «العلل» لأحمد بن حنبل رقم (٥٠٣٣).
(٥) «مكارم الأخلاق» للخرائطي رقم (١٦٧).

العقل والمروءة: وسُئل بعض الحكماء عن الفـرق بين العقل والمروءة، فقال: «العقل يأمرك بالأنفع، والمروءة تأمرك بالأجمل والأرفع، ولن تجد الأخلاق على ما وصفنا. من وجـد المروءة منطبعة، ولا عن المراعاة مستـغنية، وإنما المراعاة هي المروءة، لا مـا انطبـعت عليـه من فـضائـل الأخلاق؛ لأن غـرور الهـوى ونازع الشيطان يصرفان النفس أن تركب الأفضل من خـلائقها، والأجمل من طرائقها، وإن سلمت منهـا، وبعـيـدًا أن تسلم إلا لمن اسـتكمل شـرف الأخلاق طـبعًـا، واستغنى عن تهذيبها تكلفًا وتطبعًا»[١].

دواعي طلب المروءة: علو الهمة وشرف النفس.

والداعي إلى استسهال ذلك شيئان: أحدهما: علو الهمة، والثاني: شرف النفس. أما علو الهمـة: فلأنه باعث على التقدم، وداع إلى التخـصيص أنفة من خمول الضعة، واستنكارًا لمهانة النقص!!

ولذلك قال النبي ﷺ: «**إن الله يحب معالي الأمور وأشرافها، ويكره سفاسفها**».

ورُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: لا تصـغرن هممكم، فإني لم أرَ أقعدَ عن المكرمات من صغر الهمم.

وقال بعض الحكمـاء: الهمة راية الجـد. وقال بعض البلغـاء: علو الهمم بذر النعم. وقال بـعض العلماء: إذا طلب رجـلان أمرًا، ظفر به أعظمـهمـا مروءة. وقال بعض العلماء: من ترك التماس المعالي بسوء الرجاء لم ينل جُسيمًا.

وأما شرف النفس: فإن به يكون قبول التأدب واستـقرار التقويم والتهذيب؛ لأن النفس ربما جمحت عن الأفضل وهي به عارفة، ونفرت عن التأديب وهي له مستحسنة؛ لأنها عـليه غير مطبوعة، وله غير ملائمة، فتـصير منه أنفر، ولضده الملائم آثر، وقد قيل: ما أكثر من يعرف الحق ولا يطيعه!!

وإذا شرفت النفس كـانت للآداب طالبة، وفي الفضائـل راغبة، فإذا مـازجها صارت طبعًا ملائمًا، فنما واستقر.

---

(١) «أدب الدنيا والدين» (صـ ٣٩٢).

حقوق المروءة وشروطها: واعلم أن حقوق المروءة أكثر من أن تحصى، وأخفى من أن تُظهر؛ لأن منها ما يقوم في الوهم حسًّا، ومنها ما يقتضيه شاهد الحال حدْسًا[١] .

ومنها ما يظهر بالفعل ويخفى بالتغافل، فلذلك أعْوز[٢] استيفاء شروطها، إلا جملاً يتنبه الفاضل لها ليقظته، ويستدل العاقل عليها بفطرته، وإنما نذكر هنا الأشهر من قواعدها وأصولها، والأظهر من شروطها وحقوقها، محصورًا في تقسيم جامع، وهو ينقسم قسمين:

أحدهما: شروط المروءة في نفسه، وهي: العفة، والنزاهة، والصيانة.

والثاني: شروط المروءة في غيره، وهي: المعاونة (المؤازرة)، والمياسرة، والإفضال.

شروط المروءة في النفس: فأما شروطها في نفسه بعد التزام ما أوجبه الشرع من أحكامه، فيكون بثلاثة أمور، وهي: العفة، والنزاهة، والصيانة.

١- العفة: فأما العفة فنوعان: أحدهما: العفة عن المحارم، والثاني: العفة عن المآثم.

(أ) فأما العفة عن المحارم، فنوعان: أحدهما: ضبط الفرج عن الحرام. والثاني: كف اللسان عن الأعراض.

(ب) وأما العفة عن المآثم: فنوعان: أحدهما: الكف عن المجاهرة بالظلم. والثاني: زجر النفس عن الإسرار بخيانة.

٢- النزاهة: وأما النزاهة فنوعان: أحدهما: النزاهة عن المطامع الدنية، والثاني: النزاهة عن مواقف الريبة.

٣- الصيانة: نوعان:

(أ) **أحدهما:** صيانة النفس بالتماس كفايتها وتقدير مادتها.

---

(١) تخمينًا.

(٢) انعدم.

(ب) **والثاني**: صيانتها عن تحمل المِنَن، والاسترسال في الاستعانة بهم.

(أ) أما التماس الكفاية: فلأن المحتاج إلى الناس كَلٌّ مُهتضم، وذليل مستثقل، وعليه بطلب كفايته وسد خلته.

(ب) وأما صيانتها عن تحمل المنن: فـلأن المنة استرقاق الأحرار، فإن استطعت ألا يكون بينك وبين الله ذو نعمـة فافعل، ولا تكن عـبد غيرك وقـد جعلك الله حرًّا.

شروط مروءة المرء في غيره ثلاثة: المؤازرة، والمياسرة، والإفضال.

المؤازرة (المعاونة): بالجاه، والمال، والبـدن. أما المؤازرة فنوعان: أحـدهما: الإسعاف بالجاه. والثاني: الإسعاف في النوائب.

الميـاسرة: فأمـا المياسـرة فنوعان: أحـدهما: العـفو عن الزلات، والثـاني: المسامحة في الحقوق .

الإفضال: وأما الإفضال فنوعان: إفضال اصطناع، وإفضال استكفاف ودفاع.

فأما إفضال الاصطناع : فنوعان: أحدهما: ما أسداه جودًا في شكور. والثاني: ما تألف به نبوة نفور. وكلاهما من شـروط المروءة لما فيها من ظهور الاصطناع. وتكاثر الأشيـاع والأتباع. ومن قلت صنائعـه في الشاكـرين. وأعرض عن تألف المنافرين كان فردًا مهجورًا، وتابعًـا محقورًا. ولا مروءة لمتروك مطروح، ولا قدر لمحقور مهتضم.

وأما إفضـال الاستكفاف: فلأن ذا الفضل لا يعدم حاسدَ نعـمة ومعاند فضيلة، يعتريه الجهل بإظهار عناده ويبعثه اللوم على البذاء بسفهه، فإن غفل عن استكفاف السفـهاء وأعرض عن اسـتدفاع أهل البـذاء، صار عرضـه هدفًا للمثـالب وحاله عُرضة للنوائب، وإذا استكـف السفيه، واستدفع البذيء، صـان عرضه، وحمى نعمته.

قالت عائشة رضي الله عنها: «ذُبُّوا بأموالكم عن أعراضكم».

ولاستكفاف السفـهاء بالإفضال شرطان: أحدهما: أن يخفيـه، حتى لا تنتشر

فيه مطامع السفهاء فيعمدون إلى اجتدائه بسببه، وإلى ماله بسلبه. والثاني: أن يتطلب له في المجاملة وجهًا، ويجعل في الإفضال عليه سببًا؛ لئلا يرى أنه على السفهِ واستدامة البذاء. واعلم أنك ما حييت ملحوظ المحاسن، محفوظ المساوئ، ثم من بعد ذلك حديث منتشر، لا يراقبك صديق، ولا يحامي عنك شقيق، فكن أحسن حديث يُنشر، يكن سعيك في الناس مشكورًا، وأجرك عند الله مذخورًا. ونختم حقوق المروءة وشروطها بما ثبت عن الشافعي رحمه الله، قال: «للمروءة أربعة أركان: حسن الخلق، والسخاء، والتواضع، والشكر»[1].

* * *

(١) «توالي التأسيس» لابن حجر (صـ ٧٢).

(٥٢) الأصالة

الأصالة: الشرف والسيادة وعلو القدر وارتفاع المنزلة. الأصالة في الخُلق تدنو من المرءوة وعلو الهمة. الأصالة في الرأي: الإتقان والإحسان والاستحكام. يقال: أصل الرأي إذا جاد واستحكم. والأصالة في البحث العلمي: الإتيان بفكرة مبتكرة. والأصالة في النسب: شرفه وعراقته، يقال: أصل النسب، شرف فهو أصيل. ومن الأصالة الإجلال للصالحين والتعظيم للعلماء العاملين والدعاة المخلصين.

وأعظم منها: توقير السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم بالترضي عنهم والترحم والدعاء لهم، وذكر محاسنهم، وقراءة أخبارهم، ومطالعة سيرهم والاقتداء بخصالهم، والاعتراف بفضلهم، والإقرار بسبقهم، وانعقاد القلب على حبهم أجمعين، والكف عمَّا شجر بينهم.

* * *

*** أخلاق بين العبد وربه تعالى:**

الأخلاق التي شرحناها من أول الكتاب لها صلة بالخالق والمخلوق، لكن هناك أخلاقًا أشد صلة بالله تعالى وأقرب تعلقًا بالقلب.

ومن هذه الأخلاق والأحوال والمجاهدات:

١- الإشفاق[(١)] .

٢- الخشوع[(٢)] .

٣- الإخبات[(٣)] .

---

(١) المدارج (ج١) (صـ ٥١٧) وما بعدها.

(٢) السابق (ج١) (صـ ٥٢٠) وما بعدها.

(٣) السابق (ج٢) (صـ ٣) وما بعدها.

٤- الورع[١] .

٥- التبتل[٢] .

٦- الرعاية[٣] .

٧- المراقبة[٤] .

٨- الإخلاص[٥] .

٩- الاستقامة[٦] .

١٠- الثقة بالله تعالى[٧] .

١١- التسليم[٨] .

١٢- الصبر[٩] .

١٣- الحياء[١٠] .

١٤- الصدق[١١] .

١٥- الإيثار[١٢] .

١٦- الخُلُق[١٣] .

---

(١) السابق (ج٢) (صـ ٢٠) وما بعدها.
(٢) السابق (ج٢) (صـ ٢٩) وما بعدها.
(٣) السابق (ج٢) (صـ ٦٠) وما بعدها.
(٤) السابق (ج٢) (صـ ٦٥) وما بعدها.
(٥) السابق (ج٢) (صـ ٨٩) وما بعدها .
(٦) السابق (ج٢) (صـ ١٠٣) وما بعدها.
(٧) السابق (ج٢) (صـ ١٤٣) وما بعدها.
(٨) السابق (ج٢) (صـ ١٤٦) وما بعدها.
(٩) السابق (ج٢) (صـ ١٥٢) وما بعدها.
(١٠) السابق (ج٢) (صـ ٢٥٨) وما بعدها.
(١١) السابق (ج٢) (صـ ٢٦٨) وما بعدها.
(١٢) السابق (ج٢) (صـ ٢٩١) وما بعدها.
(١٣) السابق (ج٢) (صـ ٢٠٤) وما بعدها.

١٧- التواضع[١] .

١٨- الفتوة[٢] .

١٩- التوكل.

٢٠- المحبة[٣] .

٢١- الرجاء .

٢٢- الحزن.

٢٣- الشكر.

٢٤- الإرادة[٤] .

٢٥ - الأدب[٥].

٢٦- الذكر[٦].

٢٧- الحكمة[٧] .

٢٨- الفراسة[٨] .

٢٩- الإلهام والإفهام، والوحي، والتحديث، والرؤيا الصادقة[٩] .

٣٠- السكينة[١٠] .

---

(١) السابق (ج٢) (صـ ٣٢٧) وما بعدها.

(٢) السابق (ج٢) (صـ ٣٤٠) وما بعدها.

(٣) السابق (ج٣) (صـ ٦، ٧) وما بعدها.

(٤) السابق (ج٢) (صـ ٣٦٤) وما بعدها.

(٥) السابق (ج٢) (صـ ٣٧٥) وما بعدها.

(٦) السابق (ج٢) (صـ ٤٢٣) وما بعدها.

(٧) السابق (ج٢) (صـ ٤٧٨) وما بعدها.

(٨) السابق (ج٢) (صـ ٤٨٢) وما بعدها.

(٩) السابق (ج٢) (صـ ٥٠٢) وما بعدها.

(١٠) السابق (ج٢) (صـ ٥٠٢) وما بعدها.

٣١- الطمأنينة[١] .

٣٢- التعظيم[٢] .

٣٣- الهِمة[٣] .

٣٤- الشوق[٤] .

٣٥- الذوق[٥] .

٣٦- اللحظ[٦] .

٣٧- اليقظة[٧] .

٣٨- البصيرة[٨] .

٣٩- الفكرة[٩] .

٤٠- العزم[١٠] .

٤١- المحاسبة[١١] .

٤٢- التوبة[١٢] .

٤٣- الإنابة[١٣] .

٤٤- التذكر[١٤] وهو قرين الإنابة.

٤٥- الاعتصام[١٥] .

---

(١) السابق (ج٢) (صـ ٥١٢) وما بعدها.

(٢) السابق (ج٢) (صـ ٤٩٥) وما بعدها.

(٣) السابق (ج٣) (صـ ٣) وما بعدها.

(٤) السابق (ج٣) (صـ ٥١) وما بعدها.

(٥) السابق (ج٣) (صـ ٨٧) وما بعدها.

(٦) السابق (ج٣) (صـ ١٠٠) وما بعدها.

(٧- ١٢) السابق (ج١) (صـ ١٦٩).

(١٣) السابق (ج١) (صـ ٤٣٣) وما بعدها.

(١٤) السابق (ج١) (صـ ٤٤٠) وما بعدها.

(١٥) السابق (ج١) (صـ ٤٦٠) وما بعدها.

٤٦- الفرار[(١)] .

٤٧- الرياضة[(٢)] .

هذه المقامات الإيمانيـة تخصصت تصانيف في توضـيحها، منهـا: إحياء علوم الدين، ومدارج السالكين، والرسالة القشيرية وغيرها.

* * *

(١) السابق (ج١) (صـ ٤٦٩) وما بعدها.

(٢) السابق (ج١) (صـ ٤٧٥) وما بعدها.

علم الأخلاق

أورد هنا كلمة موجزة عن علم الأخلاق فأقول:

الأخلاق لغة: جمع خلُق، ومعناها: الشكل، والطبع، والنفس، والمروءة والسلوك، وتطلق على الخير والفضيلة والواجب.

اصطلاحًا: هو العلم الذي يهدي إلى أفضل الطرق وأقوم السُّبل في السلوك.

تعريف الخُلُق: لغة: السجية، والطبع، والمروءة، والدين، ويُراد به الصورة الباطنة للإنسان، ويقابله (خَلْق)، قال تعالى: ﴿وتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾[العنكبوت: ١٧]، والخلوق: الطيب، والخَلاَق: النصيب، وخَلِقَ: بَلِي وفني. وخَلْق: يكون لما يُدرك بالبصر، وخُلُق: لما يُدْرك بالبصيرة.

- وورد الخُلُق في القرآن الكريم مرتين، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، و﴿إِنْ هَٰذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٧].

ومن السُّنة: عن النواس بن سمعان قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم؟ فقال: **«البر حُسْن الخُلُق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس»**. رواه مسلم.

وقال ﷺ: **«أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلُقًا»**(١).

واصطلاحًا: تغلب ميل من الميول على غيره باستمرار، أو هيئة راسخة في النفس يمكن بها أداء الأفعال بسهولة.

مراحل تكوين الخُلُق:

١- مرحلة ورود الخاطر، أي: حديث النفس عن البذل والعطاء مثلاً.

٢- مرحلة ورود الميل: وهو توجه الإنسان لخاطر تصوره، كميله للإنفاق لسد

---

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (ج٢).

حاجة الفقير.

٣- مرحلة ورود الرغبة: وهو عمل الفكر في شيء يريده.

٤- مرحلة ورود الإرادة: إذا تغلب ميل على الآخر.

٥- مرحلة (العزم).

٦- مرحلة ثبوت العادة: إذا تكرر الفعل صار عادة وديدنًا.

هل الخُلُق فطري أم مكتسب: منه ما هو فطري: كالحلم والحياء، ففي حديث أشج عبد القيس قال: «قال لي النبي ﷺ: **«إن فيك لخلقين يحبهما الله»**. قلت: وما هما يا رسول الله؟ قال: **«الحلم والحياء»**، قلت: قديمًا كان أو حديثًا؟ قال: **«قديمًا»**، قلت: الحمد لله الذي جبلني على خلقين أحبهما الله»[1].

ومنه ما هو مكتسب كالكرم والشجاعة، ومنه ما هو محمود، ومنه ما هو مذموم.

أسس السلوك (مكوناته):

١- الغريزة: ولها أنواع أهمها: حفظ الذات - حفظ النوع- غريزة الخوف- غريزة الملكية - غريزة حب الاستطلاع - غريزة حب الاجتماع - غريزة حب السيطرة- غريزة حب العمل والإنجاز - تعريفها (سيأتي) - خصائصها (ستأتي).

٢- العادة: وهي اسم لتكرار فعل من الأفعال التي ترتاح إليها النفس مرات كثيرة متتالية حُسنًا أو قبحًا.

خصائصها: أ- سهولة الأداء، مثل: تعليم الطفل النطق.

ب- توفير الوقت كتعليم الكتابة في بدايته يأخذ وقتًا، ثم يكون سهلاً، والفرق بينها وبين الغريزة أنها مكتسبة، والغريزة فطرية .

٣- الوراثة: تعريفها وخصائصها ستأتي .

٤- البيئة: تعريفها وخصائصها ستأتي.

٥- الدين: وهو أهمها.

أولاً: الغريزة هي: قوة فطرية أودعها الله جسم الإنسان فتدفعه إلى المحافظة على بقائه، وبقاء سلالته من غير سابق تفكير في هذه الغايات، أو تدريب ما يوصل إليها من أعمال.

فوائدها وخصائصها:

١- اختلاف قوة الغريزة من شخص لآخر ومن مجتمع لآخر تبعًا للظروف المحيطة بها.

٢- ظهور الغريزة المتنوعة ليس محدداً ولا منتظمًا في الإنسان كانتظامه في الحيوان للتقدم الذي يحدث للإنسان.

٣- أنها إذا تعارضت نشأ عن ذلك اضطراب أو تردد في السلوك كغريزة حب التملك والكرم، فهما متعارضتان.

٤- أنها تظهر في شكل دوافع على العمل، كحب الذات تبعث على السعي على القوت والشراب.

الغريزة بين الثبوت والتغير: الغريزة هي المادة الأولى التي يتكون منها الخُلُق إلا أنها مادة ساذجة ينبغي أن تربى وتهذب، فهي قابلة للثبات والتنمية بالتربية، كما أنها قابلة للضعف والتغير والفناء بالإهمال.

البيئة: هي الوسط الذي تزاول فيه حياتك من يوم أن تكون جنينًا في بطن أمك حتى تفارق الحياة.

أنواعها: ١- بيئة طبيعية: لا دخل للإنسان فيها، كالماء والهواء، وهي تؤثر في الأخلاق مثل: سكان المناطق الحارة يمتازون بسرعة الغضب، وسرعة الرضا، فهم متطرفون في كل شيء بخلاف سكان المناطق الباردة فيمتازون ببرود العاطفة.

٢- بيئة اجتماعية: وهي ما اخترعه الإنسان ولم يكن في الطبيعة كالبيت والمدرسة، إذن البيئة الطبيعية (جامدة)، وأما البيئة الاجتماعية فمتطورة كتحويل الكهوف إلى قصور.

أي العاملين أفضل: الوراثة أم البيئة؟ قيل: الوراثة أفضل، وقيل: البيئة

أفضل، ونجمع بين الرأيين بأن لكل واحد منهما الأثر في توجيه أخلاقه، فالوراثة تمده بالاستعدادات والميول والغرائز، والبيئة تهيئ له عمل الخير أو الشر.

هل يمكن تغيير الخُلُق؟ قيل: يستحيل تغييره؛ لأن الناس جبلوا على أن هذا خير أو شر، والحق أن هذا ممكن بالوعظ والتأديب، وهو ما يتفق مع قوله ﷺ لمعاذ: «**استقم وليحسن خلقك**»، رواه أبو بكر بن لال وهو منقطع، ورجاله ثقات. ولأن هذا يتفق مع عدله عز وجل: ﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾ [البقرة: ٢٨٦]، إذ كيف يعذب قومًا جُبلوا على الشر؟

الوراثة: هي انتقال بعض صفات الأصول إلى الفروع قلَّت أم كثرت.

والخصائص التي يرثها الفرع عن الأصل هي:

١- خصائص نفسية، وعقلية.

٢- جسمية.

٣- خُلُقية. وهذه الخصائص كلها تنقسم إلى فطرية أو مكتسبة.

وأجمع العلماء على أن الصفات الفطرية سواء كانت نفسية عقلية، أم جسمية أم خُلُقية تورث، واختلفوا هل الصفات المكتسبة تورث أم لا؟

الفريق الأول: لا تورث بالأدلة الآتية:

(أ) فطرة الختان موجودة، ومع ذلك يولد الأطفال بدون ختان،(ب) وكذا عادة الوشم. (ج) لبس نساء الصين أحذية لتصغير أقدامهن، ومع ذلك لا يولد أولادهم كذلك. (د) القراءة والكتابة صفة قديمة، ومع ذلك لا يولد طفل يعرف القراءة وحده.

الفريق الثاني: تورث. وذهب دارون وأصحاب مذهب النشوء والارتقاء أنها تورث للأدلة الآتية:

أ- أصحاب البشرة السمراء في المناطق الحارة اكتسبوه من حرارة الشمس ثم توارثه الأبناء.

ب- عادة أهل الإسكيمو أن يقطعوا أذناب الكلاب حتى أصبح أبناؤهم يورثون بلا أذناب. وهذا خطأ؛ لأن البشرة السوداء نتيجة حرارة الشمس، أما الكلاب بلا أذناب ففصيلتها كذلك.

الرد عليهما: إن الفريقين مخطئان، والأصح أن الصفات المكتسبة لا تورث إلا إذا كانت متصلة بجانب عضوي ومضى عليها زمن طويل تأصلت فيه وأثرت على الجهاز العصبي للإنسان، ومع كل هذا فليس حتمًا أن تصبح هذه الصفة وراثية، بل يغلب أن تكون وراثة في الصفات الجسمية أو العقلية، أما الخُلُقية ففيها مذهبان:

١- ذهب ابن مسكويه والغزالي: إلى أن الأخلاق غير موروثة.

(أ) ابن مسكويه: إنها غير موجودة في الطفل، وإن وجدت فإنها عن طريق التلقين.

(ب) الغزالي: الطفل خلق قابلاً للخير والشر، وأبواه يميلان به إلى أحد الجانبين؛ لأنه يولد بصحيفة بيضاء قابلة لنقشها بالخير أو الشر. وهو الأرجح .

(٢) المذهب الثاني: ذهب أن الأخلاق تورث .

(أ) د. محمد يوسف ذهب إلى أنها ثورث .

(ب) ابن مسكويه في كتابه: ذهب إلى أن الطفل يميل إلى بعض الأخلاق السيئة مثل: ميله إلى الكذب.

ونجمع بين الآراء:

١- أنها تورث، لكنها تكون ضعيفة ما لم يتعاهدها الآباء، فهم يرثون استعدادات لا ملكات خاصة.

٢- للصفات الجسمية تأثير على الصفات الخلقية لأنها تتدخل في تكوين نفسيته، فالشخص الذي ورث خَلْقًا سويًا، وشكلاً مقبولاً يندمج في المجتمع، بخلاف عكسه. فالصفات الخلقية تورث، لكنها تكون ضعيفة تحتاج إلى تربية.

موضوع علم الأخلاق: هو السلوك البشري من حيث هو خير أو شر، والحكم عليه من جانب الواجب أو اللذة والمنفعة، وهو يدرس ما يجب أن يكون، لا ما هو كائن، ولا يجب أن يكون هذا معياراً شخصيًّا، بل ينبغي أن يكون عامًّا.
والسلوك البشري ينقسم إلى:

١- أعمال إرادية: وهي الأعمال التي يقوم بها الإنسان بمحض إرادته كرفع حجر عن الطريق.

٢- أعمال شبه إرادية: وهي الأعمال التي يقوم بها الإنسان بغير إرادة، لكن ممكن أن يحتاط لنتائجه كمن يترك المصباح مشتعلاً وينام، فيحرق المكان.

٣- خواطر القلب كمن يريد أن يجاهد وحبسه العذر.

٤- أعمال لا إرادية. وعلم الأخلاق يبحث في الثلاثة ولا يبحث في هذا القسم.

إذن فموضوعه: الأعمال الإرادية الصادرة عن الإنسان بقصد واختيار والتي يمكن أن نصدر عليها حكمنا بأنها خير أو شر.

وسائل تهذيب الأخلاق:

١- الوعظ والإرشاد: وذلك ببيان حقيقة الفضيلة وأثرها، وبيان الرذيلة وسوء مغبتها حتى يرتدع بنفسه. قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٨].

ويؤخذ على هذه الوسيلة: أن التركيز على الرذيلة ينبه الأطفال إليها بعد أن كانوا غافلين عنها، والتركيز على الفضيلة يجعلها ثقيلة عليهم وتجعلهم يؤثرون الرذيلة عليها. ونرد بأن هذا غير سديد فإنك حينما تنبه على خطر الرذيلة فإنه إن فهم ذلك سيجتنبها وإلا فإنه سيقدم عليها لعدم فهمه لها كتعريف الطفل التمر من الجمر.

٢- القدوة والتقليد: فلهذا الجانب أهمية قصوى سواء من ناحية الأب أو الأسرة أو المعلم؛ لأن الطفل يتأثر بهم، ومن هذا ينبغي مراعاة السلوك الحسن

للمربي حتى يكون قدوة، وينبغي للأسرة تعويد الطفل على السلوك الحسن بنفسه دون تقليد حتى يستطيع أن يواجه الحياة.

ويؤخذ على هذه الوسيلة: أن الطفل إذا ظل يقلد والديه في رجولته فـإن أعماله ستـفقد قيـمتهـا من الوجهة الخلقـية، لذلك يجب تعويده وتـدريبه على السلوك الفاضل بأن توكل إليه أعمال صالحة يقوم بها بنفسه حتى تصبح عادة له.

٣- الثواب والعقاب: وذلك بتشجيع السلوك الحسـن بمكافأة صاحبه وتوبيخ صاحب السلوك السـيئ وتأنيبه وضربه إن احتـاج لذلك، وقد استخـدمه الرسول ﷺ مع الثلاثة الذين خُلفوا عن تبوك حيث أمر بعدم الكلام معهم خمسين يومًا، مع بيان مغبـة المعصية والسلوك القبيح من سخط الله وحـربه مثل الذين يتعاملون بالربا.

٤- تربية النفس على القيام بنوع من أعمـال الخير العامة: بأن يضع أمامه غاية يعـمل على تحقيـقها كـخدمة الدين وإلا أصـبح يفكر في نفسه حـاقدًا على مجتمعه لا يعمل إلا لمصلحته فقط.

٥- صحبـة الأخيار: وذلك له أثر بالغ في تكوين السلوك، ومن أعظم ذلك دراسة سيـرة الرسول ﷺ وصحابتـه، ووضح القرآن أثر الصحـبة السيئـة فقال: ﴿**وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً** (٢٧) **يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً**﴾ [الفرقان: ٢٧، ٢٨].

وقال ﷺ: «**مثل الجليس الصالح، والجليس السـوء كحامل المسك ونافـخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتـاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة**». رواه مسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه. وقال الشاعر:

واحـذر مـصـاحـبـة اللئـيم فـإنه ... يعدي كـما يعـدي الصحـيح الأجرب

هل في استطاعة هذا العلم أن يجعـل الإنسان صالحًا؟ ليس في استطاعته وإنما يبين له طريق الخير أو الشر، والإنسان إما أن يسلك هذا أو ذاك.

فائدته: إن دراسته توجهنا إلى أفضل الفضائل ويغير سلوكنا إلى حسن، ومن حسن إلى أحسن، وهذه كانت مهمة الرسل، ويمكن إجمال فوائده فيما يأتي:

١- يعطينا ويعلمنا كيف نحكم على الأشياء بأنها خير أو شر؛ تبعًا للكتاب والسنة وسيرة الصحابة، ونلتمس ذلك من قول عائشة رضي الله عنها حينما سئلت عن خلقه ﷺ فقالت: «كان خُلُقُه القرآن».

٢- تمحيص النظريات القديمة لتصلح لسلوك الناس حديثًا؛ لأن ما يصلح لزمان لا يصلح لآخر، من هنا ذم الإسلام (مذهب اللذة)؛ لأنها قائمة على اللذة الدنيوية فقط، وحث على العمل الخيِّر دنيا وآخرة.

٣- يوجهنا إلى البحث في الوازع النفسي الذي نسير عليه بمقتضى أوامر الشرع: «**استفت قلبك...**».

٤- يعطينا كل ما يتعلق بالمقاييس التي نقيس بها الأعمال سواء كان قياسًا داخل الإنسان (العقل والضمير)، أو خارجًا عنه كالعرف والعادة والقوانين الوضعية، سواء كانت هذه المقاييس حقًّا أو باطلاً.

٥ - إنه يساعدنا على معرفة التفاصيل الجوهرية للمبادئ والأسس الخلقية ليسهل علينا أن ننهج بالمجتمع أفضل نهج.

٦- إنه يدلنا على الآداب العالية والمبادئ السامية ليسهل القيام بوسائل الإصلاح الضرورية التي ترقى بالناس في الحاضر والمستقبل.

٧- يوضح لنا الصلات الحقيقية للأفراد وعلاقته بالآخرين حتى يهنأ ويسعد في حياته.

٨- يبين لنا ما لنا من حقوق وما علينا من واجبات، فنعمل العمل الذي يرقى بالبشرية جمعاء.

٩- يبين لنا الغاية المثلى التي يجب أن يكون عليها الناس ويقصدونها في جميع أعمالهم وتعاملهم.

علاقة علم الأخلاق بالعلوم الأخرى:

أولاً: علم الأخلاق وعلم النفس الاجتماعي: كلاهما يبحث في الأعمال الإرادية، لكن علم النفس يتحدث عن الأشياء التي لا غنى عنها لدارس علم الأخلاق، فعلم النفس يتحدث عن سلوك الفرد وإحساساته واللذة والألم والعواطف، وعلم النفس الاجتماعي أيضًا يتحدث عن الأشياء التي لا غنى عنها لدارس علم الأخلاق، وهي دراسة سلوك الجماعة وعادات الأقوام المتوحشة، لكن الفرق بين علم النفس وعلم الأخلاق: أن علم النفس يصف السلوك فقط الذي عليه الإنسان خيرًا أو شرًّا. أما علم الأخلاق: فيُقوِّم سلوك الفرد المُعْوَج من الشر إلى الخير، ويطلق الحكم أن هذا السلوك أخلاقي أو لا وفق معايير معينة.

ثانيًا: علم الأخلاق وعلم الاجتماع: علم الاجتماع يبحث في الجماعات الأولى من الناس وكيف ارتقت وتقدمت، ويبحث في اللغة والدين والأسرة، وكيف تكون القانون وتألفت الحكومة، ونحو ذلك، ودراسة هذه الأشياء تعين على فهم أعمال الناس والحكم عليها بالخير أو الشر وبالصواب أو الخطأ وهو ما يبحث فيه علم الأخلاق، لكن نفرق بينهما بأن علم الاجتماع علم تقريري يبين ما كانت عليه الجماعة الأولى فقط، وعلم الأخلاق: لا يكتفي بهذا، بل يقوم بتقويم سلوك الفرد وإصدار الحكم عليه بالخير أو الشر.

ثالثًا: علم الأخلاق والمنطق: كلاهما يبحث في (قوى النفس) لكن علم المنطق يبحث في التفكير. والأخلاق: يبحث في الإرادة وما يصدر عنها- وكلاهما علم مقياسي، لكن علم المنطق يبحث عن مقياس الحقيقة. والأخلاق يبحث عن مقياس سلوك الإنسان- وكلاهما يعمل على وجوب الاتفاق مع المقياس الذي ينتهي إليه، لكن علم المنطق يعمل على اتفاق الذهن في تفكيره مع المقياس. أما الأخلاق: فيعمل على وجوب اتفاق السلوك مع مقياس الخير.

رابعًا: علم الأخلاق وعلم السياسة: علم السياسة يهتم بالفرد والمجتمع؛ لأن المجتمع عدة أفراد ولابد لهذا الفرد من قائد يحكمه ويسوس أمره. ويمتاز علم الأخلاق بأنه: علم معياري يدرس السلوك البشري من ناحية الخير أو الشر وما

ينبغي أن يكون عليه من خير.

- له ألفاظ مخصوصة مثل: كان ينبغي، الأفضل، افعل، لا تفعل، كان من الواجب.

- فيه أسلوب الأمر الذي يرعى الخير ويقدره، ويهمل الشر ويحقره، وعلم الأخلاق جزء من الدين.

المعيار الخلقي: هو المقياس الذي نقيس به الأعمال، فنحكم عليها بالخير أو بالشر، أو هو: القانون الذي يُرجع إليه لتقدير قيم الأعمال الأخلاقية.

أنواعه: ١- الاتجاه الداخلي: وينقسم إلى:

أ- العقل .

ب- الضمير.

٢- الاتجاه الخارجي: وهو على ثلاثة أقسام:

أ- العرف أو العادة.

ب- القوانين الوضعية.

جـ- السعادة: وتنقسم إلى قسمين:

١- مذهب السعادة الشخصية.

٢- مذهب السعادة العامة .

د- الدين.

هل العقل يصلح أن يكون مقياسًا للأخلاق؟

ذهب أفلاطون لذلك، لكننا نقول: إنه لا يصلح لما يأتي:

١- العقل البشري محدود بالثقافات والاستعدادات الموروثة والخاصة، ومن ثم كثيرًا ما يضل وينحرف.

٢- العقل البشري مخلوق ومن ثمَّ كان نتاجه متفاوت بتفاوت البشر، فهو

يختلف من وقت لآخر.

٣- القول بأن العقل وحده هو الميزان يجعل للعقل سلطانًا يحكم به على أمور قد لا يدرك كنهها وعاقبتها، وقد تخرج بعض هذه الأمور عن نطاقه ومجاله.

٤- حكم العقل لا يكون نهائيًّا، بل يكون محل اختلاف ولا يتوافق مع الحكم الإلهي.

الضمير هو: القوة الخفية النابعة من نفس الإنسان التي تبين له طريق الخير، وتدفعه إلى سلوكه، وتبين له طريق الشر وتحذره منه. أو هو: قوة فطرية أودعها الله جسم الإنسان؛ ليميز بها الخير من الشر.

ماهيته: اختلف العلماء في حقيقته:

١- المذهب الأول يرى: أنه حاسة من الحواس كالسمع.

٢- المذهب الثاني يرى: أنه غريزة فطرية أودعها الله جسم الإنسان ليميز بين الخير والشر.

٣- هو العقل.

٤- يرى أنه قوة في الإنسان نشأت من مجموعة من العوامل والخبرات المتعددة كخبرة الجنس الموروثة، وخبرته الشخصية، وخبرته العلمية، وهذا هو الأصح.

مظاهر الضمير:

١- عاطفة الرضا بالواجب المؤدى، وهي إحساسه بمتعة إذا أدى عملاً أخلاقيًّا مرغوبًا فيه.

٢- عاطفة التأنيب: وهي إحساس الإنسان بحزن عميق وتأنيب شديد إذا أدى عملاً ليس أخلاقيًّا.

٣- عاطفة الندم: وهو امتزاج عاطفة الرضا والتأنيب.

الفرق بين العقل والضمير: العقل: يصدر أحكامه في وضوح بعد دراسة العوامل المختلفة التي أثرت في موضوع الحكم.

أما الضمير: فيجعل الإنسان لا يفطن لحيثيات الحكم لأسباب هي:

١- البيئة .

٢- الانفعالات والعواطف النفسية .

٣- العادات السيئة.

٤- الجهل أو الرقي العلمي.

٥- المصلحة الشخصية.

تربية الضمير: اختلف الباحثون حول إمكانية تربية الضمير بالتوجيه والإرشاد إلى:

١- الفريق الأول: يرى أنه ثابت لا يتغير ولا يتأثر، وما يحصل للإنسان من انحرافات راجع إلى ضعف في العزيمة، وهذا الرأي خطأ لاختلاف الضمائر بين الأشخاص.

٢- يرى أن الضمير أكذوبة كبرى وهو خدعة من الضعفاء ليقيدوا بها الأقوياء وهذا خطأ.

٣- يرى أنه مكتسب من البيئة والمجتمع، وعليه فإن الإنسان يولد بلا ضمير وهذا خطأ.

٤- الراجح ما ذهب إليه البعض من أن الضمير يمكن تربيته؛ لأنه استعداد فطري يولد به الإنسان. ومع هذا فإنه يمكن أن ينحرف لأمور هي:

١- المنفعة الذاتية (كمن يتعامل بالربا لإباحة دار الإفتاء لها).

٢- العادات القبيحة كشرب المخدرات .

٣- البيئة كعادة وأد البنات، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨].

٤- العواطف والانفعالات: كمن يمنع ولده من المدرسة؛ لأن المدرس يضربه.

عدم صلاحية الضمير أن يكون أساسًا للأخلاق للأمور التالية:

١- أحكام الضمير غير ثابتة، بل هي متغيرة من زمان لآخر ومن مكان لآخر، ومن شخص متعلم إلى شخص جاهل.

٢- أحكامه أحيانًا تكون مبهمة لا وضوح فيها.

٣- أحكامه كثيرًا ما تتأثر بالعواطف والانفعالات والعادات والتقاليد والمصالح الشخصية فتضله.

٤- أحكامه تتأثر بالخرافات والأوهام.

٥- كلمة الضمير لم ترد في القرآن، ولا في معاجم لغة العرب، ولم تكن مصدرًا للأخلاق إلا في عصر النهضة الأوربية، فأطلقوها بدلاً من الدين، واستخدمت الكنيسة هذا اللفظ لهدم الدين.

العُرف: هو مجموعة القواعد التي درج عليها الناس جيلاً بعد جيل والتي يجب احترامها خشية الجزاء الاجتماعي إذا خالفوها.

العادة: هي تكرار العمل حتى يصير الإتيان به سهلاً. وهي تحصل بأمرين:

١- ميل النفس إليه .

٢- تكرار إجابة هذا الميل كالتدخين -أبعدنا الله عنه-.

خصائص العادة:

١- السهولة: كتعلم الصبي المشي يكون صعبًا في البداية ومع التعود يكون سهلاً.

٢- توفير الزمن والانتباه: كتعلم الكتابة، فإنه في البداية يأخذ وقتًا كبيرًا ثم بعد ذلك يقل الوقت.

ولا يصلح العرف أن يكون مقياسًا للأخلاق للأمور الآتية:

١- اختلاف العرف باختلاف الزمان والمكان، فعرف المسلم غير عرف الكافر، فهو كالريح إن مرت على مكان طيب فهي طيبة، وإلا فلا.

٢- التمسك به جمود ورجعية ومعوق للتقدم.

٣- عدم اتفاق كثير من العادات مع أمور الدين.

٤- توبيخ القرآن لمن اتخذوا العرف مصدرًا لسلوكهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [البقرة: ١٧٠].

القوانين الوضعية: هي: مجموعة الأوامر والنواهي التي وضعها البشر لأنفسهم فكل أمة لها قوانينها الخاصة بها التي وضعها الحاكم مباشرة بواسطة الهيئة التشريعية ثم يطيعها الناس.

خصائصها (مميزاتها):

١- فيها طابع الشدة وإجابة التنفيذ.

٢- تتغير تبعًا للتقدم الذي يطرأ على المجتمع

٣- هذه القوانين لا يؤاخذ بها إلا من عرفها ثم يجب نشرها.

٤- يستطيع الإنسان مخالفتها إذا كان مستعدًّا للعقاب.

القوانين الأخلاقية: هي مجموعة القواعد الأدبية التي تنظم سلوك الناس في ظروف الحياة المتنوعة.

خصائصها (مميزاتها):

١- إنها ثابتة لا تتغير فالخيانة قديمًا هي الآن وكذا الكذب والصدق... إلخ.

٢- إنها تفرض نفسها على الناس بواسطة الضمير.

٣- إنها واضحة المعالم يفهمها الناس جميعًا على السواء.

٤- إنها إلزامية دون إجبار من أحد.

٥- إنها عملية في جميع الأحوال.

* * *

جدول الفرق بين القوانين الوضعية والأخلاقية

الوضعية	الأخلاقية
١- تتغير وتتبدل تبعًا للظروف والأحوال.	١- ثابتة ولكن الذي يتغير هو رأي الناس فقط.
٢- تكون صالحة إذا اتفقت مع مصلحة الأمة وإلا فلا.	٢- لا تكون إلا صالحة.
٣- تنظر إلى الأعمال الخارجية فقط.	٣- تنظر إلى الأعمال الخارجية والباعث عليها وتحكم عليها بالخير والشر.
٤- من وضع البشر .	٤- من وجدان البشر وضميرهم (من داخل الإنسان) أو من الله.
٥- لا يثيب المطيع ولا يشجعه ولكن يعاقب المتمرد فقط.	٥- يثيب المطيع بالرضا النفسي ويعاقب العاصي بالتأنيب الداخلي.
٦- سلطته خارجية .	٦- قوة نفسية داخلية.
٧- يكلف الناس بالضروريات كحفظ النفس والمال والعرض.	٧- يكلفهم بالضروريات والكماليات معًا.

عدم صلاحية القوانين الوضعية أن تكون مقياسًا للأخلاق للأمور التالية:

١- لأنها من وضع البشر ويختلف واضعوها في آرائهم وهم غير معصومين من الخطأ .

٢- لأنها عرضة للتغيير والتبديل .

٣- لأن غرضها خدمة السلطة أولاً، وتهمل الفرد .

٤- لأنها تقوم بتنفيذ سلطة خارجية فقط من سجن أو غيره.

السعادة العامة: يجب أن تكون مطمح نظر كل إنسان لا سعادته هو وحده، وكل ما يطلبه الإنسان هو أكبر قدراً من السعادة للنوع البشري والحكم على عمل بأنه خير أو شر، فإذا غلبت لذاته على آلامه كان خيراً، وإذا غلبت آلامه على لذاته فشرًّا، ويرى (ميل) أن من اللذات ما يفضل اللذات الأخرى، فاللذة النفسية أفضل من اللذة الجسمية.

- وهذا المذهب لا يصلح أن يكون مقياسًا للأخلاق لما يأتي:

١- إنه من الصعب الوقوف على نتائج العمل، فقد نرى عملاً ينفع أمتنا ويضر الأجانب، أو ينفع الجيل المعاصر دون السابق.

٢- مقياس السعادة العامة غير ثابت، ويختلف من شخص لآخر.

٣- القول بأن غاية الإنسان الوصول إلى اللذة والبعد عن الألم يحط قيمة الإنسان الذي هو خليفة الله.

٤- إنه يفسح المجال أمام الأثرة والأنانية ويقضي على صفات طيبة مثل الكرم.

٥- اتخاذها مقياسًا للأخلاق يقضي بأن هناك لبس بين الحق والباطل، فطالما جر الباطل إلى لذة.

٦- القرآن وبَّخ من اتخذ هذا المذهب، فقال: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [النور: ٤٨].

ذهب (أبيقور) إلى أن السعادة الشخصية وهي أن يجري كل إنسان وراء لذاته، فالأعمال عنده لا تُقاس بالآلام واللذات الوقتية فحسب، بل الواجب أن يرمي الإنسان بنظره إلى جميع حياته وما يتبعها من لذة وألم، ولهذا يقول:

١- خذ اللذة التي لا يعقبها ألم.

٢- اجتنب الألم الذي لا يستتبع شيئًا من اللذات، بمعنى: فر من اللذة الحسية سريعة الزوال إذا كانت ستفقدك لذة عقلية باقية.

٣- فر من اللذة التي تفقدك لذة أعظم أو تعقب لك ألمًا بأكثر ما فيها من لذة.

٤- تقبل الألم الذي يخلصك من ألم أكبر كشرب الدواء المر ليخلصك من المرض.

وهذا هو مذهب المنفعة، وهو لا يصلح أن يكون مقياسًا للأخلاق لما يأتي:

١- إنه يجعل الإنسان يفكر وينظر إلى نفسه فقط دون الناس فلا يتألم لأحد.

٢- مادة اللذة الشخصية عنده هي الأساس، فمن الصعب عد الإحسان فضيلة عنده.

٣- هذا المذهب يستلزم احتقار ناس ضحوا بلذاتهم في سبيل سعادة الآخرين.

المعيار الديني هو: مجموعة الأوامر والنواهي التي شرعها الله لعباده.

خصائص القوانين الإلهية وصلاحيتها لأن تكون مقياسًا للأخلاق:

١- تمتاز هذه القوانين بالعموم والشمول فهي تشمل:

علاقة الإنسان بربه: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٤].

علاقة الإنسان بنفسه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥].

علاقة الإنسان بأهله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦].

علاقة الإنسان بالناس: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ...﴾ [المائدة: ٢].

علاقة الإنسان بالحيوان: قال ﷺ: «**دخلت امرأة النار في هرة حبستها...**».

٢- إنها تحكم على أفعال الناس بالشر أو الخير بل وتحكم على نواياهم ومقاصدهم، قال ﷺ: «**إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم حبسهم العذر**».

٣- إنها لا تتعارض مع العقل السليم ولا مع القلب الواعي، قال ﷺ: «**البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما لم تسكن إليه النفس ولم يطمئن إليه القلب، وإن أفتاك المفتون**».

٤- إنها صالحة لكل زمان ومكان، لما فيها من السهولة واليسر في التكليف،

قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة : ١٨٥] ، ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾.

٥- المسئولية في الأخلاق نوعان:

(أ) مسئولية شخصية: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦].

(ب) مسئولية جماعية، قال ﷺ: «إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه أوشك الله أن يعمهم بعقاب»(١).

٦- الأخلاق الإسلامية تجعل الجزاء نوعان:

(أ) جزاء دنيوي للأخيار ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٤]. ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

(ب) جزاء أخروي: للأخيار، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ [التوبة: ٧٢].

(جـ) جزاء دنيوي للأشرار: قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

(د) جزاء أخروي للأشرار، قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ [الحج: ١٩].

٧- الله هو الرقيب في الأخلاق الإسلامية ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

(٨) الأخلاق الإسلامية تنظر إلى الإنسان باعتباره مركب من شيئين:

(أ) جسد، وله حقوق، قال تعالى: ﴿وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧].

(ب) الروح وله متطلبات: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨].

---

(١) صحيح.

الإلزام الخلقي: هو العمل الأخلاقي الذي يبعث الوجدان على الإتيان به، أو هو كل عمل يتعين علينا أداؤه دون جبر أو قهر مهما كان في الأداء من جهد ومشقة.

مصادره:

١- مصدر خارج عن الإنسان وهو ثلاثة:

(أ) الوحي: هو المصدر الذي يجب الرجوع إليه ويشمل القرآن والسنة. وهي قول النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته وصفاته.

(ب) الإجماع: هو إرجاع الإلزام إلى سلطة المجتمع، قال ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون**»، وهم أهل السنة والجماعة.

(جـ) القياس: هو أن يقيس الإنسان الحادثة الواقعة الآن على ما يشابهها ويماثلها مما ورد في القرآن والسنة، وعلى من يقوم به أن يتعلم علم المنطق حتى لا يقع في المغالطات.

٢- مصدر داخل الإنسان، وهو قسمان:

(أ) العقل: وهو القوة المدركة في الإنسان التي يميز بها الخير من الشر، فأُعطي الإنسان العقل ليميز، فمن آثر طريق الخير أفلح، ومن آثر طريق الشر خسر: **﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۝٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾** [النازعات: ٣٧-٤١].

(ب) الضمير: وهو حاسة أخلاقية يميز بها ما هو حسن عما هو قبيح، وقد جاء في القرآن بمعنى النفس: **﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾** [الشمس: ٧]، وورد بمعنى النفس اللوامة: **﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾** [القيامة: ٢]. والضمير له قوة سلطان على النفس ومحاسبتها: **﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَآءَهُمْ...﴾** [المجادلة: ٢٢]، ولقد ربط الله بين الضمير والعقل في الاستحقاق والجزاء فقال: **﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾** [الملك: ١٠].

شروط الإلزام الخلقي:

١- الاستطاعة: قال تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾، و﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

٢- السهولة واليسر، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال ﷺ: «إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه»، وقال تعالى: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

٣- الشمول والعموم لجميع المسلمين: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ [النساء: ١٣٥].

٤- الاتصاف بالقوة: وهي صفة أساسية في الإلزام الخلقي، قال تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [النور: ٤٨]، و﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١].

٥- الاتصاف بالثبات والدوام والاستمرار: فالقيم الدينية ثابتة لا تتغير بتغير الزمان والمكان؛ لأن مصدرها وهو الله لا يتغير، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ ...﴾ [آل عمران: ٨١].

٦- مراعاة أحوال الناس: يخفف عمن يحتاج إلى التخفيف: ﴿لَّيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ...﴾ [الفتح: ١٧].

٧- الإصابة في تمييز الخير والشر: فلا يخلط بينهما.

٨- تحديد تدرج الواجبات: وذلك لأن الإلزام في القرآن خير إلزامي وخير مرغوب، فمثلاً إمهال المدين العاجز عن السداد واجب، لكن إعفاءه نهائيًّا فضيلة. قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

المسئولية الخُلُقية: هي صلاحية الإنسان لأن يتحمل تبعات ما يصدر عنه من

أفعال، أو هي: التزام أدبي حر أمام قوة ذاتية دون خوف عقوبة أو انتظار مثوبة من الخارج.

شروطها:

١- أن يكون الإنسان قادرًا على التمييز بين الخير والشر تمييزًا واضحًا فيخرج الصبي والمجنون.

٢- النية والقصد: «**إنما الأعمال بالنيات**»، فمن خرج ليسرق جاره فوجده مستيقظًا فرجع لم يكن خيرًا، وكذلك من أعطى فقيرًا مالاً ليأكل به فشرب خمرًا بها فيأخذ بذلك خيرًا، ﴿**قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا**﴾ [سبأ: ٢٥].

٣- الحرية أو الإرادة: خرجت التي يُكره فيها الإنسان فلا يكون مسئولاً عنها، كمن أكره على شرب الخمر. قال تعالى: ﴿**مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ [النحل: ١٠٦].

٤- العلم بنتيجة العمل الذي يعمله: فلا حرج على من لا يعلم كمن يعيش في الصحراء ويأكل الخنزير ويشرب الخمر، قال تعالى: ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً**﴾ [الإسراء: ١٥]. والإعلام يتم عن طريقين:

١- هو ما أودعه الله في النفس الإنسانية من إمكانية معرفة الخير والشر والضمير.

٢- الوحي.

درجاتها: إذا توفرت في شخص كل الشروط السابقة كان مسئولاً عن عمله مسئولية كاملة، وإلا فلا يصير مسئولاً إلا بحسب ما توفر له من شروط، وتختلف الشروط باختلاف الأفراد وملابسات الأعمال.

الجزاء الخُلُقي: هو الإثابة على عمل الخير والعقوبة على عمل الشر.

حكمة مشروعيته: «خُلق الإنسان مُبتلى بالخير والشر وأمام هذه المحن منح الله الإنسان العقل ليتبين الهدى من الضلال، ويميز بينهما، وأرسل له رُسُلاً يوضحون

ما خفي على عقله، ويؤكدون ما وصل إليه عقله من صواب أو خطأ، وهذا يتفق مع شريعة العدل، فالعدالة توجب أن يكون الجـزاء من جنس العمل، فيثاب الخيِّر ويعاقب الشـرير، هذه القوة تمسك بزمـام النفس أن تجري للشر وتدفـعها للخـير وتحمِّل الإنسان تبعات ما يصدر عنه من أفعال، ثم تضع له الجزاء المناسب»[1].

أنواع الجزاء:

١- **الجزاء الطبيعي**: يشمل كل ما يترتب على انتهـاك الإنسان لنواميس الطبيعة كمن يستحم في مـاء الترع، فهذا ينال العقاب الطبـيعي بخلاف الذي يمشي على سنن الطبيعة، وينال الثواب الطبيعي.

٢- **الجزاء الاجتـماعي**: يتوقف على الرأي العـام والعرف والتقاليـد والعادات والذي يخرج عن ذلك يلقى جزاءه.

٣- **الجزاء القانوني أو السياسي**: هو الشرائع الوضعية وقـوانينها، فهي تعاقب من يخالفـها ولا تثيب من يوافقـها إلا نادرًا، ويدخل في هذا التشـريع الإسلامي ومن جزاءاته الحدود كحديث أسامة بن زيد في المخزومية.

٤- **الجزاء الأخلاقي والوجداني**: يتعلق بالضمير فالذي يفعل الخير يتمتع براحة ضمـيره، والذي يرتكب الإثم يقع في المحظـور، وإساءة الشرير لابد أن تعـقبـها التوبة.

٥- **الجزاء الديني (الإلهي)**: يختص بالخضوع لأوامر الله والانتهاء عن نواهيه، ولقـد أشار الـقرآن إلى الارتبـاط بين الإيمان والعـمل: ﴿**وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَـمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ [البقرة: ٢٥]، وهو ينقسم إلى:

١- صنف يطلب الله منا فعله، كقواعد الإسلام.

٢- صنف يأمرنا الله بالتحلي به وينهانا عن التخلق بضده وهي جملة النصائح الإسلامية كالصدق، والأمانة، والصبر، والرحمة، والكرم، والشجاعة، والحلم،

---

(١) انظر كتاب «الأخلاق» للدكتور حسن جبر- باختصار.

والوفاء، والإيثار، والإحسان، والعفو، والقناعة، والستر، والتودد، والرفق.

الفضيلة: عند سقراط هي (المعرفة)، وعند أفلاطون (توافق العادة والعقل)، وعند أرسطو تلك الكيفية الأخلاقية التي تصير الإنسان رجلاً صالحًا (رجل خيِّر) وتتم عنده باتباع الوسطية. وعند السوفسطائيين هي (كمال استعداد كل كائن فيما خلق له) وعند الرواقيين هي (التوفيق بين الإرادة والعقل توفيقًا محكمًا). وفي العصور الوسطى هي (الطاعة التامة والخضوع المطلق لتعاليم المسيحية)، وفي العصور الإسلامية: (القول والفعل الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي، بالطريقة التي تنبغي). وفي العصور الحديثة: يؤثرون مذهب أرسطو، فهي عند البعض (عادة السير على مبادئ الآداب، وإرادة الخير، ومجانبة الشر)، وعند البعض (اتباع ما يجب كما يجب بإرادة ثابتة لا تتزعزع).

شروطها:

١- العلم: أن يكون عالمًا بما يعمل .

٢- الإرادة: يفعل الشيء بإرادته واختياره ولا يكره.

٣- الثبات: بأن تكون الفضيلة متأصلة في النفس فلا تتغير بتغير الأحوال.

٤- أن يبتغي بعمله وجه الله تعالى.

صفاتها:

١- إنها مكتسبة وليست فطرية فينا، ومن أهم عوامل اكتسابنا لها التربية، خصوصًا التربية الدينية والبيئية التي تحيط بالإنسان وتعود الإنسان على فعلها، والمحافظة عليها دون إهمالها، واكتساب الفضائل إما أن يكون آليًّا من غير فهم لقيمة ما يفعل ولا قصد له كالصبي الذي يكتسب الفضائل في حداثته عن طريق تقليد غيره أو عن طريق حمله على فعلها بالترغيب والإغراء أو بالزجر والتهديد، وإما مكتسبة عن فهم وإدراك لقيمة العمل الفاضل وقصده لفعله، وذلك إنما يتم بتعلم أصول الأخلاق المستقاة من التشريع الإسلامي؛ لأنها توضح للإنسان منطق الحكمة وتبين له لماذا يفعل ما يفعله؟ أو لماذا يترك ما يتركه؟

٢- إن الفضيلة تكون في حد وسط بين رذيلتين كالكرم الذي يقع بين التبذير والتقتير، فلو خرج من مكانه مال إلى إحدى هاتين الرذيلتين وفسدت طبيعته.

٣- إن الفضيلة ترتبط ارتباطًا وثيقًا باللذة والسرور، فالإنسان الفاضل لا يفعل الفضيلة مجبرًا ولا تحت تأثير نوع من الضغط والخوف، وإنما يفعلها باختياره وإرادته ورضاه راغبًا في هذا العمل مسرورًا به منجذبًا إليه.

أنواعها: عند اللاهوتيين:

١- الفضائل الدينية وموضوعها (الله).

٢- الفضائل العقلية وموضوعها (ملكات الإنسان العقلية).

٣- الفضائل الأخلاقية وموضوعها (سلوكيات الإنسان العاقل).

وعند الفلاسفة:

١- فضائل شخصية، كالعفة والشجاعة.

٢- فضائل اجتماعية تتعلق باحترام نظام الأسرة والمهنة والوطن.

٣- فضائل عامة تتعلق بتنظيم العلاقات بين الناس كالأمانة.

* * *

الخاتمة

بعد هذه الرحلة الجميلة في بستان الأخـلاق الكريمة، والفضائل الحميدة، ها نحن قد أنخنـا مطايانا، وحططنا رحالنا، وجلسنا نرسم الأسس الـتي عُني بها هذا الكتاب.

فالكتـاب الذي بين أيدينا شرح أخلاق المـؤمن المستقـاة من الدين الإسلامي الحنيف، وأضاف إلى ذلك أمورًا أخرى متعلقة بأخلاق الإسلام.

فأفصح الكتاب عن الحـقوق المتعلقة بالآخرين؛ كحـقوق الوالدين، وحقوق الجار، وحـقوق الزوجين، وحقوق الأبناء علـى الآباء، وحقوق العلماء وكـبار السن، وحق الفقير، وحق الحيوان.

وأشار إلى الآداب الإسلامية؛ نحو:

آداب الأكل، وآداب اللبـاس، وآداب الـسـلام، وآداب الضـيـافـة، وآداب السفر. . .

ولم يقتصر الكتاب على عرض الأخلاق الحميدة بل أوضح الأخلاق السيئة، ورسم الطريق لعـلاجهـا، وبذلك يكون قد أفـصح عن الداء والدواء، والمرض والعلاج، والعلة وسبب الشفاء.

ولا ريب أن عمل الإنسان لا يخلـو من النقص والتقصير، فـما كان في هذا من توفيقٍ فمن الله جلّ ثناؤه، وما كان من خطأ أو زلل أو جهل أو نسيان فمني ومن الشيطان.

وآخرًا: أيها القارئ الكريم أوصيك بأن تقوم بواجبك نحو هذا المؤلَّف قراءةً، وتعلُّمًا، وعملاً، ودعوةً، ولا تنساني من صالح دعائك.

وأهدي كتابي هذا لأمي وأبي وزوجي وابنتيّ روضة وشفاء وولدي صهيب.

* * *

د/ مصطفى مراد صبحي محمد

أستاذ العقيدة والمذاهب والأديان المشارك

بكلية الدعوة الإسلامية- جامعة الأزهر

تليفون نقَّال - ٠١٢٤٧٦٧٣١٢

١/ ١٠/ ٢٠٠٤م

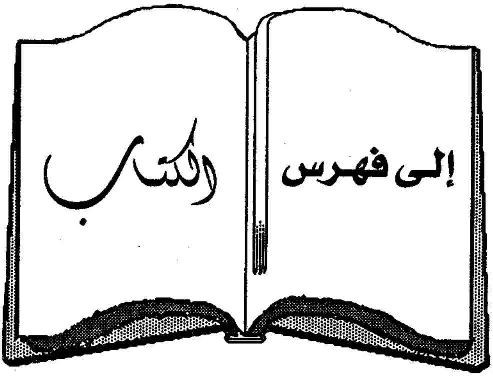
إلى فهرس
الكتاب

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة.	٣
فضل حُسْن الخُلُق.	٩
سوء الخُلُق يدمر الحسنات.	١٢
علاقة الأخلاق بالعقيدة والعبادة.	١٤
علاقة الأخلاق بالعقيدة.	١٤
علاقة الأخلاق بالعبادات.	١٤
حُسْن الأخلاق سبب في طهارة القلوب.	١٦
من أقوال العلماء والحكماء في حُسْن الخُلُق.	١٧
خصائص الأخلاق في الإسلام.	١٩
الخصيصة الأولى: الربانية.	١٩
الأخلاق وأسماء الله الحسنى.	١٩
الخصيصة الثانية: العالمية والشمول.	٢٠
الخصيصة الثالثة: الإنسانية.	٢١
الخصيصة الرابعة: الوسطية (التوازن).	٢٢

الخصيصة الخامسة: الواقعية.	٢٢
الخصيصة السادسة: المثالية.	٢٢
صلاح الدين مَثَل أعلى في التسامح مع الأعداء.	٢٤
الخصيصة السابعة: الجزاء.	٢٥
الخصيصة الثامنة: الرُّقي والتقدم.	٢٦
علامات حُسْن الخُلُق.	٢٧
درجات حُسْن الخُلُق.	٢٨
الفرق بين الفُتُوَّة والمروءة.	٢٨
أركان حُسْن الخُلُق.	٢٩
أركان الأخلاق السافلة.	٣٠
الخُلُق المحمود بين خُلُقين ذميمين.	٣١
١- الصدق.	٣٩
الصدق في القول.	٤٣
الصدق في العزم.	٤٦
الصدق في النية والإرادة.	٤٧
الصدق في الأعمال.	٤٧
الصدق في مقامات الدين.	٤٨
التائب العائد الصادق كعب بن مالك.	٤٩
ماعز والغامدية رضي الله عنهما صادقا التوبة.	٥٥
ونقيض الصدق الكذب.	٥٦

درجات الكذب.	٥٨
أولها: الكذب المؤدي إلى الكفر.	٥٨
وثانيها: كذب من أكبر الكبائر.	٥٨
وثالثها: كذب من الكبائر.	٥٩
ورابعها: كذب من الصغائر.	٥٩
في المعاريض مندوحة.	٦١
٢- الصبر.	٦٢
أنواع الصبر.	٦٦
أولاً: الصبر على الطاعة.	٦٦
ثانيًا: الصبر عن المعصية.	٦٧
ثالثًا: الصبر على الابتلاءات.	٦٨
صبر ورضا وخشوع.	٧٠
صبر أسد بن حضير على مات زوجته، والصبر على فقد الزوجة.	٧١
الحال من بعضه.	٧٢
٣- العدل.	٧٥
عدل الإنسان مع نفسه.	٧٦
عدل الإنسان مع أسرته وبين رعيته.	٧٦
العدل مع اليتامى.	٧٦
العدل بين المتخاصمين.	٧٦
العدل في الحكم.	٧٦

العدل مع أهل الكتاب.	٧٦
العدل مع الأعداء.	٧٦
العدل في المعاملات التجارية والمالية.	٧٧
العدل في الشهادة وفي القول مطلقًا.	٧٧
العدل بين العبد وخالقه.	٧٧
العدل مع الزوجات والأولاد.	٧٧
عدل النبي ﷺ.	٧٨
العدل العمري.	٧٩
وانظر إلى هذه القصة التي تكتب بماء الذهب.	٨٠
عدل ورحمة.	٨٢
عدل وورع.	٨٨
عدل عثمان.	٨٩
٤- الحياء.	٩٠
علامات الحياء.	٩٤
أقسام الحياء.	٩٤
حياء العبودية.	٩٤
حياء الجناية.	٩٥
حياء التقصير.	٩٦
حياء الإجلال والتعظيم.	٩٧
حياء الحشمة والأدب.	٩٨

عائشة رضي الله عنها تستحي من الأموات!!. ٩٩
وفاطمة رضي الله عنها من الحياء بمكان. ٩٩
حياء الكرم. ١٠١
حياء الاستحقار واستصغار النفس. ١٠١
حياء المحبة. ١٠١
حياء الشرف والعزة. ١٠٢
حياء المرء من نفسه. ١٠٢
٥- الغيرة. ١٠٦
٦- الستر. ١١٠
٧- توقير العلماء. ١١٤
٨- الحِلْم. ١٢٠
٩- الرحمة. ١٣٥
١٠- العفو. ١٤٤
١١- التواضع. ١٤٨
١٢- الأمانة. ١٧٢
١٣- الوفاء. ١٨٦
١٤- السماحة. ٢٠٤
١٥- الشجاعة. ٢٠٧
١٦- العزة. ٢٣٩
١٧- الكرم. ٢٤٩

١٨- الإيثار.	٢٦١
١٩- القناعة.	٢٦٦
٢٠- الورع.	٢٧٥
٢١- الأدب.	٢٨٣
٢٢- الزهد.	٢٨٧
٢٣- الاستقامة.	٢٩٦
٢٤- طهارة القلب.	٣٠٢
الحقد.	٣٠٢
صفاء القلوب.	٣٠٤
ثمار الحقد.	٣٠٦
كيفية دفع الحقد.	٣٠٧
البغض في الله.	٣٠٨
٢٥- جمال الظاهر.	٣١٠
وجمال الظاهر يتجلَّى في.	٣١٠
(أ) جمال الثياب.	٣١٠
(ب) طيب الرائحة.	٣١٢
(جـ) بياض الأسنان.	٣١٤
(د) خصال الفطرة.	٣١٤
الوضوء.	٣١٦
الغُسْل.	٣١٦

النعل.	٣١٧
إكرام الشعر.	٣١٧
جمال الأموات.	٣١٨
ومن الجمال: تجميل البيت وتنظيفه وإحسان ترتيبه.	٣١٩
جمال الشارع.	٣١٩
٢٦- أدب الحديث.	٣٢١
آداب الكلام.	٣٢٢
أولاً: آداب قبل الكلام.	٣٢٢
ثانيًا: آداب أثناء الكلام.	٣٢٣
أمراض اللسان.	٣٢٧
ثالثًا: آداب بعد الكلام.	٣٣٦
٢٧- طلاقة الوجه.	٣٣٨
٢٨- الرفق.	٣٤٠
مظاهر الرفق.	٣٤٢
١- الرفق بالنفس في أداء العبادات.	٣٤٢
٢- الرفق مع الخلق كافة.	٣٤٢
٣- الرفق بالعصاة.	٣٤٣
٤- الرفق بالمدعوين.	٣٤٤
زعيم آمن عن طريق الرفق.	٣٤٤
٥- رفق الحكام بالرعية.	٣٤٦

الفاروق (الرفيق بالرعية).	٣٤٧
٦- الرفق بالفقراء.	٣٤٨
٧- الرفق بالعجائز.	٣٤٩
أبو بكر الرقيق الرفيق.	٣٤٩
٨- من الرفق الإحساس بالآخرين.	٣٤٩
٢٩- التودد (الألفة) (الإخاء).	٣٥١
أشكال التودد.	٣٥٢
المشي في حاجة المسلم.	٣٥٧
عدم إغضاب المسلم.	٣٥٨
حقوق المسلم على أخيه المسلم.	٣٦١
حقوق الآباء والأرحام.	٣٦٦
صلة الرحم واجبة ولو كانت الرحم كافرة.	٣٦٨
ألوان البر.	٣٧٠
حق الجار.	٣٧١
حقوق الزوجين.	٣٧١
٣٠- التماس الأعذار.	٣٧٣
أعذار التخلف عن الجماعة.	٣٧٧
أعذار الإفطار في نهار رمضان.	٣٧٨
ولعدم الحج أعذار.	٣٧٨
٣١- مصاحبة الصالحين.	٣٨٠

الكلب يتأثر بالأصدقاء. ٣٨٠
شروط مَنْ تختاره صاحبًا. ٣٨٣
الحب في الله. ٣٨٧
٣٢- التنافس في الخير (النشاط). ٣٩٠
ومن المسابقة إلى الخيرات الإقدام على الأعمال العظام. ٣٩٢
المسارعة إلى النوافل. ٣٩٣
الطاعات التي يُستحب فيها العجلة. ٣٩٥
المؤمن مسارع إلى الخيرات ولو قامت القيامة. ٣٩٨
علو همة الأطفال. ٤٠٠
المحافظة على أعمال الطاعات. ٤٠١
٣٣- الحرص على الوقت. ٤٠٢
وأسعد الناس مَنْ شغل وقته بالتقوى والعمل الصالح. ٤٠٣
٣٤- التعلم. ٤٠٨
رغبة الصحابة في التعلم. ٤٠٨
الرحلة في طلب العلم. ٤١٠
العلم مع التكسب. ٤١١
الجمع بين الجهاد في سبيل الله والعلم. ٤١١
آداب العالم. ٤١٣
آداب طالب العلم. ٤١٤
العمل بالعلم. ٤١٤

بحر العلوم. ٤١٥
لو سمع النصارى تفسيره لأسلموا. ٤١٦
نساء فقيهات عالمات. ٤١٦
٣٥- الإحساس. ٤١٩
مَنْ سرَّته حسنته وساءته سيئته فهو مـؤمن. ٤١٩
مظاهر الإحساس مع الخَلْق. ٤١٩
وفي آداب اللباس. ٤٢١
الإحساس بين الزوجين. ٤٢٢
الإحساس بالجار. ٤٢٣
الإحساس بالخادم والعامل. ٤٢٣
حاتم الأصم أستاذ في الإحساس. ٤٢٤
الإحساس بالصديق. ٤٢٤
استشعار الضيف بمضيفه. ٤٢٤
الإحساس في العبادات. ٤٢٥
الإحساس بالحيوان. ٤٢٨
٣٦- الاتحاد. ٤٢٩
المؤمن يُجمِّع ولا يُفرِّق، ويوحِّد ولا يعدد. ٤٢٩
سر الهزيمة وسبب الخسران. ٤٢٩
اجتماع الكلمة أول وصية نبوية. ٤٣٠
اجتـماع القلوب ووحدة الصفـوف قوة وعزة ونصر على شـياطين

الإنس والجن.	٤٣١
اجتماع الكلمة واتحاد الصف على الصراط المستقيم رضا الله جلّ ثناؤه.	٤٣١
آداب الاختلاف وقواعده.	٤٣٦
٣٧- النظام.	٤٣٧
٣٨- الأناة.	٤٤٢
٣٩- الإخلاص.	٤٤٤
نيات عظيمة في الزواج.	٤٤٥
إتقان العمل = الإخلاص.	٤٤٦
المراقبة.	٤٤٧
٤٠- الإيجابية (الرجولة).	٤٥٠
إيجابية المدافع عن موسى.	٤٥٢
الإيجابية العالية في مؤمن آل فرعون.	٤٥٢
إيجابية الجن.	٤٥٣
إيجابية الهدهد.	٤٥٤
٤١- القوة.	٤٥٦
أولاً: القوة الإيمانية.	٤٥٦
سيدنا علي رضي الله عنه مَثَل عالٍ في التوكل.	٤٥٧
أركان التوكل.	٤٥٩
ثانيًا: القوة البدنية.	٤٦٠

الغذاء الصحي.	٤٦١
الوقاية خير من العلاج.	٤٦٢
٤٢- الثبات.	٤٦٤
٤٣- الحكمة والكياسة.	٤٦٦
درجات الحكمة.	٤٦٦
أخلاق أخرى.	٤٦٩
٤٤- الرأفة.	٤٦٩
٤٥- لين الجانب.	٤٦٩
٤٦- خفض الجناح.	٤٧٠
٤٧- اللين.	٤٧٠
٤٨- ضبط النفس.	٤٧٠
٤٩- التعاون.	٤٧٠
٥٠- الإحسان.	٤٧١
٥١- المروءة.	٤٧٤
٥٢- الأصالة.	٤٨١
علم الأخلاق.	٤٨٦
موضوع علم الأخلاق.	٤٩١
وسائل تهذيب الأخلاق.	٤٩١
علاقة علم الأخلاق بالعلوم الأخرى.	٤٩٤
أولاً: علم الأخلاق وعلم النفس الاجتماعي.	٤٩٤

ثانيًا: علم الأخلاق وعلم الاجتماع.	٤٩٤
ثالثًا: علم الأخلاق والمنطق.	٤٩٤
رابعًا: علم الأخلاق وعلم السياسة.	٤٩٤
المعيار الخُلُقي.	٤٩٥
هل العقل يصلح أن يكون مقياسًا للأخلاق؟.	٤٩٥
الضمير هو.	٤٩٦
مظاهر الضمير.	٤٩٦
الفرق بين العقل والضمير.	٤٩٦
تربية الضمير.	٤٩٧
العُرْف.	٤٩٨
العادة.	٤٩٨
خصائص العادة.	٤٩٨
القوانين الوضعية.	٤٩٩
القوانين الأخلاقية .	٤٩٩
الفرق بين القوانين الوضعية والأخلاقية.	٥٠٠
السعادة العامة.	٥٠١
المعيار الديني.	٥٠٢
الإلزام الخُلُقي.	٥٠٤
مصادر الإلزام الخُلُقي.	٥٠٤
شروط الإلزام الخُلُقي.	٥٠٥

المسئولية الخُلُقية.	٥٠٥
شروطها.	٥٠٦
درجاتها.	٥٠٦
الجزاء الخُلُقي.	٥٠٦
حكمة مشروعيته.	٥٠٦
أنواع الجزاء.	٥٠٧
الفضيلة.	٥٠٨
شروطها	٥٠٨
صفاتها.	٥٠٨
أنواعها.	٥٠٩
الخاتمة.	٥١١
الفهرس.	٥١٣

* * *